المركز القومي للترجمة

خوان مارسيه

الأمسيات الأخيرة مع تيريسا

ترجمة: آمال عبد الحميد
بسمة محمود
سالى وهدان

مراجعة وتقديم: محمد أبو العطا



2551
سلسلة
الإبداع
القصصي

الأمسيات الأخيرة مع تيريسا

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2551
- الأمسيات الأخيرة مع تيريسا
- خوان مارسيه
- آمال عبد الحميد، وبسمة محمود، وسالى وهدان
- محمد أبو العطا
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:

Últimas Tardes Con Teresa

Por: Juan Marsé

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الأمسيات الأخيرة

مع تيريسا

تأليف : خوان مارسيه

ترجمة : آمال عبد الحميد

بسمة محمود

سالى وهدان

مراجعة وتقديم : محمد أبو العطا

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مارسيه، خوان، ١٩٣٣
الأمسيات الأخيرة مع تيريسا
تأليف : خوان مارسيه؛ ترجمة : آمال عبد الحميد ، بسمة محمود، سالى وهدان ؛
مراجعة وتقديم : محمد أبو العطا.
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٥
٣٧٦ ص ، ٢٤ سم
١ - القصص الإسبانية
(أ) عبد الحميد ، آمال (مترجمة)
(ب) محمود، بسمة (مترجمة مشاركة)
(ج) وهدان، سالى (مترجمة مشاركة)
(د) أبو العطا ، محمد (مراجع ومقدم)
(هـ) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع / ١٩٣٠٧ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى : 1 - 853 - 718 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

مقدمة

يحوى هذا المجلد ترجمة لرواية "الأمسيات الأخيرة مع تيريسا"، أولى روائع أعمال خوان مارسيه، أحد كبار رواد المدرسة القطلونية العظيمة فى الرواية التى تجمع اتجاهات شتى: من مانويل باثكث مونتالبان وإدواردو مندوثا إلى تيرينثى موش.

وأما خوان مارسيه فمتفرد فى فنه الروائى الأميل إلى مجاوزة الطروح التقليدية للواقعية السابقة عليه بتصويرها كاريكاتوريًا ووجوديًا وباللجوء إلى العديد من المونولوجات الداخلية والجمل الاعتراضية التى تقيم سياقًا موازيًا لخط السرد الأساسى أو لمضارع الحكي.

ولد خوان فانكا روكا فى برشلونة عام ١٩٣٣، وتوفيت والدته عند ولادته، واضطر والده الذى كان يعمل سائق سيارة أجرة إلى التنازل عنه بعد أسابيع من مولده ليتبناه زوجان لا ينجبان فيحمل لقب أسرته الجديدة ويصير اسمه خوان مارسيه. وتحول غياب الأب إلى أحد النصوص الغائبة فى أغلب أعمال الكاتب.

قضى سنوات عمره الأولى بين برشلونة وقريتين بمقاطعة طركونة حيث يقطن جداه، وتلقى تعليمًا ابتدائيا حتى سن الحادية عشرة، بيد أننا لا يمكننا أن نصفه فى تلك الفترة بالتلميذ المجتهد بل -كعادة الصبية الذين على شاكلته حينئذ- كان يقضى جل وقته فى الشارع، شوارع جراثيا وجيناردو وجبل الكرمل، إلخ، التى شكلت فيما بعد فضاءه السردي. لم تتح له الحياة فى أحياء برشلونة الفقيرة إلا مطالعة روايات المغامرات ومشاهدة عروض السينما فى دور العرض الصيفية بالحى، والتى تحولت إلى مكون رئيس فى تشكيله الأدبي.

بعد الحرب الأهلية، عانت أسرته من مرارة الهزيمة فقد كان أقرب إلى الفريق الجمهوري الذى هزم فى الحرب، وإلى الحركات الفوضوية المناوئة لحكم فرانكو وشاهدا على بعض أحداث التمرد فى برشلونة، والتى قمعت بطريقة وحشية. وانتمى والده بالتبنى إلى اليسار القطلونى وإلى الحزب الاشتراكى القطلوني.

فى سن الثالثة عشرة وحتى السادسة والعشرين عمل صبيا ثم صانع حلى فى متجر للمشغولات الذهبية. وهى الفترة التى شهدت أيضا مرحلة تعلمه الذاتي؛ فقد شهد عام ١٩٥٧ بداية إرهاصاته فى الكتابة، فقد نشرت له مجلة "إنسولا" الأدبية الشهيرة قصصه الأولى. وفيما كان يقضى فترة الخدمة العسكرية بدرت إليه فكرة أولى رواياته، "حبساء مع لعبة واحدة" (١٩٦٠)، وتعكس مناخ الضجر واليأس الذى يصيب مجموعة من الشباب الفقير الذى قضى شظف العيش على آماله وطموحاته. فى تلك الفترة نصحه صديقه الشاعر الكبير خيمى خيل دى بييدما **Jaime Gil de Biedma** بالسفر إلى باريس ليوسع من مداركه وثقافته. هناك، عمل فى قسم الكيمياء الحيوية فى معهد "باستير"، تحت إشراف البروفيسور جاك مونو **Jaques Monod**، حائز جائزة نوبل والمفكر اليسارى البارز.

فى عام ١٩٦٢ نشر رواية "هذا الجانب من القمر" التى تبرأ منها فيما بعد ولم يذكرها فى أعماله الكاملة.

بدءا من عام ١٩٦٥ توالت أعماله الروائية الشهيرة التى دشنها بـ"الأمسيات الأخيرة مع تيريسا" (١٩٦٥). ومنها: "حكاية ابنة العم مونتسى المريبة" (١٩٧٠)؛ "الفتاة ذات السروال الذهبي" (١٩٧٣)؛ "لو أخبروك أنى سقطت" (١٩٧٣)؛ "اعترافات لص (١٩٧٩)؛ "يوما ما سأعود" (١٩٨٢)؛ "الملازم الشجاع" (١٩٨٥)؛ "جولة فى حى جيناردو" (١٩٨٥)؛ "العشيق الثنائى اللغة" (١٩٩٠).

مع أوائل تسعينيات القرن الماضي، بدأت مرحلة التكريس فى حياة الكاتب، فقد حصل على جائزة اتينيوم أشبيلية عن رواية "العشيق الثنائى اللغة" (١٩٩١)، وجائزة النقد (١٩٩٤) عن رواية "سحر شنغهاي". ومع مقدم القرن الجديد حصل على جائزة الدولة فى الرواية فى اعتراف رسمى متأخر بموهبته وبمسيرته الأدبية الطويلة الحافلة

بالأعمال الروائية المتميزة. وفى عام ٢٠٠٨ حاز أرفع جائزة فى الآداب الإسبانية، جائزة ميجل دى ثربانتس.

ومازال مارسيه متجدد العطاء فقد نشر فى السنوات الأخيرة عددا من المجلدات من بينها أعماله القصصية الكاملة (٢٠٠٢)، وأخيرا روايته "كتابة الأحلام" (٢٠١١)، أهم رواياته التى تحمل صبغة ذاتية.

الأمسيات الأخيرة مع تيريسا

جائزة المكتبة الموجزة (١٩٦٥)

تقدم هذه الرواية الفريدة تشريحا دقيقا للمجتمع الإسبانى فى فترة ما بعد الحربين الأهلية الإسبانية والعالمية الثانية، خاصة فى مدينة برشلونة وضواحيها. وتقوم الأحداث على مرتكزين أساسيين، وهما الطبقة البرجوازية القطلونية وطبقة الفقراء فى الأحياء المعدمة فى جبل الكرمل وجيناردو، إلى آخره، بدءا من عام ١٩٥٦ .

بطل الرواية فتى فقير نزح إلىّ إقليم قطلونيا الغنى بحثا عن لقمة العيش. وهنا يطرح أديبنا قضية مهمة مازالت لها راهنيتها اليوم فى إسبانيا وقطلونيا فى العقد الثانى من القرن الحادى والعشرين: قضية الهجرة من الأقاليم الفقيرة إلى الغنية فى القطر نفسه وما يعانيه المهاجرون من الفاقة والتهميش والتمييز والازدراء خاصة مع تفجر الأوضاع الآن فى قطلونيا ومن بينها شعور الرفض الذى يواجهه هؤلاء.

ويرسم خوان مارسيه تضاريس المكونات الاجتماعية فى الإقليم بدقة بالغة وبالكثير والكثير من الباروديا. فالبطل النازح من الجنوب يتمكن من الولوج إلى عالم البرجوازية القطلونية المتعجرفة والمنغلقة على نفسها، والتى تنعم وحدها بالعيش فى بحبوحة وتراخ لا يقوى الفقراء على الحلم بهما. أولا بإقامة علاقة مع خادمة فى قصر أسرة ثرية ثم بالوقوع فى حب ابنة هذه الأسرة الثرية التى تدرس فى الجامعة. وأحداث الرواية هى تراوح مستمر بين الوسط الفقير فى الأحياء العشوائية حيث الفقر والسرقة

والمشاحنات الدائمة، وبين وسط الأغنياء في القصور والمنتجعات والوسط الجامعي حيث تدرس تيريسا وحيث يعم مناخ من الفوران الثوري النحبوي الناعم، والذي لا يمت إلى واقع قطالونيا المرير بأية صلة. وهنالك إيحاء مستتر بجو كابوسي قمعي لا يشار إليه في الرواية بشكل واضح، ونقصد بذلك إلى أن إسبانيا كانت ترزح تحت وطأة حكم الجنرال فرانكو.

ويرصد خط السرد الأساسي علاقة الحب بين تيريسا، الفتاة الثرية والطالبة الجامعية المنشغلة بالفكر الثوري نتيجة قراءتها للفكر اليساري الفرنسي والذي لا يعدو كونه ترفا يمارسه شباب البرجوازيين في برشلونة؛ ومانولو، الجنوبي (من أقليم مرسية)، الذي يعمل في الظاهر في ورشة أخيه لإصلاح الدراجات فيما يقوم في الحقيقة بسرقة الدراجات النارية وبيعها.

وتتطور الأحداث ويحدث التقارب بين مانولو وتيريسا بناء على اعتقاد خاطئ منها بأن الفتى الجنوبي يعمل في تنظيم سري ثوري قوامه جماعات من عمال المصانع، فتنجذب إليه وتنشأ بينهما قصة حب، أما النهاية فمعروفة ومحتومة ووجودية، إذ ينفضح سر لص الدراجات ويزج به في السجن.

وقيمة هذه الرواية تكمن في لغة السرد وفي التجديد الروائي، إذ تنتاءى عن أسلوب الواقعية التقليدية، فهي ترصد الواقع ولا تحاكمه، وتناقش الأفكار دون أن تلتصق بأي منها، وتراقب سلوك الأفراد ولكن دون أن تدينهم. أما السرد نفسه فيتقدم في عدة مستويات. فعلى الرغم من أن الراوية في ضمير الغائب، فإنه من جنس الراوي الشريك حين يتعرض لشخصية البطل مانولو ثم يعود ليأخذ مكانه الطبيعي عندما يتناول بقية الشخوص. في مقابل ذلك هنالك خط من السرد الموازي قوامه مجموعة من المناجاة الذاتية التي تعمق الدراما الحياتية لكل فرد من هذه الكائنات البشرية التي تعاني من أزمات وإضرابات وتناقضات هي حصاد مناخ اجتماعي وسياسي خانق. ومن السمات الرائعة لهذه الرواية نقاء الأفكار وتناولها، وكذلك الرسم الشفيف لمناخ الطبقات الاجتماعية التي يتنقل فيما بينها البطل.

ومن سمات الروائيين العباقرة أنهم يرصدون حركة أى مجتمع وشخوصه فى ضرب من ضروب المستقبلية، فهنا تشريح حقيقى لواقع مجتمع يحلل قضايا وأوضاعا تفاقمت فيما بعد لأن أحدا لم يلتفت إلى ما رصده الأدب وأوحى بنتائجه. فالشحنة الاجتماعية التى يحملها هذا المجلد هى خليط من السرد الواقعى والفكر السوسيولوجى الثقافى الراقى المتأسس على سلوك مجموعة من الشباب المتأزم الذى يطرح أعراضا لمشكلات وأمراض لاحقة سيكشف عنها مرور الزمن، وذلك بأسلوب مجرد نزيه متدفق.

وأخيرا لن يفوت القارئ الاطلاع على باقة من الأفكار والفروض النظرية والأدبية التى كانت تعم أوروبا وتشغل فكر مثقفيها قبل أعوام قليلة من مايو ١٩٦٨، والتى يضمنها الكاتب سرده فى نقاء.

محمد أبو العطا

مصر الجديدة، ٢٠١٣

(١)

يسيران ببطء على طبقة من الورق الملون ذات ليلة من سبتمبر تضيئها النجوم، على طوال الشارع الموحش المزين بسقف من أكاليل الزهور والأوراق الملونة والفوانيس المحطمة: الليلة الأخيرة من العيد الكبير (زينة الوداع ورقصة الفالس بالشموع) فى حى شعبى بضواحى المدينة، الساعة الرابعة صباحًا، انتهى كل شيء. المنصة التى عزفت عليها الأوركسترا قبل قليل الألحان الشعبية، خالية والبيانو مغطى بكسوة صفراء والأنوار مطفأة والكراسى المطوية مكومة على الرصيف. لم يبق فى الشارع إلا الخراب الذى خلفته الأعياد التى يحتفل بها فى الجراجات أو فوق الأسطح: عملٌ آخر، نشاطات أخرى يومية ومحددة، احتكاك الأيدى البائس بالحديد والخشب والطوب عاد ليظهر ويترقب فى مداخل البيوت والنوافذ متربصًا فى انتظار الشروق. الكذاب المهموم ابن الحى الغامض الذى يخوض فى الصيف المغامرة الفاتنة والرفيق المتيم بالجميلة المجهولة، لم يدرك ذلك بعد. ما زال الصيف أرخبيلًا. تتدلى من الشرفات حلزونات أوراق الزينة الفاقعة ومصابيح ضوؤها المصفر لا يختلف كثيرًا عن النجوم يهوى فى ذرات الغبار منهكًا على سجادة سميكة من الأوراق الملونة فبدا الشارع وكأنه منظر طبيعى مغطى بالجليد. هزت نسمة عليلة السقف الورقى وخرج منه حفيف أوراق البوص المنعشة.

الشاب والفتاة الوحيدان غريبان على المشهد بنفس غرابة ملبس كلٍ عن الآخر. الشاب (بنطلون جينز، حذاء كرة سلة، تى شيرت أسود مطبوع على صدره بُوصلة) ويطوق بذراعه خصر فتاة أنيقة (فستان وردى بذيل واسع، وحذاء طويل بكعب عال، كتفاها عاريتان وشعرها طويل أشقر وناعم) تسند رأسها على كتفه فيما ابتعدا ببطء، وهما يسيران على الرغوة البيضاء التى تغطى الشارع فى اتجاه بريق باهت يطل من الناصية

التالية، سيارة سبور. فى مشيتهما ذلك التقليد الرسمى لحفلات الزفاف، ذلك التمهل المثالى الذى يمتعنا فى الأحلام . ينظر كل منهما فى عين الآخر. اقتربا من السيارة، "الفلوريدا" بيضاء، وفجأة هبت من الناصية ريحٌ رطبة تحمل سحابات من الورق الملون لتقابلهم؛ إنها أول رياح الخريف، الصفعة الممطرة التى تعلن عن انتهاء الصيف. مباغتين، ابتعد الشاب والفتاة عن بعض ضاحكين وغطت يداهما أعينهما. تعصف بقوة من جديد تحت أرجلهما دوامة من قصاصات الورق تبسط أجنحتها البيضاء بياض الثلج وتحيط بهما بالكامل وتغطيهما لعدة ثوانٍ: فيبحث كل منهما عن الآخر متحسسين الفراغ، كما فى لعبة القطة العمياء ويضحكان ويتناديان ويتعانقان وينفصلان، وفى النهاية بقيا ينتظران حتى ينتهى هذا الارتباك، فى سلوك غامض، مستدبرا كل منهما الآخر، ضائعان للحظة، تائهان فى وسط سحابة من القصاصات البيضاء التى لفت حولهم كالدوامة.

وفى أى بقعة من العالم، وبين أى الناس

لا يحظى بالتقدير، ولا يحكم ويهيمن

فتى ذو نفس ذات بأس وجسور

ذو منطق شفيف، وقوة ماسية

أسبرونثيدا

هنالك ألقاب تلقى ضوءا ليس فقط على طريقة حياة، بل على الطبيعة الاجتماعية للعالم الذى يعيش فيه الفرد.

ليلة الثالث والعشرين من يونية ١٩٥٦، احتفالات القديس خوان، برز مانولو، المدعو بيخوأبرتى[1]، من بين ظلال حيه مرتديا حلة صيفية براقة بلون القرفة؛ سار بطريق الكرمل حتى ميدان سانيه، وقفز فوق أول دراجة نارية فى مكان الانتظار التى توفر ضمانات بألا يعاقبه أحد (لا ليسرقها، هذه المرة، بل فقط ليستخدمها ثم يتركها حين لا يحتاج إليها) وانطلق بأقصى سرعة فى الشوارع المؤدية إلى مونجوي. كانت نيته فى تلك الليلة الذهاب إلى حى "بويبلو إسبانيول"، حيث تذهب الأجنبيات إلى ليلة المولد، لكنه، فى منتصف الطريق، عدل عن رأيه وتوجه إلى حى سان خيرباسيو. جال بالشوارع الخالية وعلى

(١) يطلق عليه الكاتب لقب "بيخوأبرتى" وهى كلمة منحوتة تعنى تقريبًا ابن الذوات على حدة نسبة إلى أصل الفتى الناشئ من علاقة والدته بالسيد الثرى الذى كانت تعمل لديه، ومن ثم وسامته وتطلعه الطبقى، ونحن فى الترجمة أشرنا إلى ذلك فقط واكتفينا بالإشارة إليه باسمه: مانولو. المراجع.

جانبيها أسوار حديدية وحدائق، ومحرك الدراجة على سرعة هادئة، يستنشق عبق هذه الليلة من شهر يونية المترعة بالآمال المبهمة، إلى أن قرر ترك الدراجة وإشعال سيجارة متكئا على رفرف سيارة سبور رائعة متوقفة أمام قصر. انعكس على معدن السيارة اللامع وجهه -الحزين والمتجهم، ذو النظرة الصارمة، وبشرته الصفراء الضاربة إلى الخضرة- ومن فوقه قبة من الأضواء الزلقة فيما تداعب خياله موسيقى الفوكس الناعمة: فأمامه، فى حديقة خاصة مزينة بالمصابيح وباقات الزهور الورقية، اقيم حفل.

كان الليل فى احتفالية العيد، وكذلك الرغبة والصخب البهيجان كانت جميعها غير مواتية للفزع وخاصة فى ذلك الحي؛ لكن مجموعة من الأزواج المتأنقين لم تستطع أن تكبت شعورا بالضيق عندما مرت بالفتى الذى يثير أحيانا عنصرا من عناصر الشغب ليس من السهل إدراكه: وما كان يشد الانتباه فى الفتى الحُسنُ الصارم البادى على قسمات وجهه الجنوبية فضلا عن ضرب من السكون المقلق يمت بصلة للسيارة الرائعة -أو بعبارة أفضل كان هناك عدم توازن مريب. بيد أنهم لم يتمكنوا من رصد أى شيء آخر. ورغم ما أوتوا من حاسة شم رهيفة، ومن حساسية لرصد أقل مخالفة مادية، لم يتمكنوا من أن يروا فى تلك الجبهة البهية اللامبالاة المميتة التى تسبق القرارات العنيفة، ولا أن يروا فى عينيه اللتين كنجمتين غاضبتين تلك الغلالة المبهمة التى تنم عن تأملات معذبة قد تبلغ بصاحبها حد التبرير الأخلاقى للجريمة. وكان لون يديه الزيتوني، اللتين ارتعشتا على نحو غير ملحوظ وهو يشعل السيجارة الثانية، كان كأنه عيب. وكذلك كان هنالك شيء ما فى الشعر الأسود المصفف إلى الخلف، فضلا عن جاذبيته الطبيعية الذى يجذب النظرات النسائية بشيء من القشعريرة، كان هنالك مجهود سرى وغير ذى طائل، أمل أحبط ألف مرة ولكنه مازال قائما. كانت تصفيفة شعره من تلك التى تتطلب جهدا كبيرا التى يكتشف فيها المرء العناصر الجلية للكفاح اليومى ضد البؤس والنسيان، ذلك التدلل الضارى لمن يقاسون الوحدة والمغالين فى طموحهم.

وفى نهاية الأمر، حين قرر دفع باب سور الحديقة الحديدي، توقفت يده عن الارتجاف كما يحدث لبعض مدمنى الكحول، وهم يقبضون على الكأس الثانية، فانتصبت قامته وابتسمت عيناه. تقدم فى الدرب المغطى بالحجارة وبغتة بدا له أنه رأى ظلا يتحرك خلف

السياج إلى يمينه: وسط الظلمة شبه الحالكة، بين الغصون نشبت عينان لامعتان نظرتهما فيه. توقف وألقى بالسيجارة. كانت نقطتان ضاربتان إلى الصفرة وساكنتان راشقتان بلا حياء فى وجهه. وكان الدخيل يدرك أن عليه فى مثل هذه الحالات أن يبتسم ويواجه الأمر. ولكنه، لما اقترب توارت النقطتان المضيئتان وميز ظلا نسائيا خفيا يسرع نحو برج القصر، وكان يحمل ما يشبه الصينية. "ما أسوأ البداية، أيها الفتى!" قال لنفسه وهو يتقدم فى الدرب المحاط بسياج فى اتجاه حلبة الرقص التى هى فى الأصل باحة للباتيناج. توجه ويداه فى جيبيه ومظهرا عدم اكتراث تاما، توجه أولا إلى البوفيه الذى أعد تحت شجرة صفصاف كبيرة وأعد لنفسه كأسا من الكونياك والمياه الغازية وهو يشق لنفسه سبيلا وسط كتلة مدمجة من الظهور. لم يبد أن أحدا أعاره أقل انتباه. وحين التفت إلى فتاة تمر فى اتجاه حلبة الرقص خبط بذراعه ظهر شاب فانسكب قليل من الكونياك.

– آسف.

رد الآخر مبتسما، وقال وهو يبتعد:

– لا عليك يا رجل.

وأعادت إليه الثقة التى بدت على وجه الشاب ثقته بنفسه. فى ظل الصفصاف وبيده الكوب انتابه شعور لحظى بالأمان، فى تسلل ومتجنبا أن يلتفت إليه أحد بحث عن فتاة تناسبه –غير لافتة للانتباه وغير متزمتة. اكتشف أنه حفل لصغار الشباب، نحو سبعين شخصا. الكثير من الفتيات يلبسن البنطالونات والأولاد ذوى القمصان الملونة. لوهلة أحس بالسخف والارتباك، كان من بين الندرة التى ترتدى حلة ورباط عنق. "أنهم أغنى بكثير مما ظننت" قال. باغتته عقدة من تأنق فى غير وقته التى تسم من يرتدى حلة أيام الأحد فقط. أزواج من المحبين جلسوا على حافة المسبح الذى طفا على سطح مائه الرائق ذى اللون الأخضر دمية فى شكل قارب. ورأى أيضا أن مجموعات أخرى ظهر عليها الضجر جلوسا حول الموائد تحت الأشجار حديثهم خافت ويتبادلون نظرات تغالب النعاس. فى إحدى الشرفات المنخفضة جلست طفلة ترتدى بيجاما وفى الداخل جلس رهط من الكبار يحتسون الكؤوس.

كانت تسمع أسطوانة لا تنتهى تصدر سلسلة كلاسيكية من موسيقى الرومبا. وتوقفت عينا البيخوأبرتى كخنجرين على فتاة تجلس على حافة المسبح. كانت ذات شعر أسود وترتدى جونلة وردية بسيطة. خفيضة الرأس، ظاهر عليها عدم اهتمامها بالرقص، وتتسلى برسم خطوط وهمية على البلاط الكبير الضارب إلى الحمرة؛ يغلفها شيء من الحياء والإهمال وكأنها هى أيضا وصلت للتو ولا تعرف أحدا. تردد الدخيل، قال لنفسه: "إذا لم أتقدم إلى هذه الفتاة فى غضون عشر ثوان فإننى سأجتث رجولتى وألقى بها إلى الكلاب". بكوبه الطويل فى يده وقد أمسى أشد ثقة بنفسه -لم ينفحه هذا الكوب الطويل بلون البنفسج هذه الثقة؟-، توجه ناحية الفتاة مجتازا حلبة الرقص وسط أزواج الراقصين. تدفق ضوء بنفسجى بأزيز النحل بغتة فوق رأسه وكتفيه. وكانت صورته المتشامخة والمسلطة عن قصد على حلم تثير لدى مروره غبارا مقلقا وضاربا إلى الزرقة من النظرات المختلسة (مثل نظراته فى أقاليم أشد قيظا عندما تمر سيارة مكشوفة مسرعة وبها فتاة شقراء يتطاير شعرها) وفى ثوان تنشأ علاقة مثلى من الهذيان السري. ولكن كانت هنالك أيضا مساحات مظلمة: وهو لم يكن يجهل أن مظهره الجسدى يفضح أصله الأندلسى -غريب، من إقليم مرسية (مرسى من حيث كونها تسمية حرفية لا جغرافية، وهى واحدة من خصائل أهل قطلونيا الغريبى الأطوار)، ابن مرسية البعيدة والغامضة... وفيما يتقدم نحو المسبح رأى فتاة تجلس إلى جانب التى اختارها وتحدثها بود وتضع ذراعها على كتفها. راقبهما باهتمام مقدرا امكانات النجاح التى يمكن إلى أى منهما أن تقدمها له: كان عليه أن يحزم أمره قبل الهجوم. أما الفتاة التى جلست للتو، شقراء ترتدى بنطالونا، فلم يكد يرى وجهها. وبدت وكأنها تعترف لصديقاتها التى تنصت إليها فى صمت وعيناها خفيضتان. وحين رفعتهما لتنظر إلى الشاب القريب منهما ارتسمت على شفتيها ابتسامة. أما هو فلم يتردد ثانية فى اختيار الشقراء: وليس لأنها أكثر جاذبية -فهو لم يكد يرى وجهها تقريبا-، وإنما لأن ابتسامة الأخرى الغريبة أثارت قلقه. ولكن فى لحظة اقترابه منهما وانحنائه -ربما بشكل مبالغ فيه، فى جليطه، كما قال لنفسه- قامت الشقراء التى لم تلتفت إليه بشكل مباغت وراحت تجلس إلى جوار شاب يحرك ماء المسبح بيديه. وفى خلال عشر ثانية، ومن بين شعرها الأشقر الأملس، لمح المرسى عينين

زرقاوين خمشتا قلبه. فكر فى ملحقاتها ولكنه دعا صديقتها وقال لنفسه: "يستوى الأمر فى الحقيقة".

وهى كانت قد نهضت وتقف أمامه دون أن تحسم أمرها وتوجه نظرات حيية إلى الشقراء؛ غير أن هذه وهى تستدبرها على مسافة مترين لم تكن تدرك من الأمر شيئا. تخلت ذات الشعر الأسود عن لفت نظر صديقتها ومدت يدها إلى الغريب بحماس لحظى وهى تقدم له من جديد تلك الابتسامة الغامضة. وبدلا من أن تتركه يقودها إلى حلبة الرقص جذبت الفتى إلى أكثر أرجاء الحديقة إظلاما، بين الأشجار، حيث يرقص زوجان من العشاق. كان مانولو يحلم. لاحظ أن يد الفتاة التى كان ملمسها يعن له مألوفا وطريا ورطبا ينقل له برودا غير مرئى وكأنها كانت تغمرها فى الماء. وحين عانقها رسم أفضل ابتسامة لديه ونظر إليها فى عينيها. كان أطول قامة منها، واضطرت الفتاة إلى الإلقاء برأسها كثيرا إلى الخلف كى تتمكن من رؤية وجهه. ثم بدأ مانولو يتحدث. كانت نقطة قوته صوته، صوت أجش، جنوبى ومقنع، أما عيناه الجميلتان فكانتا تنهضان بما تبقى من عمل.

– أخبرينى أتحتاجين إلى إذن من أختك لترقصي؟

– ليست شقيقتي.

– يبدو أنك تخافينها، من هي؟

– تريسا.

كانت ترقص بلا رغبة بل ويمكن القول بلا وعي، كانت فى طريقها إلى بلوغ التاسعة عشرة واسمها ماروخا. كلا، لم تكن أندلسية بل قطلونية مثل والديها. فكر هو "يا لسوء الطالع عسرنا بصبية قطلونية".

– حسنا، لا يلاحظ عليك، لكنك ليست قطلونية.

الحق أن نطق الفتاة كان جيدا بصوت هامس رتيب. كانت شديدة الخجل وجسدها النحيف والقوى على نحو مفاجئ كان يرتجف الآن بين ذراعيه. كانت الأسطوانة تصدر معزوفة بوليرو.

سأل مانولو:

– أتذهبين إلى الجامعة؟ لم أرك هناك.

والفتاة لم ترد وأصرت على ابتسامتها الغامضة. قال لنفسه: "مهلا، مهلا أيها الحيوان". وهى خفضت رأسها وسألت:

– وأنت، ما اسمك؟

– ريكاردو، ولكن أصدقائى يدعوننى ريتشارد... الحمقى بالطبع.

– حين رايتك ظننت أنك صديق لتريسا.

– لماذا؟

– لا أدري، ربما لأن تريسا تأتينا دائما بفتية غريبى الأطوار. لا أحد يعرف من أين تلتقطهم...

– أيعنى هذا أننى أبدو لك غريب الأطوار.

– بل أعنى أننى لا أعرفك.

وراح يضحك.

– أنت لطيف.

جذبها إليه ولامس جبهتها ووجنتيها بشفتيه بحثا عن قبلة.

– أتقطنين هنا يا ماروخا؟

– قريبا من هنا، فى بيا أوجوستا.

– صرت بالغة السمرة.

– ليس كمثلك...

– الواقع أننى دائما هكذا حقيقة، أما سمارك فمراده ذهابك إلى الشاطئ. الواقع أنى لم أذهب إلا ثلاث مرات هذا العام –ردد متلذذا بالكلمة– فى الواقع أننى لم أتمكن من ذلك فأنا أستعد لخوض الامتحانات... إلى أين تذهبين أنت؟ إلى ساجارو؟

– كلا، إلى بلانس.

– آه.

كان مانولو يود لو أنها ذهبت إلى ساجارو، ولكن فى نهاية الأمر، بلانس لا غبار عليها.

– إلى الفندق حقيقة...؟

– كلا.

– منزل أبويك.

– أجل.

– ترقصين بشكل رائع. مع هذا الكم من الأسئلة نسيت أن أسألك أأنت مخطوبة؟

حينئذ اقتربت الفتاة منه وألقت برأسها على صدره وهى ترتجف. وهو باغته احتكاك فخذيها وبطنها. وعادت الفتاة لتخلف فيه الانطباع نفسه بالانكشاف والهجر حين رآها تجلس إلى جانب صُديقتها. لم يلتفت إليها –إنها فى حالة استثاره، ليس إلا–. جرب عددا من القبل الناعمة على شفتها العليا ثم قبلها فى فمها. لم يدر أكان ذلك عبث طفلة ثرية أو مدللة أم هى غريزة بقاء طبيعية –أم كان حقا بالفعل ما تقوله كلمتها– لكن الحق أنه انتابته الحيرة حين سمعها تقول:

– أشعر بالظمأ...

– أأحضر لك شمبانيا. أحسب أن هنالك زجاجة منها لكل اثنين.

ابتسمت الفتاة فى حياء.

– كلا، ههنا بوسعك تناول ما أردت من شراب.

– كنت أقول ذلك من أجلك. فأنتن الفتيات يصيبكن الدوار من لا شيء. حسن أأحضر لك كأسا؟

– أفضل شراب الروم والكوكاكولا.

– وأنا أيضا، فكرة طيبة. انتظريني هنا.

كانت الصواريخ تئز إلى أعلى. والألعاب النارية بعيدة تنطلق على أحايين متباعدة، والموسيقى والصخب المترامي للمدينة الساهرة ينفحان الليلة عمقا سحريا لا تبلغه ليالى الصيف الأخرى. كانت الحديقة تعبق بأريج لزج ورطب فاسد على نحو رهيف فيما يتوجه هو إلى البوفيه: كان يشق طريقه وسط رجال مذهبين، وحوريات شديدات الحلاوة، وأجساد فتية متصببة عرقا، وأعناق برونزية، وإبط مكشوفة، وصدور مبتزة. كانت تحاصره وهو يعد المشروبين. لم يكن قد جرب من قبل دنو رائحة أذرع بضة وعطرة، أو البريق المطمئن لأعين فى زرقة السماء. كان يشعر بالطمأنينة، ومكتنفا على نحو لطيف، ولم يعد يقلقه حتى بعض الفتيان من الذين بدو كالمسؤولين (هم بلا أدنى شك منظمو الحفل) وكانوا يحومون حوله ويراقبونه. صب كحلا كثيرا فى كوب ماروخا وعاد إلى جانبها كى يشربا الأنخاب...

– من أجل الغد – صاح فى بهجة.

أما الفتاة فقد تناولت شرابها على مهل وهى تنظر إلى عينيه. ثم حملها إلى أرجوحة أقيمت فى وسط العشب. تبادلا القبل الناعمة وهما جالسان. لكن الظلام لم يعد يحميهما كذى قبل. نظر إلى ساعته كانت تقترب من الرابعة. خلفهما بدأ ظل البرج المفرط فى زينته يستبين فوق بياض السماء الغسقى حيث تنصهر النجوم فى وداعة كقطعة ثلج تذوب فى كوب من شراب الكمبارى المهمل فوق العشب. كان بعض المدعوين ينصرفون. كان عليه أن يسرع، من المنطقة المضيئة كان ثلاثة من الشباب ينظرون إليه بتعبير لا مراء فيه: كانوا يتساءلون بحق الجحيم من هو وماذا يفعل فى حفلهم.

قال لنفسه وهو يلتقط كوبه: "الآن يبدأ الرقص". وهمس فى أذن الفتاة:

– أتريدين شرابا آخر؟ أنتظرينى هنا سأعود فى الحال.

وابتسمت وهى تغالب النوم:

– لا تتأخر؟

وفيما يعد كوبى الشراب فى دقة، بلا عجلة –كان ينتظر الشبان الثلاثة من أبناء الذوات– قدر ما عليه أن يفعله؛ فى الواقع كان قليلا جدا: يتخلص منهم، ويحدد موعدا مع ماروخا ثم ينصرف. ثم سمع وقع خطواتهم. قال صوت أخنف به نبرة سخرية خفيفة:

– هلا تفضلت وأبلغتنى من أنت؟

التفت الدخيل فى بطء وهو يمسك بكوب ممتلئ عن آخره فى كل يد. كان يبتسم ابتسامة طليقة وهو يلقى فى وجوههم ببداهة هدوء أعصابه المجترئة. وكمن يبدى استعدادا لتلقى سخرية قديمة وطفولية وسخيفة، هز رأسه فى سماحة وقال:

– أدعى ريكاردو دى سلباروسا. ماذا هنالك؟

أطلق أصغرهم سننا وكان يلف قميصا صوفيا أبيض اللون فوق كتفيه ويعقد كميه حول رقبته، أطلق ضحكة مستخفة. وارتسم تعبير جاد على وجه مانولو.

– أتجد ما يسير الضحك فى لقبي، أيها الصبي؟

أغمض عينيه بتعبير فجائى وغير منتظر ومشؤوم. وعندما فتحهما لم يستطع تجنب النظر إلى اليدين اللتين تحملان الكوبين، كان ذلك مبرر ألا يهشم رأس من يقف أمامه. وربما لذلك، ودون أن يدرى أى انطباع ود لو خلفه فى الآخرين، لم يشك أحد فى كلماته حين قال:

– يا لحسن طالعك.

– لا نريد فضائح هنا أتفهم. – قال الآخر.

– ومن يريدها، يا صديقي؟ – أجاب هو دون أن يفقد هدوءه.

– حسن، فلنر، من دعاك إلى هذا الحفل؟

فجأة، ارتسم على وجه الفتى الجنوبي تعبير بالكرامة ورفع رأسه في شموخ. فقد اكتشف فيما وراء الشبان الثلاثة سيدة تنظر إليه وهي واقفة شابكة ذراعيها وذات تعبير مرحب في برود يخفي قلقها أفضل. لابد وأنها صاحبة المنزل. كانت نيته أن ينهي الموقف في أسرع وقت فمر من بينهم. وعاد وجهه وأضاء بابتسامة مرسى مشرقة، أومأ إلى السيدة إيماءة خفيفة وفي ثقة وهدوء يعززان حسنه الشاب قال:

– سيدتي، أضع نفسي تحت قدميك. أنا ريكاردو سالباروسا، من المؤكد أنك تعرفين والدي. –بهتت المرأة على الرغم منها، لكن ذلك جعلها تستمتع أكثر قليلا بتلك التحية الرقيقة من جانب البيخوأبرتي–. يؤسفني أنني لم أحظ بشرف أن أقدم إليك.

تحدث عن الحفل وعن ملاءمة الحديقة لمثل هذه المناسبات، مسهبا في عبارات لطيفة ومسلية في مسألة الأسرة الكبيرة المنعقدة اليوم رغم الوجوه الجديدة وحول هدوء هذا الحي الراقي، وجدوى المسبح في الصيف وأفضليته عن الشاطئ، إلى غير ذلك. كان صوته ينم عن صلف مستتر كان أحيانا يخون مجهوده الواضح لإبداء نبرة احترام. وكانت لكنته أحد الأمور اللافتة فكانت أحيانا تبدو كلكنة أمريكا الجنوبية، ولكن إذا أنعمنا النظر سنجد أنها ليست سوى انحراف لكنة الأندلس مختلطا بقطلونية الأحياء الفقيرة – مثل وقع الحروف الصوتية الرخيم، ووفرة حرف السين، وعذوبة شديدة الخصوصية في استخدام العبارات المصكوكة–، وهو انحراف يخدم مفردات ذات هدف مبتذل صارت على الموضة، إفراط في استخدام الظرف وإن لم يدر تحديدا أين يضعه وكان يستخدمه ويخلط بينه بشكل عشوائي وإن يكن باحترام دائما، بميل فطري حقيقي إلى الحوار، حتى إنه يمكن القول إنه يفعل ذلك بإيمان بعض الأميين الذي لا يقهر والمثير للتأثر بفضائل الثقافة في الخلاص.

لم يعكس وجه المرأة أي تعبير. وبالطبع، أصرت على توجيه النظر إلى الدخيل، ذلك الوسيم المجترأ الذي فضحت أصله كلماته السخيفة ونظرت إليه فترة طويلة كي

تصعقه بنظرها، ولكنها لم تحذر قياس القوة المتصارعة ولا شدة الارتياب المتبادل: فكانت النتيجة كارثة فى غير صالح السيدة (والشعور الوحيد بالرضى الذى داخلها -مع الفرض بكونها تستطيع استشعار ذلك- أنها أحست فى جزء من كينونتها اعتقدت أنه نائم، قشعريرة خفيفة لم تكن استشعرته منذ أعوام). وفضلت على نحو متسرع بتحويل نظرتها إلى أحد الشبان:

- ما الذى يحدث يا بني؟

- لا شيء يا أمي. سأضطلع بالأمر.

طرأت على مانولو فكرة. قال بصوت تشوبه الكرامة:

- سيدتي، بما أننى أسمع إهانتي، ومن أجل أن أجنبك هذا المشهد البذىء، أود التحدث إليك فى مكتبك.

فى هذه المرة ذهلت المرأة. كانت على وشك أن تقول للفتى إنها ليس لديها ما تتحدث بشأنه معه فى مكتبها، فضلا عن أنها ليس لها مكتب. لكن الفتى الجنوبى كان يجتر فكرة ثانية، فقال فى نبرة صارمة:

- حسن، طلب منى أن أحفظ السر ولا أدرى لمه، لكن حان وقت الكلام. ــتوقف برهة ثم أضاف-: جائت مع تريسيا.

ما الذى حدا به إلى الاحتماء بتريسيا، صديقة ماروخا؟ ولا هو نفسه كان يعلم تحديدا، ربما على أمل أن تكون الفتاة قد ذهبت، مما ينتفى معه علم الحقيقة أو ربما تأجيله إلى اليوم التالي. وكذلك لأنه تذكر كلمات قالتها ماروخا منذ قليل عن صديقتها: «دائما ما تأتينا تريسا بالغرباء». على أية حال كان استدعاء اسم تريسيا بلا أدنى شك قد أصاب الهدف: ساد الصمت. ابتسمت السيدة ثم تنهدت ورفعت عينيها إلى السماء كأنما شاءت أن تكون السماء شاهدة. وفى الحال ضج أحد الشباب بالضحك وهو ما لم يكن يتوقعه. وقال لنفسه: «اللعنه على هؤلاء الناس». وسأل أحد أولاد الذوات:

– أتردد القول إنها دعتك؟

– أجل.

صاح الآخر وهو ينظر إلى صديقيه:

– اكتشاف سياسى آخر.

– وأين ذهبت هذه الحمقاء؟ – سال ابن صاحبة المنزل.

– كارلوس... – قد زجرته والدته.

– تتجاوز حدودها وتدعو من تشاء، ولكن عليها أن تبلغنا. سوف تسمعني.

وأنهت السيدة كلامها قائلة، وهى مازلت تلاحظ نظرة المرسى المخلصة إليها والذل لم يكن قد أدرك كلمة واحدة مما قالته:

– حسنا يا أولاد.

بعد أن اتضح الأمر مؤقتا (وهى كانت تعرف ابنة آل سيرات، تلك الصبية المثيرة للارتباك والوقحة، وكانت تعلم أيضا أنها قادرة على الحضور ومعها أحد أبناء الغجر) انصرفت السيدة وعلى وجهها ابتسامة ضجر واتجهت ناحية المنزل. كان الحفل على وشك الانتهاء، اتجه ثلاثتهم فى حيرة وبطء إلى حلبة الرقص. سُمع ابن صاحب المنزل وهو يقول لأصدقائه فى نبرة انتقامية حزينة:

– نبهونى حين تجيء هذه الغبية.

كانت ماروخا تنتظر فى المكان نفسه، ساكنة، متفكرة، تائهة قليلا: بدأت واحدة من هؤلاء الفتيات اللائى قررن فى لحظة بعينيها من حياتهن أن يصرن فتيات ملتزمات، ولكنهن، فى الوقت الحاضر، لمبررات لا يحطن بها، لم يعد كونهن فتيات ملتزمات يفيدهن تماما. على وجهها، بل وفى ابتسامتها، ارتسم إصرار حزين ومؤثر وبغير نفع، تماما ذلك الذى ينتاب من ينصح الأغنياء والفقراء بأن يتحابوا. كانت الفتاة وقد تركت نفسها بين

ذراعى المرسى تتنفس تعبا أخلاقيا حملته على عاتقها ردحا طويلا من الزمن، أما الآن فهو يلهب مشاعرها ويخونها. فمن ذلك الالتزام المزعوم لم يعد هنالك سوى الخفر الطبيعى ومظهر سعيد بالانكشاف ربما فشل المرسى فى استكناهه، ومع ذلك بدا له مألوفا إلى حد كبير فأثار قلقه، كانما أحس فى ذلك بخطر وشيك.

رقصا وتبادلا القبل فى أكثر بقاع الحديقة رطوبة إظلاما، فأثارا جزع الطير، تحت سماء ضاربة إلى الحمرة بدت كأنها تنبض بين غصون أشجار السنط. أقلع فتى الجنوب عن مداراة مشاعرة، وفجأة تفجرت كلمات الحب الملتهبة من شفتيه، فنقلتها والتهمتها حمى الصدق: وحتى فى الأوقات التى حمله فيها مزاجه الشخصى إلى درجة عليا من المخاطرة، ومهما يكن مبلغ ما أوصلته إليه قدرته على الكذب والخبث، كان به شيء يجبره فى لحظة معينة على اللعب النظيف. ورغما عنه، كان على فمه أن ينتهى بالتوحد مع فم الفتاة وهو على وعى حقيقى بأنه يتمم طقسا من طقوس الغرام يتطلب إيمانا وضربا من غرادة العطاء، والبراءة التى مازالت تغذيها أحلام الصبا، براءة مازالت قائمة بعيدا عن هدف التسلية وتتطلب تفرغا أكبر، وفنتازيا أكبر، وشجاعة أكثر بكثير مما أظهره شباب هذا الحفل.

كانت الموسيقى قد توقفت. فواعد الفتاة فى السادسة من مساء اليوم التالى فى حانة بشارع مدريد. ثم عرض عليها فى شهامة أن يرافقها حتى منزلها، ولكنها قالت إن عليها أن تنتظر صديقتها تريسا التى وعدتها بأن تقلها فى سيارتها إلى منزلها. لم يصر مفضلا أن يدع الأمور كما كانت.

وهناك، تحت أشجار السنط المصطبغة بلون وردى خفيف، وفى نسيم الفجر الذى يوقظ أريجا جديدا فى الحديقة، قبل فتى الجنوب الفتاة وعانقها عدة مرات بشكل طريف كانه ذاهب إلى حرب. «إلى الغد، يا حبيبتي». «إلى الغد، يا ريكاردو...»

ولدى مروره بصاحبة المنزل أومئ ريكاردو سلباروسا بإيماءة مهذبة ورصينة برأسه.

إذا أردت أن تمتلك كل شيء

قد لا تحب أن تمتلك شيئًا فى العدم

إذا أردت أن تصبح كل شيء

قد لا تحب أن تصبح شيئًا فى العدم

سان خوان دى لا كروث

جبل الكرمل تل قاحل وأجدب فى شمال شرق المدينة. أحيانًا تُرى طائرات ورقية ذات ألوانٍ زاهية فى زرقة السماء، تحرك خيوطها الخفية يدا طفلٍ خبير، وتهزها الرياح، تطل من فوق قمة الجبل تماماً كدروع تنذر بحلم حربي. فى السنين البائسة التى خلفت الحرب، عندما طالبت كل يوم البطون الخاوية والقمل الأخضر بأى حلم قد يجعل الحقيقة محتملة، كان جبل الكرمل مرتعًا مفضلًا ورائعًا لمغامرات الأطفال الشعث بأحياء كاسا بارو وجيناردو ولاسالود. كانوا يصعدون إلى قمة التل، حيث تصفر الرياح، ليطلقوا طياراتٍ ورقية ذات صناعة منزلية بدائية، من عجينة دقيق وبوص ورقاع القماش وأوراق الجرائد: ارتجفت لفترة طويلة، ورفرفت فى سماء المدينة، صور وأخبار عن التقدم الألمانى فى شمال أوروبا، وساد الموت والخراب، ونظام التموين الأسبوعى للإسبان والبؤس والجوع. واليوم، فى صيف ١٩٥٦، الطائرات الورقية بالكرمل لا تحمل أخبارًا أو صورًا ولا هى مصنوعة من ورق الجرائد، ولكن من ورق فاخر من حرير يشترى من متجر مخصوص، وألوانها فاقعة وصارخة. لكن على الرغم من هذا التحسن فى مظهرها مازالت ذات صناعة منزلية، هيكلها رديء وثقيل، وترتفع بصعوبة: فهى لا تزال رمز الحرب بالحي.

يرتفع التل بالقرب من حديقة جويل، بأشجارها الوارفة الخضراء وفانتازياها المعمارية الأجدر بحكايات الساحرات الطيبات، والتى تنظر فى ريبة واحتقار، وتشكل سلسلة مع التورو دى لاروبيرا – الآهلة سفوحه بالسكان – وجبل بيلادا. منذ أكثر من نصف قرن لم تعد جزيرة مهجورة خارج البلاد. قبل الحرب كان هذا الحى وجيناردو يتكونان من ڤيلات وبيوت من دور واحد: منتجعات للاستجمام لبعض تجار الطبقة المتوسطة البرشلونية، المتعجرفين الزائفين، مازالت من بقايا إقامتهم تُرى آثار فى أحد الشاليهات القديمة أو الحدائق الخربة. لكنهم رحلوا. من يدرى إن كان عند رؤية لاجئى سنة أربعين فى عودتهم، يلهثون كضحايا سفينة غارقة، جلودهم محرّقة ليس فقط بسبب حرارة الشمس القاسية فى حربٍ خاسرة، وإنما أيضًا نتيجة حياة مليئة بالإخفاقات، علموا فى النهاية بالانهيار القومي، بالجزيرة الغارقة إلى الأبد، بالجنة المفقودة التى سيكون عليها هذا التل فى السنين الحالية. لأن مياه المد بالمدينة سرعان ما بلغت الجزء الجنوبي، وأحاطت بجوانبها واستأنفت سيرها ممتدة إلى الشمال والغرب، ناحية وادى إيبرون ولوس بنيتنتس. فى الجزء المدرج كمدرج المسرح ينمو عشب لنبتة خضراء ومُرة، مُتناثرة هنا وهناك فى بقاع أعشاب الوزال الصفراء السعيدة. تزحف حية رمادية شاحبة فى ضوء النهار القوي، سوداء ودافئة وعطرة فى وقت المغرب، على المدخل الجانبى لحديقة جويل آتية من ميدان سانيهى وتصعد من الهضبة الشرقية فوق منخفض مليء بشجر الخروب العتيق وحدائق فقيرة بها أكشاك حتى تصل إلى البيوت الأولى من الحي: هناك تصفر وينتفخ رأسها العريض وتبدو شوارع غير معبدة، ملتوية ومتربة، يبدو بعضها فى اتجاه وبعضها فى اتجاه آخر، تنطلق فى كل الاتجاهات وتتسابق نحو السهل على السفح الشمالى للجبل متجهة إلى أورطه ومونتباو. بجانب الشاليهات القديمة وآخر أحدث تم بناؤه فى الأربعينيات عندما كانت الأراضى زهيدة، يمكن رؤية بيوت صغيرة من الطوب الأحمر بناها المهاجرون وشرفات من حديد متآكل دهانه، وممرات صدئة وصغيرة يسودها جو وردى زائف حيث توجد نساء يروين الزرع فى صناديق خشبية بالية وفتيات ينشرن الغسيل بمشابك ويتمتمن بأغنية. أسفل درج كنيسة راهبات الكرمل توجد نافورة عامة وسط بركة يلعب فيها أطفال حفاة: لون الميكروكروم البنفسجى على سيقان عصبية

كثيرة الحركة لوحتها الشمس وعلى ركب بائسة ووجوه زيتونية اللون لها أنوف فطساء ووجنات بارزة وجفون ذات نعومة آسيوية. أعلى من ذلك الغبار والرياح والجفاف.

يقطن الحى أشخاص طيبو المعشر، خليط حريف من مناطق مختلفة من القطر خاصة من الجنوب. أحيانًا قد يُرى جالسًا على سلم الكنيسة، أو ينزه بالهواء الطلق حنينه الريفي، بيديه خلف ظهره، رجل عجوز يرتدى سترة من القطيفة المضلعة وقميصًا مقلمًا وياقة مزررة تحت رقبته وقبعة سوداء بحافة عريضة. توجد مرحلتان فى حياة هذا الرجل: تلك التى احتاج فيها أن يفكر قبل خروجه إلى الحقل، وهذه الحالية ذات الأفكار، نفاد الصبر حينئذٍ نفسه الذى يجتاح اليوم تعبيرات ونظرات شباب الكرمل عند تأمل المدينة من أعلى وبالتالى نفس الأحلام التى لم تولد هنا وإنما التى قد سافرت معهم أو فى خبايا نفوس آبائهم المهاجرين. الأحلام والشغف اللذان ينزلقان من جديد مع كل صبح باكر أسفل المنحدر، يلفان أسطح المدينة التى تمتد حتى الأضواء والمبانى المرتفعة بين السحب. عيون سوداء ناعسة لم يهزمها النوم بعد، وجفون شبه مغمضة، حذرة، تتأمل بلا ثقة الطبقة الكثيفة من الضباب الضارب إلى الزرقة والأضواء التى تعد كل يوم بنظرة من أعلى، بترحاب... إحساس مادى حقيقى بالاندماج مع الأمل. فى نهار الصيف المضيء عندما يتزحلق الأطفال فى جماعات من على التلال يهيلون التراب بأرجلهم يصبح جبل الكرمل شاشة من الضوء. لكن هذا الجو من التصالح التام والعفو العام هنا والآن الذى يتخلل المدينة يوم الأحد كرائحة زهرة ذابلة لا يكاد يصل إلى الكرمل. ليست فقط مسألة ارتفاع، إنما يمكن القول إنه مازالت تسود ابتسامة بعينها لـ "بعل"[١]، الإله الوثنى الذى كانت تعبده إيزابل والذى طرد من جبل فلسطين الحقيقي، ابتسامة قوية كعضلة من مكر وسخرية وقحين ومبهمين، فى مواجهة الضحكة البيضاء المبتذلة التى تجتاح التل بهدف دمج ساكنيه فى تناغم حقير مزرٍ مع الاستسلام والطبيعة (مع ما لا نعرفه أو ما لا نحيط

---

(١) يشير إلى إيزابيل زوج آخاب ملك إسرائيل فى عهد النبى إيليا وابنه اثبعل ملك الصيدونيين الذى عبد بعل الوثن وبنى له مذبحًا. المراجع .

به). لأنه لم يحن الوقت بعد: حيث تمت رؤية كلاب بعينها ورجال معينين يعبرون الكرمل كالناجين من الغرق على الجزيرة، وفى بعض الأحيان تهتز صورة الشوارع بريح ليس لها اتجاه، لتثير الجنون، عواصف من الغضب والسخط تحمل فى داخلها أصواتا غير شريفة لمذيعى الراديو، والقش المحروق ورائحة العشب المبلل وفضلات القطط والأسمنت والقش والراتنج؛ ويحلق ذباب خبير، تدور على الأرض علبة من الكارتون مطبوع عليها حروف بلغة شائعة جدًا (حليب مجفف تبرع به سكان الولايات المتحدة الأمريكية) وترتطم بقدمى فتى واقف ذى وجه أسمر وشعر لونه كجناح الغراب الأسود، يتأمل المدينة من حافة الطريق كما لو كان يتأمل بركة من طين.

إنه مانولو[1]. قد أرسل ولدًا صغيرًا ليأتيه بعلبة سجائر تشستر من البار دليسياس. فيما ينتظره كان يصلح عقدة رباط العنق وأساور القميص البيضاء. يرتدى بذلة البارحة نفسها، وحذاء صيفيًا مخرمًا[2] ورابطة عنق ومنديلًا من اللون نفسه، أزرق فاتح. يسمع من خلفه ضحكات مكتومة، فخلفه، على ناصية شارع باستور، يشاهده مجموعة من الشباب يتحدثون بصوت منخفض. عندما استدار ونظر إليهم اتجهت الرؤوس إلى ناحية واحدة كما لو كان من تأثير عاصفة من الرياح.

ينتهى من الخروج من منزله الذى يشكل جزءًا من خلية أكواخ أسفل آخر منعطف، على منطقة مرتفعة عن المدينة: من الطريق، وعند الاقتراب، يمتد الشعور بالسير نحو الهاوية على امتداد اللحظة التى تستغرقها النظرة فى اكتشاف البيوت الطوبية الصغيرة. تكدست أسقفها المصنوعة من الأسبستوس المبطن بالقطران والحجارة، كما أنها طليت بألوان هادئة ولا يكاد ارتفاعها يجاوز قامة رجل، وهى مصفوفة فى اتجاه البحر،

---

(١) يطلق عليه الكاتب لقب "بيخوأبرتى" وهى كلمة منحوتة تعنى تقريبًا ابن الذوات على حدة نسبة إلى أصل الفتى الناشئ من علاقة والدته بالسيد الثرى الذى كانت تعمل لديه، ومن ثم وسامته وتطلعه الطبقى، ونحن فى الترجمة أشرنا إلى ذلك فقط واكتفينا بالإشارة إليه باسمه: مانولو. المراجع.

(٢) نوع من الأحذية زهيدة الثمن. المراجع.

لتكون شوارع ضيقة ترابية نظيفة قد كنست ورويت بإتقان. توجد ببعضها أفنية ينمو فيها الكرم. أسفل، فى المواجهة، تمتد المدينة إلى رحابة المتوسط الزرقاء تحت سديم وصخب أصم، صخب صناعى مكدود، تطل أبراج كاتدرائية العائلة المقدسة الرمادية كأنها زجاجات قائمة، وأبراج مستشفى سان بابلو وخلفها، أعمدة الكاتدرائية السوداء، أما الحى القديم فكتلة من الضباب. الميناء وأفق البحر ينهيان المشهد الضبابى وأبراج العبَّارة المعدنية هى شبح مرتفع مونچوى الشرس. بيت الشاب هو الثانى إلى اليمين، على حافة السفوح الأخيرة من الجبل. يعيش مع أخيه الكبير وزوجه وأربعة أطفال أشقياء. البيت كان لوالد زوج أخيه، عامل عجوز من برِشِل، أتى إلى هنا مع ابنته فى إحدى موجات الهجرة الضخمة الأولى عام ١٩١٤، بعد أن فقد زوجته واستطاع أن ينقذ أدوات عمله وبعض المدخرات. بنى منزلًا بيديه واشترى سقيفة أعلى الطريق بين مخبز وما هو اليوم حانة بيبِي، وحولها إلى ورشة لإصلاح الدراجات. حسب كل الظواهر، لم يكن لهذه التجارة أن تسير إلى الأسوأ، فقد مات العجوز بعد أن زوج ابنته، كانت بدينة مائعة، ذات نظرة دافئة وخاضعة، وبعد أن علَّم زوج ابنته المهنة، كان من رُنْدَة، تعرف إلى الفتاة أثناء عمله فى لعبة سيارات التصادم بالملاهى خلال العيد الكبير بحى جراثيا. ورث الرُّندى التجارة المتواضعة ومفاجأة كبيرة: الدخل لم يأت فى الواقع من الورشة، وإنما من رجل ذى مظهر راقٍ ولباقة، كنسي، يلقبونه فى المنطقة بالكاردينال والذى اتضح أنه المشترى لكل الموتوسيكلات التى كان يجلبها للورشة شاب شاخ قبل أوانه، قليل الكلام، من حى جيناردو، كان يجلب للورشة، ودائمًا فى الليل: دراجات نارية مصدرها ومصيرها اللاحق، بعد تفكيكها مرة فى الورشة وأخرى بين يدى الكاردينال، كشفهما الميكانيكى العجوز لزوج ابنته قبل يوم من زواجه، بابتسامة خجلة كمن يقدم هدية زفاف من الجلى أنها أعلى من إمكاناتهم المادية.

بصعوبة بالغة، تتخللها فترات ركود هددت بإغلاق الورشة الصغيرة وأخرى كانت فترات انتعاش (أربع: ولد فيها الأربعة أبناء) استمرت تجارة الدراجات النارية المسروقة السرية، على الرغم من أن ما أنتجته لم يقدم للميكانيكى وأسرته ما يكفى ليتمكنوا من تغيير السكن والحي. كانت أوقاتا عصيبة. توالى عدد من المتشردين الآخرين أرق وأضعف إلى حدٍّ

ما (اختارهم الكاردينال) على عملية التسليم عندما هاجر ابن حي جيناردو إلى فرنسا. كانوا من أحياء بعيدة ومن ضواح عشوائية كبيرة، من فيردوم، من لا ترينيداد، من تورّبارو. لم يتزامن اثنان قط، لم يكن ليسمح بذلك الكاردينال. فى خريف ١٩٥٢، عندما ظهر مانولو فجأةً فى جبل الكرمل، يسأل أخاه الضيافة، أخذت التجارة دفعةً فاصلة بسبب إغواء شخصى كان الكاردينال بشكل خاص على وعى به. لكن كل ذلك لم يتضح إلا فيما بعد.

– ها هى يا مانولو – قال صوت طفل إلى جانبه.

أعطى الطفل بيزيتة بقشيشًا واحتفظ بعلبة التشستر. بينما ينزل السلم سمع صفيرًا وفرقعة أعلى، فى سماء العصر الزرقاء الصافية، من بقايا الألعاب النارية لحفلة ما باليوم السابق.

فى السادسة كان فى حانة إسكوثيس فى شارع ماندري. لم يكن هناك أحد تقريبا. انتظر الفتاة مدة ثلاث ساعات. محبطًا ويائسًا عاد إلى منزله.

فى منتصف سبتمبر من تلك السنة، هو وصاحبه، أيضًا من الكرمل، ذهبا للاستحمام فى شاطئ قريب من بلانس. كان يوم أحد. غادرا فى الصباح الباكر، بدراجتيهما الناريتين وسلّتى الطعام. للمرة الأولى يصادف البيخوابارت مغامرة مثيرة مع فتاة من الحي، مصادفة مفاجئة اعتقد أصدقاؤه أنها بداية النهاية.

تركا الطريق العام، بعد أربعة كيلومترات من بلانس، وسارا فى طريق السيارات المؤدى إلى الشاطئ عبر مزرعة خاصة. على السرعة الأولى، تهاديا ببطء على الرمال. مانولو لم يعر أى اهتمام للافتة التى أنذرت: طريق خاص. ممنوع المرور. هتف مانولو:

– هذه اللافتات كلام فارغ! كيف بحق يريدوننا أن نصل إلى الشاطئ؟ بالهليكوبتر؟

– بالضبط، بالضبط!

خلفه، لاحقًا به على مسافة معينة، كان يضحك صديقه بصوت متكتم. كان اسمه برناردو سانس. فتى قصير القامة، قوى، عيناه صغيرتان وكسولتان يلتصق بهما تمامًا

أنف ضخم وفك بارز وفم ملتو قليلاً منح وجهه مظهرًا مضحكًا وحزينًا. كان سانس معجبًا بصديقه وقد يترك نفسه ليموت من أجله. هو الابن السابع لرجل غجرى قطلونى مشهور فى جليقية بتمشيط الخيل. الفتاة التى حملها على المقعد الخلفى كانت صديقته، روسا، قصيرة وسمينة ذات ساقين قصيرتين، ووجه كالبدر وثديين متضخمين.

قادهم الطريق إلى الجزء الخلفى من ڤيلا قديمة، ضخمة وهادئة، وكان عليهم أن ينحرفوا إلى الناحية اليسرى. حطموا بالدراجات النارية السور المحيط بحديقة صنوبر واختاروا بقعة ظل على مسافة قريبة من الشاطئ. فى البداية انجذبت أعينهم إلى الڤيلا الضخمة بطوبها الأحمر التى ارتفعت مائتى متر فى عظمة، قبالة البحر، وحوائطها مغطاة باللبلاب. مبنى قديم من بدايات القرن، له برجان ينتهيان بمخروطين من الإردواز يهبانه مظهر قصرٍ من القرون الوسطى بالرغم من بعض التجديدات؛ كشرفة مبنية فى أحد الحوائط الجانبية متصلة بصخور يبللها البحر؛ كان منحوتًا فى الصخور بعض درجات سلم تؤدى إلى ميناء، حيث يرى زورق راسيًا.

تأكدوا من أنهم ليسوا أول من اقتحم هذه الملكية الخاصة: كان السور محطمًا وبين أشجار الصنوبر ثمة بقايا طعام وأغلفة ورقية متسخة بالزيت. لكن لم يُر أحد، ونفس الإثارة الناتجة عن الفكرة المشوشة التى مردها أنهم واقعون تحت سيطرة يد قوية هى التى حرضتهم، فى امتداد محض للحالة العصبية ذاتها، على تحطيم عدة أمتار أخرى من السور. قال سانس:

– يا جبان، يجب ألاّ نترك أى أثر!

التزم البيخوابارت الصمت. الفتاتان، اللتان قد خلعتا ملابسهما، أخيرًا نجحتا فى صرف انتباههما عن الأعمال التدميرية عندما ألقتا بأنفسهما عليهما تضحكان مطالبتين بجسديهما باهتمام مستحق وعادل. بعد تناول الإفطار استحموا فى البحر ولعبوا بالكرة وركضوا بأرجاء الشاطئ المهجور. من وقت لآخر كان النسيم يجلب لهم موسيقى من بعيد، متسربة بلا شك من الڤيلا. مل البيخوابارت على الفور فأخذ يتجول بالشاطئ أو يدخل الغابة، دون أن يعلم أحد، ولم يظهر إلا بعد نصف الساعة. ضايقهم سلوكه ولكنه لم

يكن غريبًا: منذ فترة وهو سريع الغضب ودائم الشرود. من حين لآخر يسقط على الرمال، مبتعدًا عن الجميع، واضعًا يديه تحت رقبته.

لولا، رفيقته، لم تفلح إلا فى أن تضعه فى حالة مزاجية أسوأ بأسئلتها التوددية ورغبتها الملحة فى أن تعجبه وتكون ذات نفع، ليس بجسدها (الذي، فى رأى المُرسِي، هو الشيء الوحيد الذى يمكن لفتيات الكرمل وعليهن أن يقدمنه إذا أردن حقًا أن يساعدن فى شيء)، إنما بذكائها الفقير. حيث إنه كان متواضعًا بالفعل، وكان قد خمن أن الفتاة لا تحتمل. كانت صديقة صاحبة برناردو سانس وتعيش أيضًا بالكرمل، لكن البيخوابارت نادرًا ما فكر فيها. لم تعجبه. وافق على أن يأخذها معه بناء على طلب من سانس، الذى كان قد اختارها له مؤكدًا أن الفتاة هى الأنسب له. لكن فى المساء، بعد تناول الطعام، اختار كل منهما مكانًا هادئًا تحت أشجار الصنوبر واستلقى مع فتاته، استطاع أن يتأكد أن بين يديه مادة صلبة متعنتة عتيقة، إرث المعتقدات التى تصب فى غياهب هوة سحيقة من انعدام الثقة التى لا تقهر، تلك المادة العجيبة التى تشكل، منذ زمن، ثلاثة أرباع الأنثى التي، فى بلد جنوبي، تطمح إلى رفاهية الطبقة المتوسطة: مخافة الجسد.

بالإضافة إلى أنها لم تكف عن الكلام:

– لا، ليس الأمر أنى لا رغبة لدى – قال صوتها الحاد، ممددة بجانبه وتراقب اليدين اللتين داعبتاها مشتتة الذهن – ليس كذلك، هكذا أنا، ولا تظن أنك لا تعجبني، لطالما أعجبتني... كنت أراك تمر أمام المنزل كل ليلة، خاصة هذا الشتاء الأخير، عندما كنت تذهب فى الطريق إلى البار، ودائمًا ما ظننت أنك مختلف عن الآخرين، ليس فقط أشد وسامة، لا أعرف، مختلف، بالرغم من أنك تلعب الورق مع الكبار كل أحد فى بار ديليسياس، بدلًا من الذهاب لحفلات الرقص، بصرف النظر عن كل ما يقال عنك فى الحي، وعن أصدقائك سانس وغيره، أنكم تبيعون الدراجات النارية المسروقة وأنكم تسرقون السيارات وأن أخاك يساعدكم فى ورشة الدراجات، سترى ما سيحدث لكم فى يوم ما، سترى، هذا ما يقولون، لأنكم من أين تأتون بالمال؟ ليس لى أن أهتم، إنما هو كذلك، ليس من السهل كسب المال وأنت لم تعمل قط على حد علمي، قليلًا فقط عندما أتيت إلى المدينة،

فى ورشة أخيك، وكما أقول لك، ليس لأنى أهتم... من فضلك، ذلك لا، ليس هنا، هذا ليس جيدًا... أحيانًا كان معك نقود كثيرة، لا تقل الآن أنها كذبة، والمال الكثير لا يكسب بالعمل الشريف...– سكتت لوهلة، بعد تنهيدة غاضبة منه، ورفعت مرة أخرى حمالتى المايوه؛ انتظر لعشر ثوان وأنزلهما مرة أخرى، بلا آمال كثيرة: كانت لولا واحدة من تلك النساء ذوات الجسد المترهل والحزين، الميت. يبدو باليًا من كثرة الاستخدام لكنه ليس كذلك... وتعبير الاشمئزاز المحفور فى وجهها المتورم والمبتهج ليس من الممارسة الزائدة للجنس، إنما تحديدًا لعدم ممارسة الجنس إطلاقًا: فى تعبيراتها مزيج من السأم والطيبة وعدم الرضا، كأن أنوفهن تشم باستمرار روائح فاسدة هى بطريقة ما مفيدة للروح أو لغرورهن، أو أيًا ما قد يسمى ذلك الذى يبقيهن صامدات فى الوحدة طوال الحياة. – وليس لأنى أريد أن أتدخل فى شئونك، يا مانولو، أنا حقًا لست فضولية، واسأل من تريد، لكن أيضًا يتحدثون عنك وعن تلك الفتاة البغيضة، أورتنسيا، ابنة شقيق الكاردينال، أنت دائمًا فى منزله، ماذا يعطونك؟، مع أنى أعتقد أنه ليس لها إنما لعمها والأمور التى تجلبونها بين أيديكم، إنه لرجل غريب هو أيضًا، يبدو أنه حدث أمر بينه وبين لويس بابلو، الفتى الجليقى الذى كان ضمن عصابتك ويُقال إن الشرطة قد ضبطته فى سيارة أجنبى بينما تمكنت أنت من الهرب بأعجوبة، هذا ما يُقال فى الحي؛ ذهبت يوم سبت إلى السينما مع روسا وبرناردو ومعها، ولم تفعل أى شيء غير أنها بكت وحكت لى كل شيء... آه، لا تكن...، إنك تؤلمني...! – غطت صدرها بذراعيها، مازالت ترى أسنانه، لكنها لم تميز نظرة الرغبة ولا رقة يده التى داعبت شعرها فاستطردت فى حديثها: – أترى؟ كلكم متشابهون، وماذا بعد، إلى أن تملوا... ماذا تفعل، من فضلك ... – فقد صوتها الحزم... – هذا لا، كنت أعلم أنه سيحدث... ماذا تظن بفتاة تترك نفسها...؟ لكن قل لي، هذه الموتوسيكلات أيضا مسروقة؟ رغم أنى لم أرك ثملًا قط ولا تقوم بالأعمال الطائشة، هذه هى الحقيقة، ولنضع الأشياء فى موضعها... هذا لا، إنى أحذرك. كيف يمكنك أن تظن أني...، أين تمتلك المرأة شرفها فى رأيك؟

تركها. كان ثمة الكثير من الهمود والكثير من الخوف فى ذلك الجسد، وما بين فخذيها كان شديد البرود... استلقى على جانبه وهو يعض على أسنانه بعصبية، تاركًا ظهره ينزلق

فوق أشواك الصنوبر. فوق رأسه، على الأغصان غرد عصفور. "يا له من مكان للحفاظ على الشرف!"، فكر. سلطت الشمس أشعتها فى عينيه تماما فأراد شبه مغمض العينين أن يقاوم الضوء الباهر حتى سالت دموعه. "حياة مقرفة... نقود، نقود، وليس معى سوى عشر بيزيتات ملعونة، كل ما تبقى من آخر "ترانزيستور"، والأنكى أن برناردو لا يفيق، إنه فى ورطة حقيقية الآن، روسا تسيطر عليه، قد غيرت الفتى، تجعله يحكى لها كل شيء وبعد ذلك تذهب لتقصه كله على تلك الساقطة التى تصطنع الحياء، والآن كل الحى على علم بكل شيء، سيسمعونني، لا يهمنى موتهم...!"

نهض بقفزة. أخذ برتقالة من سلة الفتاتين.

– إلى أين أنت ذاهب؟ – سألت لولا. وفجأة كان الخوف بين عينيها – ماذا ستفعل؟ هل أنت غاضب؟...

ابتعد البيخوابارت بين أشجار الصنوبر إلى حيث استلقى سانس ورفيقته. سمعهما يضحكان. كان سانس ثملاً وهى إلى جانبه، كان يدغدغها فى ظهرها بفرع روزماري. صاح البيخوابارت «برناردو!» وسند كتفه على جذع شجرة وشرع فى تقشير البرتقالة. «تعال إلى هنا، يجب أن أتحدث معك». «الآن؟» «نعم، الآن». اعتدل فى مكانه قليلاً وبلا رغبة فى ذلك. أبدت رفيقته بوجهها ضجرها لكنها لم تجرؤ على النظر إلى البيخوابارت: ثمة خوف مستتر أجبرها على تغطية نفسها بسرعة بشيء من ملابسها، ليس الخجل من أن تبدو عارية فلم تكن المرة الأولى التى يفاجئها فيها المُرسِى هكذا، وبما أن الفتى لم يكن ما يمكن يقال عنه إنه غريب، بل أفضل صديق لبرناردو، رغم أن نظراتها أحيانًا كانت تشى بذلك: دون أن ينظر إليها (لم تستطع الآن أن ترفع نظرها إليه)، لاحظ أنها تنظر إليه دون إعجاب أو أقل رغبة، لكن كإهانة، كتوبيخ موجه إلى ما يمثله هذا التعرى لبرناردو. وكم أقلقته روسا، خاصة لجحود ما بفمها، أقرب إلى الجشع؛ فم ممرور وبلا لون، غليظ، جاف صلب كالعضلة. لها عينان عكرتان وكتفان بيضاوان يملؤهما النمش. فى لباس البحر كان يبدو جسدها جميلًا، خصر رشيق دون أدنى شك، لكنه بدين للغاية وأبيض، ولكنه بياض لزج كالبطاطس المقشرة: كان كله كشهوة زائلة، مؤقتة، مهددة بسقوط شبه قريب بسبب

البدانة، الفضيلة نفسها أو نظام الحياة البائس فى الحى نفسه الذى شوهها. الآن همست بنبرة عتاب: «كان بإمكانك إخبارنا على الأقل، أليس كذلك؟». استمر فى تقشير برتقالته ولم يقل شيئًا. دائمًا ما عرف أن هذين الثديين الضخمين المستديرين المزينين بزهرتين بنفسجيتين ومعدنيتين، اللذين ينظران إلى المرء بشدة كأنهما نظارة شمسية، بهما سر ما وقدرة مخيفة على التدمير: وجه شبه حربي، مميت، مهلك، يترك المرء أعزل كأنه أمام ماكينة حرب جهنمية تتقدم ناثرة الخراب والموت. فى هذه الأثناء، كان سانس قد اعتدل قليلًا ونظر إليه متكئًا على مرفقه، ورقبته منحنية على جانب، بشفتين تبديان الألم: بدا هو نفسه مجروحًا جرحًا مميتًا.

– الآن هل من الممكن معرفة ماذا تريد؟ قال وضحك بلؤم بفكه الكبير الذى يشبه القردة – أين لولا، هل أصبحت لك؟

– دعك من هذا الكلام الفارغ وتعال معي.

تمتمت روسا شيئًا بين أسنانها ودارت مع سانس، فخبطت ثديها الأيسر بكتفه. ضحك بقرقرة عصبية. شعر البيخوابارت أن ماكينة الموت، فى أى يوم، ستغافله وتفتح النار وتتركه بلا صديق.

– ألا تسمعنى يا برناردو؟ – صاح – هيا، تحرك!

ابتعد عن الشجرة، وجه إلى روسا نظرة أخيرة ومشى نحو الشاطئ. سانس كان قد قام فى النهاية وتبعه على مضض. استلقت روسا على ظهرها: مؤقتًا، أدوات عملها الهائلة، نداء الحب المميت، ظلا كهلامين يهتزان على جانبيهما.

عندما وطئا الرمال، دار المُرسِى بعنف وألقى بقشر البرتقال فى وجه صديقه.

– تبًا لك يا برناردو. يومًا ما سوف أسحق وجهك. قد حذرتك ألا تأخذ تلك الساقطة على محمل الجد، أتذكر؟ جعلتك تحكى لها كل شيء وكل المنطقة تتحدث عنا.

– كيف؟ – بدا على سانس أنه لم يفهم. كان وجهه فى الشمس فاحتمى منها بيده، كانت الرمال تلسع بطن قدميه وأخذ يقفز – أنت، لحظة واحدة، ماذا بك؟ دائمًا فى المنطقة يقولون ما يقولون، وما همك الأمر كثيرًا ولا أهمني. ما سبب كل هذا الغضب الآن؟

– ستنتهى بزجّنا جميعًا فى السجن. ماذا حكيت لروسا؟

– أنا؟ لا شيء. كل ما فى الأمر أنك خائف.

– أخاف؟ اللعنة عليك، احذر. الليلة الماضية لم ترد أن تعمل والسيارة كانت وحدها، ما طلبتُه منك هو أن تراقب بينما أقوم أنا بكل شيء، لكنك لم تشأ، ولا حتى الأسبوع الماضي، ولا الذى سبقه. ما الذى يحدث لك؟ أنت مغرم بها، أحقًا؟ إذًا فلتتزوج وستدفن نفسك فى ورشة كأخي، لا تستحقان شيئًا آخر!

– لا تنفعل هكذا يا رجل!

– وصباح اليوم، ما إن التقطنا الموتوسيكلات، بدلًا من أن تحملها للورشة، تأتينى باكيًا أن من فضلك نذهب مع الفتيات إلى الشاطئ، أنت وروسا، ولولا، إنها طيبة جدًا... مستحيل! أتفهم؟

سقطت أشعة الشمس عليهما وهما لا يتحركان، واقفين على الرمال، وجبهتاهما تتفصدان عرقًا. خفض سانس عينيه:

– ليس الأمر كذلك يا مانولو، إنه... لقد قلت لك الليلة الماضية، هى شيء آخر... إنى أحبها.

– تحبها. تقضى معها وطرك وتحبها؟

– احذر ما تقول. على أية حال، فهو ليس كذلك، لكن انظر الحياة التى نعيشها...

– أفضل من كثيرين يا غبي.

– فى أية لحظة قد يسجنوننا مثل بولو. الكاردينال دائمًا سكران، هذا خطر...

– أنت أحمق.

انحنى برناردو ليمسك بحفنة من الرمال.

– أتعلم؟ روسا تظن أنها سيكون لديها رضيع.

نظر إليه بيخوابارت فى صمت. قد تخطت روسا حاجز الموت.

– كلا، كذبة أكيدة – قال بعد أن فكر فى الأمر لوهلة – لا تثق بأحد يا برناردو، لا تثق بشيء. متى علمت بالأمر؟

– على المرء أن يتزوج، أليس كذلك؟

– أنت مسكين. تؤسفنى حالك. قل لي، متى أخبرتك بالأمر؟

– منذ بضعة أيام. بكت لي. لكنه ليس أكيدًا.

– أبدًا، كأنك ما علمت بالأمر شيئًا.

– لكنها تقول...

– كذب، اللعنة! الآن هى تستغلك تمامًا. كلكم واحد، أول فتاة تغويك بأنوثتها تتصيدكم. لن تحصل على بيزيتة واحدة، انظر ماذا أقول. هذا لن يحدث لي، أقسم لك بأمي.

– نفس الشيء سيتكرر معك، وسترى. – ضحك مجاملًا استرضائيًا – ماذا تقول لى عن الحقنة، عن أورتنسيا، هه؟ متصلبة وجامدة...

– يصمت – أنت ماذا تعرف، أنت أبله، لا أعلم كيف أصبحت صديقك.

قام البيخوابارت ودار حول سانس. مازالت البرتقالة معه، مقشرة فى يديه. بعد أن نظر إليها لوهلة، فصصها وشرع فى أكلها فى صمت. راقبه سانس: فجأة بدا شيء حزين فى هذا الفك، فى تلك القامة الجميلة المحبطة، فى هذين الجفنين المثقلين وفى الرموش الطويلة التى يميل لونها إلى الزرقة فى ضوء الشمس. وقال سانس:

– أعلم أنك تتحدث من أجل الحديث فقط يا مانولو. أنت شخص طيب. أفضل صديق حظيت به.

أدار بيخوابارت له ظهره:

– أقسم بأبى أنى أحذرك يا برناردو: يومًا ما سأسأم ولن تروا منى ولا حتى شعرة. جعلت كل المجموعة تكسب أموالا جيدة.

– لكن ذلك انتهى يا مانولو، وأنت لا تريد أن تفهم. انتهى أمر الكارديال، إنه سكير وجبان، وصار شيخًا. كلهم يبتعدون عنه، وأنت عليك أن تفعل نفس الشيء.

– ليس حقيقيًا. واصمت. فلنذهب من هنا. كان قد بدأ يمشى ببطء نحو غابة الصنوبر، يمسح صدره بيديه الملوثتين بعصير البرتقال. قال «هيا بنا، فلنذهب مع الفتاتين». هرول سانس كالمهر المدرب، يحرك رأسه، يرفع ركبتيه حتى صدره، كما لو كان يطأ فحمًا.

كانت نحو الخامسة عصرًا عندما سمعا صوت فرملة سيارة شديدة وصوت سيدة تكيل السباب. لم تكد الفتاتان تجدان وقتا لتسترا أنفسهما. كان بيخوابارت أول من نهض. بجانب الموتوسيكلين المستندين على السور المحطم، سيدة فى الأربعينات، تستشيط غضبًا ويداها فى خاصرتها. كانت ترتدى بنطلونا أبيض ونظارة شمسية، وعيناها ناشبتان فى السور المحطم. تقدم مانولو، عارى الصدر يتصبب عرقًا، بين أشجار الصنوبر فى اتجاه المرأة بينما أحكم سرواله. خلفه سانس بعدة أمتار. ظلت الفتاتان واقفتين تحاولان تغطية صدريهما بالملابس. بدت السيدة ملتزمة بمحاولة جنونية (إبعاد الموتوسيكلات بقدميها)، عندما أنعم بيخوابارت النظر فى السيارة الواقفة فى طريق الفيلا، من بابها المفتوح كانت تخرج فى تلك اللحظة فتاة ذات شعر أسود، ترتدى سترة زرقاء بها طيات طولية وبلوزة وقور بنفسجية بأكمام طويلة. كانت تحمل فى يديها كتاب صلوات وشالًا. كانت السيدة غاضبة:

– قد طفح الكيل! نفس القصة كل أحد! ألم تروا السور؟ اخرجوا من الغابة فورًا...! يا حقراء! – ثم أضافت عندما رأت الفتاتين شبه عاريتين– سأطلب البوليس!

– اسمعى يا سيدة– قال المُرسِى ببطء، وهو يقف أمامها بعدما انتهى من إحكام سرواله. أراح ثقل جسمه كله على جانب واحد، وقفته المتبلدة المفضلة. أخيرًا قد يستطيع أن يتخلص من كل الضيق المتراكم على مدار أيام وأيام. كان شعره طويلًا وغير مهذب، وألقاه إلى الوراء بيده، محركًا بذلك رأسه المتألق –. ماذا يحدث؟ السور كان محطمًا عندما أتينا فلا تصرخى كثيرًا.

– أنتم مخربون! ماذا يكلفكم احترام الأشياء؟ تجلسون حيث تشاءون، تأكلون كالخنازير، تلوثون كل شيء وتحطمون السور وفوق ذلك تقترفون الأعمال البذيئة مع الفتيات...! كيف تجرؤ على الظهور هكذا، يا قليل الحياء؟

– دون غلط يا سيدة، احذرى ألا أهشم وجهك.

أخذ خطوة للأمام. كانت الأمور تسير معه بشكل سيئ فى الفترة الأخيرة حتى إنه كان يرغب فى تلقين أحدهم درسًا. لكنه توقف فجأة كمن شُل بسبب شعاع ضوء. شحب وجهه وظلت نظرته ثابتة بضعة أمتار خلف السيدة: الشابة التى وقفت فى ثبات دون حركة بجانب باب السيارة المفتوح كانت تنظر إلى عينيه مباشرةً.

على الفور، تغير أسلوب المُرسِى تمامًا. أبدى ابتسامته البيضاء المشرقة، انحنى للسيدة الغاضبة وفتح ذراعيه فى تعبير مخلص بالاعتذار:

– سيدتي...، فى الحقيقة معك كل الحق. إنه الشباب، كما تعرفين، نحب أن نسلى أنفسنا... أنا فعلًا لا أجد ما أقوله لأعتذر. – رجع إلى سانس الذى كان ينظر إليه محدقًا عينيه – هيا، لا تقف هكذا كالدمية، واعتذر للسيدة!

استطاع سانس أن يتمتم شيئًا. بعد ثوان من التفكير، عادت السيدة إلى عصبيتها فقط بسبب موضوع ترك الأشياء فى مكانها:

– انظروا كيف خربتم المكان! تعبت من الحاجة لتنظيف هذه الأوراق والقمامة. هنا ليس مكانًا للنزهات، فلتذهبوا لمكان آخر... – كانت مضطربةٌ إلى حدٍ ما بسبب المنعطف المباغت الذى اتخذه النقاش، فضلًا عن فكرة غامضة بأنهم كانوا يضايقونها، فاستدارت

نصف دورة فى اتجاه السيارة وركبتها مضيفة: أتمنى خلال نصف الساعة أن تكونوا رحلتم... هيا بنا يا ابنتي، هيا، لأنه قد طفح الكيل!

أدارت المحرك. تقدم الفتى ناحية السيارة، فاقد الأمل فى تبادل نظرة مع الفتاة. بلا فائدة. يبدو أنها قد نسيته. رآها تجلس بجانب من قد تكون والدتها، عيناها إلى أسفل وخجلة. فكر فى الهراء الذى فعله. أى مشهد أمام الآنسة! يظهر وهو يزرر سرواله وفوق ذلك يقول لأمها إنه سيهشم وجهها. «أنا منحوس»، فكر بينما ينظر، بلا حيلة، إلى السيارة تبتعد ناحية الفيلا.

جال ما تبقى من ذلك المساء هائمًا كالكلب المريض على الشاطئ وبغابة الصنوبر، حول الفيلا. لولا لم تستطع فعل أى شيء لترجعه إلى حالته. لم تجد نداءاتها المستمرة كأنثى مرفوضة، والآن كأنثى مجبرة، بدأت تفهم - أخيرًا - أن الذكر مخلوق من مادة أكثر براءة وحلمًا ورومانسية مما كانت تتخيل؛ لمحت شيئًا غامضًا وصعبًا حقًا فى التعاسة اللانهائية التى سرعان ما خيمت على عينى رفيقها، أحست شيئًا حول الدافع وراء أن السلوك الشهوانى أحيانًا لا يمكن أن يكون فقط الاحتكاك الشرير والحيوانى بين الأجسام، إنما أيضًا محاولة معذبة لإعطاء شكل واضح لبعض الأحلام، لبعض وعود الحياة. لكنه كان متأخرًا جدًا، وحصلت فقط على نظرة غائبة ويدين مشتتتين، باردتين، تائهتين، تحسستا جسدها للحظة وجيزة وبعدها توقفتا. فكْر بيخوابارت ورغباته كانا بعيدين عن هناك.

فى المساء، ظل الفتى يحوم حول الفيلا على أمل أن يرى الآنسة مرة أخرى. مرة واحدة فقط، ودون أن يتاح له وقت لرد الفعل استطاع أن يراها: كانت لحظة وجيزة أطلت فيها من نافذة قصيرة، فى الحائط الخلفى المغطى بالأحجار، ومدت ذراعيها لتغلق صَفْقى النافذة بسرعة لم تفت عليه - وفى أى شيء آخر، أطلق العنان لخياله المتوهج؛ ومرة أخرى يتقدم الخيال على الأفعال: جرى كالمجنون نحو النافذة، التى انفتحت مرة أخرى ورأى منها الفتاة المسالمة تجاهد بذراعيها سيدًا صغيرًا أشقر، ثملًا، يرتدى بدلة سموكينج... لكن قدر ما ظل يقظًا لتلك النافذة، لم يعد يراها مفتوحة. سانس لم يكن يعرف

هل ينتظره أم يذهب مع الفتاتين، حيث إنه فى جميع المرات التى نبهه فيها إلى تأخره رد عليه بأن يذهب إلى الجحيم.

فى النهاية، عندما أوشك المساء على الانتهاء لاحظ الفتاة فى لحظة تخرج فيها من الفيلا متجهة إلى الميناء؛ كانت تمشى بسرعة واستدارت مرة أو اثنتين لتنظر إلى الشرفة. لكن المُرسِى صديقه، أمسك بذراعه وابتعد به قليلاً.

– ستختفى أنت من هنا مع الفتاتين.

– كيف...؟ وأنت؟

– أنا سأبقى.

– ماذا بك؟ أنت مجنون، الوقت ليل تقريبًا... ثم اسمع، كم أنت جبان، مع فتاتين سيُغرّماننى ثمن مخالفة!

– إذًا ادفعها! – خبطه على رأسه بحب –. هيا، إنك تنفق أقل من طرزان برابطة عنق. خذهما من هنا، كن طيبًا يا برناردو.

ربت على ظهره وابتعد عن الشاطئ يدنو من غابة الصنوبر. هب النسيم وبدأ القمر الوردى ينعكس على البحر. مر أمام الفيلا، على بعد بضعة وخمسين مترًا، فى اللحظة التى أضاءت فيها نافذتان واحدة تلو الأخرى. بدا له أنه سمع موسيقى الكمان غارقة فى صوت الأمواج.

كانت الفتاة داخل القارب الراسى بالمرفأ. حافية، جالسة القرفصاء، تتدلى زعانف السباحة على كتفها، تبحث عن شيء ما بين المناشف الملونة. ترتدى جونلة صفراء خفيفة و«بولو شيرت» بلا كُمّيْن، بيضاء، ضيقة للغاية فبدت كأنها صغيرة عليها. كان الموج يلعق جانبى القارب على نحو طويل ورهيف فيتأرجح المركب فى عذوبة. بعد أن قام بدورة صغيرة متسلقًا الصخور، وثب بيخوابارت إلى المَرْسَى ووقف هنيهة هناك، متأملاً الفتاة. لم تكن لاحظت وجوده بعد. متقلصة على هذا النحو ورأسها على صدرها، ساكنة، غارقة

فى ذلك الضرب من صرامة ألعاب الأطفال الفردية، كم بدت ضعيفة ورقيقة أمام ضخامة البحر – ومر ببال المُرْسِى صورة وهمية وجيزة، بقايا أحلام الطفولة البطولية: إعصار رهيب، الفتاة دون وعى فى قاع القارب، تحت رحمة الأمواج الغاضبة والرياح فيما يصارع هو ببسالة، ها قد حملها بين ذراعيه، مغشيًا عليها، تئن، ملابسها ممزقة، مبتلة (أفيقى يا آنسة أفيقي!)، دماء على الفخذين اللتين لوحتهما الشمس وذلك الخدش على نهد أشقر، لدغة أفعى، يجب أن يمتص السم بسرعة، يجب شفاؤها وإشعال النار وخلع ملابسها المبتلة حتى لا تبرد، يلتفان معًا ببطانية، أو من الأفضل أن يحملها سريعًا إلى الفيلا: معرفته بوجوب احترام عريها أتاح له خصوصية براقة سمحت له بالوصول إلى المناطق المضيئة المحرمة حتى الآن («بابا، أقدم لك منقذي...» «يا فتى لا أعرف كيف أشكرك، من فضلك، تفضل كأسًا...») وهو الذى كان قد جُرح فى ساقه عند قفزه على الصخور والجميلة بين ذراعيه (أم كان التواء من لعب التنس؟) كان يعرج، يعرج بأناقة، بأسى عندما تقدم أمام الإعجاب والأمل العام صوب الكرسى المريح فى الشرفة، صوب سلام وعزة مستقبليين ومستحقين...

– لا تمزح أيها الغريب! بدا أن رذاذ الماء الرتيب والساخر يكلمه – والمؤكد أنه فعل بلا أدنى أمل فى رؤيته ينهض للعزة العاصفة التى يتطلبها الموقف – على جانبى القارب. تنحنح المُرسِي، انقشعت الأوهام والضباب من عقله ودنا بخطى واثقة من حافة المَرْسَي.

– عليك أن تأخذى معك الموتور أيضًا يا ماروخا– قال باسمًا – فهنا يمر أشخاص لا يوثق بهم.

رفعت الفتاة رأسها بهدوء. انعكست على وجهها دهشة لا مبالية، ثم استرجعت الابتسامة.

– أحقًا؟ – قالت، عائدة إلى ما كانت تقوم به.

– كم هو صغير العالم، صحيح؟ – قال. – كنت أتساءل، فيم أتيت لأعتذر عما سبق (نكتة ثقيلة، أعترف بذلك، لكن فى النهاية، كانت نكته)، كنت أتساءل إذا كنت ستتذكرينني.

لم ترد ماروخا، بالرغم من أنها ابتسمت وأطلقت نظرات ماكرة، مازالت منشغلة بالمناشف. لاح له هذا الانشغال مصطنعًا، إن الفتاة كانت تريد أن تكسب الوقت. بسبب وضع جسدها، ارتفع الـ«بولو شيرت» عن ظهرها وأمكن رؤية جزء كبير شديد السمار وفقرات ظهرها واضحة للغاية.

– إذًا، فعلًا – أضاف–، هؤلاء الذين صحبونى ليسوا بأصدقاء لي. تعرفت إليهم بالصدفة، فى بلانس... عندما أتيت أنت ووالدتك كنت أودعهم، تقريبًا.

قامت الفتاة، ومعها بعض المناشف تحت ذراعها وحذاء الغطس معلق على كتفها، قفزت من اللنش إلى المَرْسَى. وهى تقوم بذلك سقط منها. أسرع بيخوابارت إلى التقاطه ووضعه مكانه مرة أخرى، متمكنًا بذلك من ترك يده لوهلة على كتف البنت.

– لماذا لم تأتى فى الموعد؟ – سألها مغيرًا نبرة صوته، وهو يقترب أكثر منها– أم إنك لا تذكرين؟

– بل أذكر. لم أتمكن من الذهاب.

ابتعدت وشرعت تمشى نحو الدرجات الأولى من الصخور، أما هو، فى خطوتين سريعتين، وقف أمامها وقطع عليها طريق المرور، وهو يضحك:

– انتظري، يا امرأة. لا تظنى أنى سأتركك ترحلين هكذا، بعد أن حظيت بفرصة للقائك مرة ثانية. أتعلمين أنى قضيت أشهرًا وأشهرًا أبحث عنك كالمجنون؟ أتعلمين أنى فكرت فيكِ ليل نهار، يا جميلة؟ قولي، أتعلمين؟

– لا.

ابتسمت ماروخا، وهى تخفض رأسها. كانا شديدى الاقتراب. دون قصد، حكّت بركبتها ساق الفتى. فى تلك اللحظة، أوقد أحد من الفيلا أنوار الشرفة وانتشر شعاع مضيء على الصخور، فوقهما. فى نفس الوقت سُمعت ضحكات مكتومة أنثوية وموسيقى، ثم ارتفاع فى الصوت. كان ذلك مفاجئًا لبيخوابارت على الأقل لأن مثل هذه الحوادث

الصغيرة عندها لابد أنها تفتقر إلى الأهمية والقيمة الرمزية – كانت نوعا من الإشارات المتفق عليها، المتعلقة بحلم قديم، الله وحده يعلمه. ودون أن ينتظر أكثر، مد ذراعه وجذب إليه الفتاة فى اللحظة التى بدأ فيها حذاء الغطس ينزلق منها من جديد. قبل أن يجد فمه الوقت ليغطى المسافة إلى فمها، التصقت هى به فى يأس. وكما فى تلك الليلة فى الحفلة، لاحظ بيخوابارت أن الفتاة شرعت تعانقه بشدة وبقوة عجيبة، ليس تحديدًا لشهوة تنازع نفسها، بل لاحتياج غامض للحماية، حتى تسترخى بعد ذلك وتفسح المجال للرغبة، مع تلك التحركات الملحوظة، الارتدادية والتصاعدية فى الدم، التى يجيد السيطرة عليها فى جسد الأنثى. كانت هذه لغة فهمها بطريقة أفضل وطمأنته.

سيذكر لمدة أعوام رحيق لقاح الصنوبر، وشيش الأمواج، قطرات الماء الرقيقة على جانبى اللنش؛ سيذكر دائمًا أعمدة الفيلا المذهلة شاهقة منيرة فى سماء مليئة بالنجوم، ونوافذها الكبيرة تطلق فى الليل دفقات من الموسيقى ونورًا وخصوصية، وعطورًا زوجية، ووقع خطوات وضحكات، بينما أضاء القمر عاليًا خفيفًا مهيبًا كالقربان المقدس. انتقل الدفء وطلب المطلق إلى بطن الفتاة فاستسلم ذاك القوام الرقيق كالحية وتفتّحت كنبتة سنية عطشى تستقبل المطر، بشدة وفى وضع جريء للغاية لم يتركا له إلا أن يشك للحظة فى كونها آنسة. فجأة خفضت قميصها وابتعدت قليلًا تاركةً رأسها مستندًا إلى صدر المُرسِي. قالت بصوت خفيض:

– إنهم ينتظروننى على العشاء. إنهم ينتظرونني...

لم يفكر فى الأمر مرتين. همس فى أذنيها:

–ماروخا، سآتى الليلة لأراك. عندما ينام الجميع، سأدخل من نافذتك...

– اسكت. أنت مجنون.

– اتركني، اتركني...

أرادت أن تتحرر منه لكنه لم يدعها تمشي.

– لا، حتى تقولى لى أين تنامين.

بادرته بلا نفس:

– لكن ماذا تظن؟ من قال لك إني...؟ –

وهو أسكتها بقبلة جديدة، هذه المرة رقيقة للغاية، احتكاك بسيط،...، قبلة رقيقة كاعتذار أكد بها هدف أن تغفر له كل الذنوب إلا الذى كان فى نيته اقترافه حالاً. بالرغم من ذلك، لم يكن لديه آمال أن تشير له إلى غرفتها.

– هل هى تلك التى طلعت منها هذا المساء؟

رمقته الفتاة بنظرة خاطفة وقلقة. قبل أن تهرب بين الصخور، شدت على ذراعه بقوة ونظرت إليه بعينين رطبتين: «من فضلك... سأصرخ إن أتيت، أقسم لك أنى سأصرخ». وأخذت تركض على السلم إلى أعلى، حتى اختفت.

ظلت النافذة مغلقة مدة أربع ساعات. بعض الأمتار لأعلى، ظلت أضواء الشرفة تحتفل بالليل، وهو، جالسًا على الجذع المقطوع من شجرة صنوبر، وذقنه فى كفه وعيناه راشقتان فى تلك النافذة. ظن أنه يعيش أسوأ لحظات وجوده. أحس بالبرد فى ظهره، وشيء داخله، هناك فى الداخل فى أحشائه، راح يجتر التعاسة القديمة التى جرت فى دمه منذ طفولته. قال لنفسه «إنها لا تريد، لا تريد». سمع موسيقى أسطوانة، أصوات شباب فى الشرفة، ورأى رجلًا يأتى فى سيارة، سيدًا ذا شعر رمادى ومظهر مرموق استُقبل بصيحات ترحيب سعيدة. بعد ذلك، صمت ساعة العشاء الرهيبة، توديع الصديقات، من جديد برهة لمحادثة، متحفظة، وفى النهاية صمت تام وحاسم. لم يعد ينظر إلى النافذة، كان يسند جبينه إلى عضده، انطفأ آخر أضواء الفيلا، واحدا تلو الآخر، كل شيء انتهى. «لا تريد، اللعنة، لا تريد».

.... لم يحدث من قبل أن كان لأحد مثل نظرة الكلب البائس هذه، ولا تعبير بذلك الحزن، ولا معرفة لحظية وحيوانية برحابة الليل، ولا بشدة الأمواج العدمية، نفس الإحساس بالهجر جعله ملتصقًا بالمكان هنالك، دون قوى، دون رغبة، منكمشًا على جذعه،

بعينين مفتوحتين فى الظلام ونفس وضع الجنين الذى كان عليه؛ حاضنًا ركبتيه. عدم اكتراث القبة الزرقاء من فوقه كان بمثابة مخدر لمدة ساعات: سكون تام فى وجهه، تعبير ذهول شديد لاح منصهرًا فى الفراغ الكونى نفسه الذى ينأى كثيرًا عن كل إحباط. آآآه!، صوت قمة شجرة الصنوبر أعلى رأسه هزها الهواء.

تأخر قليلًا فى الانتباه. أولًا تخلل شعاع الضوء من صَفْقى النافذة، وانطفأ سريعًا مرة أخرى، ثم اصطكاك خشب النافذة الشديد بالحائط: كان بيخوابارت قد قام، مبتدئًا بعقله أكثر من قدميه سباقًا سريعًا نحو الفيلا، بينما ظل، فى الواقع، ساكنًا، يسرح شعره بيده ويصلح من ملابسه. ثم، كلما اقترب من الحائط المغطى باللبلاب، لاحظ النافذة المفتوحة والظلال فى الداخل، أكثر كثافة من الليلية. كان عليه أن يدهس أجمة زهور تلاصق الحائط. وقف. كانت النافذة تصل لصدره. لم يسمع أى ضجة. قبل أن يقفز بالداخل نظر: لا شيء، غير بقعة الملاءة البيضاء فوق القد الذى لا شكل له. دخل دون ضجيج، زاحفاً مباشرةً نحو السرير.

رأسها لأسفل، تحيط بذراعيها الملاصقين إلى الجانبين جسمها بالملاءة، وبظهرها الذهبى من التعرض للشمس، ماروخا، بدت نائمة بهدوء. وجهها برز جميلًا وواضحًا على الوسادة. تردد الدخيل لعدة لحظات واقفًا عند قدم السرير، يسمع دقات قلبه، وبعد ذلك اقترب منها وإنحنى على رأسها. تخللته رائحة السرير الدافئة والبشرة الأنثوية، عطر من شعرها، وتبخر شعرها. بقى لوهلة يتمتم باسم الفتاة، شفتاه ملتصقتان بأذنيها، أخذها بعد ذلك برقة من كتفيها، لكن سرعان ما وجد نفسه مجبرًا على أن يحملها. ماروخا، بالملاءة مشدودة إلى صدرها، نهضت.

– كيف تجرأت...؟ قلت لك إنى سأصرخ!

– وأنا قلت لك إنى سآتي. يجب أن نتكلم، ماروخا، أريد أن أقول لك شيئًا. لن أمشى من هنا دون أن أقولها لك...

قفزت من السرير إلى الجانب الآخر من الغرفة، وظلت هناك واقفة، ملتفة بالملاءة. هو أيضًا قام، تقدم نحوها، ليهمس: «يا ربي، لا أستطيع أن أصدق»، محشورة بجانب

المنضدة. وجهها وكتفاها السمراوان اندمجا مع ظلال الغرفة. قالت فى نبرة مقاربة للبكاء:

- سأصرخ إن لم تنصرف الآن، أتسمعني؟! سأصرخ...!

تجمد المُرسى فى مكانه. كان قد لاحظ شيئًا جعله يتخلى سريعًا عن أى شك من الممكن أن يقضي على احتمالات نجاحه؛ لم تكن نبرة التحذير نبرة على حافة الصراخ حقًا، بل افتقرت إلى الصدق، إيماءة بكفها استطاع أن يميزها بوضوح رغم الظلام، قامت برفع أناملها إلى خلف رقبتها لتهذب شعرها، مالت برأسها برقة غير مبالية هادئة لاحت تلقائية بفعل التدلل الأنثوى فى أقل اللحظات مناسبة. انصاع البيخوابارت كعادته لما أملته عليه غريزته وتقدم نحو الفتاة مادًا لها يده واثقًا بنفسه. قال:

- يا حبيبتي، لا يمكنك خداعي. هيا اصرخي.

عم الصمت، وفى تلك اللحظة تأكد تمامًا أن تلك الفتاة ستكون له. فى نفس الوقت تقريبًا، بدأت تئن بضعف تاركة نفسها تسقط جالسة على السرير ورأسها يتدلى على صدرها. جلس الفتى الجنوبى إلى جانبها وأحاطها بذراعه، قبل عينيها برقة، بإحساس صادق، حتى جفف دموعها، الحارقة، عانقته بذراعيها، وفى النهاية تمددت على ظهرها وأزاحت الملاءة.

ركبتاها البرونزيتان برزتا فى الظلام، مرتجفتين، مغطاتين بطبقة رقيقة من العرق والدهشة: رأى رأسها الجميل المتمرد منحنيًا فى عنفوانه وهى تغوص فى الأغوار ثم تريح جبينها على بشرة لم تحرقها شمس الشواطئ الحمقاء بل الرغبة. أما هو فعلى العكس، كانت ملامسة شفتيه ذلك الجسد اليافع البرونزى وحفظه فى الذاكرة والعينان مغلقتان، يعنيان أيضًا الإحساس بطعم الملح فى فمه، انتهاك السر الغامض لشمس مجهولة، لمجموعة من الصور الخلابة والزاهية التى ما زينت قط «ألبوم» حياته.

وكل شواطئ هذا العالم، قبعات الفتيات الغريبة، ملابس من أرقى الأنسجة الزرقاء والخضراء والحمراء، صنادل بدائية بأقدام سمراء ذات أظافر مطلية، مظلات بألوان

متعددة، نهود تهتز تحت قمصان مقلمة وبلوزات حريرية، ابتسامات مشرقة، ظهور عارية، أفخاذ ذهبية وادعة، مبللة ومشدودة، أياد وأعناق، خصور رائعة الجمال، أرداف مكتنزة بالأموال، كل الشواطئ الساحلية الساحرة تشع راقدة فى الشمس موسيقى ناعمة، من أين تأتى تلك الموسيقى؟ قدود، أعناق رشيقة، ملامح متناغمة على نحو مثير للإعجاب، شفاه مطلية تنتهى إلى سحابتين تشبهان ثمرة الفراولة، وسيقان برونزية، طويلة، هادئة ورزينة فى ومض الشمس تمامًا كالسحالى الذهبية، تلك الموسيقى، أتسمع؟ من أين تأتى تلك الموسيقى؟ انظر إلى الأثر الفضى الذى تخلفه وراءها الزوارق وشراع القارب الأبيض واليخت الذى يحيك به الغموض، انظر نهدى الأجنبية، تلك الموسيقى، تلك الصورة، رائحة حدائق الصنوبر، الأذرع، القبلات الهادئة والطويلة برائحة الكارمن المعسولة، التنزه بعد الظهر على ممشى الحديقة، الليالى المخملية، الارتخاء تحت الشمس...

بعد ذلك، فوق جسد الفتاة، ومرفقاه مثبتان تمامًا فوق كتفيها، فرض إيقاع حركته: شعر فى ظهره بيديها الصغيرتين تنزلقان، تتحكمان فى جهده، والمداعبة الأخرى بلا شكل والمحسوسة جدًا بكل وجوده الحقيقي، لهذا الذى ارتفع مع الفيلا كلها بزهو فوق الجسدين، فوق الظلام وفوق نفس السقف: كل وزن الغرف الأخرى، الأثاث، السلالم المفروشة بالسجاد، الصالونات، النجف، الأصوات. تسلل إلى داخل الفتاة كمن يدخل مجتمعًا جديدًا: فى نشوة، متعقلاً، مبتهجًا ومحلى بإيماءة وهمية...، حلم المراهق البائس، الضائع.

لاحظ، بالإضافة إلى ذلك، شيئًا مهمًا فى الشائع: لم تكن الفتاة عديمة الخبرة، وهى الحالة التى جلبت إلى عقله لحظة ارتباك مهتاجة ومتنقلة. لم يكن مجرد إحساس إنما أيضاً حدس، انسحاب حاد فى الدم وفراغ فى الذهن لكنه مر من هناك وسرعان ما تبخر.

وقبل أن يطل الصباح من النافذة، قبل أن يُرى الضوء الرمادى الذى يسبق الشروق ويبين الأشياء بالغرفة، قبل أن تغرد القُبَّرة، لم يكتشف خطأه غير المعقول والفظيع. فقط حينها، ممدًا بجانب الفتاة التى كانت نائمة، بينما مازال يبدو نائمًا وارتسمت ابتسامة سعادة على شفتيه، بدأ ضوء النهار يكشف فى عريه السخيف الملابس السوداء من الساتان المعلقة على المشجب، المئزر وغطاء الرأس، فقط حينها فهم الحقيقة المزعجة.

كان فى غرفة خادمة.

لم تكن جميلة،

كانت أسوأ.

فيكتور هوجو

لم يكن يعى الساعات الطوال المتكدسة التى قضاها بين أربعة جدران حزينة، التى ربما اكتنفت فى أحد الأيام حلما أعزل ومعتوها كحلمه: وأول ما انتابه رغبة فى صفعها.

نهض فى حركة مفاجئة وجلس فى الفراش، منبهرا ومذهولا وقد اتسعت عينه كالطبق. فإلى جانب ما ينفحه هذا الفجر من معنى بذىء وفظ، فإن الحجرة لم تكن بها أية مزية: كانت حجرة صغيرة سقفها عال وموحش، بها صوان ملابس ذو صفحتين، ومنضدة إلى جانب الفراش، وكرسيان ومشجب. على المنضدة منبه، وعلبة تبغ أصفر، ورواية حب من التى تباع بخمس بزيتات، وصورة فى إطار ترى فيها ماروخا إلى جانب سيارة ماركة «فلورايد» متوقفة أمام المدخل الرئيسى للفيلا، وهى مرتدية زيا من الستان الأسود ذا ياقة منشاة وفتاة شقراء ترتدى بنطالونا تحمى عينيها من الشمس بيديها: كان وجهها مظللا ومن الصعب تعرفه. فى المقابل كان وجه ماروخا مضاء إضاءة جيدة لكنها كأنما تبدأ فى التحرك نحو الخلف، نحو باب السيارة المفتوح، كأنما تفكر فى أن الصورة قد تبدو أفضل إن هى أغلقت باب السيارة.

سقطت الصورة على الأرض بخبطة يد شديدة. فى لمح البرق، مثل أولئك المحتضرين الذين، كما يقال، تمر أمام أعينهم صور مسرعة وحميمية من شريط حياتهم قبل موتهم بثوان. فى تلك اللحظة نفسها استلقى مانولو فى الفراش قبل أن تنطلق يده غريزيا لتصفع وجه الخادمة وتوقظها، وأسعفه الوقت ليلاحظ كيف تمر بذاكرته، فى أحد أعشار الثانية،

صورة هى الأكثر إلحاحا منذ طفولته، والتى ربما نحتت فى ذاكرته بتفصيل أكبر: طليقا فى الزمن، تحت سماء نابضة منجومة، عاد ليعانق الفتاة ذات البيجاما الحريرية.

تقلصت ماروخا فى الفراش وقد أغمضت عينيها. لم تزفر زفرة واحدة. ظلت وهلة تغطى رأسها بذراعيها، فيما بعد لم تفعل ذلك حتى: ساكنة، غير مبالية بالصفعات، خانعة، فى استرخاء عضلات فخذيها التام تحت البشرة السمراء، بدت وكأنها تعلن وشاكة ارتجافه متعة لم يتوقعها، ومن ثم توقفت يد المرسى الذاهلة على بعد سنتيمترى من الجسد العارى الدافئ الذى تقلب فى الفراش نحوه. وكأن إيقاظها صفعا لا يمثل لها أية مفاجئة، وكأنها اعتادت الفكرة منذ وقت بعيد. فيما بعد، قفز مانولو من الفراش واتجه إلى النافذة، ارتفقها ولبث ينظر إلى الخارج، خلف الظلال التى مازالت تطفو بين أشجار الصنوبر. رقصت على شفتيه ابتسامة غامضة وحزينة. همس لنفسه:

– هى إذا مرمطونة. مرمطونة مبتذلة وحقيرة! يا للسخرية!

وهى لم تجرؤ على الحركة. وقد التهبت وجنتاها وعضداها. وهى متقلصة فى طرف الفراش، مدت يدها لتلتقط الملاءة وتغطى نفسها، لكنها سكنت مرة أخرى عندما سمعت عبارة الفتى: «اللعنة، أجل، إنه لأمر ساخر!» عادت اليد سريعا إلى مكانها فوق القلب. كانت تلمس صدرها بركبتيها. والآن راحت عيناها تراقبان تحركات المرسي. سأل وهو يتحرك:

– من صاحب هذه الفيلا؟ ألا تسمعينني؟

وماروخا لم ترد. بل أطلقت نظرات حسيسة وباكية نحو الشاب، نظرات خائفة، وناعسة، مترعة بملاحة خاصة تنم طبيعتها عن أمر ما، توحى بشيء عميق ووضيع كان هو يعرفه تمام المعرفة وتعرفه فى الحال: كان من نوع النظرة الأخوية التى تطلب التوحد فى الشقاء، العزاء المتبادل بين كائنين سقطا فى التعاسة نفسها، والبؤس نفسه والنسيان. كانت دفقة من التضامن المروع التى تهب على الجموع التى وحدتها المصائب، كما فى معسكرات الاعتقال؛ أو كالمصائر المتماثلة فى مخور، إحساس مترام من الاستسلام والخنوع كان يصيب مانولو بالرعب منذ طفولته وكتب عليه أن يقاومه فيما تبقى له من العمر.

– أجيبي، أيتها الشقية، من صاحب هذا المنزل؟

ظل مرتفقا النافذة وينظر إلى الفتاة. كانت تستشعر عنفوان هذا الجسد، انحناءة خفيفة لهذا الظهر البالغ القوة وهو فى وضع غير مكترث وكسول يبدأ من المؤخرة جعل ضوء النهار الشاحب يتسلل من كتفيه ويتلاشى عند خصره الرشيق والداكن. خفضت الفتاة عينيها وقالت:

– لم تريد أن تعرف ذلك؟

– هذا لا يعنيك فى شيء، أجيبي، من يحيا هنا؟

– سادة، اصحاب الفيلا.

– سيداك؟

– أجل...

– ما اسمهم؟

– آل سيرات.

هز مانولو رأسه فى أسى. وقاومت ابتسامة مستهزئة كى تشق طريقا لها وسط تعبير وجهه المزدري. وقال:

– يا لعملك هذا! وماذا يفعلون هنا غير الاستحمام وحياة اللهو.

– لا شيء... يقضون فصول الصيف.

– أهم شديدو الثراء؟

– أجل... أعتقد ذلك.

– ولا تعرفين حتى العالم الذى تعيشين فيه، يا لك من غبية. أهم كثيرون؟

– ماذا؟ –كانت ماروخا تتكلم همسا– كلا، يأتى السيد فى نهاية الأسبوع فقط.

– بالأمس كان هنا العديد من الناس.

– أصدقاء الآنسة.

– لا أسمعك!

– أصدقاء الآنسة.

عاودت ماروخا إغماض عينيها. ظل يحدجها ببصره فى فضول: الخليط نفسه من الأحلام الذى جاء به إلى هذا المخدع حدا به الآن إلى تقدير وضع الفتاة فى سخرية لا تخلو من نوع من الأسى. دنا من الفراش.

– تظنين أنك ذكية، أليس كذلك يا صغيرتي؟

نفت هى بهز رأسها عدة مرات على نحو لا يكاد يدرك. ومرة أخرى كانت على وشك أن تجهش بالبكاء. كانت تعض على شفتها السفلى وكانت عيناها تومضان فى الظلام كجمرتين. همست:

– ريكاردو...

– لا أدعى ريكاردو! وسنوضح أمور كثيرة هنا، وأنت أولا.

جثا على ركبتيه أمام الفراش، فنهضت ماروخا وجلست عند طرف السرير وقد استدبرته، ومست شعرها بيدها. قالت بما تبقى لها من صوت:

– ينبغى أن أرتدى ثيابي. لابد من إعداد الفطور.

– اهدئي، مازال الوقت مبكرا.

– هى تستيقظ دائما فى وقت مبكر جدا...

صرخ هو فيما يخمن القشعريرة التى سرت فى النخاع الشوكى للفتاة فجعلها تنتصب. اعتدلت ماروخا ويدها لاتزال على رأسها وجلست مولية له ظهرها قليلا، مظهرة جانبها وعيناها خفيضتان:

– لا تستدبرينى وأنا أحدثك. هكذا أفضل. من هي؟

– الآنسة تيريسا.

– من؟ –أخذ يفكر، ويتذكر–. شقراء الحفل التى قلت إنها صديقتك...؟

– أجل.

فى بطء تمدد المرسى فى الفراش بشهوانية. «تيريسا»، همهم وقد نشبت عيناه فى السقف، وربما نمت نظرته عن أنه لم يخطئ الفتاة بل الحجرة.

ولما أزمعت ماروخا القيام، شدها بقوة من ذراعها وأجبرها على مواصلة الجلوس.

– والآن احكى لي، أيتها الجرباء لم فعلت ذلك؟

– ماذا فعلت؟ لم أفعل شيئا.

– تدركين ما أرمى إليه، لقد كذبتنى مثل كامرأه حقيرة.

– هذا ليس صحيحا. الذنب ذنبك، قلت لك ألا تأتي. لا أدرى فيم تفكر بشأني، لكننى لم أخدعك مطلقا. ظننت أنك...

– أنى ماذا.

– ظننت أننى أعجبك قليلا... وأنك أحببتنى قليلا. فقد قلت لى فى الاحتفال بيوم القديس يوحنا وقلت لى هذه الليلة أشياء جميلة.

– أأنت معتوهة! ماذا تظنين، أننى بهذه السذاجة؟ ماذا كنت تفعلين فى الحفل بحق الجحيم؟

– من فضلك دع ذراعي، أنها تؤلمني.

– ماذا كنت تفعلين هناك، خادمة وسط بنات الذوات هؤلاء؟ أجيبيني!

– والآن أنا متعجلة –وحاولت النهوض– من فضلك!

جعلها تلتفت إليه تماما، وبعد جهد ليضغط ذراعها تأهب ليصفعها بظهر يده. لكن الفتاة احتضنته باكية. وهمهم المرسى بلعنة، بدأ يشعر برغبة فى أن يصفع نفسه، وجعل الشك يساوره أن الأحمق الوحيد فى ذلك المكان كان هو. ران صمت طويل لا يقطعه سوى أنين ماروخا التى دفنت رأسها فى صدر الفتى. وود مانولو لو أنه ابتعد مائة كيلومتر عن المكان، لكن شيئا كان يحول بينه وبين التخلص من الفتاة. وفجأة، انطلق جرس المنبه ليؤذى طبلة الأذن بصريره المعدني. فبدا له أن كل شيء بدأ يرتجف، وداخله شعور بأن ذلك الجهاز الملعون يدق داخل رأسه.

– ما أتعس حظي!

شرعت تقول لكن مانولو تملص منها وتمدد فى الفراش:

– لو أنك حقا تحبنى يا ريكاردو...

– إلى الجحيم، أتسمعين؟ واسمى ليس ريكاردو بل مانولو!

مازال المنبه يدق ويرتجف فوق المنضدة كأنه حشرة جريحة تحتضر. ثم بدأ يهدأ شيئا فشيئا. عادت ماروخا إلى نفسها وضغطت المنبه وقامت من الفراش مطأطئة الرأس تجفف دموعها بساعدها.

– لابد أن أرتدى ملابسي، لأن تكلا من المؤكد أنها نهضت.

– من تكلا؟ خادمة أخرى؟ يا له من اسم!

– إنها الطاهية.

– اغربى عن وجهى فى أسرع وقت، فلا أريد رؤيتك.

قامت عارية بخطى مرنة وخجلة وذهبت أولا إلى النافذة وواربتها. فوجئ مانولو وانتابه الإعجاب حين رأى جسدها يتحرك: جسد له النعومة الوادعة للنساء المتزوجات، ليونة راقدة، اهتزاز رهيف للأجزاء البضة، مستقل تماما عن حركة الردفين العدوانية فى انحنائهما الخفيف إلى الأمام وعن حركة باطنى الركبتين المتكاسلتين والرشيقتين معا.

وفى عدة ثوان نشأ توازن حيوى بين الركبتين المثنيتين فى التو وانحناء محيط الساق التى تتقدم واهتزاز الأجزاء الأكثر حساسية من الجسد. كان سحر الجسد صادرا من انضباط ما، فى اقتصاد ما فى اللفتة لا علاقة لهما بالخفر أو الحياء بل بعادات الأثرياء الحميدة والنظام الغذائى المناسب الذى من المؤكد أن يتمتع به السادة الذين تعمل فى خدمتهم ،والذى قد يكون من الصعب تحديد ماهيته، والذى من الطبيعى أن تفيد منه بعض الخادمات لصالحهن. قال لنفسه «ما أرقاها هذه البغية لذا خدعتني». واكتملت مفاتنها بكتفين نحيلتين ناتئتين قريبا يزداد حسنهما على نحو غير مباشر بسبب ردفيها المشدودين، ونهدين صغيرين كثمرتى ليمون لا يتجهان إلى الأمام بل يشكلان زاوية مفتوحة، وكان فى هذه اللحظة يسجلان الهزة الجيلاتينية الرهيفة لإيقاع المليح المنتظم لخطاها.

بعد أن واربت صفقى النافذة، التقطت الصورة الفوتوغرافية الملقاة على الأرض ومسحت عليها بيدها. سألها:

– أهذه الصورة لك؟

– أجل.

– ولم تحتفظين بها؟ يا للعبث! ومن هذه التى معك؟

– الآنسة. كان ذلك حين اشتروا لها السيارة... هى أهدتنى الصورة.

– حسن! أنت عاطفية حقيرة.

تركت ماروخا الصورة على منضدة الفرآش فالتقطها هو. قال وهو يجرب نبرة لامبالية: «لنر». وعبثا حاول استدعاء شقراء الحفل: غطى ظل اليد التى تحمى العينين الوجه باكمله ولم يتمكن إلا من التعرف على لون الشعر وشكله وتصفيفته التى على شكل شعر مسترسل وناعم. ذهبت ماروخا إلى الصوان وبدأت ترتدى ملابسها. قالت:

– لم تتحدث دائما يا مانولو بهذه اللغة الشديدة القبح؟

– أتحدث كما أريد، أفهمت؟

ترك الصورة على المنضدة وظل ينظر إلى السقف. تنهد بعمق والتفت إلى أنه مرتاح نفسيا لوجوده هناك... همست بعيد لحظة دون أن تنظر إليه:

– أمازلت غاضبا؟ لم يجبها الفتى وقالت له وهى تلتفت:

– ماذا ستفعل؟ لقد تأخر الوقت.

– هلا صمدت؟

ابتسمت له ماروخا فى حياء. أغمض عينيه ويداه خلف عنقه. بعد وهلة سمع وقع أقدام تتقدم إليه ثم شعر بثقل طرى فوق صدره. ولفه العطر العذب الصادر من جسد الفتاة. سمع صوتها كأنه فى الأحلام: «مانولو يا حبيبى لا يمكنك المكوث هنا...» فتح عينيه على عينيها السوداوين الباسمتين واللامعتين على بعد سنتيمترات من وجهه. وتمكن أيضا من روية ندبة ضاربة إلى الحمرة على إحدى وجنتيها. قال لنفسه: «حيوان، حيوان حقا». غمغم فيما انزلقت يداه إلى ردفى الفتاة:

– إليك عني، أيتها الجرباء.

– لا تسبنى هكذا، من فضلك. –قالت له فيما تقبله وتعض ذقنه–. تعلم أنك وسيم جدا. أنت أشد وسامة ممن عرفتهم من الفتيان. ووسامتك تبعث على الخوف.

– دعك من هذا الهراء وأخبرينى من كان الأول؟

– ماذا؟

– هيا، لا تصطنعى الشرف. من كان الأول؟

وهى أخفت وجهها فى عنق المرسي. سألته:

– لا تسخر مني، عدنى ألا تسخر منى إذا أخبرتك. خطيبي. كان من جزر الكنارى ويؤدى الخدمة العسكرية فى برشلونة. لم أره ثانية.

– أكنت تحبينه؟

– فى بادئ الأمر.

ضج مانولو بالضحك:

– كان لابد من أن يكون جنديا. كم كنت حمقاء. ألا تدركين أن الجنود أوغاد ينشدون مضاجعة الحمقاوات من مثيلاتك؟

– لا تتفوه بعبارات بذيئة.

– من أين أنت؟

– أنا؟ من غرناطة. لكننى أعيش فى قطلونيا منذ الصغر.

– ووالداك؟

– والدى فى ريوس، والدى ناظر مزرعة ملك السيد سيرات، ولقد نشأت هناك حيث تعرفت إلى الآنسة التى كانت تأتى لقضاء الصيف فى مزرعة والديها. صرنا صديقتين مقربتين منذ الصبا. والآن مضى زمن منذ أن أقلعوا عن قضاء الصيف هناك لأنهم صاروا أكثر ثراء... توفيت والدتى وأنا دون الخامسة عشرة فأحضرتنى السيدة إلى برشلونة لأعاونها فى المنزل.

تحدثت أيضا عن جدتها وعن أخ لها على وشك الالتحاق بالخدمة العسكرية، جميعهم فى ريوس. واصل هو لمساته. وحين حاول أن يجذبها إلى الفراش، تملصت منه ووقفت على قدميها فى قفزة....

– كلا تأخر الوقت، من الأفضل أن تذهب.

– بالطبع، أيتها الجرباء! ماذا تظنين أننى فاعل؟ ما سأفعله هو أن أتخلص من وجهك فى أقرب وقت، هذا ما سأفعله.

قفز من الفراش وارتدى ملابسه بسرعة. واتجه ناحية النافذة وحين رأت ماروخا إحدى ساقيه خارج النافذة ركضت نحوه.

– انتظر! أستذهب هكذا؟ متى أراك مرة أخرى؟

كانت تحمل يدها اليمنى علبة خشبية ذات نقوش، وكانت قد شبكت فى التو حلقا فى أذنها، كى تفاجئ الفتى به. أما هو فكان قد قفز من النافذة وسقط بين أصص الزهور ينظر إلى البحر بشيء من التوتر فى عينيه فيما يدخل أطراف القميص فى بنطالونه. ثم صفف شعره بيده إلى الخلف. نظرت إليه ماروخا من الشرفة بعينين حزينتين وهى تستكمل ارتداء ثيابها. خلفه كانت أشجار الصنوبر لاتزال تنفس سكونا ليليا ثقيلا لا يقطعه إلا وشيش الأمواج على الشاطئ. كان النسيم وادعا ولا شيء ينذر ببزوغ الشمس. حينئذ احتقن وجه مانولو وهو لم ينظر بعد إلى الفتاة: من تعبير وجهه بدا وكأنه يرصد هزة زلزال عميقة أو أصواتا بعيدة ضالة يعيدها الموج الآن ويتركها معلقة، تتذبذب فى هواء الصباح المنعش. ثم حدج ماروخا ببصره وارتسمت على وجهه ابتسامة.

– هذه حلى؟ من أين لك بها؟ أهى هدية من السيدة؟

– هذا الحلق، لا. ابتعته منذ أسبوع. أحقا أليس أنيقا؟ اسمع، متى أراك؟

نشب مانولو عينيه فى العلبة الخشبية. صاح وهو يدور نصف دائرة صوب غابة الصنوبر:

– قريبا جدا. إلى اللقاء، أيتها الجرباء!

كانت الدراجة النارية حيث تركها. خرج بها إلى طريق السيارات وانطلق بها بسرعة تثير الدوار صوب برشلونة. طوال الرحلة تملكته فكرة واحدة: مرة وأخرى تمثلت له ماروخا فى الشرفة وفى يدها علبة حليها البائسة.

بلغ المدينة حين كانت الشمس قد صبغت جبل الكرمل باللون الوردي، فى اللحظة التى كانت تقفز فيها من فراشها لولا فى شارع مولبريج لتذهب إلى عملها، منحرفة المزاج ومكتئبة، وغاضبة من نفسها للمرة الألف. التقت بمانولو وهى فى طريقها إلى ميدان سانيي، فى أحد منعطفات الطريق إلى الكرمل: هادئ، شارد الذهن، متناءٍ، شعره الأسود يتطاير فى الهواء كجناحى طائر قبيح المنظر، معقوف فى تأمله نفسه ومن جراء السرعة

الجهنمية نفسه التى استمر عليها منذ بداية الطريق، وكانت صورته الجانبية تشق الطريق مثل مقدمة سفينة وسط ضوء الصباح الفج. والشيء الوحيد الذى لفت نظر الفتاة وقد لفتها تلك الضوضاء المثيرة للصمم للدراجة ماركة «أوسا»، كانت تلك الصورة الجانبية لأحد الطيور الجوارح، وهو يطير فوق مقود الدراجة، فى لقطة فى عشر ثانية فى ضربة رمش ذاهلة.

وفيما يصعد إلى قمة جبل الكرمل طرأت عليه الفكرة لأول مرة: سرقة حلى الفيلا. لم ير لولا إلا بعد أن تجاوزها: وانعكس ظهرها على المرآة العاكسة للحظة التى شوهت مظهرها فى محيطها المحدب والبارد، فجعل حجمها يتضاءل حتى تلاشى.

إن رجل العصابة خاطر بحياته

كى تظل الشقراء تلوك اللبان.

(من فيلم روائي)

من قمة جبل الكرمل ووقت الشروق تسنح فى بعض الأحيان فرصة لرؤية مدينة مجهولة ترتقى الضباب، بعيدة، كما لو كانت فى الأحلام: مازالت تطفو قطع من الضباب وظلال ليلية أخيرة فوقها كالغبار الفظيع الذى يعتم الرؤية عند الاستيقاظ من النوم، وفقط بعد ذلك بقليل، فى سكينة، كما لو كان فى السماء ستار كبير ينقشع. فى بقعة ما يتسع ضوء صاف وسريعًا ما يسقط مستقيمًا، يرتطم بمياه المتوسط ويأتى مباشرة إلى جانب التل حتى يسطع فى زجاج النوافذ ويبرق فى أكواخ الصفيح. نسيم البحر لا يمكن أن يصل إلى هنا ومن قبل بكثير يكون قد مات، مختنقًا ومتشتتًا بسبب البخار الملوث الذى يرتفع فوق أحياء القسم الساحلى المختلطة والحى القديم، بين عوادم مداخن المصانع، لكن لو يستطيع، لو كانت المسافة أقصر - فكر بحنين للماضي، جالسًا على حشائش حديقة جويل بجانب الدراجة النارية التى انتهى من سرقتها - لصعد إلى هناك إلى أعلى أسطح بلا سالود، فوق ملاعب التنس والمنازل ودور المعاقين، لصعد شارع الكرمل دون أى احترام بلا شك لطرقها التى تشبه الحية (تمامًا كما يفعل أهل الحى ليختصروا الطريق عبر الممرات) ولاخترق حديقة جويل وصعد جبل بيلادا، لينتهى به الأمر مستقرًا هناك، بلا رائحة وبلا حياة، دون تلك القوة التى يُفترض أن تكون قد وُلدت هناك فى البحر المتوسط، والتى جعلته يمتطى الأمواج المليئة بالرغوة لأيام وليال، فى صمت ولين قديم، فقر مريب، بوادى إيبرون.

شعر بأنه وحيد وحزين.

بدأ يغلبه النوم والتعب وقد رأى أن ضوء أعمدة النور، بالجانب الشرقى من الكرمل، يخفت شيئًا فشيئًا وانطوى على نفسه مع قرب الشروق. اختفت من قميصه الوردى وبنطلونه الجينز الرطوبة التى طبعتها عليهما الحشائش على مدار ساعات وفكر أن يوما بالشاطئ، فى نهاية الروايات، دائمًا ما يكون الأفضل، بين غابات الصنوبر يكون الشعور رائعًا، يمكن ألا تكون لولا حقيرة كما خلتها، يا إلهى يا لها من مجموعة نساء بحيي. «لابد أنها ما زالت نائمة، لا بد أنها كانت سعيدة الليلة الماضية وهى تحضر طعامي، إنى أراها وهى تعد الساعات الباقية... لكن المؤكد أنها فتاة للهو فقط.» قال لنفسه إن برناردو بالرغم من أنه قد وقع فى الفخ، ما زال على الأقل يرتدى بنطلونه، شيء كان قد تعلمه بجانبه إضافة إلى اقتحام أبواب السيارات وإصلاح الدراجات النارية، فتى طيب برناردو، بالرغم من كل شيء، صديق حقيقي، رفيق كالشمبانزي، ذو أنف قبيح. «فكرة سديدة، كان من الحظ أن الكاردينال لم يرد أن يغلق الورشة الآن، ولا حتى أن يُبقى الدراجة النارية ببيته: فلا يستحق برناردو هذا العمل».

بل إنه رآه الليلة الماضية، جالسًا بجانبه على مقعد فى شارع الرملة، منشغلا، ضامًا إليه ركبتيه ويقظا لأية إشارة قد تضمر أمرًا. أكان ذاك آخر عمل لهم معًا؟ مل سرقة السيارات وبالإضافة إلى ذلك الكاردينال لم يعد المشترى السخى الذى كان، كان برناردو يتذمر عندما لا يريد أن يعمل، لكنه علم أن سبب سلبياته المتزايدة فى المشاركة كان أمرًا مختلفًا للغاية: السبب هو روسا، تلك العلاقة الغبية بروسا التى صمم برناردو على نعتها بالحب ويرى فيها هو شهوانية لا تمت بصلة إلى الحب. استشعر أن برناردو كان واحدا من أصحاب القلوب الطيبة المقدر لهم حتمًا أن يعيشوا بدلاء للمحبين مع بديلات النساء، وبالرغم من أنه فى أجواء عائلية سعيدة سعادة صاخبة، بالضواحي، فهى فى النهاية لن تكون شيئًا آخر سوى بدائل أسر وبدائل سعادة. متذكرًا الآن حديث البارحة، حاول مانولو تحديد موطن ذلك الأمل الذى نبض بخجل مستترًا فى كلمات سانس، وهم الزواج الخادع الذى أخذ يؤثره شيئًا فشيئًا وبطريقة يرثى لها لصديق عزيز، للصديق الوحيد الذى بقى له: لابد أنه قد فات منتصف الليل، كان الاثنان أمام دانسينج كولون بلاس رمبلاس وكان المُرسى يراقب بتوق شديد فى نظرته إلى الشباب الذين ارتدوا ملابس جلدية لامعة

وأوقفوا دراجاتهم النارية على الرصيف وفى نفس الطريق الرئيسي، على كلا الجانبين من المقعد الذى كانا جالسين عليه. العلاقة الغريبة بين البريق المعدني، التوازن الصعب الذى نجح شباب ميدان الرملة فى تحقيقه بين ملبسهم ودراجاتهم النارية السريعة، كان شيئًا رسم مسحة أسى لا ينتهى على شفتى مانولو، كما لو أنه أدرك عدم نفع وسرعة زوال بعض الرغبات الإنسانية. هؤلاء لن يكونوا أحدًا. ذهب أحدهم مع فتاة الليل الشاغرة المتألقة هذه الليلة، وبين الأفراد وفى نزولهم من الدراجات النارية والنظر، استقر سريعًا تيار من الإشباع العاطفي. شيئًا فشيئًا، بدأت تصطف الدراجات النارية فى اطراد، فى صرامة جمالية رائعة لابد أنها كانت امتدادا طبيعيا لنفس الإحساس المادى الغامض الذى أحدثته هيئة الدينامية فى أصحابها من ذوى الوجه الطفولي.

– يا للشقاء وصحبته! – كان قد قال المُرسِى – ما رأيك فى السيارة التى رأيناها فى ميدان بينو؟

– لا – رد برناردو سريعًا – قلت لك لا يمكن. وزيادة على ذلك، بماذا تريد أن تعمل؟ لم نجلب معنا كشافا ولا مفكا ولا أى شيء...

– معنا المطواة.

– على الرغم من ذلك لا. اتفقنا على أن أساعدك فيما يخص الدراجات النارية فقط وشريطة أن نأخذ الفتيات إلى الشاطئ غدًا.

– أنا لا أحتاجك فى ذلك، أعرف كيف أدبر أمرى وحدي.

– لكنى أنا أيضًا أريد أن أدبر لى أمرًا مع إحداهن، أحتاجها. – سكت لبرهة ثم أضاف – مانولو، فكر كم تناسبك لولا وانس تلك السيارة.

تمتم مانولو:

– لن تنال مليما.

منذ تلك اللحظة، اشتد الحزن الذى ألم به. كان يهز يديه، وعيناه شديدتا السواد، كالغارقتين فى حبر، تسمرا عند رجلين أمريكيين من البحرية دخلا كولون يجر كل منهما

فتاة من كوسموس. ثم برقت عيناه بضوء ناعس وغاص رأسه، طقطق بلسانه: أزعجته قلة الآمال و الرغبات التى لاحظها حوله، كثير من الإحباط يغمره كالكفن. الآن اتخذ صوت سانس نبرة حزينة:

– لست مثلك، أنا أفكر أيضًا فى أمور أخرى. ماذا تريد، إنى أفكر فى روسا، هذه الأيام لا أقوم بشيء آخر.

– يا لك من غبي، تظن أنك مغرم. تبًا، تبًا!

– يجب أن أغير من حياتي، قد مللت.

– لن تكون أحدًا يا فتى.

متأخرًا قليلًا، بدأ يقل شباب ميدان الرملة، بعضهم توقفوا فى منتصف الطريق، يفكرون، يرتابون، قد فقدوا تلك اللهفة التى جعلتهم ينطلقون من مكان لآخر فى سرعة بعجلة واضحة، وأفرغت الطاقات الأخيرة فى التسابق على التاكسي. انتظرا أكثر بقليل. راقبا بانتباه، لكن دون إبداء أى اهتمام أو قلق، بل بتركيز مفاجئ للمقلتين سببه خلو الذهن أو السكون، الحركات السريعة لفرد بمظهر قروى فى فسحة يوم السبت يركن دراجته النارية بتردد ويرتطم بشجرة ويسرع بعد ذلك نحو مجموعة من أصدقائه الذين خرجوا من تاكسى أقرب لكولون. كانوا يرتدون الملابس الخاصة وربت كل منهم على ظهر الآخر قبل أن يبتعدوا على الرصيف ناحية كوسموس. بالتأكيد، عند رؤية كل منهم يدخن سيجارًا ويجرون ثقلا ما بعد الطعام، سهل الهضم. مؤكد أنهم يتناولون طعامهم بأحد مطاعم برشلونة والآن قد أتوا بحثًا عن فتاة ليل. حدث نفسه وهو يراقب الفتى الذى ترك دراجته النارية «يا فتى، ذلك اللهو سيكلفك غاليًا».

كان مانولو يرتدى قفازا من الجلد الأسود معلقا بحزامه الأسود؛ الآن ارتداه ببطء. قال: «حسن. أنت أولًا.» رد سانس «سأنتظر قليلًا». «لا شيء يستدعى الانتظار، هذه هى اللحظة.» أصر سانس «من الأحرى أن نتأكد»– واستدار لينظر إليه – «لولا وجودى لقبض عليك لا أعلم كم مرة.» «اصمت يا برناردو، إنك اليوم تعكر مزاجي.» «حسنًا...»

«وتكلم عندما أطلب منك ولا تنس من يأمر هنا.» «حسنًا ولكن ليكن فى علمك...» «هيا، ماذا تنتظر بحق؟»

كاد تقريبًا أن يدفعه. ليس لأن الفتى كان خائفًا – قال لنفسه بينما يراه مبتعدًا –، برناردو لم يخف شيئًا قط. لكن قد غيرته تلك الساقطة! قد جذبته إليها جيدًا!

ظل جالسًا على المقعد، وشعت مقلتاه فى محجرى عينيه دون إغفال لأى حركة من حركات الشباب الذين تجولوا بالقرب من هناك. رأى سانس يتقدم ناحية الدراجة النارية ويداه فى جيبيه، ببطء، متأرجحًا كقرد على قدميه المقوستين، سعيدًا وبريئًا، حميميًا، وبسرعة شعر ناحيته بحنان: كانت لحظة تشتت وضعف – لا عجب أنه حاول دائمًا أن يتجنبها – لأنها كانت من الممكن أن تكلف الاثنين غاليًا. عندما أفاق وأدرك الأمر، كان سانس قد ركب الدراجة النارية وعلى وشك ارتكاب حماقة. بدا هادئًا. لم يسمع أول صفير من مانولو وما رآه يقفز من على المقعد كمن دفع بياي. غبي! أين عقلك؟ صفير تحذير آخر، لكنه أتى متأخرا: برناردو كان قد أخطأ بالدراجة النارية – كلتاهما كانتا «أوسا» وكانت كل منهما بجانب الأخرى، معتنى بهما بحب ونظيفتان، تلمعان –، كان صاحبها شابا نحيفا ومهندما، انتهى من تركها هناك وفى اللحظة الأخيرة، عندما ذهب، أدار رأسه لينظر إلى دراجته النارية من فوق كتفه بنفس العينين المخلصتين والملهمتين اللتين كانتا من الممكن أن ينظر بهما للفتاة التى يحبها عند الوداع (ودون شك، آخذًا فى الاعتبار الوقت الذى يمر، تحركه ضرورات جنسية دفينة وجدت إشباعا فى الدراجة النارية أكثر من المحبوبة) فى اللحظة التى استقر فيها برناردو –الذى لم يلتفت إلى خطئه– على مقعد الدراجة وقد فاجأه عنف الغريب، تجمد فى مكانه ولم يتمكن مانولو من سماع ما قاله. نزل برناردو من على الدراجة النارية، وفرد ذراعيه فى إيماءة اعتذار وضحك؛ انتهى بأنه قد أقنع المتأنق من رواد شارع الرملة بأن هناك خلطا بين الماكينتين، خاصة بعد أن ركب الأخرى. نأى الشاب ناحية شارع فنزويلا، وعاد مانولو، متنفسًا الصعداء، ليجلس على مقعده.

بالرغم من ذلك، نزل سانس، ليرضى غروره المهنى بلا شك أو ببساطه لأنه عاد لحب المخاطرة، نزل من الدراجة النارية وقتما رأى ذاك الشاب يختفي، وعاد ليركب دراجته.

أطاح بالقفل ثم ضغط البنزين بهدوء – استطاع مانولو تمييز ضحكة القرد بالرغم من المسافة–، منطلقًا بقفزة عنيفة. انتقل من الممشى إلى الحارة البطيئة فجأة حاكًا الأرض بقدميه، مناورًا بحرفية ووسط ضوضاء المحرك الهادرة، منكمشًا كالقطط، واتخذ طريق الرملة حتى اختفى بعيدًا عن ميدان تياترو.

ومانولو، المتلقى دائمًا للنذر والإشارات، ونهبًا مرة أخرى للأفكار المتصلة تلك التى كانت نقمة لعقل متحجر مثل عقله، رأى فى هروب سانس المثير أغنية الوداع لمرحلة من حياته ربما كان محتمًا أن تنتهي: اللقاء المحبط مع هذه الفتاة الرائعة من الحفل كان قد ملأ عالم أحلامه وبدا أن ذاكرته منعت دخول أُخَر. تفهم أن برناردو أيضًا سيتركه وحيدًا، كسائر من بالعصابة، لم يدم أى منهم لأكثر من ستة أشهر ولم يجرؤوا على الأمور الكبيرة، كانوا يحبطون، تتحمل رفيقاتهن غباءهم، يتزوجون، يبحثون عن وظيفة، كانوا يفضلون أن يتعفنوا فى الورش والأكشاك. كان برناردو يتحدث عن ترك العمل. لكن لِمَ يترك العمل؟ أليعملَ أجيرا، ليصعد المذبح بفتاة هوى ترتدى ثوبا أبيض وتمص دم الرجل طوال الحياة؟ لم يطلب المُرسى الكثير كبداية: أعطنى عينين زرقاوين لأنظر إليهما وسأصلح العالم، كان بإمكانه أن يقول ذلك، لكن الآن اجتاحه من جديد الإحباط، كان يفكر بالمرسيدس التى كانت بميدان بينو وكل ما كان بداخلها وكل ما فقده. والنظرة إلى الغد لم تكن أكثر تفاؤلًا: يقولون الشاطئ، إلى الجحيم الشاطئ لولا ذوات الأفخاذ الممتلئة عن آخرها. رفع رأسه: أربعة أمريكيين سكارى تحدثوا مع فتاة نحيفة وقصيرة على رصيف سانلوكر، خلف صف السيارات الواقفة. فجأة أحس برجل غريب ساكن مثير للقلق كان قد توقف على شماله – كان ينظر إليه دون أن يراه–، على بعد أمتار، يراه من جانب، وقد شاهد هو أيضًا الدراجات النارية. لاحظ أمرًا مألوفًا ومميزًا فى تلك العين البراقة، كعين قط ناعس، الاسترخاء الرقيق فى الفك الذى أعلن عن تنفيذ سريع للأفعال. قام مانولو سريعًا، مر بجانبه ونظر إلى عينيه واتجه مباشرة إلى الدراجة. ارتقاها ببطء، دون أن يكف عن النظر إلى الرجل الغريب، فك قفل عجلة القيادة (استخدم لذلك طريقة بسيطة وفعالة، تكمن فى لف عجلة القيادة لفة عنيفة: يسمع طقطقة! ويخرج القفل نظيفًا) ركل بدال الانطلاق ركلة وبدأت الدراجة تسير دون أى احتياطات أخرى، دون التفكير فى شيء

غير الرجل الغريب. وهذا، بدوره، كان يشاهده بابتسامة خفيفة معلقة بين ركنى فمه، راقب حركاته عن كثب، فاحصًا إياها بعينى خبير، ليس منافسًا بالتحديد إذ رأى نفسه مهزوما – المنافسة بدأت تحتدم – لكن ببساطة كزميل يتأمل عمل آخر بترو وروح ناقد مداعب. بل إنه فعل أكثر من ذلك: كانت هناك لحظة تفحص فيها بحركة سريعة من عينيه ما دار بالمكان المحيط، كأنما أراد بذلك أن يغطى هرب مانولو، الذى وجده هذه الليلة بالتحديد محبطًا، حتى إنه شعر برغبة فى ضمه إليه. الدراجة النارية انطلقت فى حركة دائرة مغلقة، مازالت قدماه تلمسان الأرض، يوازن الثقل، وفقط عندما رفع رأسه رأى إشارة الخطر فى عينى القط اللتين أسقط عليهما الرجل الغريب جفنيه قبل أن يلف ويبتعد عن هناك: الحارس العجوز بلا ذراع كان قد رآهما واقترب، دون أن يسرع ولكن بتعبير عن الفضول وبسؤال على شفتيه. فهم المُرسى وانطلق بسرعة وتركه إلى الخلف ما إن سمع صوته. فكر «قد قضى علي». لذلك، فى اللحظة الأخيرة، قرر أن يقطع الشارع الرئيسى وينزل إلى الطريق المقابل، أمام أكشاك الكتب المستعملة، وبدلًا من أن يصعد فى طريق الرملة كما فعل برناردو، انطلق بأقصى سرعة إلى بورتا دى باث وبعد ذلك عن طريق شارع كولون حتى حديقة القلعة.

على عكس ما كان يخشاه، لم يسمع أى صفير ولم يتعقبه أحد.

أخذ شارع سان خوان، ثم جنرال مولا، ثم جنرال سانخورخو، ثم طريق سردنا فميدان سانيهى وطريق الكرمل. عند ملف كوتولنجو خفض السرعة، وانزلق بعدها ببطء ناحية اليسار، خارجًا عن الطريق، ثم وقف أمام المدخل الجانبى لحديقة جويل. دون أن ينزل من على الدراجة النارية وجه نور الكشاف داخل الحديقة: تكسرت ظلال الليل، رأى بعض جذوع أشجار صنوبر، الأعشاب، وعلى حافة الضوء كرة سوداء براقة تقفز وتتسلل داخل الأعشاب: قط. من سانس، ولا أى إشارة. كانا قد اتفقا على أن يتقابلا هنا. فكر «قد يكون ذهب ليتناول شيئًا من الطعام». ظل للحظة لا يعرف ماذا يفعل. ثم ضغط بدالة السرعة مرة أخرى واستكمل الطريق على سرعة متوسطة. فى الانحناءات، على اليمين، ضوء الكشاف كان يتركز على الفضاء وظلمة الفراغ؛ بعيدًا برقت أضواء المدينة؛ إضاءة مونتچوي، التى فى الصيف تُرى من هنا كأنها انفجار أشعة فى سيمترية تخترق الظلام، قد

انطفأت. على اليسار، حشائش وصخور، بدايات سفح جبل الكرمل. عند وصوله إلى القمة، فى آخر منعطف. أسرع حتى وصل إلى شارع جران فيستا، حيث توقف ونزل. المتاجر والبيوت فى واجهة حديقة جويل كانت مغلقة وناعسة فى ثبات على ضوء الأعمدة الحجرية الستة، غير مرحبة بأى ضيف، على طوال الواجهة: المناطق المظلمة نفحت الشارع عمقًا فى الحقيقة لم يكن موجودًا. لم يُر مخلوق وكان الصمت تامًا، لكن بالنسبة للفتى الجنوبى حلق بالجو حضور غير مريح، حس آدمى مألوف، آمال مريبة. فى تلك الساعة كان جبل الكرمل كالدمل الضخم النائم، ملتفا فى سائله الخاص غير المرئى والساخن، فى ألمه الحاد اليومي، فى هالته الشاسعة المحسوسة. نزل على السلم المزدحم بالمنازل الصغيرة المطلية بالجص، المعلقة تقريبًا بالهواء، وفى وضعيتها الخاصة والإجبارية على المنحدر الوعر تشعبت منها شبكة من الحارات المعقدة بها درجات سلالم، وانحناءات ومنحدرات صغيرة. نزل فى وثبات، لا تكاد تضيء الكشافات القذرة، انعطف يمينًا ويسارًا عدة مرات، دائمًا بين شوارع تبدو كاللعبة وبنفس السعادة الطفولية والمتأخرة بجولاته بالحي: هذا، الذى لم يعد المتاهة المشمسة حيث كان يوجد وقت بدا فيه كل شيء جائزًا، مازال يحمل شيئًا من الذى جلبه معه من المدينة الصغيرة من سنين مضت، ثقة محددة بنفسه مستمدة من هشاشة ما حوله، من الطابع السريع الزوال الذى رآه جليا فى الأشياء بحيه وبنفس مظاهر الفقر التى غلفتها. فى أسفل الدرج، لف حول سور حديقة غير معتنى به وتوقف أمام باب صغير من الخشب أسره فى يوم من الأيام: اختلف عن بقية الأبواب لأنه كان عتيقًا، نُحتت عليه رسومات معقدة قد محت معظمها الأمطار، وخاصة بسبب مطرقة الباب معدومة الملامح، يد صغيرة ورقيقة، ذات انحناءات – فكر كالعادة، يد امرأة – تحيط بالكرة. لم يكن بالحى أى باب كهذا. انتمى لمبنى من دورين، صغير ومتهدم. طرق مانولو ثلاث طرقات بمطرقة الباب ثم انحنى ليرى إن كانت النافذة العليا أضيئت. مازال الليل دامسا وبدت النجوم تبرق بشدة. سمع أصواتا داخل المنزل وجلبة فى حركة الأثاث. قال صوت أجش "من؟". "أنا يا كاردينال، افتح". بعد وهلة فُتح الباب وأطل رأس رجل أبيض بالكامل وأشعث. شعره الطويل والناعم بالرغم من كونه غير مصفف، يوحى بالهيئة النبيلة والجميلة لذلك الرأس، والوجه، بالرغم ممّا بدا عليه من أثر النعاس، أظهر ملامح ناعمة

وعذبة واضحة، أنفا معقوفا إلى حد ما، وجنتين تميلان إلى الزرقة ونُحتتا بعناية. بشرة جبهته البرونزية أبرزت جمال بياض شعره. دائمًا ما كان يفكر لماذا يلقبونه بالكاردينال؟

– قال الرجل – ما الأمر؟ ماذا تريد فى هذه الساعة؟

– لدى القليل من الوقت. إنها هنا، يمكننى تسليمك إياها الآن. أوساء جديدة. حسنًا ماذا ترى؟

نظر الكاردينال بعينه السوداء ذات الرموش الطويلة. خلف رأسه، بعيدًا عن الباب الموارب، أطل شعاع ما لضوء من الداخل، وبدا شعره الأبيض اللامع كأنه شعلة هائلة.

– اقترب.

لم يتحرك الفتى: يلهث بسبب وعثاء الطريق وظل مبتعدًا كثيرًا، ملتفا بالظلمة. كان يحترم الكاردينال كثيرًا، كان يعتبره أفضل الرجال هندامًا بالحي، الوحيد الذى يعرف القراءة من بين الباقين.

– ألم تسمعني؟ اقترب. –أطاعه الفتى. عمته رائحة مسحوق التلك والكونياك–.

– أين برناردو؟

– لا أعلم...

– هل تحدثت إلى أخيك؟

– الورشة مغلقة، لقد أتيت حالًا.

– أنت تعلم أنى لا أريد بكم شيئًا. التجارة مع أخيك. لذلك، إلى النوم.

كان سيغلق. عرقل مانولو إغلاق الباب بيده، بالصدفة حك المطرقة بأصابعه.

– انتظر يا كاردينال. أنت رجل ذو ذوق رفيع، كل العالم يقول ذلك. لماذا لا تريد مساعدتي؟

– وما علاقة هذا بذاك...؟ – سرعان ما أضاءت ابتسامة ودية تلك البشرة الوردية التى أبدت شبابًا مستترًا.

– أنت فطن جدًا يا فتى، دائمًا ما علمت أنك سوف تحقق نجاحًا كبيرًا. لكن لا يمكنك أن تتجاهلني.

لم يستطع معرفة إلام أشار الكاردينال بالتحديد: قد لا يكون من الخير المخاطرة بأية تكهنات وردية.

– دائمًا ما آخذك فى الاعتبار يا كاردينال. ما يثير الحنق أنى عليّ أن أتعامل مع أخي. الآن لا يمكننى أن أحمل الدراجة النارية إلى المنزل، ليس لدى مكان أضعها فيه وليس معى المفتاح. أرجوك لا تتركنى فى وضع حرج. خذها وأعطنى ما ترى...

– حسنًا، ما الذى يمنعك من أخذها للمنزل؟ تقدم الرجل قليلًا، لاحظ الفتى زفيره فى وجهه. "لماذا يلقبونه بالكاردينال ؟" – تمتم المُرسى – أخى أحمق. يقول لا مزيد من الدراجات النارية حتى إشعار آخر... أيبدو لك هذا جديًا يا كاردينال؟

– إنه محق. قد نصحته بذلك، يجب أن يمر بعض الأيام.– توقف، نظر فى عينى الفتى؛ ثم خفض بصره ومال بجانبه ليغلق الباب– ضعها فى الورشة وفككها خردة–. عاد لتعبيره الملكي، الباسم، لكن على نحو مغاير–. سأرى ما يمكن فعله، لكن تذكر هذا: إذا أردت أن تقوم بشيء لحسابك الخاص، فتعلم أن تصل وحدك إلى النهاية. لا أعلم ماذا يجرى لك، لكن مؤخرًا لا تفلح معك الأمور (طأطأ مانولو رأسه). احترس يا مانولو، فالدراجات لم تصنع للخروج مع الفتيات إلى الشاطئ، الصيف خطر (ربت بحنو على وجنته). حسنًا، ابتهج... أورتنسيا لا تفعل شيئًا إلا السؤال عنك، إنها مريضة. ألا تنوى زيارتها؟ نحتسى القهوة ونتحدث. والآن اذهب، هيا، كن فتى طيبًا...

رد الباب ببطء. تمتم الفتى "طاب مساؤك".

أو بالأحرى، صباح الخير: بدأ نور الصباح الضعيف يمتد عبر سماء الكرمل. متجهًا نحو شارع جران فيستا، فكر المُرسى هل يريد العودة إلى المنزل أو ينتظر سانس فى

المكان المتفق عليه. وأخيرًا قرر. ركب دراجته النارية وانطلق إلى الشارع تغمره مشاعر ندم مبهمة ومزعجة: كان لدى الكاردينال الموهبة العجيبة فى وخز ضميره. من ناحية أخرى، الوعد الذى قطعه مع سانس أن يأخذ الفتيات للشاطئ، لكن فكرة أنه فى طريق مسدود كانت تحتدم كلما بزغ النهار.

لم تعد هناك أية أضواء على جوانب هضبة الكرمل. فكر "الكاردينال رجل عظيم". نظر إلى الدراجة النارية إلى جانبه الملقاة على الحشائش. "لا بد أن برناردو قد ذهب ليحضر الفتيات". تخلل غبار ناعم مشمس، على مستوى قريب من الأرض، أشجار ونباتات الحديقة، ويوم الأحد، فى النهاية، قد أتى. وهو قد غلبه النعاس.

هبط برناردو بالدراجة ماركة أوسا بأقصى سرعة، ملقيًا بنفسه على الأرض تقريبًا عند المنحنيات. اخترق الحديقة وهو يقلل السرعة، ترك الموتور على السرعة الأولى واستكمل مسافة على قدميه، بين الأشجار. حمل فى فيه تفاحة بها قضمة. استلقى بجانب صديقه.

– قال – كنت أشعر بالجوع. الفتيات سيأتين فى قليل من الوقت. أخفتهن! –انطلق فى الضحك، مشيرًا إلى حجر–. انظر، كهذا، حجر كهذا ألقيته على نافذة روسا... هل كنت هنا طوال الوقت؟

– أستجلبان طعاما؟

– بالطبع. حضرتاه كله الليلة الماضية. حسنًا، كيف كان الأمر؟

لم يقل مانولو شيئًا. مستلقيًا بظهره على الحشائش، وذراعاه متعانقتان على عينيه. فى آخر الأمر صاح:

– أحقًا! لكن عند عودتنا من الشاطئ سأقفل عليهما بالمفتاح فى الورشة، الدراجتين الناريتين، ولن نتحدث عن إخراجهما ما لم يكن للذهاب مباشرة للكاردينال، مفهوم؟

– كما تقول. من نزهة إلى الشاطئ لن يحدث شيء، لا تخف...– صامتًا لوهلة–. اسمع، أيداعبك النعاس؟

سمع فقط تغريد العصافير. تقلب المُرسِي من جنب لآخر كأنه في سريره، حتى عاد بوجهه إلى السماء وذراعاه متعانقتان على جبهته. بعدها، بصوت ناعس، غير متأثر، اعترف لسانس أنه كان قد حاول التخلص من الدراجة النارية على الرغم من الاتفاق الذى أبرمه معه، لكن الكاردينال خذله. لم يطلب منه أن يسامحه بطريقة واضحة، لكنه اكتفى بإخباره بصوت تراءى جليا أنه ليس صوته، يغلبه بحة وإرهاق حسب كل الظواهر، كما لو تحدث فى نومه وبفم آخر عن شيء لم يرقه بالمرة. كان مختصرًا، اقتصد فى كلماته، لكنه لم يستطع تجنب الوقفات التى قد تكون مشحونة بمغزى مهم: عرف سانس كيف يتفهم وقدر صراحة صديقه. ولكزه بود على كتفه. قال: "أيها الخسيس!". ظل مانولو صامتًا. قبل أن ينام تمامًا، سمعه يقول بقطلونية غريبة بسبب لكنته والحزن: "جميعنا أوغاد"

مع مرور الأعوام، ودون وعى منه، حدث نوع من الانتقاء التلقائى للذكريات بنفس المعيار الغامض الذى تتشكل به فى كل عام مجموعة مختارة من أسماء أصدقاء مدونة بأجندة قديمة قبل نقلهم إلى جديدة: ظل مع قليلين، الأوفياء، المحببين.

مانولو رييس – بما أن هذا هو اسمه الحقيقى – كان الابن الثانى لسيدة جميلة نظفت طوال أعوام بلاط قصر مركيز سالباتييرا، فى رُنْدة، حملت وولدت الطفل وهى أرملة. طفولته الأولى، تقاسمها مانولو بين كوخ حقير بحى "لاس بنياس" والغرف الفاخرة بقصر الماركيز، حيث قضى ساعات ملتصقًا بأمه، واقفًا، ساكنًا، تاركًا خياله يهيم فوق البلاط الناعم التى نظفته.

انتشرت قصة مثيرة، وفقًا لها كانت أمه على علاقة غرامية، بعد فترة قصيرة من ترملها، بشاب إنجليزى حزين كان ضيف ماركيز سالباتييرا لمدة أشهر. وُلد الطفل فى الوقت المتنبأ به حسب الحسابات الخبيثة للألسنة الخبيثة. لكن مانولو هاجم بشدة تأصيل القصة الخاطئ، الجهد الذى بذله مانولو فى إنكارها كان كبيرًا حتى إنه أذهل أمه نفسها: تشاجر مع رفقاء اللعب عندما كانوا يسخرون منه ويلقبونه "الإنجليزي"، وشرع فى قتال

الكبار وسبهم بوقاحة لو تفوهوا أمامه بتعليق ساخر. والحق أن تلك الثورة المبكرة لم يكن من شأنها الدفاع عن شرف أمه كاحتياج فوق العادة، غريزي، عميق، حقق به لنفسه العدالة حسب تصوره لنفسه؛ بمعنى: أن الفتى رفض تلك القصة لأنها وضعت فى خطر، أو على الأقل فى حيز الشك، وجود الفرضية الأخرى التى أضاءت خياله، احتمال أن يكون ذا أصل اجتماعى أكثر نبلًا: أن يكون ابنًا لمركيز سالباتييرا نفسه. فى الواقع، كلما شب عن الطوق، أخذت الأحداث كلها المتعلقة بولادته – كونه ابنًا لشخص لا يمكن أن يعلن عنه بسبب وضعه الاجتماعى فى رُنْدة، حمل أمه به فى فترة كانت تعيش بها فعليًا فى قصر المركيز، وعلاوة على ذلك، الظرف، الأهم بالنسبة له، أنه ولد على سرير بنفس القصر (فى الحقيقة كان بسبب الولادة المبكرة، تقريبًا فوق نفس البلاط الذى نظفته الأرملة الجميلة، لذلك كانت عيادتها بالقصر واجبة) – أخذت تتبلور بهذه الطريقة فى عقله حتى إنه منذ كان طفلًا خلق صورة خاصة وأصلية لنفسه.

كان، بشكل ما، كإحدى هذه الأكاذيب التي، بسبب الطبيعة الأخلاقية المربكة للعالم الذى نعيش به، من الممكن أن تصبح حقائق تامة عند استبدالها، بضروريات من الخيال، أكاذيب أسوأ. مانولو رييس، كان ابن الماركيز أوكان، كالرب، ابن نفسه؛ لكنه لم يستطع أن يكون شيئًا آخر، ولا حتى إنجليزيا.

عندما عمل عتّالًا بالمحطة وأحيانًا مرشدًا سياحيًا برُنْدة، ليساعد والدته ببعض المال، بذل كل ما استطاع من جهد وفى التجارة بدأ زملاؤه يلقبونه "الماركيز". اللقب، يمكن مناقشته أم لا، لاقى موافقة الجميع. لم يعلم أحد أبدًا أنه كان مبتكر لقبه، ولا حتى الألاعيب التى استخدمها لينشره. مانولو كان بعيدًا عن اعتبار ذلك أول نجاح عملى له – لأن طبيعة هذه المهنة كانت شيئًا ما زال غير واضح فى أفق مشاريعه – لكنه استطاع أن يتمتع للمرة الأولى بقدرته. لم يتأخر، على الرغم من ذلك، فى اكتشاف أن كل ذلك ترهات دون أى فائدة لأمر عاجل، وأنه كان عليه أن ينتظر.

تلك، فى الحقيقة، كانت تسلية طفولته الوحيدة، دُمى لم تكن لتنكسر أو تُلقى مهملة فى غرفة الأشياء القديمة. كبر الفتى جميلًا ويقظًا، ولديه ملكات عجيبة فى الكذب والحنو.

أمه أجبرته على الذهاب لفصول ليلية وتعلم القراءة والكتابة. كان لديه أخ غير شقيق، أكبر منه، عمل بمزارع القطن وبعدها بأعوام سافر إلى برشلونة. من أمه يتذكر يديها الرطبتين، دائمًا رطبتين، حمراوين ورقيقتين (منذ أن وعى، فكرته عن الخدم والتبعية كانت تتمثل فى هاتين الكفين الذابلتين واللزجتين اللتين ألبستاه وخلعتا عنه ملابسه: كقطعتى لحم رقيقتين، لا تنقصهما الحيوية تمامًا، أو الرعاية، بل الدفء والسعادة). أحبها كثيرًا حتى أغرمت برجل وعانت عندما فكرت أنها لن تخرجه من البؤس. من احتكاكه اليومى بالجوع خلف بعينيه ضوءا حيوانيا وطريقة مميزة فى إمالة رأسه خلطه الحمق فقط بالخنوع. سريعًا ما عرف عن الفقر حقيقته المتعجرفة والمفيدة: أنه لا يمكنه التحرر منه دون المخاطرة بالحياة نفسها. لذلك منذ كان طفلا احتاج الكذب كاحتياجه للخبز والهواء الذى يتنفسه. كانت لديه باستمرار عادة البصق السيئة؛ بالرغم من ذلك عند مراقبته عن بُعد، يلاحَظ فى طريقة بصقه (عيناه فجأة تركزان فى بقعة فى الأفق، عدم اهتمام تام للعاب أو المكان الذى سيقف به، لهفة سرية وخاصة فى نظرته) ذلك القرار الحاسم الذى لا رجعة فيه، نابع من الغضب، الذى غالبًا ما يشل ملامح الفلاحين عند هجرتهم وبعض شباب المقاطعات عندما يقررون الهرب فى يوم ما إلى المدن الكبيرة.

اليوم الذى اقترب من سيارة كرافان لآل مورو، يصفر ويداه فى جيبيه، ليعرض عليهم خدماته كمرشد وفى نفس الوقت ليحذرهم من تجار الخردة والمتشردين إذا استقروا بعيدًا عن المدينة، كان مانولو رييس بن الماركيز؛ لكنه لم يعد كذلك بعد أسبوع، أو أكثر بالتحديد، لم يعد يهتم للأمر: بعد أسبوع، مانولو رييس كان ضيف ونسيب المستقبل لآل مورو. "الفاتن الأندلسى الصغير" كانت تقول السيدة. حينها كان دون الحادية عشرة، أخوه غير الشقيق كان سيتزوج فى برشلونة، تسلمت والدته خطابًا من أخيه وصورة لجبل الكرمل. الأخ الكبير قد فاز: "... سأتزوج من فتاة من مالقة لها أب لديه متجر دراجات هناك عند الصليب فى الصورة التى أرسلها لك يا أمي..." قال الخطاب الذى قرأه مانولو بصوت عال لها، لكن دون أن يبدى اهتماما كبيرا. ذهب فكره مع السائحين الذين أتوا فى العربة الكرافان.

أصاب آل مورو ولع شديد بسحر رُنْدة والشاب الصغير. فسحر نهر التاجُه والجسر الجديد، وملاحة مانولو وعينيه، وحلبة مصارعة الثيران بمظهرها الكنسى وبيت الملك العربى كان قد حدا بهم للبقاء فى المدينة لمدة أسبوع. قضى مانولو اليوم معهم، يصحبهم إلى كل الأماكن ويسليهم بقصص من خبراته كمرشد، معظمها غير حقيقي. كل يوم يذهب ليأخذهم من العربة الكرافان، وانشغل بإرسال البريد، شراء الطعام، أخذ الملابس للتنظيف، إلخ. فى يوم ما دعوه للغداء معهم فى السيارة الكارافان، حكى لهم قصة ولادته عازمًا تمامًا على خلق مناخ من التشويق المثير حول أصله الحقيقي. كان ذلك عندما (سيتذكر ذلك دائمًا: نظر إلى ابنة آل مورو جالسة على الحشائش، تستمتع بالشمس وتنورتها مرفوعة عن ركبتيها، والعصر كان مزعجًا، برياح وقطع من السحب البيضاء تجرى مسرعة لتختبئ خلف الجبال) عندما سألته مدام مورو، وهى تقدم له فنجانًا من النسكافيه، إذا أراد أن يذهب معهم إلى باريس ليدرس ويكون شخصًا مهمًا فى الحياة. نظر إلى الأرض ولم يقل شيئًا. فى يوم آخر، بينما يشاهد بعض الأطفال المشعثين يلعبون فى الشارع، حزنت مدام مورو فجأة وسألت مانولو ثانية نفس السؤال: كان سؤالاً، فى الحقيقة، للسيدة لم يخرج منها لتتلقى إجابة – على أية حال، لم تكن لتهتم كثيرًا– لكن لتعبر، بطريقة مميزة صعب تحديدها، عن غرورها،... لكن هذه المرة، "الأندلسى الصغير" رد عليها بصوت عجيب: "سأفكر فى الأمر" – و، بالطبع، المدام لم تسمعه.

فى الليل، دون أن يروه، كان الطفل يجلس على صخرة على مسافة من العربة وقضى هناك ساعات طويلة مستندا بذقنه إلى يديه، ينظر بتركيز من بين رموشه الطويلة الجميلة إلى النور الذى فى بعض الأحيان قد يضيء من النافذة. لم يمل النظر إلى العربة: طبقة الطين السميكة التى غطت جوانبها كانت بها، فى ضوء القمر، سعادة الشيخ المستقيل ذى التجاعيد الجليلة والجروح العظيمة، ذكريات الطرق البعيدة، الشوارع المجهولة، الشواطئ المضيئة والمدن الضخمة، أماكن ساحرة لم يذهب إليها الفتى قط.

فى اليوم السابق لرحيل آل مورو شرب الكثير من الخمر وبدأت المدام، فجأة يحركها أى كم من اللمسات العاطفية فى الحياة، بدأت تتحسس مانولو وتغطى وجهه بالقبلات. وفضلاً عن ذلك قررت، بالاتفاق مع زوجها – الذى بالكاد تمكن من الفهم، مع أنه

لم يكن به أى شيء غير مألوف: فقد كان رجل صمت طويل، ذا صوت عميق وقليل الكلام – أن تأخذ الصغير إلى باريس. وسط ضحكات واحتساء الشراب، مدام مورو جعلت ابنتها والصغير يختتمان صداقتهما الخالدة بقبلة: هامت بالجو فكرة مبهمة للاستمتاع، طبيعتها لم تكن واضحة للغاية لكن التى وجب أن تكون شائعة بين السائحين وقت العودة والوداع، تلك الأعضاء الصغيرة بالقلب التى تخفى فقط الإهمال والأثر الزائف، والذى أمامه الفتى، افتقر إلى الخبرة، وجد نفسه ما زال أعزل.

حسب تقنية طفولية بسيطة جدًا وفعالة، تولد عامة مع أولى الموافقات التى تستخرج بمجهود من الأم للهروب إلى الشارع، والتى تكمن فى تغيير موضوع الحديث، اختار مانولو أن يترك معلقًا (قبل أن يغير آل مورو رأيهم) موضوع الرحلة إلى باريس، شرع فى التحدث عن أخيه الذى يكبره، المتزوج ببرشلونة، وصاحب متجر مزدهر. بعدها، سريعًا، قام، فشكرهم، وودعهم وذهب.

قضى نصف الساعة جالسًا على الصخرة، خلف بعض الشجيرات، عندما رأى ابنة آل مورو تخرج من العربة. أبواها كانا نائمين. الضوء فى النافذة كان قد أضاء لوهلة والصمت بالليل كان تامًا. الفرنسية الصغيرة ارتدت بيجامة من الحرير لمعت مع ضوء القمر كالمعدن. انفتح أمامها طريق بين الأشجار والفتاة بدأت تمر به بخطى بطيئة، كما تمشى فى الأحلام، فى اتجاه الشجيرات التى اختبأ وراءها.

يغلفها ضوء النجوم، الذى امتد ليذيب الانحناءات بجسدها بسبب البريق الذى شع من الحرير الذى غطى جسدها، والذى حول صورتها المادية إلى وهم حقيقى أو شبح منها. تقدمت الصغيرة غير مبالية، خفيفة وغير مدركة للحلم الرقيق الرهيف الذى تثيره قدماها و: إنه غبار نورانى فى كل خطوة أمام عينى الطفل المذهولتين. مانولو رآها تقترب منه كما لو ذهبت حقًا لمقابلته، قدماها تبحثان عنه دون أن تعرفاه، تكتبان اسمه فى كل خطوة، كما لو كان هذا اللقاء مكتوبًا منذ بداية الأجل، كما لو كان ذلك الطريق المضيء بالغابة بين الشجيرات الذى اجتازته لم يكن إلا الخطوة الأخيرة من طريق طويل دائمًا، دون حتى أن تعلم، جلبها إلى هنا، بعيدة عن العالم، عن أبويها، عن بلدها الجميل والمتقدم

وعن قدرها. لم تبد مدركة أنها وحدها، ولا أن للوحدة وجودًا؛ في عيني الطفل كانت مفعمة بالحياة وحاملة للضوء. لكن، سريعًا، عندما كانت على بعد أمتار من مكانه، غيرت الصغيرة اتجاهها على غير توقع إلى اليمين واخترقت الغابة في اتجاه مكان مزدحم بالزعتر (حس التهذيب لدى مدام مورو، للوقاية من إلحاح بعض الاحتياجات، اختاره كالأكثر مناسبة) والطفل، في النهاية، فهم.

قام والإحباط مرسوم على وجهه. بالرغم من ذلك، رد فعله كان سريعًا: قبل أن يعطيها الوقت لتقوم بما قد خرجت لشأنه دون شك، اقترب من الصغيرة وألقى عليها تحية المساء برقة؛ قال لها إنه قد عاد ليتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام وسألها فجأة – فقط ليخلق الإجابة التي لاءمته – لماذا خرجت من السيارة في تلك الساعة الخطيرة. خجلة قليلًا، لكنها ضحكت، ردت الصغيرة أنه طبيعي أن تستمتع لوهلة بالهواء المنعش. حينها عرض عليها مانولو أن يرافقها لدقائق وأخذها من يدها، يمشي معها. حاول أن يجعلها تفهم أنه قرر الذهاب معهم إلى باريس غدًا، وسألها عن رأيها في وعد أبويها. هل سيتذكران غدًا، هل سيأخذونه معهم؟ تحدث كثيرًا، توقف فجأة، متأملًا. نظرت إليه باستمتاع تفكر مليًا في معنى كلماته، وافقت برأسها. كان وجهها من أحلى الوجوه التي رآها مانولو، قمحيا، دافئا، لها عينان زرقاوان رائقتان. فجأة، توقف الصغير أمامها، أمسك بيديها. أسند جبهته إلى جبهة الصغيرة، التي خفضت عينيها وتغير لونها. وهنا، في خطوة ما، ضمها مانولو وقبلها على وجنتها. تلامسه مع نسيج البيجامة الرفيع كان إحساسا لم يتخيله مانولو وواحدا من الأحاسيس الرائعة التي ما كان ليمر بها مانولو، إحساس لاءم تمامًا رقة أول قبلة، أو ربما أيضًا مقرًا له ومؤكدًا عليه، كما لو أن الشعور العاطفي تخلله من أنامله تمامًا كتيار اتصل بالحرير. ظلت الفتاة لوهلة ساكتة، وجنتاها مشتعلتان، رأسها مائل إلى جانب، صدرها يرتعش، وبعد ذلك حررت نفسها وجرت إلى السيارة. ظل مانولو واقفًا، لا يتحرك، ذراعاه ساقطتان ويداه مفتوحتان، لا يزاول أنامله ملمس النسيج الثمين.

تلك الليلة، لم يستطع النوم، يخطط لرحيله من رُنْدة.

فى اليوم التالي، عند وصوله حيث كان الفرنسيون، لم يجد أى أثر للسيارة الكارافان. بحث عنهم دون جدوى فى كل المدينة. كما أتوا ذهبوا: نفس الشعور بعدم الراحة، نفس الشدة الحقيرة التى جلبها حملها معه للأبد. آل مورو انتموا إلى تلك الطبقة من السائحين الذين استخدموا الأوهام لدى أهل البلد الأصليين كمعبر للوصول إلى الأحلام، والذين بعد ذلك، عندما لا يكونون بحاجة إليهم، يدمرونهم من خلفهم.

عند حلول الظلام، عاد مانولو إلى بيته، منهكًا تمامًا، ألقى بنفسه على السرير. لم تكن أكثر من خيالات: لكن تلك الرحلة الفاشلة إلى بلد بعيد، ضوء القمر المزيف الذى برق فى بيجامة الصغيرة، ذلك الوعد الزائف مع المستقبل، العاطفة، الحلم المجنون بالهجرة، ملمس الحرير والألم الحاد ذلك كله استقر معه وسكنه؛ والآن، تمامًا كذلك الحين، استيقظ من النوم العميق المطلوب على أصوات معروفة ومحببة عكفت على إقناعه دائمًا بالأخطار التى يمثلها البعد عن الطريق المألوف للجميع – هذه المرة لم يكن رغم ذلك الصوت الباكى والوجه الجميل لأمه مازال يقترب منه، يقترب من وجهه فى أقصى زاوية للنور الذى دخل من نافذة البيت الصغير، تقول له: «استيقظ يا بني، انظر، هذا هو أبوك الجديد» (لم يجد وقتًا ليرى، فى قصر، شعرا لامعا ومصففا بعناية والوجه الغجرى المتعجرف) لأنه كان يخطط للهرب إلى برشلونة فى قطار البضائع ويلوذ ببيت أخيه – كان وجه فتاة تضحك وسط بؤرة الشمس، بحديقة جويل، ولكن بالرغم من الابتسامة كان دخولها معلنًا عن قلة ما يمكنها تقديمه: لمسات عاملة يوم الأحد، وحتى ذلك كان يجب رؤيته: لولا وخلفها بمسافة كبيرة روسا وسانس يحملون حقائب البحر والطعام. نفض برناردو الأعشاب الملتصقة ببنطلونه. بجانبه، الدراجات النارية المسروقة. قالت له لولا ويدها معلقة بياقة ملابس البحر، تميل نحو وجهه كأنما ستتناول شرابًا من ملامحه «أهلًا يا كسول. لنذهب إلى الشاطئ. وما أمر النوم...؟». لكن ربما لأن عينَى الفتى مازالتا تعكسان الإحباط العميق من الذكريات المستدعاة، أو لأنه كان فى السن التى فيها النوم بدلًا من أن يترك أثر مخالبه فى وجهه ويغيره ما زال يزيده جمالًا، تمامًا كما تزيده الثمالة أندلسية كخمول الأطفال، لمحت لولا شيئًا فى نظرته أخافها ولم تمد له يدها عندما طلب أن تساعده على النهوض. قال لنفسه «أسوأ بكثير». عندما وقف على قدميه، صاح بكلام بالقطلونية لم يفهمه أحد وبعد ذلك أول شيء نظر إليه كان ردفَيْ لولا بعينين يملؤهما التردد. تمتم «فى النهاية، فلنهرب إلى الشاطئ مرة أخرى».

(٢)

وكيف لنا أن نستشعر ذلك الشعر المجرد

فى جمال الشكل إن لم ينته بالنشوة الجنسية

لورنسو بيا لونجا[١]

مر ذلك الشتاء المترع بالدلالات الغامضة، وعند مجيء الصيف، انتقل آل سرات من جديد إلى منزلهم فى «بلانس» يصحبهم خدمهم. استأنف مانولو زياراته الليلية الطائشة لغرفة الخادمة. اعتاد الذهاب إلى هناك بدراجة نارية يقوم بسرقتها فى نفس لحظة خروجه ثم يتركها بأى شارع عند عودته إلى برشلونة. يصل إلى المنزل، يعتريه شعور بالخطر يبدو أنه يتجاهله: تشتعل عيناه السوداوان الزائغتان وشعره الأسود الفاحم ويسيطر الشوق على نظراته وحركاته. وفى النهاية لا يبقى من خطر ليالى الحب وومضها المشبوب سوى الحلم المتغطرس الطموح الذى أنجبها. فلم تكن الرغبة وحدها فى مواقعة الخادمة الجميلة مرة أخرى هى ما يدفعه اندفاع الريح نحو الساحل ولم يكن الذى يقتحم شرفة المنزل المنيع متخفيًا فى الظلال كاللص هو نفسه مقتحم الأسرة المتجاسر. ففى بعض الليالى كان يخاف أن ينام فى المنزل. هذا كل ما فى الأمر.

---

(١) كاتب إسبانى يكتب باللغة الإسبانية والقطلونية، وهو يعد من أهم كتاب الأدب القطلونى فى القرن العشرين.

ربما السبب هو أنه، مثل كل عام حين يأتي الصيف، كان يستشعر حالة الاستنفار الجمعي السعيد وبريق المال المتناثر على شواطئ المتوسط العتيقة كالشهد الذهبي الذى يطفو فى وهج الشمس نواةً لحياة حقيقية تتخلل دمه كالخمر فى بعض الليالى خاصة الدافئة واللامتناهية. فما كان يبحث عنه حقًا بين ذراعى ماروخا هو ما تعود به إلى الفراش حينما تهبط من شرفات البيت المضيئة أو من قاعاته الفخيمة الغارقة فى سكون الليل عندما تنتهى من عملها ويكون المدعون قد ذهبوا أو ناموا. ففى حقيقة الأمر شيء من هذا كان يلتقطه هناك ممددًا على الفراش وعاريًا، شيء لا يمكن الإفصاح عنه ينبعث من جسد الفتاة، كمن يلتقط شيئًا من رحابة الفضاء عند ملامسة أجنحة طائر. فإلى جانب مذاق الملح على جسدها كان يلتقط بقايا يوم من أيام البحر، حضورات لا يمكن رؤيتها، رغبات لذيذة مبعثها الفراغ، مقاطع من كلمات خالية من المعنى، جسد مهمل أو حنان خال من العاطفة التى لم تعد تعبّر أبدا – فما أسعدهم الأغنياء – عن أى ألم تجاه كل ما ينبغى أن يحصلوا عليه أو يحققوه فى هذه الدنيا.

كان عليه أحيانًا أن ينتظر الخادمة لعدة ساعات ممددًا فى الفراش وغارقًا فى الظلمة، فيحوم دائمًا حول رأسه المستقر على الوسادة ضجيج أصوات وضحكات يهيأ إليه أنها آتية من حفلة ويسمع نباح كلاب يتخيلها جميلة وكبيرة وفخيمة وأحيانًا أخرى يسمع صراخ أطفال لم يتمكن من رؤيتهم قط. كانت ماروخا تحدثه عن هؤلاء الصبية الأشقياء الذين تقوم برعايتهم: هم أبناء أخت سيدة المنزل. اعتادوا أن يأتوا كل صيف ليقضوا خمسة عشر يومًا بالمنزل. تقول ماروخا: كم يزعجوننى ولا سبيل إلى أن يأووا إلى فراشهم فى المساء. ولكن يا لجمالهم وشعرهم الأشقر! ألا تسمعهم وهم يركضون هربًا مني؟ غرفتهم تعلو غرفتي. كان مانولو بالفعل كثيرًا ما يسمع خطاهم وهم يركضون من هنا إلى هناك وكذلك صراخهم ومرحهم الذى لا يعرف الكلل. وحين يخيم الهدوء (فى إشارة إلى أن ماروخا ستهبط فى التو ما لم يكن هناك مدعون فى المنزل كما هى الحال اليوم) يفكر فى هؤلاء الأطفال النيام فى أسرّتهم الوثيرة ينعمون بكل أنواع الرعاية فى الحاضر والمستقبل. وفى بعض الأحايين يغلبه النعاس ساعة خلودهم إلى النوم كأنما أنهكه هو أيضًا الصخب البهيج أثناء الإجازة. ثم يستيقظ بعد عدة ساعات مفزوعًا ومغمومًا وغير

راض عن نفسه متسائلا ماذا يفعل بحق الجحيم فى غرفة خادمة؟ هذا تحديدًا ما كان يجول بخاطره بعد مراجعة صور مجموعته الخاصة والعزيزة على نفسه (التى يحتفظ بها بلا ألبوم) وفيها ترى الفتاة الجامعية الثرية وهى تحتل فى كل واحدة منها مكانة أكثر تميزًا: حريق، حريق مرعب ومدمر، المنزل يحترق من كل جوانبه. يقفز هو من الفراش ويلقى بنفسه داخل الدخان الكثيف ويصعد السلالم التى تتهاوى من خلفه راكضًا ويقوم بإنقاذ الشقراء ذات العينين الزرقاوين من ألسنة اللهب. (ينبغى له أن ينزع البيجامة الحريرية التى ترتديها لأن النار نشبت بها وهى ممددة على الأرض مغشيًا عليها) ثم يحملها بين ذراعيه إلى والديها، أو هو فى ليلة أخرى بعد أن يصل إلى المنزل ويترك الدراجة النارية بين أشجار الصنوبر يراها وهى تسير وحدها على الشاطئ يتبعها كلب ذئب كبير، حالمة، حزينة، ضجرة والنسيم يداعب شعرها الأشقر.حينئذ تهتز الأرض وتسقط أشجار الصنوبر وتظهر شقوق ضخمة بالرمال. زلزال، أسرعى يا آنسة إلى البحر فى هذا الزورق (لم يكن يهتم كثيرًا بتحديد الحوار بينهما فكان على العكس يهتم بالصورة فى أدق تفاصيلها): يمكثان ثلاثة أشهر تائهين فى البحر وحدهما بلا مؤن وعلى وشك الموت وهى بين ذراعيه... وكان الحلم ينتهى عادة بتقبيلها ولكن لم تكن أحلامًا شهوانية أو على الأقل لم تهدف فى الأساس إلى امتلاك الفتاة، إنما كانت أحلامًا صبيانية يغلب عليها روح البطولة والشجن المستتر حتى لو اقتصر هذا الانتصار على بدايته: فلا يظهر عنصر الشهوانية سوى فى نهاية القصة دائمًا عندما يكون قد تمكن البطل من إنقاذ الجميلة وبرهن بما يكفى من الأدلة على نزاهته وشجاعته وذكائه. عندئذ يحملها بين ذراعيه إلى والديها وسط إعجاب الجميع ودهشتهم. حينها يشعر بالضرورة الملحة لإيقاف الزمن والحدث ومد اللحظة على قدر المستطاع. كما لو أنه يسير على أرض تدور فى الاتجاه المعاكس للذى تطأه قدماه: لأنه يعرف أو يستشعر أنه لن يتجاوز هذه النهاية ويتكهن بعودته المحتومة إلى الظل وحينئذ لا يبقى سوى أثر قبلة خفيفة على شفتيه كأنه عزاء أو ربما انتقام من حتمية فراقها! يا له من خلاص عذب، يكاد يكون عرسيًا، خلاص العديد من المغامرات التى يعيشها كل ليلة، منذ صغره، وهو نائم متقلصًا فى فراش صلب بكوخه برُنْدة. فهناك فتاة دائمًا عيناها زرقاوان (هى نفسها كانت على مدار زمن طويل ابنة آل مورو) على وشك أن

تهوى من فوق الجسر الجديد وكلما هم بحملها مضطرًا إلى والديها المتأثرين بما وقع لابنتهما سرعان ما يعود إلى نقطة البداية. فتعود الفتاة المتشبثة بأحراش نهر التاجُه وهى تتأرجح فى الهواء فى خطر فى طلب النجدة، أما هو فيخترق الحشد ويتحدى الهاوية ليلتقط الفرنسية بين ذراعيه ويحملها إلى والديها وقبل أن يقوم بذلك كان يفضل أن يبدأ من جديد حتى يغلبه النوم فى النهاية. وفى مساء اليوم التالى وقبل أن يضع وجهه على الوسادة تأتى إليه فى تسلسل كل الشخصيات والأمكنة: الهاويات السحيقة، ألسنة اللهب المهلكة، الموجات العارمة والزلازل والحروب، ثم يعاود الكرّة.

أما السر الحميم الذى لا يزال يحتفظ به من هذه اللعبة الصبيانية الفريدة فهو اللقاء الموعود. كان عادة ما يقول لنفسه وهو ممدد فى الفراش فى انتظار ماروخا كى يبرر لنفسه فقدانه الوقتى للنشاط «أنا هنا لأن البنت لديها قوام جميل. هذا كل شيء» أو يقول «فى الحقيقة ما أنتظره هو فرصة للاستيلاء على الجواهر دفعة واحدة».

ومع ذلك فإن فكرة امتلاك جسد الفتاة وكذلك أثر قبلاتها وأحضانها وعلاقته كمراهق – لنَقُلْ أسير الرغبة الجامحة – كانت تخالف فكر رجل بارد وصعب المراس.

– أحبك، أحبك يا حلوة، أحبك.

وأخيرًا جاءت الفرصة التى تخرجه من جموده وبشكل غير متوقع، ففى ليلة فى مطلع شهر يوليو بعد أن ترك بين شجر الصنوبر الدراجة النارية (ماركة «جوسيه» قرمزية اللون ورائعة كان يود لو احتفظ بها) وتسلق شرفة غرفة ماروخا، لفت انتباهه الصمت التام المخيم على المنزل وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. لم تهبط ماروخا بعد وهو مستلق فى الفراش كعادته. التقط الصورة الموضوعة على المنضدة بجانب الفراش وظل ينظر إليها مليًا (كان وجه تيريسا يختفى دائمًا تحت ظل يديها أما وجه ماروخا فيعكس له قلقه من أمور غير ضرورية). بدت له وكأن شيئًا ما قد تغير مع مرور الوقت فلاحظ أن صورة تيريسا سرت تتضوع بعبق بلا روح، عبق منزلى ومسامى من الأجساد التى عرفها وامتلكها، فتملكه إحباط فى غاية الغرابة. وسمع فجأة جلبة وصول سيارة إلى المنزل وتوقُّف وفَتْح أبواب ثم أصوات أشخاص بدت مميزة له منها صوت

ماروخا وتيريسا وصوت رجل وفى النهاية أصوات خطى تتجه نحو المدخل الرئيسي. وبعد قليل، فتح باب الغرفة وظهرت ماروخا التى لم تكن ترتدى الزى الخاص بها أو القناع المنهك الذى كان يبدو، عادة فى هذه الساعات، فى ملامسة وجهه كطلاء رقيق متشقق. كانت ترتدى بنطلونا أزرق وقميصًا رياضيًا فضفاضًا وخفيفًا وصندلا فى غاية الطرافة. نظر مانولو إليها فى دهشة أما هى فركضت تجاه الفراش وارتمت بين أحضانه. فى تلك الليلة لم يتخذا ما اعتادا من حيطة: مواربة النافذة وإطفاء الأنوار وغلق الباب بالمفتاح. قال لها بعد أن قبلها «كنت أخشى ألا تأتى اليوم». تمددت بجانبه على الفراش. كانت عيناها تدمعان وتلمعان وكانت تتصبب عرقًا وخداها ملتهبان بل كان جسمها كله يحترق من الحمى. وعيناها المجهدتان والشاردتان واللتان تعكسان دائمًا ظلال محنة وشيكة كان من المفترض أن تصبحا مغلقتين تمامًا فى هذه الساعات لكنهما تشتعلان خلف جفنيها المغمضين. وسألها:

– ما بك؟ هل أنت مريضة؟ ولماذا ترتدين هذه الثياب؟

– هذا المساء استمتعت كثيرًا، فلقد اصطحبونى فى نزهه فى قارب...

– من؟

– تيريسا والسيد لويس صديقها الذى أعتقد أنه سوف يكون خطيبها... كان يومًا رائعًا... وأهدتنى تيريسا هذا البنطلون والصندل، هل أعجباك؟

وضع مانولو يده على جبهتها:

– أنت محمومة يا فتاة، أتعرفين ماذا أعتقد؟ إنك مريضة.

– فقط أشعر بتعب شديد ورغبة شديدة فى النوم ولكن دعنى أحك لك...

كان بريق عينيها قد خفت لثقل جفنيها. حكت له وهى ممددة بجانبه، متعبة، محمومة، وفمها جاف وصدرها يضطرب أن تيريسا وصديقها قد دعواها إلى جولة بالقارب ثم ذهبوا إلى بلانس بالسيارة إلى مكان ممتع للرقص. كانت تتحدث بصعوبة وتتخبط فى

هذا الاضطراب الذهنى الذى أخذ يطرد مع تقدم الليل. ظن مانولو فى البداية أنه حلم أو من أعراض ضربة شمس. أما غير ذلك أو ربما من أجل ذلك نفسه كانت الفتاة تبدو فى هذه الليلة أجمل من أى وقت مضى. راحت تقول:

– أنا لم أرقص، أما هما فأخذا نصيبهما من الرقص... كانت الآنسة هنا اليوم... ولكن لا تظن أننى قد شعرت بالملل، على العكس... وقد كان هناك أجانب وكانت تيريسا تحدثنى بالفرنسية، معى أنا! يا لها من أضحوكة!

– وأين هما الآن؟ ألم يأتيا معك؟

– إنهما يتنزهان على الشاطئ أو فى غابة الصنوبر... لا أعرف... ألم أقل لك إن الآنسة فى قمة نشاطها اليوم.

كان مانولو يستمع إليها بين الدهشة والمتعة وناداها: تعالي. ضحكت ثم عادت إلى تحفظها ووضعت يديها على رأسها وهى تفكر ثم بدأت ترتجف. اقتربتِ منه والتفت حول خصره بساقيها وهمست له: قبلنى وفجأة دفعته حتى تخلع ملابسها، قامت بنزع بنطلونها فنهض مانولو واتجه نحو النافذة وقالت له ماروخا:

– أتعرف أنهم قد تركونا وحدنا هذه الليلة؟

فى بادئ الأمر لم يدرك مانولو أهمية الخبر إلى أن عاد مسرعًا تجاهها. كانت ماروخا الممددة تمامًا على الفراش دون قميصها الذى لم تخرج ذراعيها من أكمامه بعد غير قادرة على الحركة وكأنها نائمة. ثم أضافت بصوت منهك أن السيد والسيدة دُعيا لحفلة ببرشلونة وأنهما لن يعودا حتى الغد وأن الآنسة تيريسا والطالب يتنزهان بالقرب من هنا ومن نظراتهما المتبادلة طوال المساء سيظلان فى هذه الجولة الرومانسية لفترة وأن الطباخة قد نامت وكذلك المزارعين. أى إنهما بالفعل وحدهما.

قال لها مانولو وهو يتجه ناحية الباب: تعالى معي، رافقينى إلى أعلى، أريد أن أرى كل شيء.

قالت هي: انتظر، وانتصبت واتكأت على مرفقها ونظرت له بعينيها القلقتين: تعال أنت أولا واقترب...

– ما بك؟

– أي! مانولو...

فاقترب من الفراش وقال: هل أنت خائفة؟

– لا ليس كذلك... لكن أنت... لماذا تفكر دائمًا فى نفس الشيء؟

– نفس الشيء؟ أوضحى قولك يا فتاة.

– أنت تفهمني. فأنا أعرف ما تفكر فيه. يعجبنى كثيرًا التحدث إليك يا مانولو.

– كفى عن هذه التفاهات.

– من فضلك...

– إنهم نائمون ولن يرانا أحد. أريد أن أقوم بجولة للاستطلاع فحسب. لا تخشى شيئًا سنعود إلى هنا فى الحال.

أطفأت ماروخا المصباح على المنضدة بجانب الفراش واستلقت مرة أخرى ليس من أجل إغرائه ففى الواقع كانت مجرد حجة.

– مانولو، لا يمكن الاستمرار على هذا النحو. لا يمكن للأمر أن يستمر هكذا...

– ماذا يخطر ببالك الآن؟ ما هو الذى لا يمكن أن يستمر هكذا؟

– كل شيء. نحن، هذا كله... أفهم ذلك لأن ذلك لا يمكن أن يحدث.

جلس المُرسى بجانبها وقال:

– ألا تحبيننى يا ماروخا؟

– أنت تعرف أني أحبك أكثر من أى شيء فى العالم.

– إذن؟

– إذن لابد أن نتزوج يا مانولو.

حاول مانولو أن يهدئها:

– لا داعى للبكاء.

- من يبكى هنا؟ لابد أن نتزوج ويكفى هذا فلا يمكن أن نستمر على هذه الحال...

– اسمعي، هل أنت حبلى؟

– لا ولكنى أقول لك إن هذه الحال لا يمكن أن تستمر.

قال هو:

– حسنًا. نتحدث لاحقًا، نعم، أعدك أننا سوف نقوم بالتخطيط لذلك. أما الآن فضعى شيئًا عليك ودعينا نخرج من هنا... هكذا تعجبينني، بنت طيبة، امسحى دموعك يا بكاءة.

قبلها فى وجنتها وقال:

– هيا أسرعي، كى نرى فحسب كيف يعيش أسيادك الأوغاد هؤلاء يا امرأة.

– لا تتلفظ بهذه الكلمات البذيئة.

ارتدت ماروخا وهى تهمهم بكلمات غير مفهومة أول شيء التقطته يدها، كان قميص مانولو الذى رافقها وخرجا معا وهما يتحسسان الممر المظلم. وبعد أن رجته أن يلتزم الصمت أمسكت بيده وجذبته. زحفا وهما حافيان طوال الممر ثم انعطفا ناحية اليمين ودخلا الصالة التى كانت تسبح فى ضوء القمر فى شحوب مائل إلى الخضرة، فكان كل شيء يبدو وكأنه غارق فى حوض ماء. وكان صوت البحر يخترق النوافذ الكبيرة الحديدية بالدور الأول. لم ترد ماروخا أن تضيء الأنوار ولكنه أقنعها بأنه لا داعى للقلق. لم تكن أكثر من جولة عاطفية بالنسبة لهذا الشاب الجنوبي. فلم يرغب حتى أن يرى الجناح الأيسر

من المنزل المخصص لغرف الخدم والمطبخ والجراج وعنبر لإصلاح المراكب بالإضافة إلى سكن ملحق بالمنزل لعائلة ماسوبيروس (وهما زوجان بلا أولاد من بلانس). أما الجناح الأيمن فيتكون من الصالون ومكتبة ذات أرضية خشبية ونافذة زجاجية تطل على أشجار الصنوبر والبحر. ينتهى الدور الأرضى بغرفة طعام تتصل من الخلف بالحديقة من خلال شرفة بها بلاط كبير وغير متساوى الحجم ينمو بينه عشب أصفر وجاف. يوجد فى بداية المدخل سلم مغطى بالسجاد يؤدى إلى غرف الدور الأول والثانى وبهما شرفتان أخريان، إحداهما تطل على وهدة على الساحل ومرفأ. أما المنزل من الداخل فلا يتطابق البتة مع الفكرة التى كونها المُرسى عندما كان يراه من الخارج، ومع ذلك أصابه بالذهول. فالبناية الرشيقة والمجنحة كقصور الحكايات الخيالية تستحيل من الداخل ديرًا فسيحًا ذا أسقف مقببة ناصعة البياض وأقواس وجدران مطلية بالجص. كل شيء متناسق هندسيًا ونظيف بدلا من جاذبية وسحر الشكل الخارجي. ولكن جزءا واحدًا من الأثاث المتين والخشن بدا أنه يمت بصلة غامضة لفكرة الترف كالكنسولات القديمة والأسرّة المصنوعة فى مدينة أولوت والأبواب ذات المربعات والخرائط القديمة المعلقة على الجدران ومقاعد ميورقية ومقعدى المكتبة واللذين تنتهى مساندهما وقوائمهما بنقوش تمثل براثن أسد.

ولكن، بعد وقت قليل، أدرك خطأه فالباركيه (علامة الثراء الأكيدة بالنسبة له) تفوح منه رائحة الشمع ويصدر عنه صوت لطيف تحت الأقدام. كان للمكان حياة خاصة ورصينة، يسبح فيه حضور خفى وحميم كأنه حارس يقظ متأهب دائمًا للدفاع عمن يحرسه ولكنه لا يُرى أبدًا. حتى ماروخا فى قميصها الوردى الذى يبلغ ردفيها ويكشف عن ساقيها السمراوين وقد استلقت من التعب على أريكة الصالون تتصفح المجلات دون أى اهتمام بدت متناسقة تمامًا مع ذلك الشكل. عند دخولهما القاعة الرحيبة أبطأ مانولو إيقاع خطواته بشكل تلقائى يكاد يكون غير محسوس، فقد دهمه شعور غامض بأنه كان فى هذا المكان من قبل. وفيما يقف ساكنًا وسط مشهد المساحات الواسعة المضيئة والأسطح المصقولة استشعر مدى الزمن المتراكم هناك داخل ناقوس من الزجاج والذى لم تكن له أدنى صلة بالزمن فى منزله أو حيه حيث اعتاد استخدام الأشياء يوميًا وابتذالها فى وقت قصير، بل بماضٍ معيش لا يدرس متى أو أين كأنه فى بطن أمه، فى قصر آل سلباتييرا، تطوف به مئات المرات على نفس هذه القاعات والغرف الفخيمة.

دار فى حركة بطيئة حول ماروخا وأسند يديه إلى ظهرها وظل يدور مرة بعد مرة وفى لحظة معينة وهو يدور من حولها مد يديه وداعب شعرها ورقبتها. ها هنا بوسع المرء أن يفكر فى الغد ويحب الغد والآخرين مثلما يحب نفسه. كان يستشعر شيئًا من السأم (شيء ساكن فى الهواء يوحى بالرتابة، فراغ محنط) ولكنه سأم راق ومحترم وخصب. ولكن بعد وهلة استحال بغتة الحنين الذى غزا نظراته وإيماءاته مزاجًا عكرًا. جلس على الأريكة وأمسك بكتفى ماروخا ونظر بعينيه السوداوين إلى عينيها وسألها:

– أين غرفة السيدة؟

خمنت ماروخا نواياه فى الحال وأرادت أن تنهض.

– لا... لا تفكر فى هذا يا مانولو.

– هيا! هيا! لا تبدئي. أريد أن أرى ما بها فحسب.

– لا يوجد بها أى شيء كى تراه هناك، – اعترضت بصوت حاد –. لا توجد جواهر أو أموال أو أى شيء قد يستهويك. من فضلك... من فضلك دعك من هذا الجنون. فدائمًا ما تنتهى هذه الأشياء على نحو سيئ وسوف يلقون باللوم عليَّ، ألا تدرك ذلك؟ سيعتبروننى المسئولة ويجبروننى عاجلا أو آجلا على قول الحقيقة... من فضلك لا أريد أن أسمعك. لا، لا أريد...

بدأت ترتعش وهى تبكى وكانت على شفا نوبة هستيرية فانهارت أعصابها التى كانت نهبًا لها حتى الآن، وراحت تصرخ فأمسك مانولو بكتفيها بقوة. وعلى الرغم من أنه لا يجهل السبب الرئيسى لارتباكها – فالفتاة كانت تغضب دائمًا عندما تسمعه يتحدث عن الجواهر – فإنه بدأ يفكر فى احتمال وجود دوافع أخرى. ولكن كل شيء حدث سريعًا، فما كان يبدو فى البداية مجرد بكاء أطفال قد تحول إلى نوع من الانهيار العصبي. وخوفًا من أن يُسمع صياحهما، جعلها تنهض من على الأريكة وحملها غصبًا إلى الغرفة ومددها على الفراش ثم عاد إلى الصالون وقام بإطفاء الأنوار.

وعندما عاد إليها وجدها غارقة فى سبات مضطرب، تستيقظ منه الفتاة بشكل بطيء وعيناها تفيضان بالدمع. سألها من جديد إذا كان بها شيء وهى نفت وقالت إنها فقط تشعر بصداع. قال مانولو وهو يقترب من المنضدة بجانب الفراش:

– هل لديك إسبرين؟

– فى حقيبتى فى الدولاب.

ذهب مانولو إلى المطبخ لإحضار كوب ماء. وعندما عاد إليها وناولها الكوب، نظرت ماروخا إلى عينيه نظرة حائرة كما لو أنها أرادت أن تقول شيئًا ولكنها أحسنت التفكير بلا شك وصمتت. ظل يقوم بحركات ومداعبات كى يهدئها كما حاول أن يقنعها بألا تخاف وأن كل شيء سيكون على ما يرام: «لا يمكن أن يحدث شيء أيتها الغبية، فهؤلاء لا يعرفون حتى ما يمتلكون ولن يدركوا شيئًا...»، أما هى فتجيبه بالبدء فى البكاء من جديد وبالصمت وهى تضغط صدغيها بيديها. زاد غضب مانولو فقد مر الوقت ولم ينتزع من الفتاة إلا أشياء بلا معنى. فواقعها وأظهر لها ما لديه من رجولة لم تخنه مطلقًا، ولكن كل ذلك لم يأت بفائدة. مرت ساعة ثم قالت الفتاة وهى تبكي: أنت لم تحبنى قط! ظل منتظرًا حتى تهدأ وعندما لم يستطع أن يتحمل أكثر صفعها مرتين برقة بلا اقتناع. عانقته الفتاة بقوة وكانت ترتعش كالورقة وجسمها غارق فى عرقه وكفت عن البكاء وقالت: لا تضربني، تعال... وبيديها الخرقاوين المرتعشتين الخاليتين من ملامح الحياة – كأنها تحرك جهازًا يتحكم فيه عن بعد بلا عزيمة – نزعت القميص فى حركة بطيئة ثم ظلت هادئة تنظر إليه وهى تتنفس بصعوبة. كانت الأنوار مطفأة ويدخل جزء من ضوء القمر عبر النافذة. ظلت فى الفراش على الملاءة الملقاة بجانبه، كان جسد ماروخا وعيناها يلمعان فى الضوء الخافت وفجأة بدت لمانولو جميلة فكان جلدها يحترق كاللهب. قبّلها وهو يهمس إليها بكلمات حب جديدة فى أذنيها ويداعبها برقة حتى إنه هو نفسه أدرك أنه كان يذهب بعيدًا عما هو متوقع وهو ما يهدد، مرة أخرى، بتدمير كل مخططاته.

وفجأة، شعر بالفزع، شيء فى قبلاتها بدا كأنه يصارعه ويقاوم الإفصاح عن كنهه، ومذاق الحذر المبهم والمعدنى فى شفتيها وظهر ظل مصيبة وشيكة لم يتوقف قط عن

غشيان عينيها المريضتين لينتزع الفتاة من يديها وكأنه إعصار دون أن يأخذ حتى وقتًا فى فهم ما جرى. سقطت بين ساقيه بنعومة عندما انزلقت فجأة ذراعا ماروخا على رقبته وسقطتا على الفراش كقطعتى حطب ثقيلتين فى الوقت الذى لاحظ فيه هروب قوى جسدها من جميع مسامه. «رأسى يا مانولو، رأسي!»، همست إلى مانولو وهى مازالت قادرة على أن تنظر إليه بعينيها الواسعتين على نحو مخيف والمتنبئتين مسبقًا بما سيحدث. وبينما كان جسدها كله يرتجف، رفع رأسها قليلا على الوسادة كما لو أن قلبه كان يحدّثه بالنهاية وربما أراد، فى رد فعل لاإرادي، أن يتجنب ضربها. تشنجت عصبيا وفى الوقت نفسه أطلقت صرخة وفقدت الوعى فى الحال.

ظلت الفتاة بين ذراعيه ورأسها ساقط إلى الوراء كما لو أنه دمية متفككة مصنوعة من قماش ورمل. حاول مانولو نهبا للرعب أن يفيقها ببعض اللطمات: ماروخا! ماروخا! أجيبى، ما بك؟ حدثيني› أنا هنا...!

نهض وهو يحمل جسدها بين ذراعيه وكان أول ما فكر فيه هو أن يعرضها لهواء الليل فتقدم ببضع خطوات دون أن يرى أو يعرف ماذا يفعل ثم عاد وترك ماروخا على الفراش. خرج إلى الممر لطلب المساعدة لكنه خاف أن يتسبب فى فضيحة وقال لنفسه إنه ربما يكون مجرد إغماء عابر. عندما عاد للدخول بدت له ماروخا ميتة: فالفتاة ظلت بلا أى حركة فى الفراش ورأسها ملتو بشدة على جنبها وساقاها معلقتان بجانب منضدة الفراش. صفعها على خديها: مارى! ماروخا... أفيقي...!! وفكر فى أن يحضر لها ماء أو مشروبا قويا ولكن تمكن الرعب منه تماما وأحس بذنب كان يشعر به منذ اللحظة الأولى واليوم الأول الذى دخل فيه هذه الغرفة؛ وعلى غير وعى منه ارتدى ملابسه بسرعة ثم نظر إلى ماروخا للمرة الأخيرة من النافذة قبل أن يقفز منها إلى الخارج وأخذ يركض بين أشجار الصنوبر. ظل يبحث عن الدراجة النارية فلم يتذكر أين تركها. التف ونظر إلى المنزل الغارق فى ضوء القمر ومر بيديه على وجهه عدة مرات، فلقد رسخت فكرة موت ماروخا فى ذهنه وقال لنفسه (وهو يشجعها): استعد يا فتى! وجد أخيرا الدراجة النارية وأخرجها من بين شجر الصنوبر وهو يركض ويتعثر ثم قفز فوقها وانطلق بها.

كان بالجزء الخلفى من المنزل فى الاتجاه المؤدى إلى الطريق. اضطر إلى تشغيل بدال السرعة فى ثلاث محاولات. أمسك بالمقبض بيديه الخرقاوين والمرتعشتين ثم توقف المحرك. أطلقت جوسيه الرائعة صوتا وتجشأت للحظة ثم توقفت. فقال مانولو لنفسه: يا لك من فتى تعس! وفى محاولته الثالثة، ووسط ضجيج شديد، قذفت به الدراجة النارية تحت قدميه وظل كالدمية المصنوعة من القماش والقش ثم جلس فى ثبات على المقعد وابتعد بأقصى سرعة مترنحا وقد تملكه الذعر.

ها قد حان وقت إطلاق الحمام

فى وسط الميادين ذات التماثيل

ليمنحونا لحظتنا. فمن وقت

لآخر، سوف تدق الأجراس.

خايمى خيل دى بييدما[1]

فى وقت الإجازات، كانت كل رحلة بالدراجة النارية هروبا يائسا: كان الفتى المُرسى الذى يتطاير شعره وأطراف قميصه كلما هبت الريح وهو قابض على الدراجة النارية كسنور وينظر إلى الأمام فى شرود دون أن يلقى بالا إلى الملذات التى تلاحقه بسرعة كبيرة ويقطع عدة كيلومترات على الشاطئ، تحوطه هالة من الإثارة وشعور بالارتياح ويحدوه حلم كبير من المداعبات التى لم تشبع قط. وكان يعبر كمن يلقى بنفسه أمام العربات والسيارات المكتظة بالسائحين، عابرا قرى وميادين زاخرة بالاحتفالات تاركا خلفه الشرفات الصاخبة والمنازل المضيئة والفنادق والمخيمات السياحية. وفخذاه تضغطان مستودع الوقود، كان يتحكم فى ارتعاش المحرك وارتجاف دمه وراح يتحرك بخصره وركبتيه فى عذوبة ويوجه قوة الدراجة العمياء ويعتريه شعور غامض بأنه يوجه بذلك إرادته ونفاد صبره، كأن كتلة الفولاذ والعضل وما يغطيهما من غبار ليست

---

(١) أحد أهم شعراء إسبانيا ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) أو ما يعرف بجيل الخمسينيات توفى عام ١٩٩٠ وتوجد الآن جائزة للشعر تحمل اسمه تكريمًا له ولأعماله.

سوى مادة واحدة حُكم عليها بالانطلاق فى جوف الليل بلا هوادة، فلم يكن يعلم أين خط النهاية.

كثيرا ما كان يتراءى له فى قلب الليل وفى إطار ضوء مصباح دراجته النارية المنعكس على الطريق زى ماروخا يتدلى من مشجب داخل غرفتها. ولكن على الرغم من هذه الاستدعاءات الشجية التى تجلبها السرعة، كان على وعى دائما بالحركة واللون اللذين يحيطان به فكأنهما عرضان سينمائيان منفصلان على جانب الدراجة، مجموعتان من المشاهد يراهما بطرف عينه مع التسلسل السريع والعشوائى للرؤى اللطيفة التى ينجبها ليل الشاطئ وقد أخصبته السياحة التى يعشقها ويمقتها فى آن.

مصطافون عتاة وبلا عقيدة وآخرون من أبناء البلد الأتقياء المحبين لبثوا يستمتعون، ولكنه لا يرى فى سرعته المجنونة سوى الليل وهو يلقى بظلال حنانه الجامد الرمادية على هؤلاء كلهم ويقطر عصارة الصمت القديم: فيرى كيف تتسبب زرقة سأم القمر فى اخضرار هامات الأشجار وكيف يرسم بلحظه بركة فضية ومحتضرة على البحر وكيف يزحف على الشواطئ والمنازل والفنادق والحدائق والشرفات والمظلات والأسرة المعلقة والمتجهة ناحية الغرب وهى لا تزال توازى بشيء من تأثير النهار شمسا لم تعد تُرى. وموسيقى ناعمة ومسامية مثل رعشة الجلد المعرض للشمس عندما يداعبه نسيم البحر، موسيقى تبدو غير آتية من أى مكان، بل أغنية تصاحب كل شيء يتناثر كل ليلة على الساحل كأنه ضرب من ضروب غزو نمل ملون يخرج من الفنادق والمنازل وقد تسلخت أكتافهم وقلوبهم الاستوائية ليملأوا عُلب الليل والرقص والشرفات.

وبالرغم من سرعته كان يميز أهل البلد، فكان يعرفهم من خلال النظر إليهم: مهانون على نحو غامض ولكنهم جديرون بالاحترام. يعبرون الطريق وهم يضعون أيديهم فى جيوبهم وينظرون بتعال وغرور بينما تكاد تصدمهم الدراجة النارية (عين مخبولة ومرتعبة بشكل مفاجئ تخون كرامتهم وإصرارهم المحزن على أنهم ما زالوا أصحاب الأرض التى يقفون عليها. ثم يلتفون حول أنفسهم كالدمى على منصة ثم يغوصون بعد ذلك فى العدم إذ يبتلعهم الليل فى التو. لكن أكثرهم سائحون: أى الأثرياء الظاهرون للعيان - يفكر هو -

الذين يمكن أحيانا أن نلمسهم، ويمكننا أن نقول ونحن بجانبهم إنهم على الأقل موجودون، الذين يسمحون، ليس دون استياء من جانبهم، لأهالى البلد المذهولين، النازحين أفواجا فى القطارات وعلى الدراجات النارية، أن يلفوا أجسادهم النبيلة التى لوحتها الشمس وحُسن طالعهم فى الحياة بنظرتهم البائسة، نظرة كلب أوسعوه ضربا.

كان بوسع شبح الدراجة النارية أن يرى هؤلاء المواطنين فى زى يوم أحد لا يجيء وهم يلتفون فى جماعات صغيرة حول المقاهى وحلبات الرقص ويترصدون الفتيات السويديات صاحبات الشعر الأشقر النارى والفم الكبير الزكى الرائحة والعيون الصفراء التى تلمع فى الظل والتى فى الساعات الأخيرة من الليل تبدأ الومض بداخلها - كأنها مدارات فلكية - أعباء يوم الاثنين المميتة فى المكاتب والورش. ويعتبرون نظرات الدهشة أو الاحترام، كنظرة صبى استُبعد من اللعب مع أقرانه لسبب يجهله فانزوى وظل رهين النسيان، وهم يلبثون هناك على مقربة لعل أحدا يستدعيهم. فرغبتهم موروثة ومؤلمة لكنها أفضل بكثير أخلاقيا من فكرة تكديس المال، إذ تقتصر على فرصة لممارسة الحب المباشر والجائر أو الرقص دون دعوة أو مضاجعة عابرة خلف زورق.

كانت السرعة تطمس الملامح فتظهر لقطات متلاحقة من زيجات من العجائز المسالمين من أهل الشمال من ذوى الوجوه النضرة وأبنائهم الشقر الحسان كالورود وقطيع من السيدات الفاتنات المتوردات يصلن فى سيارة وهن يلبسن قبعاتهن الملونة وسويديات فردوسيات مشرقات بعيدات المنال وفرنسيات ممشوقات القوام، كأنهن خرجن للتو من صفحات المجلات الساخنة وإنجليزيات مختلطات يذهبن إلى الرقص وهن يرتدين شالات وفساتين فضفاضة ذات حفيف كأنهن ذاهبات إلى حفل استقبال ويسمحن لأنفسهن، فى نهاية الأمر، أن يتبادلن القبل الحارة مع بعض الصيادين والنُدل خارج أوقات العمل.

كل هؤلاء يظهرون للعيان، بمظهر حسن والاحتكاك بهم يشعل أحيانا نار الشوق مع أنها غير خطيرة. ولكن هناك آخرين أكثر ثراء وهم لا يكادون يُرون فهم حقا بعيدو المنال ولولا وجودهم ورؤيتهم فى بعض الأحايين فى بعض الأماكن العامة لقيل عنهم إنهم لا

وجود لهم. ففى زياراتهم القليلة للبلدة وهم ينظرون بابتسام وبلا اهتمام للزيجات، يُلاحظ أنهم معتادون على السعادة وأن رغباتهم تسكن مكانا آخر. ففرحهم وصمتهم يعطيان أبعادا للمتعة وأجسادهم تبدو وكأنها التقطت غبارا ذهبيا أثناء الطريق بينما يأتون غير مبالين بالجلوس برهة هنا معنا فى المقاهى ودائما يزين النسيم البارد والعليل جباههم ويبرزها ويرافقهم أينما ذهبوا ويقيهم من الفضول العام ومن النسيان والازدراء. ومن بينهم: رجال ناضجون يصيبون بالدهشة راكب الدراجة الجامح على وجه الخصوص.

هم ليسوا سائحين ولا من أهل البلدة، يعيشون فى قصور للاستجمام هى بدورها نادرا ما تُرى، تحيط بها حدائق وغابات من الصنوبر بين الصمت والظلال الوارفة الرغدة. وهم ينظرون إلينا دون أن يرونا فأعينهم أفسدها المال والأعمال القذرة وتركت فى عقولهم القديمة ندوبا قديمة. مثل أفراد العصابات المتقاعدين بلا عقاب يستجمون بجانب أحواض السباحة المتوارية التى لا تكاد تُرى من خلال الأسوار بجانب ملاعب التنس حيث تلعب فتيات من الممكن أن يكن بناتهم ولكن ذلك لا يُعرف أبدًا، فهن لا يعشن هناك ولا هن مدعوات أو حتى يُعرف إذا كن حقا شابات كما يَظهرن من بعيد؛ وكانت من بينهن تيريسا سرات ومعها صديقها لويس ترياس دى چيرالت المدعو لقضاء إجازة نهاية الأسبوع فى المنزل. وقليلا ما كانت تيريسا تبتعد عن حدودها وإذا فعلت فإنها لم تكن تذهب قط إلى البلدة وإنما إلى المدينة، فمن ناحية استغلت مسألة أن والديها كانا غائبين فظهرت فى البلدة بناء على رغبة صديقها واستجابة لدواع أخرى تحاول الآن أن تحللها ممرورة.

بالخارج هزت فرقعات محرك الدراجة النارية الهواء وخدشت سكون الليل بيأس يعلن عن هروب جامح وارتفع ضجيجه بشكل حاد فوق هدير الموج ليقتحم شرفة غرفة تيريسا المفتوحة حيث كانت هى ممددة على الفراش تفكر وعيناها مستقرتان فى الضوء الخافت وفى حركة بطيئة استقر رأسها على الوسادة معبرًا عن حزن كئيب. أصاخت السمع إلى صوت الدراجة وهو يحاول أن يدير محركها للمرة الثانية. نهضت وتركت الفراش واتجهت ببطء نحو الشرفة المتصلة بالغرفة. كانت رهافة حركاتها ظاهرية فحسب: فكلما ثنت ركبتيها بازدراء فى تقوسها الصارم المباغت وفى تكاسل ردفيها السنوريين، فى نضوجهما المبكر مقارنة بمنكبيها، أطل ضرب من العدوانية الغريبة، ظل

شعور بالإهانة. فبينما تسير حافية، أحكمت زر القميص بيدين خاملتين ومطويتين كأنهما ساقا نبات مكسورتان. وجذبت بعصبية إلى أسفل أطراف الشورت الصغير الملتصق بأعلى فخذيها بإصبعي الإبهام والسبابة دون أصابعها الأخرى كما لو كانت تلمس مادة ملوثة وتخشى الإصابة بالعدوى. وفي الوقت الذى أغمضت فيه عينيها، ارتسمت على فمها الشاحب ابتسامة تنم عن الاحتقار: هي ليس لديها وعي بجسدها وإنما بالحضور المضجر الذى لا يزال يوجد بداخله جسد آخر. عند وصولها إلى الباب الزجاجي، هبت ريح وهزت شعرها الطويل الناعم كاشفا عن رقبة طويلة ومدورة. وخلال لحظات عندما غمر الغرفة ضوء القمر الآتى من الشرفة كأنه زبد أبيض، توقفت صورتها عن الحركة كأنها تعرضت فجأة لضوء كاشف. إذا كانت رقبة المرأة تنم حقا عن أصلها، فتيريسا سرات دليل رائع على أفضل سلالة: فورثت عن والدتها رقبة لطيفة ورشيقة وفما ذا مصير معروف قبلا على نحو فريد وسعادة كافية لكي توحي إليها بفكرة إيماءة ساحرة وأسطورية. فإذا رأيت طريقتها المميزة في تحريك رأسها الأشعث واستراق السمع إلى همسات الليل، تجد أن لديها روح سمكة الفراشة وأن قدرها هو العيش تحت مزيج مثالى من الضوء والمياه الزرقاء الشفافة، مياه استوائية غير عميقة. لكن تيريسا تعانى من حنين إلى بحر عنيف ومظلم تسكنه نماذج متعجرفة ورائعة ومولعة بالقتال من ضواحى المحيط البائسة حيث يتصارع بعض الزملاء فى صمت وبشكل بطولي. فهى تتنهد كقطة مرفهة تشتاق إلى الأسقف وضوء القمر إلى أن يصيبها السأم. وقدماها العاريتان العابثتان والجميلتان، بل كلها وبكل صفاتها: بريق عينيها السماوى وردفاها الصبيانيان للغاية وذهب شعرها القديم وشهد رقبتها وحريرها وكذلك ظهرها الوهن المراهق يكشف عن إرث نسب أمها الغنى والرفيع حتى فى فترات الأزمة، وسواء رأت الطالبة التقدمية أن ذلك من العدل أم لا، فإن عراقة سلالتها التى تنبئ منذ صغرها برقبة رقيقة كرقبة الأيل وتعبير فمها الفريد حيث إن شفتيها الورديتين الجافتين المنتفختين على نحو خفيف – خاصة الشفة العليا، ذات الزوايا الحادة، كما لاحظ المُرسى ذات مرة – ترتفعان تجاه الأنف فى إشارة ظريفة عن الاحتقار – يكمن فيهما أصل وسر ذلك التعبير الصبيانى والمدلل إلى حد ما والعدوانى كذلك – يشيع فى أعضاء جسدها كله ويحدد طبيعة الفتاة

الطموحة، مزيجا من الغطرسة والسذاجة، من الوهن الوردى والتمرد البرونزى الناضج الزائف.

اتكأت تيريسا - محفوفة بضوء كوكبى شاحب - بمرفقيها على حاجز الشرفة حيث تقبع مظلات وأصص من النباتات الضخمة والأوراق المصقولة ومروحة وسريران معلقان وراديو ترانزستور متروك على مقعد من الصفصاف يتأوه بأغنية عصرية رقيقة تقول:

قال لى القمر

إنه لم يحب من قبل

وإنه كان وحيدا دائما

يحلم قبالة البحر

من مكانها تستطيع الفتاة أن ترى المرفأ وعن يمينها وهى مطلة من فوق حاجز الشرفة ترى شبكة ملعب التنس المعدنية، وعلى الجانب الآخر من المنزل فى مكان ما قريب من الغابة ما زال محرك الدراجة النارية يرفض أن يدور ويُسمع لهاثه وسعاله فى قلب الليل كأنه جرس إنذار. فى نفس الوقت، سمعت تيريسا وقع خطوات فى غرفتها. "والآن ماذا يريد؟ إلامَ يسعى؟" وصلت إلى مسامعها فرقعات جديدة هذه المرة مندفعة وفهمت أن الدراجة النارية ابتعدت فى اتجاه الطريق فى نفس اللحظة التى أرادت أن تتجنبها بأى ثمن عندما ظهر لويس ترياس دى چيرالت فى الشرفة. كان وجه الطالب الشهير وشعره لا يزالان مبللين - آتيا من الحمام - وهو يجففهما. كان يبتسم بشكل حزين متكئا بكتفه على الباب ومثبتا عينيه فى ظهر تيريسا ومرتديا قميصا من الصوف الأبيض كالمنشفة وبنطلونا فاتح اللون من الكتان. وسألته بحماقة: هل أنت هنا؟ يا لها من مياه ساخنة. أصاخت السمع إلى الدراجة النارية التى كانت تطفئ أنوارها من بعيد ثم أضافت: أسمعت؟ عاد صديقنا المهاجر لأفعاله... مازالت تيريسا توليه ظهرها وفكرت: إنه أكثر رجولة منك. ضغطت أعصابها بشكل غريزى ولأول مرة أدركت الإهانة التى لحقت بجسدها وغضبت.

وفكرت أيضا بمرارة أن هناك طرقا كثيرة لتكون أحمق. من كان يتخيل أن لويس ترياس دى چيرالت هو أحد الحمقى الذين يحاولون بشتى الطرق ألا يكونوا كذلك. التفتت تيريسا إليه وأعادت مرفقيها إلى الوراء وظلت متكئة الآن بظهرها على الحاجز. يبدو أنها لا ترى صديقها الذى فاجأها بنظرة رقيقة تبخرت من فوق رأسها فى الليل ثم قام بحك رقبته وهو يتألم. وقالت تيريسا: إنه جذاب، يذكرنى بأصدقاء كثيرين قد نسيتهم. بعيدا تماما عن غموض الجملة، ظلت نظرتها المزدرية والمهينة تائهة فى الليل وسألها لويس: من؟ رفيق الخادمة؟ وبعد برهة أضاف: اسمعى ما هو خاص بنا سوف نتحدث عنه بهدوء... وأجابته: لا يوجد شيء لنتحدث عنه. عاد يحك ركبته وقال بصوت متسلط غير متوقع إنه ما لبث أن ارتطم بوحشية بحافة حوض الحمام، وإنه سيتمكن من السير عليها عندما يتوقف الألم.

الآن نظرت تيريسا إليه لأول مرة وفكرت: "ربما يكون قد استحم أيضا، الأحمق... نعم، فمن كان يتخيل أن خلف هذه الهيئة الرائعة لقائد جامعى ذى رؤية متحمسة للمستقبل، لا يوجد سوى رجولة رخوة، رخوة على نحو مثير للاشمئزاز ودون خبرة. ومن كان يتخيل أن يدى الخطيب الحماسى قد احتوت ثدييها كحبتى فراولة برعشات تأنيب ضمير برجوازى وأن هاتين العينين الخضراوين الورعتين وهما تهيمان دائما بأعلى وتتأملان رؤياه المستقبلية قد حطتا على جسدها على نحو مخز وبائس. ومع ذلك، ظل صوته يتفاخر بهذا العجز المدهش الذى يميز الحكماء والكبار المتوجين بالوقار والخبرة ويبدو أنه يصر على ألا يدرك شيئا أو أن يولى أية أهمية لما حدث هذه الليلة بينهما: وبالتالى شكت تيريسا أن يكون ذلك الصوت، الخالى من أية رعشة حتى فى اللحظات التاريخية التى نقول فيها كلمة السر بلا أدنى تردد، قادرًا سوى على التجاهل التام والمطلق لكل شيء.

سأل لويس:

– متى يعود أبواك؟

– غدا، قلت لك ألف مرة، أو ربما هذه الليلة. لا أعرف، سيكون أفضل.

– تيري، أنت تعرفين جيدا أن لذلك شرحا منطقيا وسأوضحه لك...

قالها بكل برود:

– أنت لست منافقة بأى شكل من الأشكال.

– نعم، هذا واضح، لكن من فضلك لا تدع جدلك يتناول موضوعا مؤسفا بهذا الشكل، فسوف يكون شيئا مضحكا. فاسكت. أتوسل إليك.

المكانة التى كان يتمتع بها لويس ترياس دى چيرالت هذه الآونة كانت هائلة. فلقد ذهب إلى السجن مرتين وكان يصاحبه دائما شبح التعذيب المأسوى (كان يمكنك حتى أن تراه أحيانا على اتصال حميم به غارقا فى لحظات صمت معبرة) وكان يقال عنه فى المحاضرات إنه واحد من الشخصيات المهمة. فمنذ عام تكهنت أو شعرت تيريسا بمكانته الحالية فانجذبت إلى التعاون معه فى عدد لا نهائى من الأنشطة الثقافية وغير الثقافية: فكانت تفترض أن لويس ترياس دى چيرالت له اتصالات سياسية، فهو طالب متميز فى الاقتصاد وحفيد قراصنة من البحر المتوسط وابن تاجر شديد الذكاء استطاع أن يربح الملايين من استيراد ملابس رثة فى بدايات الخمسينيات. كان طويل القامة ووسيما ولكن ملامحه مترهلة ومزيفة وسياسية فى الأساس: بشرة وردية، شعر خفيف ومجعد، نظرة ملتمعة وغير حازمة، يبدو كأحد ولاة سلالة كابيتو[1] الحمقاء، غدته الدرقية ملتهبة (اعتاد شخص وضيع متباه من الحى الصينى تربطه به صداقة تتسم بالشد والجذب أن يدعوه باسم إيزابيلا كلما مر به مسببا له الإحراج). كانت هيئته تنم عن شخص متردد، لطالب لاهوت مستأنس فى أيام العطلات، يومئ إيماءة رهيفة برأسه مردها الدوار اللاهوتى وثقل الأفكار المهيب أو ربما كان سببها ضعف رقبته كأنه يسير فى ملاحة من سقط رأسه فوق صدره.

---

(١) نسبة إلى فرجيليوس كابيتو، أحد الولاة الرومان فى مصر فى زمن الإمبراطور كلوديوس من حقبة الإمبراطورية الرومانية.

أشاحت تيريسا بوجهها عنه وتمنت لو رحل على الفور وقالت: لقد تأخر الوقت. فلم يعد يُسمع منذ لحظات صوت الدراجة النارية من بعيد. يا لهم من رفقاء بسطاء وسعداء وسوقيين لخادمات مبتذلات. إن العالم عالمكم! و فكرت تيريسا: ليته يقترب مني الآن ويحتضنني بقوة، بقوة هائلة، ربما ما كنت لأخسر كل شيء.

ظل كلاهما بلا حركة وبينهما مسافة ثلاثة أمتار. كان من الواضح أن لويس لا يجرؤ على أن يتقدم بأي خطوة. أشعل سيجارة وهو تقريبا يصيح: أتريدين واحدة؟ إنها جيدة (للأسف: تعرفين أنها سيئة للغاية) وروسية أصلية (والأسوأ: وقت غير مناسب للاستعانة بأمثلة شهيرة)، فلقد أحضر لي خاثينتو بعض علب السجائر من مهرجان الشباب الأخير لـ... (توقف عن ذلك واصمت)، ثم بدأ يدخن السيجارة بعصبية وعلى نحو مستتر وهو يبعد بيديه الدخان الكثيف والثقيل الذي ظل يتصاعد تحت الضوء الوحيد الموقد بالشرفة فوق رأسه. وبينما تلاحظه، تأكدت لدى تيريسا فكرتها المكتسبة حديثا عن أنها أمام أكذوبة. فالقائد الأسطوري لا يزال يصر على أن يعيش تفاصيل الحياة فحسب على نحو غير مكتمل كما لو أنّ هناك أشياء لا تسمو لمكانته الرفيعة مثل الرقص والسباحة وممارسة الحب وحتى التدخين كما هو واضح الآن، فهو يتنفس دخان السيجارة دون أن يبتلعه وينفث نصف الدخان فينتشر حول شفتيه كرغوة منفرة. واكتشفت تيريسا أنها دائما ما كانت ترتاب في أخلاق الأشخاص الذين لا يبتلعون الدخان عندما يدخنون. قالت وهي تنظر إلى أسفل: لويس خير لك أن ترحل، وودت لو تضيف: بعد ما حدث، لم يعد يربطنا سوى ما هو بعيد عن أحاسيسنا واهتماماتنا الشخصية، ولكن بدا لها شيء في غاية الرقي مقارنة بابتذال الموقف، كانت جملة لطيفة ومع ذلك ودت لو استطاعت قولها وقامت بتسجيلها في ذاكرتها. فكونها عقلانية كما هي، أدركت الآن تماما أنه حتى قربهما الجسدي البسيط بات مستحيلا، بسبب نشوة خيالية وملاطفة طويلة أدت بهما إلى هذا الموقف المؤلم. فمن كان يتخيل أنهما اليوم قضيا أمسية رائعة ولكن لابد من الاعتراف بأن علاقتهما أصبحت متقلة منذ وقت طويل بمعنى غريب لا يحتمل، بشحنة كهربائية كانت تهدد بصعقهما في أي لحظة. كانا على نحو متبادل ومستمر يراجعان أحاسيسهما ورغباتهما ويتناولانها بالتدقيق ويحللانها ويقيمانها حسب مفهوم للحياة لم يكن متاحا مهما حاولا إثبات عكس

ذلك بنبرة تنبؤية، ولذا لم تكن لذلك المفهوم أية صلة بواقع حياتهما (لويس عليك أن تقر بذلك يا صديقى اليسارى البرجوازي). وهكذا اكتشفا مع الوقت أنه قد حدث بينهما تحديدا عكس ما كانت أفكارهما الطليعية تشيد به: كأنها علاقة زوجية ضارية حدثت ببالغ السرعة حتى إنها لم تمهلهما الوقت الكافى لمجاوزة بعض الحياء الجنسى الذى مرده رواسب ثقافية جديرة بالأخذ فى الاعتبار أو أية إيماءة أو كلمة أو نظرة أو فعل مهما يكن بسيطا ويحمل فى طياته البذرة الرمزية لكل ما كان يربط بينهما دائما والتى كانت تؤخذ على محمل غاضب وغير ذى جدوى ثم تتفاقم لديهما وتصبح مسخا حيا له سلوكه ومعناه المستقل، يدمر كل الروابط العاطفية التى أرادا رفعها إلى درجة العشق على أساس مقدس.

الآن أولته تيريسا ظهرها من جديد وراحت تنصت بشدة إلى سكون الليل وتحاول أن تتبين صدى دراجة الفتى المُرسى بينما تبوح أيضا أغنية الترانزستور من بعد سحيق، من سماوات أكثر دعة بـ:

قال لى إن الليل

يحمل بين ظلاله

صدى قبلات أخرى...

من ناحيته، فسر لويس إيماءاتها كإشارة واضحة على الفراق وقرر أنه قد حان وقت الانصراف (فقط سيعرف بعد عدة سنوات أنه كان يستطيع إعادة المحاولة مع إمكان نجاحه فى احتضانها). لمبرر ما وفيما بين حزنه المستتر وعدم قدرته على إصلاح الأمور، فجأة تراءى له فى سماء الليل الوجه الساخر والشبيه بوجه الفأر لصديقه ابن الحى الصينى الظريف على بساط مفروش أحمر اللون وهو يبتسم له. وقال لتيريسا:

– حسنا، تيرى، أنا راحل، فمن الممكن أن يعود والداك هذه الليلة... وأعتقد أننا بالفعل قد أفرطنا فى الشراب. هذه الأمور تحدث، فماذا تريدين؟ ومن ناحية أخرى، هى أمور لا ميزة بها. وهذه ظاهرة معروفة جيدا (وإذا ذكرنا فرويد؟...) المرة القادمة (لن

يكون هناك مرة قادمة، لن يكون، أنت تعرف هذا جيدا) هل سنراك غدا فى منتجع يوريت دى مار[1]...أم فى برشلونة؟

يقضى لويس الصيف مع عائلته فى منتجع يوريت دى مار الصيفي، وأحيانا تأخذ تيريسا سيارتها وتعاود زيارته وفى طريقها تلقى التحية على بعض الأصدقاء، وكذلك الطلاب، الذين يكوّنون جالية هناك. وأحيانا أخرى يتواعدان فى برشلونة، ولكن الآن...

– وداعا

أخيرا وقد خلت تيريسا إلى نفسها بعد دقائق، سمعت صوت سيارة لويس طراز سيات ٦٠٠ وهى ترحل أمام المدخل الرئيسي، وحينها، أغلقت عينيها وأحاطت فجأة وجهها بكفيها كى تخمد موجة عارمة من الحيرة (بكاؤك، يا تيريسا، ضحك وبكاء امرأة طفلة كما قال عنها لويس ذات مرة فى خطاب كتبه لها من السجن) من عدم معرفة ما الذى كان يعلو صدرها ويحرقها، فكادت أن تدرك فى فزع أنها فى الواقع كم تمنت أن يبقى وأن يحاول مرة أخرى. وصرخت بعقلها: اذهب، اذهب، أيها الخنزير الغبي... دخلت غرفتها عدْوًا وألقت بنفسها على الفراش ولكنها لم تستطع أن تنام، فتحليلها الآن لما حدث وتقبل نصيبها من الذنب فيه لم تكن مهمة هينة. وهى كعادتها اختارت أن تبحث عن توضيح موضوعى بقدر الإمكان، وفى الوقت نفسه تحافظ على سلامة بعض المعتقدات الأيديولوجية التى تسمو فوق سخافاتهما الصغيرة المتبادلة. وعند تذكرها ما فعلاه خلال اليوم، بدت لها هذه البذرة المشئومة التى أفسدت كل شيء وقد تكشفت فى آخر ساعة بالمساء فى اللحظة التى أطلقت فيها رباط الزورق وهى على رصيف الميناء. كان لويس يحدثها تحديدا عن ماروخا وحسب ما قاله عما أصبحت عليه من جمال وتحفظ منذ أن

---

(١) منتجع سياحى فى شمال شرق إقليم قطلونيا بالقرب من فرنسا، يحوى منتجات وفنادق من الدرجة الأولى على شواطئ مثل يوريت دى مار وتوسا ديل مار وكوستا برافا، اليوم، أصبح مركزًا عالميًا يجذب السياح من كل مكان.

أصبح لديها صديق. وحين اتفقا فجأةً وفى سرور على دعوة الخادمة، تعجب لويس وهو يقفز فى الزورق قائلا:

– هذا بالتحديد ما كنت أفكر فى قوله لك. فكرة ممتازة.

وقالت تيريسا:

– المسكينة، إنها تمل كثيرا. كم ستسعد بهذه الدعوة. سأذهب للبحث عنها.

– وأنا فى انتظارك

سُرّ كلاهما للفكرة. فمنذ الصباح، عندما عرفا أن والدى تيريسا سوف يتغيبان عن المنزل هذه الليلة، باتت لحظات صمتهما ثقيلة على نحو غريب وهما بمفردهما. فى الواقع، كان مرد دعوة ماروخا الحاجة الملحة إلى نزع التوتر وقد كان كل منهما فى حاجة إلى التعبير عن نفسه من خلال شخص ثالث. ومن أفضل من ماروخا فى هذه الحالة؟ حيث إنها ستسمح لهما بأن يعبرا بالتبادل عن رغبتهما بفضل ضرب من المرح تشيعه الفتاة، مرح ليالى حبها مع الفتى المرسى وعلاقاتهما الحميميه التى يعرفانها منذ أن اكتشفتها تيريسا الصيف الماضى وكانت تشعر تجاهها بالحسد سرا وبالإعجاب.

وبعد لحظات، عادت تيريسا إلى المرفأ وهى تقول إن ماروخا ستأتى فى الحال، وإنها على وشك الانتهاء من ترتيب غرفة لويس بالتحديد فى حال إن أراد أن يبقى هذه الليلة. وأضافت أنها قد أهدت ماروخا بنطلونا وصندلا تجاوزتهما الموضة ولكنهما جديدان وكم تبدو الفتاة جميلة وساحرة وهى ترتديهما. والآن عند تذكرها، أدركت تيريسا أنها كانت اللحظة التى تبادلا فيها أول قبلة وأنها لم تكن صدفة، كانا بداخل الزورق فى انتظار ماروخا. كان الوقت عصرًا وعلى الرغم من أنه لم يكن فى أوله كان خاليا تماما من الغيوم وحارا وظل النور ساطعا. كانت أشعة الشمس الواهنة تملأ درجات السلم المحفور فى الصخر والمؤدى إلى المركب الذى ستصعد منه ماروخا. شاهد الاثنان سقوط الخادمة، سقوط أخرق فى الحقيقة. فلقد انحل صندلها وتعثرت وإذا كان وقع لها هذا الحادث فى مكان أقل خطورة بداخل الزورق مثلا لتسبب فى إضحاكها. كانت تهبط درجات السلم

وهى مسرعة إلى حد ما فى يأس وبلا شك فى خشية من أن تجعلهما ينتظران كثيرا، وفى إيماءة متكلفة رفعت يدها لتحييهما وعندها اهتزت فجأة ساقاها وقدماها الحافيتان (كان الصندل الخفيف للغاية أول شيء انطلق) فى الهواء بقوة كأنها ركلت شيئا ما قبل أن يُسمع بوضوح صوت ارتطام رأسها بآخر درجات السلم. صدرت عنهما صرخة وهما فى المركب تنم عن المفاجأة وقفزا إلى الأرض وركضا فى اتجاه الفتاة. ظلت ماروخا ممددة دون أية حركة تنذر بالخطر لبضع ثوان هى نفس المدة التى استغرقها لويس وتيريسا فى الوصول إليها. ثم نهضت فى عجلة بعد ذلك. ضحكت وهى تشعر بالخجل وتحك رأسها (يا لى من غبية، سيدتي). والآن رأت تيريسا وهى تبحث بعينيها حول السلم عن الصندل، كم هى مسكينة... فلقد كانت مسرورة جدا به وقالت لها: هذا هو ما جعلك تسقطين يا ماروخا، أنت لست معتادة على ارتدائه ولو كنت أعرف ذلك ما كنت أعطيتك إياه. وأجابتها ماروخا: إنه جميل للغاية... سوف أعتاده. ثم سألها لويس معتنيا بها:

– ألم يسبب لك أى أذى حقا؟

– نعم.

ثم قالت تيريسا:

– كان من الممكن أن يتسبب فى قتلك يا صغيرتي.

– لم يحدث شيء... مجرد ضربة على الرأس ليس أكثر. جئت مسرعة فلقد أضعتُ الوقت فى ترتيب الأسرّة...

والآن أظن أنه ربما من الأفضل أن نتركها تعود إلى المنزل. أولا، لأننى متأكدة أنها أصيبت بأذى ما – والفتاة المسكينة تصر على إخفائه على الرغم من شدة السقطة – وثانيا لأنه ربما يصير كل شيء على نحو مختلف بينى وبين لويس. فحينها لم نكن نعرف بوضوح أننا فى حاجة لمساندة ماروخا، وعلاوة على ذلك لم نكن على استعداد أن نتنازل عن متعتنا فى سبيل منح الفتاة لحظة من الاستمتاع... أليس الأمر كذلك تحديدا؟ لا أعرف...

أما من ناحية ماروخا (وهذا حق فأنا أتذكره جيدا)، فهى تصر على أنها لم تتعرض لأذى وأنهما يستطيعان مواصلة السير حتى إن ثلاثتهم هبطوا إلى القارب وأبحروا حذاء الساحل لمدة الساعة تقريبا ثم استحموا فى مرفأ صغير ومهجور وتناولوا فاكهة طازجة قد تنبهت ماروخا لإحضارها لهما، فتاة لطيفة. بينما يأكلان الفاكهة وهما ممددان على الرمال، كانت تيريسا ولويس يلاحقان الخادمة بسؤالها عن مانولو فى اهتمام منهما بسير علاقتهما وبإعطائها نصائح حكيمة وبشكل مستتر حول مسائل منع الحمل (التى لم تنفع الخادمة فى شيء) فى ضرب من الحرص الأبوى والشراكة الجنسية. يبحثان من خلال أسئلتهما ويكادان يستوثقان من فكرتهما الجذابة التى صنعاها حول العلاقة الخفية بين العامل والخادمة. راحت ماروخا تكذب فلقد وجدت نفسها مضطرة للكذب حتى ترضيهما مخفية بداخلها شعورها الفظيع بالسأم وكذلك نوايا حبيبها مانولو السيئة التى لا تقل فظاعة. بينما ظلا هما يحتكان بعضهما ببعض ويتلامسان أمام عينيها بإصرار غريب وأعمى كما لو كانت الإثارة المتخيلة هى نفسها التى تدفعهما قسرا إلى ذلك ولا يكادان يستمتعان إلا قليلا. دعنا نقل إن ذلك ليس تحديدا من قبيل الرغبة الشهوانية وإنما من أجل تعرف بعضهما بعضًا والتأكد من أنهما ما زالا هناك ولهما وجود. وفى طريق العودة إلى المنزل، قرر الثلاثة أن يتناولوا العشاء فى بلانس فى سيارة لويس ثم ذهبوا إلى الرقص فى إحدى صالات الرقص. اندهشت ماروخا ليس بسبب كرم سيدتها التى أعطتها دلائل على ذلك فى كثير من المناسبات، وإنما لأنها تعرف أن بلانس لم تكن تروقها، خاصة أن نظرات الحبيبين نافدة الصبر التى كانا يرسلانها بعضهما لبعض طوال الرحلة البحرية لابد أن تجعلهما يفكران فى التخلص منها حين يصلون إلى المرفأ.

كانت بلانس فى غاية الانتعاش وتشابكت يدا تيريسا ولويس والتفتا حول خصريهما أثناء جولاتهما بالشوارع والمقاهى المترعة بالسائحين ليقدما درسا مثاليا عن كيفية الانتماء إلى مجموعة النخبة من أبناء البلد. فهما لا يُمسان. وبعد تناول بعض الأطباق المشكلة المعروضة على طاولة أحد البارات، بينما ظلت ماروخا بالتأكيد تتعثر باستمرار بسبب صندلها الذى سقط من قدميها وجعلها تشعر بالخجل، ذهبوا لتناول مشروب الروم والكوكاكولا بأحد المقاهى التى بها موسيقى حيث تجرع لويس أول كأسين من شراب الجن بلا ماء أو ثلج، ثم قام ليرقص مع تيريسا وظلت ماروخا جالسة طوال الوقت رغم إنهما

دعواها للرقص عدة مرات وهى لم تقبل أبدا (لا أعرف ولكن عندما أفكر فى ذلك أتساءل إذا كان رفضها للرقص مرده وفاؤها الساذج لصديقها أم خوفها من أن يسقط صندلها لأن بالتأكيد المبرر الذى قالته: «إن رأسى يؤلمنى قليلا، لن أرقص، شكرا»، من الطبيعى أن تكون كذبة...) ولمرة واحدة فحسب، ألمحت إلى صديقها معبرة عن أسفها لأنه لم يستطع أن يرافقها، فوعدها لويس وتيريسا بأن يخرجوا يوما معًا هم الأربعة. فى حين ظل الشعور بأن هذه هى الليلة الموعودة بالنسبة لهما منذ أمد بعيد يسيطر على نظراتهما وأحضانهما وخاصة على طريقة احتسائهما الشراب. ظلا يرقصان وهما ملتصقان طويلا وينظر كل منهما فى عين الآخر أمام ماروخا التى وجدا أنها لم تكن تشعر فقط بسأم فظيع وإنما أغمضت عينيها فقد غلبها النعاس بالتأكيد، وقال لويس لتيريسا مازحا «أصغى إليّ، لابد أن يكون هذا المُرسى متوحشا أيضا، لابد أنه من العمال الذين يحملون بداخلهم ضمير المجتمع بأكمله، وهذا لابد أن نراه يا تيرى ولكن يمكننا الانتظار قليلا حتى نترك الفتاة تستريح بعض ليلة...». عندئذ قررا أن يقوما بجولة بأماكن أخرى يفترضان أنها ستكون ممتعة ومألوفة أكثر بالنسبة لماروخا وكذلك لهما كالحانات الصغيرة والحديثة حيث يتناولون النبيذ ويتجاذبون أطراف الحديث مع أشخاص غرباء، ولكن على الرغم من أنها كانت تبدو سعيدة فإن ماروخا لم تستطع أن تتخلص من هذا النعاس. كانت غائبة ونظرتها ناشبة فى الفراغ دون أن تلتفت إليهما أو إلى مداعباتهما، فلم تكن أداة موصلة لسعادتهما، وحينئذ قررا العودة إلى المنزل. وفى طريق العودة، كانوا يغنون (كم يبدو هذا الأمر مضحكا عند تذكره الآن) أغانى شعبية للمقاومة الفرنسية، أغانى البارتيزان[١] التى تعلموها من شريط أغانى لإيف مونتان[٢] لدى تيريسا. نزل لويس وتيريسا من

---

(١) هى أغانى شعبية أو أناشيد قديمة تم تأليفها أولًا فى إيطاليا أثناء محاربة الفاشية ثم انتشرت سريعًا فى أوروبا وتشبه أغانى العمل عند الزنوج، كانت تغنى للبارتيزان (الأنصار أو المقاتلون فى حرب الأنصار أو المغاوير) وبات النشيد الأول لهم واحدة من أشهر الأغانى العالمية وغنيت بأشكال ولغات عديدة.

(٢) مغن وممثل سينمائى فرنسى، ولد فى إيطاليا بمنطقة توسكانيا. تركت أسرته إيطاليا هربًا من النظام الفاشى بسبب ميول والده الشيوعية واستقرت فى مارسيليا.

السيارة عند المدخل الرئيسى وودعا ماروخا التى شكرتهما وهى شبه نائمة ولكن فى غاية السعادة، أما هما فذهبا للسير على الشاطئ وبينما هما وحدهما حدث شيء غريب، حيث اختفت حرارة لويس الحماسية واستحالت ضربا من الوضوح الحميم والشديد والحتمي، وضوح يهدد بالسيطرة عليهما حتى نهاية الأمسية. فبحق الجحيم لماذا خطر لى حينها بالتحديد الحديث عن آخر المنفيين إلى باريس، باكو يوبيراس ورامون جينوبارت؟ علقا على ديوان شعر لناظم حكمت كان يتنقل من يد إلى يد فى الجامعة وقد وعدت تيريسا لويس بأن تعيره إياه. وعلى شاطئ البحر وتحت ضوء القمر، رأت تيريسا ملامح طالب المعتقلات الشهير الصارمة والموحية فتذكرت من شعر حكمت:

أنت خرجت من السجن

وفى الحال

أعدت امرأتك القديمة

وما أجمل الشعور اللذيذ باحتكاك الأنامل بردفيها منتظرة أو متلهفة إلى رد فعله الذى لم يتحقق. ظل لويس غارقا فى صمت لا يألفه جيدا سوى الأصدقاء المقربين. فهكذا كان لابد أن يكون العذاب وبصوت غريب وعلى نحو مثير للدهشة خطر لها أن تقول له: لا تكثر التفكير فى ذلك. مما نتج عنه موقف محرج وبلا شك لموازنة الموقف بدأ لويس فجأة يفعل أشياء غريبة ليدلل على سعادة صبيانية وسخيفة كانت تغضبه: فكيفما يفعل أى شاب فى أول مراحل مراهقته يستغل المناسبات المواتية:

– انظري، انظري، النور مضاء فى المنزل – قال ذلك فى نفس الوقت الذى التصق فيه بظهرها واحتك بها وهو يشير إلى شرفات المنزل المضاءة.

– انظري، هل ترينها؟ أترينها؟ من يكون هناك؟ لصوص أم من؟

– من تظن؟ ماروخا التى لديها ما تفعله... وتترك اللهو... هيا، لقد صرت أحمق.

وفى مناسبة أخرى بينما كانا يسيران بين أشجار الصنوبر، قال لها:

– انظري، انظري هناك بعوضة على ركبتك... !

حينئذ، لامسها على نحو مباغت، شيء مؤلم فى الحقيقة، فلم يكن هذا هو ما تنتظره، فماذا حدث؟

لقد سقطا فى بئر مليئة بشخصيات المنفى الباهرة على رأسها ناظم حكمت. وظل هذا الزهو الفكرى لفترة وجيزة، ففى لحظة ما، تعلقت تيريسا برقبته وأجبرته على تقبيلها مباشرة وللحظة تبخرت أشباح باكو يوبيراس وأصدقائه المبجلين ومعها باريس. فى حين كان لويس يفقد عقله، قالت تيريسا إنه من الأفضل أن يعودا إلى المنزل ويتناولا شرابا بينما يتحدثان. كان ذلك خطأ، ربما تقول هذا لنفسها الآن بشأن هذا القرار المتسرع الذى انتزع نصيبها من الذنب فى ما حدث من فشل تلك الليلة وحرجها. والحق، لو أن لويس اعترض وأصر على تقبيلها هناك (وهو ما كان عليه أن يفعله فى حينه فى الواقع وليس الآن، هو أن يجبرها على الجلوس معه على الرمال بدلا من مواصلة السير) ما كانت أظهرت هى سوى مقاومة ضعيفة لأسباب تتعلق براحتها، فتقول شيئا من هذا القبيل: "ليس هنا، توجد رطوبة هنا" ولاقتضى ذلك قبولا مسبقا لما حدث فى الفراش وربما تبخرت معه هذه السحابة اللعينة من عدم الثقة التى أحاطت بهما. ولكنه لم يقل شيئا أثناء طريق العودة، وهو يسبقها بعدة كيلومترات وغاص فى صمت مؤلم زاد من صعوبة الأشياء. قالت تيريسا وهى تضحك فى محاولة منها للمحافظة على روح الدعابة:

– انظر ها قد أطفأ اللصوص أنوار المنزل.

أسرع لويس فى خطواته وهو يركل الأحراش، ثم صعدت تيريسا إلى الشرفة ومعها زجاجة من الجن وثلج وكأسان. تمددا على شبكتى نوم على مقربة من الموسيقى الصادرة عن جهاز الترانزستور، ولشدة إحباطهما هما معا هذه المرة ارتكبا خطأ جديدا، طفقا يتحدثان فى السياسة والنشاط الجامعى حتى إنهما لم يلحظا ذلك فى بداية الأمر، فكل شيء استمر كونه انعكاسا لذلك التوتر العصبى الذى دفعهما إلى دعوة ماروخا وإهدائها صندلا والذهاب إلى بلانس وإلى الرقص فى المقاهى والسير على الشاطئ وسخافات أخرى لا طائل تحتها. ها هنا (أسرار فكرية للجيل الجامعى من الأبطال) ظل النقاش حول

موضوعات جادة يغلب رويدًا وعلى نحو غريب وحتمى ودون إرادتهما، وفجأة اكتشفا أنهما وقعا فى فخ جديد. قال وهو غاضب إلى حد ما:

– يا جميلتى تيري، أنا أتفق معك فى أن الموقف الحالى للاشتراكية – مع احترامى للرأسمالية – قد تغير فى العالم كله، ولكنه تغيُّر كيفى وليس كميا، أفهمت؟ ومع ذلك لماذا تصرين على الحديث عن ذلك الآن؟

– من؟ أنا؟ أبدا. أردت أن تعرفى فحسب أننى أفهم كل ذلك جيدا، أفهمه كله يا سيدتى ولذلك كنت من الأوائل الذين خرجوا إلى الشارع فى أكتوبر... من فضلك، ناولينى الزجاجة... نعم، أنا على دراية بذلك، لذا قمت بزيارات إلى مصنع والدك أكثر مما قمتم به أنتم جميعا، مع أنها لم تأت بنفع كبير ومن أجل ذلك، طالبت بالمزيد من الاجتماعات والاتصالات، أى بمزيد من الاتحاد فى النهاية. ولذلك أنا هنا الآن، أتحدث معك عن هذا كله. بالطبع أنا أعرف أن هذه السياسة تُعرف فى الخارج كسياسة سلام ودون أن يمثل هذا السلام فى المطلق انسحابا من الصراع من أجل الوصول إلى الغرض النهائى (أين قرأت أنا هذا؟) ولكن يجب أن نأخذ الظروف فى الاعتبار... اسمعي، لا تكثرى من الشراب، فأنت كعادتك ستأتين على الزجاجة، وبعد ذلك لن تكونى قادرة على معرفة أين تضعين يديك (بالطبع كان يشير إلى قدرتها على قيادة السيارة)، ومع ذلك ابتسم وجه البطل الجامعى على الرغم من كونها ابتسامة صغيرة على ما بدا فيه من تلميح ذى دغدغة:

– ماذا كنت تقول؟ آه، نعم، دعنا ننس هذا. ولكن هو الآن من يصر على مواصلة الحديث:

– سأقول لك شيئا واحدا فحسب: إن أصداء أزمة الرأسمالية عامة هو أمر لا نستطيع إدراكه دائما، نحن الرجال نظرا لقضية وجهة النظر الرهيبة، ولكن كل شيء سيصير جليا جدا فى خلال خمس سنوات فما زالت الأشياء فى بداياتها.

قالت فى دهشة: أزمة؟ هل أنت على ما يرام يا بني؟ لا وجود لمثل هذه الأزمة وإنما انعدام المبادرة وسلبية المعارضة البرجوازية، إذا افترضنا أن هناك وجودا لهذه المعارضة، فأنا لا أعرف سوى أربعة أشخاص فقط وأنت واحد منهم.

– شكرا يا جميلتي.

– هذا لا يعني أن هناك أزمة. فانظر إلى والدى مثلا. أنت تعرف أن أبى سيكون فى صف المعارضة ما إن يجد انخفاضا فى مكاسبه، وبدلا من انخفاضها زادت وظل هكذا لأعوام كثيرة.

– ولكن ماذا تقولين؟ ما هذا التضارب الرهيب؟ هذا محبط، تيري، فأنت تخلطين كل شيء! ومع ذلك دعينا نر ما هى فكرتك حول أحزاب المعارضة؟ وهل تنكرين أن خطورة الموقف الاقتصادى هو حدث حقيقي؟

– لمن؟ لوالدي؟ لا، أرأيت؟ أنت الذى تخلط نظام حياة عاما بالقدرة الشرائية لطبقة مميزة و...

على أى حال من الأحوال، كل ذلك لا يبدو أكثر من مجرد عبارات قُرئت فى مكان ما وطبعت بالحديد والجص على قوالب جامدة فى صلابة وجمود تقارير الدراسة الدورية، خطها بارد وتوحى على نحو غامض أن لا شيء مما يتحدثان عنه يمت بصلة للواقع (لماذا... لماذا هذه الليلة بالتحديد؟). هذا هو ما كان يضايقهما وليس كونهما على غير وفاق. فهكذا وفى كل مرة يشعران أن كلا منهما يبتعد عن الآخر أكثر. والأسوأ أنهما بالإضافة إلى ذلك، جلسا وجها لوجه على نحو جسور فى الحقيقة بدلا من أن يمارسا الحب معا. والآن، هما غارقان فى سريريهما المعلقين كمرضى الصدر، ملتحفين بظلال الليل، فلم يتمكنا حتى من أن يربت كل منهما على كتف الآخر فى تظاهر منهما بالغضب. فقلما كان يرى أحدهما الآخر أو يقوى على الرحيل. وفى حركة فجائية هزت تيريسا شعرها وتنهدت. كانت كل لحظة صمت تحمل عبوة ناسفة: لم يستطيعا أن يتجنبا أن تحمل لحظات الصمت دلالة أكبر من الكلمات. وظنت هى أنها ربما تكون الوحيدة التى أدركت هذا الموقف غير المريح الذى وجدا أنفسهما فيه: "أتراني لم أعجبه بما فيه الكفاية أم إننى قد قلت شيئا من الأشياء التى لا يستطيع تحملها من فتاة برجوازية؟

يبدو لويس فى قميصه الأبيض بارزا فى الليل الذى عاد ليغرق فيه كلما رمى بجسده إلى الوراء فى سريره المعلق، فالآن أصبح ممددا تماما ومع ذلك لا يزال يستطيع رؤية

ركبتى تيريسا الواحدة فوق الأخرى ظاهرتين من طرف الشورت الأصفر، تشبهان تفاحتين مصقولتين وسوداوين، أكثر سوادا من الليل. وقال هو: أنصتى إليَّ، أنت تعرفين جيدا أننى لا أكون عاطفيا ولا حتى مثقفا عندما أتحدث عن مثل هذه الأشياء، وهذا ما كنت أقوله منذ بضعة أيام لمودولل وجوردا، فميزتى أننى ليست لديّ أى تطلعات فنية.

– أنا لا أفهم منك شيئا يا بني.

– أى أننى لا أريد ان أكون غير واقعي. فأنت تتحدثين عن تنظيم الحلقات الدراسية وإقامة علاقات أكثر اختلاطا ومن أسفل (لم أرغب فى قول هذا ولكنه قيل بالفعل، أتمنى ألا تسيء فهم ما قلت). حسنا، فأنا لا أبدى رأيى هكذا. وأنا قلت مائة مرة إن الجامعة فى حاجة إلى أشخاص مستعدين إلى الخروج إلى الشارع كل يوم وليس للاجتماع من أجل قراءة النصوص المقدسة، الأمر الذى ينتهى دائما بنقاشات بيزنطية حول الجنس الملعون (ولم أرغب فى قول ذلك أيضا) وسماع أغانى البارتيزان. لا يا حبيبتى تيري، لا يا جميلة... ففى النهاية، يفتح الطلاب أعينهم ونحن لا نخرج إلى الشارع من أجل إحداث جلبة لأننا، نعم، نخرج من أجل هدف باسم هدف آخر، أيبدو لك هذا بالشيء القليل؟

– لم أكن أقصد إلى ذلك. فى جميع الأحوال، سوف نرى ما جدوى ذلك؟ فكل شيء يعود كما كان من قبل، أنا أظن...

– ليس كما كان من قبل. فنحن منظمون وللمرة الأولى نعرف ما نريد.

– لا، ليس بهذا القدر، فأنا أعتقد أننا يجب أن نتعلم ونتعلم ونتعلم خاصة نحن الفتيات.

– إذًا أنت مخطئة.

وعند قول ذلك، مسح لويس على عينيه بينما تيريسا لم تكد تدخل يدها بفتحة عنق قميصها. فلقد فهمت هذه النظرة، وخطر لها فى الحال أنها لو نهضت وطلبت مساعدته فى غلق إبزيم قميصها، إذا قرر أن... (واحد، اثنان، ثلا...) وقال هو سريعا: أعتقد أننى رأيت دراجة غريبكم الوسيم النارية بين أشجار الصنوبر. ظلت تيريسا صامتة برهة وكفت عن لمس رقبتها وشعرت ببرد، فرفعت ياقة القميص وتنهدت فى آخر الأمر وقالت:

– ليس غريبا، أما عن وسامته فعلينا الاعتراف بذلك فهو كذلك، حتى على نحو يكاد يكون خطيرا.

وفى دهشة، قال البطل الجامعي:

– ها قد أوقعت بك! أوقعت بك. فأنت مفتونة به مثل ماروخا ولكن هذا يسيء إليك، فأنت آنسة محترمة.

تمتمت تيريسا فى سخرية:

– نعم يا بني، نعم، فمصيرى هو المعاناة.

وفى لهجة تنم عن الأستاذية، بدأ يقول لها:

– لابد أن تعلمي، من المحال أن نتحدث عن المصير دون ربطه بالطبيعة الاجتماعية للعالم الذى يعيش فيه الفرد.

– لويس، من فضلك، لا تنطق بمزيد من الحماقات (هى أيضا ألقت بنفسها إلى الخلف فى سريرها المعلق وباتت كما لو أن الليل قد ابتلعها بغتة). رأيت الفتى مرة واحدة هذا الشتاء فى ليلة رافق فيها ماروخا إلى المنزل، وقد تحدثت معك عن الانطباع الرائع الذى أخذته عنه. فما حكته لى ماروخا عنه له أهميته وأنت تأكدت من ذلك بنفسك.

– ماروخا لم تقل كلمة واحدة ذات معنى عن صديقها.

– من فضلك، لا تسخر منها، فماذا تبغي؟ إنها فتاة مسكينة، وليس لديها سوى فكرة غامضة جدا عن كل ذلك. لقد كانت فى ورطة بالفعل، عندما حكت لى ذلك ولكنى أدركت فى الحال أن مانولو على أتم استعداد، ربما على طريقته أفضل من طريقتنا، فعلى الأقل، اتصالاتهما من أسفل هى من أحسن...

– لا أعتقد.

– لماذا؟

– لا أعرف ولكن لا أظن، لنر، أنه يعمل بالبحر والبر فحسب؟

– أنا لا أعرف أين يعمل. ماروخا لم تستطع أن تذكره لي. فأنت تعلم أنها لا تتذكر الأسماء. ولكن كان لابد أن تراها فى ذلك اليوم. فمزاجها السيئ ليس من الأشياء التى يمكن أن تنساها ولا حتى نظرتها، فهى من النساء الثابتات ولديها من رباطة الجأش والكبرياء الطبقية، هل تفهم؟ شيء لا يمكن أنا أو أنت أن نحظى به أبدا.

– هراء! أنا أعرفهم... هم مسرحيون للغاية، تملؤهم نواياهم الحسنة ولكنهم غير واعين ويفتقدون المنهجية. فجربى يوما أن تتحدثى إليه وستلاحظين ما لديه من اضطراب عقلي. وحقيقة الأمر أنه يعجبك لأنه من أصل طيب وهذا يبدو لى جيدا ولكن تحدثى معه... تبا.

– لويس، لقد أصبحت لا تطاق حقيقة.

صحا البطل، وانتفض قائما، وعاد ليصعد منصة الشرف وهمهم بصوت تشوبه الخيلاء الموجهة سياسيا إلى حد بعيد:

– حسنا، لا تعيرينى اهتمامك. أنت تعرفين أن ما يقلقنى جدا هو انعدام الاتحاد اللعين. فأنا حقا معجب بهم جميعا، وأعى أنهم يبذلون أقصى جهدهم. فقط كنت أمزح قليلا.

عادت تيريسا وجلست مرة أخرى وهى تضع ساقا فوق الأخرى وصندلها معلق بقدمها وعيناها الرقيقتان ناشبتان فى صديقها. ران صمت مكفهر لا يسمعان من خلاله سوى تقاطر الوقت، فالثوانى تقطر مثل قطرات الماء من صنبور لم يُغلق جيدا. وعند تغيير الموضوع، لا يزالان ينتزعان ضد رغبتهما آخر قراءاتهما، فتيريسا كانت متحمسة لرواية "نزال فى الجنة" لخوان جويتيسولو[1] (سأعيرك إياه، فقط ذكرنى به... فهو على المنضدة بجانب فراشي). أما لويس، فتحدث عن "أطالب بالسلام والكلمة" لبلاس دى أوتيرو[2]، وهى صبت لنفسها كأسا أخرى من مشروب الجن، والآن خرج لويس عن

(١) كاتب وروائى إسبانى معاصر.
(٢) شاعر إسبانى معاصر.

الموضوع وتطرق إلى المشاكل الجنسية لدى الشباب الإسبانى (خطأ جديد وفادح هذه المرة) وتقدم من جديد بجسده تصاحب كلماته إيماءات واضحة، فرأسه يغوص بين كتفيه كأنما بفعل ثقل النجوم ثم عاودا النقاش. بدت أعينهما تتنادى، ولكن شفاههما أصرت على الحديث والحديث عن أشياء يعرفانها عن ظهر قلب. وفكرت تيريسا (ربما بفعل الكحول) فى أن أشخاصا آخرين قد تجسدوا فيهما وتمكنوا من إرادتهما. وأدركت أن مآلهما إلى طريق مسدود ما لم يقم أى منهما بخطوة مباغتة: وكان يكفى على سبيل المثال أن يأخذ يدها وهى تناوله قنينة الجن أو لو أنه فكر فى إلباسها الصندل الذى تركته يسقط من قدمها، أى شيء يقتضى قربهما الجسدي، ولكن بما أنه لم يكن يبدو عليه أنه متأهل للقيام بالخطوة الأولى، قررت هى القيام بها - وقد رقت لحاله قليلا بعد أن ظنت أنها أسرفت فى القسوة على الشاب - وكان خجولا ككل الأبطال وفى مسيس الحاجة إلى يد المساعدة فى مثل هذه المعارك. فنهضت مبتسمة وانتزعت القنينة من يد لويس وقالت: لن أتركك حتى تثمل، أسمعت؟ وانتهزت الفرصة وشعثت شعره بيدها مرة أخرى وهى تضغط على كتفه اليسرى ببطنها. وفى الوقت نفسه، تلاحظ فى ضيق عدم اتساق كلماته مع إيماءات يديه كأنها موسيقى تتنافر مع حركات رقصة الباليه، وقالت له كى تخفف من حدة ما كان يفعل: لويس، يجب أن نعترف أنه لم ينجز أى شيء فى هذا البلد وأنت نفسك لا تستطيع تغيير كل شيء بين ليلة وضحاها، حتى لو ضحينا بأفضل شبابنا لن نغير مجرى...

عندما بدا لها أنه كان يتأهل للنهوض، أدارت تيريسا له ظهرها واتجهت إلى غرفتها كى تترك قنينة الجن هناك، وبدأت ساقاها ترتعشان حين أصغت لخطواته القادمة من الخلف، وعند عودتها تظاهرت بأن وجوده قد فاجأها وأحست بنفسها بين ذراعيه.

على الرغم من أن كل ذلك يبدو له الآن غريبا، خاصة بالنسبة لطبيعة لويس ترياس دى چيرالت التى تعكس صورة الرجل الإله، إلا أن الطريق الذى سلكته الفتاة حتى تصل إلى هنا كان طويلا وشاقا (وخاطئا، نظرا لما توصل لإدراكه آسفا). فتيريسا سرات، وعلينا أن نقول ذلك بجدية، هى إحدى طالبات الجامعة الشديدات العزم والحمية، اللاتى قررن فى يوم من أيام هذه الحقبة أن فتاة فى العشرين لا تعرف شيئا عن الرجال هى فتاة لن تعرف شيئا البتة. وهو اعتقاد لابد أن نعطيه حقه من الإخلاص والولاء لفكرة ما ومن

الكرم اليافع والتأهب العاطفى (التى بطبيعة الحال سيساء معاملتها، إذا أخذنا فى الاعتبار حال البلد وندرة الإخلاص للمبادئ بداخلنا جميعا). ولكن إذا كان هناك شخص حتى ولو كان يتمتع برجاحة عقل تبهر تيريسا بشدة (مثل لويس نفسه الذى استطاع أن يفتنها حتى اليوم) ويجعلها ترى تضامنه مع فكر معين ولن يكون نشاطه المنتشر داخل وخارج الجامعة فى تنظيم المظاهرات وقيادتها، وبالأخص مشاركته المميزة فى أحداث أكتوبر الشهيرة، فى الواقع أكثر من تعبير نابع من الرغبة الدفينة والخفية فى الشعور بأنها بين ذراعى هذا البطل فى ليلة كهذه وبأنها أصبحت امرأة عصرية، فما كانت بالطبع لتصدقه ولا حتى تفهمه. ومع ذلك، كان عليها أن تستعد فى مشقة وبلا وعى لاستئصال عقدته دفعة واحدة، فهى عملية -كما تقول عنها تيريسا- يجب الخضوع لها بنفس لامبالاة وهدوء من يخضع لعملية استئصال الزائدة الدودية، حيث إنها عضو مزعج وبلا فائدة ولا يأتى سوى بالمشاكل، مع أننا يجب علينا عدم إغفال ضرب آخر من الاستعداد الطبيعى (الذى عرفته ماروخا على نحو مبتذل ولكنه معبر للغاية: الآنسة اليوم فى غاية الإثارة) فهذه الأمور الفكرية تغلب على الأمور الجسدية، وليكن فى ذلك تكريم لبراءة فتياتنا الجامعيات وعفتهن المضطهدة.

من أجل ذلك ومن أجل الزمالة البريئة - كما ستقول هى فيما بعد باختصار لذيذ يكاد يكون مثاليا - تركت تيريسا سرات نفسها للتضحية بلا أى قوى وصارت فى حيرة شديدة عند اكتشافها أن البطل يرتعش هو أيضا. إذ تثاءب على نحو فيه ادعاء غير ذكى بالثقة وهو يمسك بخصرها ويتجه بها ناحية الفراش، ربما فعل ذلك كى يتخلص من رهبة اللحظة أو من رواسب التعليم البرجوازى الذى لم يسيئا الحديث عنه بما يكفي. وللأسف، قالت بصوت زائف عن طالب معتقل (من كان يتخيل أن المسكين كان فى خدمة قضايا الغد النبيلة حتى فى غرفة النوم): لا شيء. وفى الحال، لاحظا غياب طقس من الطقوس ألا وهو ضرورة النار المقدسة، وحينها، فهما السبب وراء بعض الطقوس التى تبدو فى ظاهرها بلا جدوى... على كل حال، لم تكن لتنفعهما فى شيء. فمنذ عناقهما الأول وهما لا يزالان يرتديان ملابسهما، تنبأت تيريسا بأن مشاركته الفراش لن تكون مثمرة، ولكنها، الآن، لا تبغى شخصا بعينه لا لويس أو غيره، إنما يكفى ببساطة أى كائن لطيف بلا هوية أو وجه

قد تتخيله، وحبذا لو كان من المنتمين إلى قضايا الشعب بالطبع على أن يكون مجهول الهوية، جسدا قويا ولهاثا فى الظلام وكلمات حب ومداعبة لشعرها ليس أكثر. فهى لا تطلب غير ذلك، أما الفعل ذاته فهى فكرة شائهة كأنه حلم دون أن تعيشه بوضوح فى الواقع ودون أن تتألم: أى عملية حقيقية لاستئصال الزائدة. إن خيالها يشبه قليلا، وعلى نحو متناقض، خيال الأميرة العزباء التى يُحكى عنها أثناء وقت الحرب أنها تنتظر واهمة أن يستولى على القصر جنود بلا وجوه من جيش العدو. ولكن الواقع أن هذا الفراش لا يحتمل استقبالا مخدرا كما فى غرفة العمليات ولا اقتحاما كاقتحام القصور غير المبرر. والآن، هى مازالت مرتدية ملابسها وممددة على جانبها فى قمة رونقها بجانب شخص سريع الفرار ولكنه محدد جدا، لا وقت لديه حتى لينزع ملابسه. إنه لويس ترياس دى چيرالت، البطل الحالم والجراح المختار، الغارق الآن فى عرقه مذعورا ومر تجفا، مذعورا يا ماروخا، يا له من أخرق وعاجز على نحو لا يصدق، عاجز يا ماروخا، يا إلهي، فمن كان يتخيل... وفى نهاية الأمر، متمايع.

قبيل الإغلاق وعلى الرغم من

بعض ردود الفعل العارضة،

أدى الصعود الكبير إلى فقدان

الثقة وتخاذل كلا الطرفين، فساد

الانخفاض إلى وقت الإغلاق.

أخبار البورصة

الآن، وبعد أن أخفقت فى مصالحة النوم وجربت بلا جدوى نسيان الأمر: كانت تعى فقط كأن أحدهم تقيأ أو مات بين ذراعيها، فلم يسعفها الوقت كى تفتح أزرار قميصها أو تشعر بثقل جسده. وهو ممدد على جانبه ممسكا بكتفيها كعصفور، ووجهه المتصبب مختبئ فى عنقها كمن يخشى عقابا من السماء، وراح يرتجف فجأة. وتشنجت يداه على نحو مخيف بين ذراعيها (ما يجعل هذا سخيفًا الآن، يا لسخافته الآن!)، ثم تقلص وأطلق صرخة خفيفة كالأرنب وخرج مسرعا كالحمامة.

كان هذا كل ما حدث. أما هى فعادت لتتمدد على ظهرها سالمة ومذعورة ومهانة وتكاد تموت من الخجل (لن يتكرر ذلك أبدا، لن يحدث مجددا). وبعد برهة، لم يُسمع خلالها صوت بعوضة واحدة، أدركت أنه ليس بجانبها، وحتى هذه اللحظة، لم تصغ إلى صوته وهو يقول لها فى أسف: "سأذهب إلى الحمام"، حتى سمعت خرير الماء الجارى فى الحمام وظنت: "سيحدثنى عن فرويد حين يعود". وبعد فترة لم تدرك مداها، أصاخت السمع إلى صوت دراجة رفيق ماروخا النارية، وحينئذ، تسلل إليها فى رقة، فى حرارة الجو ورائحة الوسادة، شعور غريب بالاشتياق إلى مرحلة الطفولة، وانتابها شعور مباغت

ولذيذ بالوخم من فترة سن العاشرة، واقتفى أثرها واجتاح جسدها حزن لا نهاية له، وانكفأت على نفسها من شدة الخجل، وسقط رأسها أمام صدرها من جراء إحساسها بالعزلة و الانكشاف. التفتت إلى أن النافذة مفتوحة وأن النجوم ساطعة تلمع فى السماء وأن الموج، فى ظروف أخرى، يهدهدها طوال الليل دون جدوى وأن هناك فى مكان ما بالغابة بين أشجار الصنوبر، شابا ذا شعر أسود، وعينين ساخرتين على نحو غريب لا تزالان تشتعلان بعد قبلات محمومة، ما لبث أن رحل عن المنزل بدراجته النارية. يا لها من أكذوبة! أكذوبة لياليهما على الشاطئ، وإجازة الآنسة المصابة بالسل، والمنزل الذى يبدو كقلعة إقطاعية مملة، شيء غير محتمل!

الآن، عرفت أنها لا تستطيع النوم، فعادت للنهوض وارتدت دثارا وخرجت من الغرفة. اجتازت رواق الدور الأول وأضاءت الأنوار وبدأت تهبط درجات السلم، فكانت تريد أن تتحدث مع أحد، مع ماروخا مثلا. فما تفكر فيه الآن يثير فضولها: علها تجد بالدور الأسفل فى غرفة الخادمة الصغيرة والحقيرة، شخصين من أبناء الشعب الأصحاء يسعد كل منهما الآخر مرة أخرى ويتحابان مباشرة، دون أن يعذبا بعضهما البعض بالمقدمات والسفسطة وبدون فكرة مسبقة أو هراء من أى نوع. فكيف ينالان هذا؟ أهما عاشقان؟ ربما. فهما يمارسان الحب ويتآمران. هذا هو كل شيء. يا له من زوج مثالي. تعلم تيريسا أنها لم تكن المرة الأولى، فهى تعرف ذلك منذ الصيف الماضي، عندما هبطت فى ليلة إلى المطبخ لداع ما ورأت بقعة نور بأسفل باب غرفة ماروخا وسمعت أصواتا. فلم تستطع أن تقاوم فضول النظر من خلال فتحة المزلاج. كان المشهد الذى رأته واحدا من أجمل ما رأت ولن تنساه طوال حياتها: ماروخا مستلقية على الفراش، وعيناها مغمضتان، وعلى وجهها ابتسامة عذبة، فيما كان الشاب الأسمر البشرة، الجالس على حافة الفراش، عاريا مشعث الشعر، ينحنى على الفتاة ببطء ليقبلها.

لم تعد تتذكر الآن أنها فى تلك الليلة لم تتمكن من مصالحة النوم ولا بعض تفاصيل الحوار المثير الذى دار بينها وبين ماروخا فى اليوم التالي: ربما كان آخر يوم يخرجان فيه إلى البحر، حيث كانت العودة إلى برشلونة وبداية السنة الدراسية وشيكة. منذ ذلك اليوم، تغير الطقس وتلبدت السماء بالغيوم واشتدت الرياح وما عاد أحد يستحم فى البحر

سواها هى والأطفال، أبناء عمها، تحت رعاية ماروخا الدائمة. وعند منتصف النهار، تتبع الخادمة والأطفال وتتجه نحو غابة الصنوبر، وهى ترتدى الدثار الذى ترتديه الآن، ومعها كتاب لسيمون دى بوڤوار الذى أعارها إياه لويس ترياس والذى وجدته مشوقا منذ السطر الأول (من المعروف جيدا أن برجوازيى هذه الأيام خائفون). كانت تسير ومعها الكتاب مفتوحا حيث تقفز العبارات الدالة على الاتهام أمام عينيها وتحت تأثير الشمس وتشعر بدغدغة لطيفة فى وعيها وتسمع أصواتا مألوفة بين أشجار الصنوبر، أصوات والدها وعمها وحارس المنزل فى الغابة. كانت تعرف أن عمها خابيير قد وصل من مدريد منذ بضعة أيام كى ينضم إلى زوجته وأبنائه، وجاء أخيرا على مضض وبناءً على رجاء زوجته كى يلقى نظرة على السياج الذى حطمه "هؤلاء الأشخاص الذين يترددون كل يوم أحد ليقيموا ولائمهم بمنزلك وينضموا إليك كالكلاب" طبقا لكلمات السيدة سرات.

كانت ماروخا تسير أمام تيريسا بعدة أمتار ومعها أبناء العمة إيسابل الذين عند وصولهم إلى بداية أشجار الصنوبر، انطلقوا يركضون بسرعة دون أن تفعل الخادمة التى لم تكن تعرف أنها تحت الملاحظة أى شيء لتردعهم إلا أن تصيح بأسمائهم على مضض وهمهمت بشيء فى لهجة يشوبها الضجر والاشمئزاز بدت موجهة إليها أكثر منها إلى الأطفال. وعندما كانت ماروخا تصطحب الأطفال إلى الشاطئ، كانت تسير حافية القدمين وترتدى دثارا فضفاضا وقصيرا عليه نقش زهور وبلا كُمّين يصيب تيريسا بالفزع. وفى ظهيرة هذا اليوم، كانت تيريسا تسير خلف ماروخا بمسافة عشرة أمتار، فأغلقت الكتاب وابتسمت ابتسامة تدل على الفهم وراقبت الخادمة فى تمعن. بدا لها فى سير الخادمة البطيء والمجهد آثارًا بينة لليلة عشق على جسدها: تسير ورأسها إلى الخلف قليلا ومهملا فوق عنقها المرن، وذراعاها السمراوان والمستديرتان تتدليان فى خمول، من جراء نشوة الليلة السابقة المحمومة. ودون أن تعلم لماذا، ظلت نظرات تيريسا ناشبة لفترة طويلة فى انحناءات جسد الخادمة وهى تُطوى باسترخاء ويفوح منها شهوانية امرأة متزوجة تدعو للازدراء.

كانت نسائم الخريف تجعل دثارها الفضفاض يلتصق بساقيها من الأمام فى احتكاك مجيد بفخذيها، فيتطاير من الخلف كأنه ألسنة لهب فجائية. وللحظة، تنبأت تيريسا بغد محترق، بغد غير أكيد وغريب لهذه الفتاة التى تسبقها بعدة أمتار، وتساءلت: «فيم تفكر يا

ترى؟» كانت من قبل تحكى لى كل شيء... أما الآن، فلم تعد تثق بي. فأول شيء قررتُ أن أفعله هو أن اسألها ما إذا كان هذا الفتى الذى تستقبله فى غرفتها صديقها: «يا لغبائي، فيم يعنينى إذا كان صديقها أم لا؟» أنا لم أعرف كيف أبدأ الحوار معها. كنت ألاحقها مثلما كنا نفعل ونحن صغار.

كنت أرى وجهها البشوش والأسمر مائلا قليلا على مياه البركة الهادئة، وعيناها مغمضتان وحالمتان، كأنها تقرأ فى سطح الماء المشمس مصيرها كامرأة. تغطى صدرها العارى بيديها، وترى ماروخا الطفلة التى تستحم فى بركة رى خلال فصل الصيف فى الأربعينيات، وهذه هى الصورة التي، بشكل ما، وضعت نهاية لمرحلة طفولة تيريسا المدهشة، لتفسح مكانا لروائع مراهقتها المثيرة. لن أنسى هذه الصورة أبدا أو حتى الكلمات التى قالتها الفتاة حينها: «أنا أيضا سأعيش، يوما ما، فى برشلونة مثلك يا تيريسا» لأنها منذ ذلك اليوم الذى نزلوا فيه البحر معا، أضحت بالغة الحساسية نحو طنين بعينه تصدره الحياة ألا وهو وعيها بذاتها، وكأنهم أشعلوا مفتاح الضوء بجانب أذنها. مضى على ذلك ستة أعوام، منذ كانت تيريسا تذهب مع والدتها لقضاء الصيف فى المزرعة التى يمتلكونها بالقرب من ريوس[1] (لم يمتلكوا بعد هذا المنزل ولم يعيشوا فى سان خرباسيو وإنما على طريق سان خوان دى جراسيا) ومنذ ذلك الوقت، نشأت بين الطفلتين صداقة قوية. كان والدا ماروخا – اللذين يحرسان المزرعة ويعيشان بمنزل بجانبها ومعهما الأبناء وجدتهم التى كانت دائما تصنع زهورا وتعتنى بالمنزل كأنه ضيعة – قد جاءا من الأندلس وهاجرا من قرية فى غرناطة وعملا هناك عندما اشترى والد تيريسا المزرعة بنية تحويلها إلى واحدة من مزارع النحل الأولى بإقليم قطلونيا. كانت تيريسا مفتونة بأوقات الصيف التى تمضيها بالضيعة، وشعرت منذ اللحظة الأولى، أنها استمالت عطف الحراس، عكس ما شعرت به تجاه المدير، فهو قطلونى متعجرف مثلما تقول جدة ماروخا. هو رجل صامت يأتى دائما بدراجته النارية البراقة على نحو مهين، طالما أرادت تيريسا أن تثقب عجلتيها. ففى ذلك الوقت، كانت تتأهب لتحتل مكانا شبحيا فى الممارسات التخريبية الانقلابية التى تمارسها اليوم فى الجامعة بجانب صديقها لويس ترياس دى چيرالت.

---

(١) مدينة إسبانية بإقليم قطلونيا وتعد ثانى أهم مدينة بالإقليم بعد برشلونة.

كانت الصديقتان تلعبان معا وتتحاكيان أسرارهما ورغباتهما، وكان أخو ماروخا، الذى يكبرها بثلاثة أعوام، يعمل بالحقل مع والده، فقلما تعاملت تيريسا معه. بدت ماروخا فى ذلك الوقت طفلة سعيدة وشبه متوحشة، تسخر من كل الصبية عند ذهابهما معا للتسوق فى القرية، واعتادت ماروخا أن تروى لتيريسا حكايات مسلية وغريبة قامت بها سرا مع هؤلاء الفتية عند خروجها من المدرسة. والآنسة تيريسا سرات تدهش وتُعجب بها. كانت ماروخا تكبرها بعام فى تلك الفترة التى استمرت لأربعة فصول صيفية، منذ أن أتمت تيريسا الحادية عشرة حتى الرابعة عشرة، حيث بدا الفارق حينها أكثر تأثيرا من حيث الدهشة. تركت حيوية ماروخا الطبيعية وهيئتها فى حد ذاتها، التى توحى بفارق عامين، انطباعا باهرًا لدى تيريسا التى بدت حينئذ طفلة وردية وهشة. لها عينان زرقاوان كبيرتان ورقيقتان لا تستطيعان سوى التعبير عن الفضول والاستحياء أمام كل هذه الحقول وأمام ضخامة معرفة صديقتها. كانت تنظر بإعجاب إلى ابنة الحارس لأنها تمثل صورة للحياة نفسها: بعينيها المليحتين والبراقتين ذواتى النظرة المجترئة، وبشعرها الكثيف الأسود الذى كانت والدتها تمشطه كل يوم بعناية وبدأب، (فخصلة واحدة من شعر ابنتها كانت على ما يبدو هى الأولى بعناية السيدة الأندلسية الطويلة القامة الوقور الصموت والوجيهة على نحو غير متوقع -التى كان يستشرى داخلها المرض العضال الذى قضى عليها بعد ثلاث سنوات- على غير رغبة السيدة سرات التى كانت ترى أن بعض أعمال الضيعة قد أصابها الإهمال)، وبشرتها السمراء، وإيماءاتها الوقحة اللذيذة. عندما توفيت والدة ماروخا، اقترحت السيدة سرات أن تأخذ الفتاة إلى برشلونة كى تساعدها فى أعمال المنزل، وحينها فرحت تيريسا كثيرا. لكن وضع الفتاة الجديد فى برشلونة والمعاملة المختلفة التى كانت تفرضها مهام عملها كخادمة لم تأخذ وقتا طويلا فى كسر هذه العلاقة غير المرئية التى جمعت بينهما فيما قبل، فضلا عن دراسة تيريسا الجامعية ومرور الزمن فى حد ذاته الذى زاد من حدة الاختلافات بينهما بسبب الثراء والفقر. فى يوم ما وعلى نحو خفي، وبعد الوعود التى همست بها الحياة لهما فى ظهيرة يوم كانتا تستحمان فيه فى مسبح المزرعة وتتباهى كل منهما بنهديها الصغيرين لم يعد يجمعهما شيء. وعلى الرغم من أن ماروخا تبدو غير واعية بهذا التغيير فإن تيريسا بعقلها الأكثر استنارة وثقافتها، التى

مردها مشاركتها اليومية فى الأفكار الحديثة التى اخترقت أسوار الجامعة، كانت ترثى لهذه الحال بشكل عميق. فلقد أحبتها مثل أخت لها وأعطتها النصائح وأهدتها أثوابها وعلمتها كيف تمشط شعرها وترتدى الملابس وتتصرف فى هذا الموقف أو ذاك، حتى إنها أصرت فى إحدى المناسبات منذ عدة شهور أن تقدمها إلى بعض أصدقائها المقربين (هذه هى ماروخا، اعتدنا أن نلعب معا منذ أن كنا صغارا) فى حفلة شبابية نظمتها فى منزلها. فى ذلك اليوم، لم تتول ماروخا أمر المشروبات فحسب كما هى العادة بمعاونة تيريسا، وإنما شاركت أيضا فى الحفل بطريقتها جنبا إلى جنب الآنسة حتى النهاية، وهى ترتدى ثوبا ضيقا إلى حد كبير وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء إلى حد ما. ولحسن الحظ، أنهم دعوها للرقص بما يكفى كى لا يتسببوا فى جرح مشاعرها إلا قليلا. فلقد كانت الفتاة مشوقة بلا شك (وتحملت كما لم يفعل أحد، بل ولم تتحدث. كانت ملاكا)، كما أنها لم تجرح لأنه لم يكن هناك فى الواقع أى نوع من الخبث الاجتماعى بين هذه الباقة من الآنسات، ولكن هذا القليل لم يمنع الفتاة – التى تجهل وجود أسطورة رومانسية أخرى فى الجامعة، أسطورة ذهبية أخرى تتمثل فى تقدمية مفهومة على نحو خاطئ ألا وهى مرافقتهم غصبا بلا فروق طبقية – من أن تشعر بضيق كبير. من ناحية أخرى، كانت الثقة التى تمنحها إياها سيدتها تثير دهشة الكثيرين على الأقل فى البداية، حتى لويس ترياس دى چيرالت الذى لا يدهشه شيء قط، صاحب النظرات المكفهرة (فما لبث أن خرج من السجن) التى تنم عن الأحداث الكبيرة والمباشرة، وجد نفسه مجبرا على سؤالها فى ذلك اليوم: من تكون هذه الفتاة الجميلة؟ وفزع عندما أجابوه بأنها خادمة أهل سرات وخشى للحظة أن تكون تيريسا وطبقة العمال قد قامتا بثورة دون اللجوء إليه. ولكن ذلك الإصرار المبجل لتيريسا على انضمام ماروخا إلى وسطها الاجتماعى من خلال بعض الحفلات الخاصة على الأقل لم يدم إلا بعد عدة شهور من وقوع حادثة مهرجان سان خوان الشعبى الذى حضرته بصحبة لويس وماروخا. أما ماروخا التى ذهبت إلى هناك من أجل المساعدة فى الخدمة فقد شوهدت (طبقا لما ذُكر لتيريسا فيما بعد حيث إنها كانت قد ذهبت لتقوم بجولة مع صديقتها نينى ولويس بعيدا عن التفاهات التى كانت تثير اشمئزازها) فى نهاية الحديقة تقبل صعلوكا تسلل إلى الحفل، ولكنه لم يُطرد ركلا كما قال فيما بعد ابن صاحب المنزل

فى ضرب من الجسارة المتأخرة، والذى كانت نظرة المُرسى المتعالية المظلمة صعقته من قبل. فقد اعتقدوا أنه من أصدقاء تيريسا غير المعروفين. أما عندما انكشف الأمر مع ماروخا التى قالت إنها لا تعرف هذا الوقح وإنها لن تعود لمعرفته. ضحكت تيريسا أمام ابن صاحب المنزل الذى كان يستشيط غضبا وانتهزت الفرصة كى تسخر مرة أخرى من بعض مخاوف البرجوازية الصغيرة وتشير إلى الثغرات الواضحة فى جهاز دفاع هذه الطبقة المثيرة للاشمئزاز. فى ذلك الوقت، كبح لويس اندفاعاته البليغة واصطحب الفتاتين إلى المنزل. حينها، لم تقل تيريسا لماروخا إنها حرة فيما تفعل فحسب وإنما رأت أنها قد أحسنت صنعا عندما دعت غريبا يقبلها وسط صديقاتها المنافقات، وقالت لها: يجب أن نعلمهن كيف تكون الحياة. كنت رائعة يا ماروخا. أرى أنك تتعلمين جيدا... أما ماروخا الجالسة بجانبها فى السيارة، فلم تقل شيئا البتة وشعرت تيريسا أنها حبيسة إثارة غريبة: رأت صدغى صديقتها المشتعلتين وشفتيها المنتفختين والذابلتين دون طلاء على نحو يثير الحسد. فى نفس اللحظة وعلى نحو مفاجئ، قال لها صوت داخلى معاكس لكل حماستها إنها لم تكن يوما بعيدة عن ماروخا مثلما هى الآن، وإنه ليس هناك من يتمتع بحضور تقدمى سوى ذلك المخلوق الخجول الأبله. بدت هذه الحقيقة واضحة وبسيطة حتى إن تيريسا شعرت بحزن لم تستطع الإفصاح عنه عند اكتشافه. فماروخا لم تلحق قط بقاطرة أفكارها الطليعية، وإنما كانت تسبقها دائما دون إفصاح أو استشارة أحد ودون الحاجة إلى التشهير بنظريات أية طبقة، ومن الواضح أنها تستمتع بذلك، على الأقل فيما يتعلق بالخبرات العاطفية، فمن يدرى إذا كانت قد تخلصت من عذريتها اللعينة، كان هذا ما ظنته تيريسا فى ذلك اليوم. والآن وبعد ما أظهرته للجميع وما اكتشفته تيريسا الليلة السابقة من خلال النظر إلى فتحة المزلاج، تستطيع أن تؤكد أن هناك أساسا لشكوكها. وعلى الرغم من أنها أحست بعاطفة صادقة تجاه الفتاة وفرحت بوجود من يحبها، كانت فى نفس الوقت مندهشة ومتحيرة. فكل ذلك فى نهاية المطاف، مصدر إثارة وحسد خفي، وشعرت وهى بجانبها بنفس شعورها وهما صغيرتان.

أسرعت تيريسا خطاها ولحقت بماروخا وشبكت ذراعها بذراع الأخرى فى حميمية ومازحتها قائلة: أهلا يا خبيثة! فأفزعت قليلا الخادمة التى بدأت تضحك ثم أضافت

تيريسا: نعم، إنهم حقا أطفال شياطين، ولكن لم يبق سوى القليل فسوف يرحلون غدا. عادت ماروخا لتضحك مرة أخرى، وقالت لها إنها فى الحقيقة سوف تشتاق إليهم وإنها استمتعت معهم كثيرا ولم تشعر بالوحدة. فردت تيريسا: معك حق يا فتاة، فلقد بدأت أسأم هذه الإجازات الصيفية التى لا تنتهى أبدًا... ولكننى أشعر بالملل أيضا فى برشلونة. أتدرين؟ لدى رغبة فى أن تبدأ الدراسة. وبينما تشتبك ذراعاهما وتتابع عيناهما باهتمام مبالغ فيه موضع قدميهما، توغلتا داخل الغابة وهما لا تزالان تراقبان الأطفال عن كثب وتسمعان أصوات الرجال فى الخلفية بجانب المنزل، وعند وصولهما إلى الشاطئ، قالت تيريسا لماروخا وهى تنزع دثارها: ألن تخلعى ملابسك؟ وزعت ماروخا المجاريف الصغيرة بين الأطفال الذين ما لبثوا أن ركضوا نحو البحر. كانت الشمس تغيب من حين لآخر خلف السحاب ويهب نسيم مزعج بعض الشيء. تمددت تيريسا على المنشفة ومعها الكتاب مفتوحا على جملة على لسان رفيقة سارتر مستشهدة بسوستيل[1]: "والآن نطرح السؤال الرهيب: أمن الممكن أن تكون حضارتنا ليست بحضارة؟" ثم تركته مفتوحا على بطنها برهة كى تنظر إلى ماروخا ثم نادتها قائلة: ماروخا، أريد أن أسألك شيئا... وبعد أن تأكدت من أن أبناء عمها بعيدون عنها بمسافة كافية، خفضت حمالتى رداء البحر كى تداعب الشمس نهديها، وهو ما قلّما تفعله إلا وحدها هنا أو فى الشرفة بغير صحبة أحد. وفجأة، توقفت عيناها اللتان تراقبان ركض الأطفال على الشاطئ عند نهدى سيدتها الورديين دون أن تبدى أى تعبير مغاير. فقد كانت أفكارها فى مكان آخر ثم ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها بعد ذلك عند إدراكها للموقف، ونظرت إلى تيريسا التى بدت مبتسمة أيضا وعادت لتفتح كتابها وتقول: يا لها من متعة يا فتاة، أتتذكرين يا ماروخا عندما كنا نستحم فى مسبح المزرعة فى أوقات الصيف ونحن فى الصغر؟ فردت عليها ماروخا بالإيجاب وهى تقبض بيدها على كرة رمل مشتتة الذهن وسألت تيريسا عما كانت تريد أن تسأله (تقول سيمون: إن البروليتاريا شأنها شأن المثقفين بعيدة تماما عن الواقع

---

(١) أنثروبولوجى فرنسى متخصص فى دراسة حضارات ما قبل العصر الكولومبى فى الأمريكتين.

لأن لديها رد فعل سلبيا تجاه الأفكار العاطفية والصور والمشاعر التى تنطبع فى الضمير: سواء تسببت فيها عوامل خارجية تلقائية أو الفرد نفسه وهو فريسة تهوسات الخيال)، وإذا بها تقرر فى كلمات قليلة وفى لهجة غير حانقة أن تكشف لماروخا عما اكتشفته أمس. لم ترد أن تجرح مشاعر الفتاة ولا أن تترك لديها انطباعا بأنها حديثة العهد فى ذلك الأمر وهى قد مرت بتجربته بالفعل. فلم تفعل شيئا سوى إبداء استيائها ومفاجأتها من الأمر الذى وصفته بالانتحار ومن أنهما يستغلان المنزل كمكان للقاءاتهما.

- يا حبيبتى، ألا تعين أنهم سوف يكشفون أمركما فى يوم من الأيام؟ تخيلى ماذا كان سيحدث إذا كانت من هبطت بالأمس إلى المطبخ بدلا منى هى أمى أو العمة إيسابل؟ ومن هو؟ أمن الممكن أن أعرف؟

أما ماروخا التى لم تع أن تعنيفها لم يكن مرده ما حدث وإنما حدوثه فى غرفتها بالمنزل، فلم تفعل سوى أنها راحت تتشنج وتتلعثم فى سلسلة من الأعذار باسمها واسم صديقها اللذين أربكا الطالبة الجامعية للحظة. وحين راحت ماروخا تقص عليها الأمر، التفتت هى إلى أن لديها الفكرة ذاتها عن شباب العمال المكدين فى الحياة، أولئك الذين سوف يصيبونها بالدهشة والسرور فيما بعد. وظنت أن رفيق الخادمة لابد أن يكون عاملا. ثم استأنفت ماروخا: سوف نتزوج... يا آنستي. ابتسمت تيريسا واقتربت من صديقتها كى تشاركها سعادتها وعانقتها بحنان وهى تقول: ماري، لن أتحدث مع أحد عن ذلك، فلماذا تبكين؟ هل تحبينه؟ هزت ماروخا رأسها بالإيجاب، ثم قالت: أنت... أنت لن تقولى شيئا، أليس كذلك؟ لن تفضحى أمري، أليس كذلك؟ أحيانا كانت ماروخا تتحدث معها بلا تكلف عندما تكونان وحدهما، ولكنها لا تفعل ذلك أمام أحد، خاصة أمام أفراد العائلة إلا فيما ندر. ومع ذلك، وعلى الرغم من أنها فعلت المستحيل كى تتفادى مناداتها بصيغة الاحترام السخيفة التى كانت تثير غضب تيريسا، وعدتها بألا تقول شيئا لأحد وسألتها: منذ متى وأنت تقابلينه فى غرفتك؟

- منذ أسابيع ولكننا سنتزوج... من فضلك، يا تيريسا، لا تقولى شيئا لأحد، وأنا سوف أطالبه بألا يعود إلى هنا مرة أخرى... فمهما يكن هو شخص طيب جدا (فالمرأة

التى تحيض وتلد هى أعلم من طبيب النساء والفلاح هو أعلم بالأرض من المهندس الزراعي، كما أوضحت سيمون) وهو، مثل حضرتك، ثورى ويغضب من أى شيء... ولكن ما يسيئه حقا... أعتقد أنه فى حاجة إلى الاختباء فى بعض الأحايين، لذا فهو يأتى ليراني... ففط من أجل ذلك.

– ماذا تعنين؟

– آه يا سيدتي، لا أعلم إذا كان من المفترض أن...! لا، فأنا لا أجرؤ. عدينى ألا تقولى شيئا.

– هيا يا فتاة، لا تكونى حمقاء، ألسنا صديقتين؟ لماذا يختبئ صديقك؟ وممن؟

كانت شبه متأكدة من معرفة السبب ولكنها أرادت أن تستوثق. أظهرت تيريسا لامبالاة ملتفتة إلى الكتاب المفتوح أمامها ونظرتها الضائعة بين السطور وهى منتبهة لكلمات ماروخا البوجوارية، رفيقة مانولو سارتر المرغوب فيها الأفضل، چان بول المحتال.

– وماذا فى ذلك...؟

فقالت ماروخا:

– إنه لشيء مخجل. لو علم يوما ما قلته لك سيغضب فضلا عن أننا لا نملك من الأمر شيئا... فهى كارثة.

– حسنا يا فتاتي، اهدئي، فأنت لا تتحدثين إلى أمك. هيا احكى لي، لعلى أستطيع مساعدتك.

ابتلعت ماروخا لعابها ونظرت إلى الآنسة مرتين، وفى المرتين، هزت رأسها بالنفي، بينما تيريسا التى أمسكت الكتاب بيد ورفعت رداء البحر على صدرها بيدها الأخرى، تنهدت ثم تمددت على ظهرها مرة أخرى فى تأثر واضح بعدم ثقة صديقتها بها، وقالت لها: كما تريدين يا بنيتى (فكل برجوازى يحرص عمليا على إخفاء الصراع الطبقي، جملة لسيمون دى بو؟وار تسللت إلى مسامعها).

اندهشت تيريسا وقالت دون أن تنظر إلى ماروخا: هذا شيء سخيف! أتعرفين ماذا سأقول لك؟ إنك أنت أيضا لديك الكثير من الآراء الجاهزة الحمقاء يا ماري. عادت لتخفض حمالة رداء البحر، فالشمس تسطع بقوة الآن وقد استشعرت دفئا وجرعة من الرقة فى عمق نهديها وموجة مباغتة من التوتر بيديها، فغطتهما بكفيها فى حركة سريعة تنم عن الدفاع عن النفس ولكن دون التفكير فى شيء. وقالت تيريسا وهى تفكر:

-- حسنا، اهدئي، ولا تتحدثى على هذا النحو. فهناك أشياء لا تستطيعين فهمها يا ماري.

– أنا؟ وماذا بوسعى أن أفعل؟ فأنا مسكينة ولكننى أحبه...أحبه وحضرتك، حضرتك لم تعرفى بعد ما هو أسوأ يا آنستى والجنون الذى يملأ رأسه الآن!

كادت تحكى لها عن أمر الجواهر ولكن الآنسة بدت غير مصغية لها، أو بالأحرى، تصغى وتنظر إليها على نحو خاص جدا: ارتسم على وجهها تعبير من هو مولع بالموسيقى أو من يرى سرابا من فرط خياله، فهى تنظر إلى الخادمة دون أن تراها أو تنصت إلى تفسيراتها بالتحديد، وإنما إلى موسيقى تلتقطها بين الكلمات. وابتسمت فجأة واحتضنت مرة أخرى بذراعها ظهر ماروخا المهتاجة، وقالت: كل شيء سيكون على ما يرام يا فتاة، فلا تقلقي. ثم ظلت تنظر إلى البحر بعينين حالمتين وكانت تفكر فى أن تحكى ما عرفته للويس. يا للمفاجأة، فالبلد ليس سيئا كما يظن البعض، والحياة فيه ليست رتيبة كما تُرى بنظرة عين المصطاف اللوزية أو ضميرنا الشرير، ضمير البنات الموسرات. فهناك أشياء تحدث وعمل يُنجز وكذلك مؤامرات... ثم تنهدت. لم تعرف ماروخا ماذا تفعل (سوف تتذكر لاحقا مصادفة مثيرة للفضول: فأحد الكتب التى وجدتها ماروخا على فراش سيدتها بينما ترتب غرفتها، كان يحمل عنوان: ماذا نفعل؟) وقررت أن تمدد ظهرها على الرمال وتجفف دموعها. فى هذه اللحظة، احتكت من الخلف بأحد الأطفال وأكبرهم سنا وهو يحمل دلوا من البلاستيك مليئا بالماء الذى انسكب فوق جسد تيريسا، فصرخت: خوسيه ميجيل! أيها الغبي! لا تقترب وإلا صفعتك! انظر ماذا فعلت؟ غضبت تيريسا فلقد ابتل الدثار والمنشفة والسجائر وكتاب سيمون دى بو؟وار وشعرها الأشقر وصدرها المعرض للشمس، بينما

يقف ابن عمها أمامها بلا حراك ممسكا الدلو بيده وهو يضحك. ربطت تيريسا حمالتى رداء البحر، وأومأت ماروخا بإشارة للطفل ونادته وحين وقف أمامها، قامت بتنظيف أنفه بمنديلها ورفعت ثيابه على خصره وودعته بضربة خفيفة على ردفه، وقالت له: راقب أختك ولا تدعها تقترب من الماء والأفضل أن تذهب للبحث عنها وتعود فسوف نلعب لعبة الرهائن.

ففى الواقع، لم تع أن هناك مناخا شهوانيا طالما رغبت فيه سوف يتمكن منها ومن أفكارها، وإنما كان لديها حدس غريب بأن ذلك الفتى، ذلك العامل مجهول الهوية الذى يحوم حول منزلها وحول حياتها الفارغة، يرمز نوعا ما إلى تطور المجتمع. أغمضت عينيها وأرادت أن تسترجع بيديها دفء نهديها اللذين أطلت حلمتاهما الشبيهتان بحبتى عنب غضتين ذواتى لون بنفسجى فاتح من بين أصابعها. والآن، تأكد يقينها على الرغم من أنها لم تدرك ما إذا كان اقتحام العامل المفاجئ لعقلها أم مداعبة الشمس لها هو ما جعلها ترتجف حتى جذور شعرها، ولكن ربما ما أجبرها على أن تتفهم هو اعتراف ماروخا لها بكل شيء عن مانولو. ولكن الفتاة ما لبثت أن بدأت الحديث بعزم زائف فى صوتها حتى توقفت، فلم تجرؤ على ذكر كلمة "لص" المفزعة التى كانت ستشرح كل شيء وراحت تبكى عند تذكرها مخطط سرقة جواهر سيدتها، مع أنه لم يُنفذ بعد، تبكى بنشيج أطلق قطعا خيال الثرية الجامعية البطولي. وقالت تيريسا كأنها تتحدث إلى نفسها: كنت متأكدة، لا أعرف لماذا ولكننى كنت على يقين. وكيف عرفْته؟

– فى الحقيقة، فى لقاء مع بعض الأصدقاء (لا أستطيع أن أقول لها إنه نفس الشخص الذى كان معى فى مهرجان سان خوان وإلا ستظن أنه كان هناك من أجل السرقة أيضا) نعم، فى منزل أحدهم...

– هو عامل، أليس كذلك؟ كنت متأكدة.

لم تكن فى حاجة لسماع الإجابة. أما الآن، بدأ صوت الجميلة الجامعية يفقد حماسته ويشوبه الاشتياق، مثلما كانت تسأل صديقتها وهما صغيرتان عن بعض تفاصيل علاقاتها العاطفية مع الصبية. ولمبرر ما، ربما لأنها التفتت فجأة لحضور العامل الشاب الخارق،

رفعت حمالة ردائها فى عجلة، ثم قالت: وهل يصطحبك كثيرا إلى مثل هذه اللقاءات؟

– لا... أى يا تيريسا... أنا أحكى لك ذلك ولكنى أتوسل إليك ألا تفعلى ذلك... إنه أمر خطير. خير لنا أن نتزوج ونعيش فى هدوء، لكن هو...!

– أين يعمل؟

كانت ماروخا – التى اندهشت من تغير مسار السؤال – على وشك أن تجيبها بأنه للأسف لا يعمل فى أى مكان ولكن استأنفت تيريسا قائلة: وشيء آخر: هل تساعدينه؟ احمرَّ وجه ماروخا من شدة غيظها وقالت: أنا؟ حاشَ لله...! فهو شخص مجنون وناكر للجميل لا يتذكرنى سوى من أجل... لقد مللته، مللته، مللته!

بينما تجفف تيريسا نفسها، نظرت إلى صديقتها بعينين حزينتين وقلبت المنشفة فى صمت وعادت لتتمدد عليها من جديد، وألقت ماروخا بظهرها على الرمل فأصبح رأسها منخفضا عن رأس تيريسا بنحو الشبر، فترى بطرف عينها من حين لآخر الصورة الجانبية الجميلة للآنسة التى صارت أكثر عذوبة الآن بعد أن ابتلت خصلات شعرها الشقراء وشردت عيناها الزرقاوان فى السماء.

– فيم تفكرين؟ ألم تعودى تريدين معرفة شيء آخر عن مانولو؟

بالطبع، لا يستطيع أحد مساعدتها. عرضت عليها تيريسا أن تدخن وهى تقدم لها السجائر. اجتمع رأساهما حول لهب عود الثقاب البنفسجى ومالتا كى تحمياه من الرياح كأنهما للحظات تقرآن الكتاب نفسه أو تتشاركان على سجيتهما نفس الفضول.

– وأين يعيش؟

– من؟ مانولو؟

– نعم.

– فى جبل الكرمل.

– جبل الكرمل...؟ آه، نعم، تذكرته.

ابتسمت فجأة كأنها ما لبثت أن خطر ببالها شيء مضحك وتهيأت لتكمل حديثها، عندما أصاخت السمع إلى أصوات والدها وعمها خابيير فى الخلف واللذين يبدو من ضحكاتهما أنهما لا يتحدثان عن الأضرار التى أحدثها بالسور الشباب المتطفل والمستهتر الذى يقتحم الممتلكات الخاصة. نهضت ماروخا قبل وصولهما، وذهبت لتنضم إلى الأطفال، ففهمت تيريسا أنها قد ذهبت كى لا تدعهما يرونها وهى تبكي.

ما حدث لم يكن سوى نتيجة لبعض المشاعر المضطربة والمتجاهلة. فلقد ندمت على الاعتراف لسيدتها، ومنذ ذلك الحين، لم تعد تردّ على أسئلة تيريسا عن صديقها سوى بإجابات غامضة كما لاحظت أن معاملة تيريسا لها باتت أكثر مرونة، أو بالأحرى، أكثر ذكاء مما تستحق أعمالها المنزلية، وكانت تفاجأ كثيرا بمتابعة تيريسا لمهامها اليومية المعتادة مثل إعداد المائدة أو الرد على التليفون بنظرة ناشبة على نحو غريب كأنها تتحقق تحركاتها. فالله أعلم بنواياها وبنظراتها التى ما إن لمحتها ماروخا، تحولت فجأة إلى ابتسامات ودودة أو غمزات توحى بمشاركتهما أمرًا ما. أما ما كان يجول برأس هذه الفتاة الشقراء حينها، بدا غامضا للخادمة حتى سمح الحظ لتيريسا بعد عدة شهور فى برشلونة، فى الشتاء، أن ترى عن كثب المُرسى الوسيم من خلال سور الحديقة. حينئذ، رسخت فى عقلها بنفس قوة المبادئ الفكرة المتعالية التى كونتها عنه من استجوابها لماروخا فى ذلك اليوم على الشاطئ. وقبل ذلك، لاحظت تسلل هذا الاحتمال السعيد إليها كما تتسلل أشعة الشمس إلى نهديها العاريين فى مداعبة حالمة، ولكنها بعدما تعرفت إلى الفتى باتت مقتنعة. لم يرد لويس ترياس تصديقها عندما روت له اكتشافها المذهل مع جملة كبيرة من التفاصيل (حيث زينت روايتها بعناصر جذابة عن الحركة العُمالية الناشطة التى من المفترض أنها أذهلت ماروخا المسكينة) ومن أجل أن يستوثق، أراد الطالب الجامعى الشهير، المعتاد فى مثل هذه المواقف أن يزهو بمسئولياته الخطيرة وكأنه فى اللجنة المركزية لحزب أو منظمة تبهر تيريسا على نحو كبير، أن يوجه أسئلة جديدة إلى الخادمة التى أعطت فى ذلك الموقف دليلا قاطعا إن لم يكن على ذكائها فعلى امتلاكها غريزة التحفظ التى يتسم بها – كما ظنت تيريسا – أفراد النظام فى المجتمعات السرية. بدت كأنها لا

تفهم المعنى السياسى وراء الأسئلة. فمما لا شك فيه أن صديقها قد منعها من الحديث فى أمورهما مع أحد لدواع أمنية! أيبغى لويس دليلا أفضل من هذا؟

الآن، تفكر تيريسا سرات فى ذلك وفى أشياء أخرى مماثلة متعلقة بحسن حظ ماروخا وبسوء حظها هى تلك الليلة والذى كان الأسوأ. تفكر بينما تهبط سلالم المنزل دون أن تقرر بعد إذا ما كانت ستوقظ ماروخا لتتحدث معها برهة. وعند وصولها إلى أسفل، تجاوزت الممر وأضاءت أنوار قاعة الاستقبال وتمددت على الأريكة والتقطت عددا من مجلة "هي" ثم ألقت بالمجلة على الأرض ونهضت وعيناها تدمعان، عندما تذكرت شيئا ما (انتهى الأمر إلى الأبد...) واتجهت نحو المطبخ (لم يكن هناك أى بقعة ضوء أسفل باب غرفة ماروخا) وسكبت لنفسها عصير فواكه من الثلاجة كانت على وشك أن تبكي، وتسبب سكون المنزل فى تشنج أعصابها. شدت فخذيها وعادت لتجتاز الممر (دون وجود أى ضوء أسفل الباب) ودخلت القاعة وهى تحمل كأس العصير بيد ومجلة "هي" باليد الأخرى، وعادت لتبسط جسدها على الأريكة وتحرك ركبتيها المرفوعتين من اليمين إلى اليسار بسبب التوتر العصبى وقلما أصاخت السمع إلى الأمواج المتلاطمة. وهناك، بعيدا عن النافذة الحديدية، يطل ضوء وردى فى أفق البحر. تسبب تمايل ركبتيها المستمر فى فتح دثارها وهى ممددة على ظهرها بعد أن بذلت جهدا فى ضم أنوثتها المجروحة إلى عالم "هي" البراق والرحب وسط الحنان الحقيقى للحرير والجلود، ودون أن تلتفت إلى تناغم اهتزاز ساقيها المصقولتين اللطيف مع إيقاع الأمواج المتلاطمة. وفجأة، تشتت انتباهها الذى ما لبث أن وجهته إلى ما كانت تقرأ بحكة فى جلدها. لم تتحرك ودمعت عيناها السماويتان وغامتا. وبينما تتقلص هناك على الأريكة وقد نشب ذقنها فى صدرها وغطى شعرها وجهها كأنها طفلة مرتجفة ومهانة، فاضت دموعها فى حزن لموت أسطورة جميلة وانسالت فوق صفحات مجلة "هي" المصقولة والرائعة، حيث كان بالفعل يقول برجها الفلكي: "هذا الصيف، تغيير فى الحب".

جيلٌ شرّيرٌ خائنٌ يَطلُبُ آيَةً؛

وَلَنْ يُعْطى آيَةً.

إنجيل متى - ١٦ : ٤

دخل أوريول سرات مستشفى «بالمس» وألقى تحية ودودة على الحارس وصعد السلالم بسرعة لا تناسب أعوامه الخمسين، ثم اجتاز رواق جدرانه مطلية بالجص فى الدور الأول حتى وصل إلى باب الغرفة رقم ٢١، فتوقف للحظة قبل أن يدخل وجفف عرق جبينه بمنديله، ثم فتح الباب وهو يضع يده على ظهره كأنما يشتكى من ألم بكليته، ودخل وهو يقول: «كم أنا ثمل!». كانت الساعة الحادية عشرة صباحا.

كانت زوجه وابنته الملتفّتان بضوء أبيض، يتخلل من النوافذ البيضاء التى لم تكن مغلقة تماما، تجلسان فى قاعة صغيرة مجاورة لغرفة ماروخا وتتحدثان بصوت منخفض، فسألهما: كيف حالها؟ وقالت السيدة سرات وهى تخرج بعض المناديل والثياب من حقيبتها: كما هي. لم يبق سوى أن نستدعى ذلك المدعو مانولو. هل تناولت إفطارك؟

– ومن يكون هذا؟

– لك أن تتخيل! أأفطرت؟

– نعم يا سيدتي.

ثم تدخلت تيريسا وهى متهالكة تماما فى مقعدها الجلدي، وقالت: إنه رفيقها يا أمي، رفيقها، قد قلت لك ذلك وعلينا أن نخبره.

– هذا يبدو جيدا، لكن كيف لى أن أعرف. فماروخا لم يكن لديها رفقاء قط.

– أنت لا تعرفين شيئا يا أمي.

– حسنا، افعلى ما شئت، فهذا الأمر لا يعنيني. فمن علينا أن نخبره فى الحال هو والدها.

وعند قولها ذلك، نظرت إلى زوجها كأنما تنتظر منه موافقة منصفة على اقتراحها، ولكن دون أن يبالى ترك السيد سرات القاعة واتجه نحو باب غرفة ماروخا مع صرير حذائه على البلاط ذى اللون الأخضر الفاتح. واربَ الباب وألقى نظرة إلى الداخل: كان رأس الفتاة يطل من بين ملاءات الفراش، وعيناها مغمضتين، وشفتاها شبه مفتوحتين، وذقنها مرتفع كأنها تتأهب للشرب من نافورة لا وجود لها، وجبهتها المرمرية تتصبب عرقا.

كانت تجلس هناك ممرضة على مقعد بالقرب من النافذة تتصفح المجلة، رَفعت رأسها برهة كى ترى من بالباب. ابتسم السيد سرات فى تحية لها، ثم عاد ليغلق الباب. حسن. فالممرضة هناك وكل شيء على ما يرام كما كان يُنتظر، وهَمْهَمَ بعبارات عتاب مألوفة، ثم نظر إلى زوجه وابنته اللتين لا تزالان تتهامسان، فعبر القاعة مرة أخرى كى يعود إلى مقعده. كان يبدو فى سيره مكتنزا فى حلته الزرقاء الصيفية ويشعر بالحر ويتنفس بصعوبة من أنفه وهو يضع كفيه وراء ظهره ويحركهما ليس بنفس الرشاقة المعتادة وإنما بحرص شديد كأنما يخشى أن ينتقل إليهما هواء المستشفى المعدي. فبدا فى اهتزاز ذراعيه خشونة ميكانيكية ووظيفية كأنهما ماكينتان حديثتا التشحيم والتركيب على الفور. أوريول سرات، رجل طويل القامة وصارم، أشيب العارضين، ذو شارب أشهب صغير ووجه طويل وأسمر وصدغان لا نهاية لهما مثل كلب صيد الحجل وذقن لطيف وقاس بعض الشيء لا يلين، قسوته عرضية تسبب فى جزء منها استخدامه للغليون الذى شوه فكيه على هيئة أشبه بمن يتهيأ للبصق أو توجيه الشتائم. ومع ذلك، لا يزال يحتفظ بقدر من الوسامة الرجولية التى تعود إلى موضة الثلاثينيات، حيث يُعد النسخة القطلونية والهزيلة من وارنر باكستر[1] يميز أوريول سرات فمه الصغير الحاد الذى دائما ما يفوح منه خبث

(١) ممثل أمريكى حاصل على جائزة أكاديمية عام ١٩٤١ كأفضل ممثل عن فيلم أريزونا القديمة.

الحيوانات المجترة ولبعض التجار القطلونيين. هو فى الحقيقة فم صغير فضولي، متأمل، له حياة خاصة، وعلى أتم استعداد أن يشحذ على نحو حاد ومرتاب إزاء أى بادرة لما يعتبره هو تعبيرًا غير مجد للذكاء، مثل الحديث عن السياسة. وقبل أن يجلس، نظر إلى زوجه وهو يضع يده على أمعائه المنتفخة، فهى تفهم هذه الإيماءة التى دائما ما تسبق انفجارا للمزاج العكر. قال لها وهو يتهالك على المقعد: مارتا، أذكرك بأن أختك ستصل من مدريد هذا المساء وأنك لابد أن تكونى فى بلانس لاستقبالها... فليس بوسعنا فعل أى شيء هنا كما أن هذه الحال ستستمر بعض الوقت. أصغى إليّ، إنه لمن السخيف قضاء الساعات وأنت تضعين يدا فوق الأخرى ونحن نعرف جيدا...

– أوريول...

– ... لقد فعلنا أقصى ما فى وسعنا. كما أن هناك ممرضة تلازمها ليل نهار. فماذا تبغين؟ عودى إلى المنزل وأنا سأذهب غدا أو بعد غد حين تُحل بعض الأمور، وبالتالى تستطيعين أن تأتى لزيارتها من وقت لآخر. فقالت له فى توسل: أوريول، من فضلك، اخفض صوتك. ثم ظلت صامتة لوقت طويل وهى تنظر إليه، مما سمح لها أن تعزز بعضًا من الصمت شفقة على حال ماروخا وعادت لتقول لابنتها: سوف يحدث كل ما هو فيه الخير ولكن بهدوء. تيريسا، فيم تفكرين؟ فالفتاة خائرة القوى.

بدت تيريسا مخدرة من شدة التعب وهمست: سأظل هنا. فهمهم والدها: ها هى تقوم بحماقة أخرى. يجب أن تعودى إلى المنزل وتنامي.

– أنا بخير يا أبي.

فقالت الأم وهى تحاول بلا جدوى أن تتلمس جبين ابنتها بيدها:

– لقد مضى عليها ثلاثة أيام بلا نوم وفى توتر شديد.

– آه يا أماه. دعينى فأنا بخير.

شردت عيناها الزرقاوان الحزينتان بين جفنيها الرقيقين المصقولين بعيدا، فقد لبثت ثلاثة أيام صامدة منذ دخول ماروخا إلى المستشفى فى حالة خطيرة. كما أنها

مرت بها ليال كثيرة لم تكد تنام فيها، فضلا عن ليلة سابقة لم يعرف والداها عنها شيئا. فمنذ ذلك الصباح الذى بدت فيه مخدرة على الأريكة وظلت صفحات مجلة «هي» تنزلق بين يديها لساعات حتى أيقظتها صرخات الطباخة وهى لم تفارق صديقتها. فالطباخة القديمة «تكلا» هى من وجدت ماروخا فاقدة الوعى فى فراشها عندما اندهشت لتأخرها، فذهبت لإيقاظها، والتى بمساعدتها هى وحارس المنزل الذى ظل يتحدث طوال اليوم عن عسر الهضم وضربة الشمس، حملت تيريسا وهى يعتريها القلق وشعور بتأنيب الضمير ماروخا الملتحفة ببطانية على الفور إلى سيارتها كى تذهب بها إلى مستوصف «بلانس»، ومن هناك، قامت سيارة إسعاف من البلدية بنقلها إلى مستشفى خاص ببرشلونة. وهناك، أعد السيد سرات كل ما هو ضرورى بعد أن هاتفته ابنته وأبلغته وكان فى انتظارها مع والدتها والدكتور سلاديتش، مدير المستشفى والصديق المقرب للعائلة، بينما تتبع تيريسا بسيارتها سيارة الإسعاف. اهتم الطبيب بمعرفة ما فعلته ماروخا فى اليوم السابق وأخبرته تيريسا بسقوطها على درجات سلم المرفأ وقالت: ولكنها لم تصب بأى ضرر أو على الأقل هذا هو ما اعتقدناه حينها حيث ظلت معى طوال فترة العصر، وفى المساء ذهبنا إلى بلانس وكانت تشعر بنعاس شديد ثم نامت مبكرا... وسألته: فى أى ساعة تظن أنها قد فقدت الوعي؟ وردّ الطبيب: ربما وهى لا تزال نائمة أو هذا الصباح عند استيقاظها. من الصعب تحديد الوقت، مؤكِّدًا أنه من الشائع أن يمر وقت بين وقوع الحادث وفقدان الوعى وأنه أحيانا يستمر هذا الوقت لأيام كاملة وأنه لا يمكن فعل أى شيء جراحى بل الراحة التامة. وأضاف: لا يمكن إجراء أى تدخل جراحي، فهذه حالة مبهمة وليس فيها أى أورام دموية، وإنما كدمات صغيرة فحسب منتشرة على رأسها (فهى جروح صغيرة لا تستدعى الجراحة، أوضح الطبيب وهو ينظر إلى السيدة سرات المشوشة، والتى انهارت شجاعتها تماما) وعلى الرغم من خطورتها، فلم يعد بوسعنا فعل أى شيء سوى الانتظار. فماروخا لم تستعد ذاكرتها بعد ولم تنطق سوى ببضع كلمات لا معنى لها تهمس بها من حين لآخر. قضت تيريسا الليلة وما بعدها وهى جالسة على مقعد بجانب رأس صديقتها التى كانت تتأوه فى وهن للحظات، بينما هى فى سباتها وتنطق باسم مانولو. ولمرة واحدة فقط، فتحت عينيها ونشبت نظرتها فى تيريسا لكنها بدت كأنها لا تراها. حدث ذلك فى الليلة

الثانية ومنذ ذلك الوقت، باتت غارقة فى سبات أكثر عمقا وإنذارا بالخطر. فأكد الطبيب سلاديتش على ملازمة الممرضة لها باستمرار. قالت السيدة سرات لزوجها وهى تنظر إليه بابتسامة خبيثة عند تذكرها ممرضة الفترة الصباحية: أرأيت؟ إنها الفتاة التى قدمها لنا الدكتور سلاديتش الصيف الماضى فى بالما، فى الفندق... قاطعها زوجها وقال لها إنها مخطئة.

من ناحيتها، ظلت تيريسا تفحص بعينيها الدامعتين ذلك الجسد المنهك بلا حراك تحت الملاءة البيضاء، بينما تحاول والدتها، التى مكثت معها اليومين الأولين حتى منتصف الليل، أن تقنعها بأن تنام وتجيبها تيريسا: سوف نخرج نحن الاثنتين أو أنا وحدى إذا ساء الحظ، أما حتى هذه اللحظة، فلا، لن أتحرك من هنا. وفى الليلة الثالثة من الليالى الأربع، تنبأت تيريسا بموت ماروخا وشعرت فجأة بالوحدة وانفجرت فى البكاء بين ذراعى الممرضة وهى تنادي: ماروخا، ماري... فلا تزال تراها وهى تحرك يدها على أعلى درجات السلم الصخرية، وساقاها تهتزان، وصندلها اللعين يتطاير فى الهواء، ثم اشتد نحيبها، عندما تذكرت لويس ترياس وحديثها معه وقبلاته، حتى إنه حرك مشاعر هذه الممرضة الميورقية، ذات الأنف المعقوف والفم الضارب إلى الحمرة والردفين الكبيرين، التى كانت داعرة فيما سبق وخضعت مؤخرا ومصادفة لعملية استئصال الزائدة الدودية التى أجراها لها الطبيب سلاديتش بنجاح تام. ضمتها الممرضة بين ذراعيها، وقالت لها: لا تبكى وضعى ثقتك فى هذا الطبيب... ونصحتها بالذهاب إلى المنزل، ولكن تيريسا أصرت على البقاء. نظرت إلى وجه ماروخا المتألم، وجبهتها المتصببة عرقا، وشفتيها اللتين تتحركان من وقت لآخر كى تلفظ بنفس الكلمة دائما: مانولو.

خرجت تيريسا اليوم، فى التاسعة صباحا، لاحتساء فنجان من القهوة وعند عودتها لاقت والدتها التى بدت غير منتبهة لما يقوله لها زوجها الآن: مارتا، لا تكثرى فى الحديث وخذى السيارة، فأنا لست فى حاجة إليها. كان يعلم أن مارتا ستنصاع لما يقول بعد مقاومة ضعيفة، ولكنه مع ذلك يخشى النقاش ثم نظر إلى زوجه التى كانت ترتدى ثوبا قطنيا له سواران عريضان من فرو الغنم مصبوغان باللونين الأحمر والأزرق وحقيبة شاطئ من نفس الخامة واللون. بدت مرفوعة القامة، وهى جالسة فى مقعدها، تضم ساقيها وتتكئ

بظهرها على النافذة، فهى تفضل هذا الضوء غير المباشر الذى يسبح فى القاعة. مازالت تحتفظ بكامل رونقها وعلى نحو أفضل بكثير من زوجها، فلقد احتفظت بشبابها طوال أعوامها الخمسة والأربعين، بدءا من عضلاتها القوية المدهشة التى مازالت مشدودة على نحو معجز يخلو من أى تهديد ظاهرى بالسقوط. عندما ينظر إليها السيد سرات فى إعجاب وهى تركض على الشاطئ مرتدية البكينى وجلدها مصقول بفعل الماء والشمس ويتبعها كلابها وأولاد أخيها، تسنح له الفرصة كى يقدر لمرة أخرى القوة الخفية لذلك الجسد، فى نفس الوقت الذى يدرك فيه أن الحياة ليست دائما متناغمة. فكان رجلا شديد الغيرة ومع ذلك ودون أن يعرف السبب بالتحديد، سرعان ما ينتابه الهدوء ما إن يتأمل ساقى زوجه. فلدى مارتا سرات ساقان راسختان مكتنزتان قليلا، رسغاهما مشوهان، أحمران، محترقان بفعل الشمس تلعنهما هي، وكذلك وجه رقيق، بيضاوى الشكل وإنجليزى بعض الشيء نظرا لذقنها الرقيق ونمش بشرتها وعينيها بلون البحر وشعرها النضر بلون التبن الذى يسمح لها بأن تمشطه، مثلما تفعل ابنتها، وبأن تحتفظ بهيئة فتاة مميزة قد أعجب بها كثيرا السيد سرات فى شبابه (شباب قاس ومتدن لا يعرفه سوى القليل من أصدقائه اليوم) والذى لا يزال مصدرا لمخاوف دفينة. ولكن ما لا ينساه فى الحقيقة هو أن هذه الساق المحلية ساق قوية ومعتادة ومريحة ومهدئة، تشهد على صحة صاحبتها العقلية وانصياعها للمداعبات الصغيرة المسموح بها والترف المنزلى وطاعة الزوج، ساق مترعة فى نهاية الأمر بالخضوع وحتى بالمشاركة المالية، فهى رمز لمعنى عملى متين ولفضيلة آل سرات المتينة. وتقول الساق: «طوع أمرك يا أوريول». ولأنها قد ترعرعت فى كنف حديقة ذابلة من الموسوعات الثقيلة والكتب البارزة (حيث ينتمى والدها إلى عائلة ذات شأن ولكنه أفلس وعمل مدرسا للغة الفرنسية بمعهد بالما ميورقة قبل الحرب). كانت مارتا سرات تميل، أحيانا، إلى تجربة بعض الأشياء المثيرة للدهشة، كما هو حال ابنتها داخل المقاومة الجامعية من أجل الثقافة. أما فى جميع الأحوال فهى تترك القرار لزوجها الذى قال لها: سوف نكون على اتصال بسلاديتش من خلال الهاتف كما أنك تستطيعين أن تأتى من حين لآخر وتفعلى ما تشاءين يا تيريسا.

- سوف أبقى يا أبي.

فسألتها والدتها: وأين ستأكلين؟

– «بيثنتا» ستأتى معي، فأنا فى حاجة إليها، والمسكينة «تكلا» لا تستطيع القيام بكل شيء هناك، خاصة الآن، بعد وصول إيسابل وأبناء عمك.

كانت هناك، بالإضافة إلى ماروخا والطباخة، خادمة أخرى كبيرة السن من بلنسية ستمكث فى برشلونة حتى شهر أغسطس كى تقوم بخدمة السيد سرات الذى لا يستطيع أن يبقى فى المنزل سوى نهاية الأسبوع بسبب عمله ولكنه ها هو يحتج قائلا: أنا فى حاجة إلى بيثنتا هنا، فقالت هي: فقط لبضعة أيام وتستطيع أنت أن تأكل فى المطعم. زاد ضيق السيد سرات ونهض وهو يقول: ليست مسألة بضعة أيام يا مارتا. فأنت سمعت سلاديتش وهو يقول إنه من الممكن أن تظل الفتاة على هذه الحال لمدة أسبوع أو ستة أسابيع. وفجأة، تناهى إليها نحيب مكتوم قادم من ناحية النافذة حيث نهضت تيريسا على نحو عنيف وهى متكئة بظهرها على النافذة ويكشف ثوبها الوردى عن منكبين من العسل وهما يهتزان تحت ضغوط الضوء المنبعثة من النافذة، فذهبت إليها أمها وهى مندهشة: تيريسا: ابنتى هيا بنا، هيا، لا تبكي... وفى نبرة اتهام، قالت لهما الشقراء السياسية: كيف لكما أن تتحدثا عن كل ذلك وهى مازالت هنا! جذبتها والدتها من منكبيها وأجلستها بجانبها ونظرت إلى زوجها كأنها تقول له: أرأيت ماذا جنيت؟ ولكن ما قالته فعلا هو: لا، سوف ترى أن استياء هذه المخلوقة سيملى علينا ماذا نفعل؟

– هل مر الدكتور سلاديتش؟

– منذ نصف الساعة. من فضلك يا أوريول. أنا أطالبك بأن تأمر ابنتك بالذهاب إلى المنزل لتنام... ولكن لم يكن نحيب ابنته هو ما يقلق السيد سرات الآن إنما وصوله المستمر إلى كل الأماكن طوال ثلاثة أيام متأخرا نصف الساعة. ثم سألها: وماذا قال؟ تنهدت السيدة سرات وهى تمد يدها بمنديل إلى ابنتها وقالت: ماذا تريدنى أن أقول؟ نفس ما قاله أمس، أنه لابد أن ننتظر وأنه ليس فى وسعنا شيء. يا إلهى أنا لا أفهم كيف تعرضت هذه الفتاة لضربة كهذه... لابد أنها أصيبت بضرر فى رأسها.

– اهدئى يا مارتا.

– وأنا أقول لك إنه لابد من إخبار لوكاس.

– لا أرى لذلك ضرورة الآن. فنحن نفعل كل ما يمكن فعله ولن نخسر شيئا إذا انتظرنا كي نوفر بعض الحزن على هذا الرجل...

هذا الرجل، لوكاس، هو والد ماروخا الذى يقطن مزرعة ريوس. اتجه السيد سرات نحو الباب وهو يلهث من الحر ثم أضاف: فى جميع الأحوال، سوف أحاول أن أخطف إجازة سريعة إلى ريوس، أما الآن سأذهب للبحث عن سلاديتش وعندما أعود سأصطحبك إلى المنزل، ثم خرج وأغلق الباب بحرص. نهضت تيريسا من جديد ووقفت أمام النافذة واستظهرت أمها وشبكت يديها، وسألتها والدتها: أمازلتِ مصرة على فكرة الذهاب إلى جبل الكرمل؟ أغمضت تيريسا عينيها فى تعبير عن ضيقها من السؤال. ففى بداية الأمر، لم تكن السيدة سرات تمانع إخبار رفيق ماروخا بما حدث لها، بل فرحت عندما عرفت أن الفتاة مخطوبة وأن هناك من هو مستعد لمشاركتهم هذه المحنة، ولكنها سرعان ما غيرت موقفها تماما عندما عرفت أين يقطن، وقالت: جبل الكرمل!! أنا المسئولة عن ماروخا أمام والدها، وكان يجب عليكِ أن تخبرينى بعلاقتها مع هذا الشخص.

– إنه خطيبها يا أمي.

– خطيبها!! بالطبع هو أحد هؤلاء الوقحين الذين يستغلون الخادمات، غير أنه يعيش فى الكرمل. لا. لا يا ابنتي، انسى ذلك. فلا أحد يعرف ما يمكن حدوثه فى هذا الحي...

جبل الكرمل، فى رأى السيدة سرات، هو مكان يشبه الكونغو، بلد بعيد وغير آدمي، له قوانينه الخاصة والمختلفة، فهو عالم آخر. فأحيانا، يهاجمها من خلال مصباح حياتها الحالية الأزرق وميض أحمر قادم من بعيد ينطلق من مدفع قديم مضاد للطائرات على أعلى قمة بجبل الكرمل، فيقصف زجاج كل نوافذ الحى (حيث كان يقطن أهلها أثناء الحرب فى ضاحية «جراسيا» ويطلق الناس على هذا المدفع الشنيع اسم: الجد). كما تذكرت سنوات الحرب الأهلية الأولى وجماعات الشغب المؤلفة من أطفال قذرين يتدلون من الكرمل والجيناردو وكاسا بارو ويقتحمون أحياء المدينة الراقية والهادئة كحمم بركانية ضخمة بعرباتهم المحملة بالكريات ومتفجرات من الكربون ويتراشقون بالحجر. إنها عصابات

حقيقية من أبناء لاجئى الحرب المشردين والمسلحين بمقابض من المطاط ومقاليع من الجلد، فيهشمون مصابيح الإنارة ثم يتدلون من خلف الحافلات الكهربائية. وبينما تتذكر كل ذلك، قالت لابنتها: أنت لا تتذكرين ولكنك عندما كنت صغيرة، كنت على وشك القتل على يد أحد هؤلاء المتوحشين من جبل الكرمل.

ابتسمت تيريسا على نحو غريب، وخلال ثانية، استنشقت من جديد رطوبة الركن المظلم من سلم منزلها بالقرب من ممشى سان خوان ولاحظت العبق المفقود ورائحة الأسيتون النفاذة التى تتخلل ثياب الفتى ويده القابضة بتقتير على ضفائر شعرها وهو يجبرها أن تدير وجهها ببطء وأن تنطق لأكثر من مرة هذه الكلمة الغريبة: قولى ثابسترا[1]، انطقى! ثابسترا.

– بل أتذكر يا أمى

إذًا، فعلى الأقل، يرافقك لويس.

قلت لك إننى لست فى حاجة إلى رفقة.

عادت لتبتسم وذهبت للجلوس بجانب والدتها واحتضنت منكبيها بذراعيها وقالت: كل ذلك كان يحدث فيما سبق عندما كانت الأشياء تسير بشكل سيئ فى العالم أجمع ولم أزل طفلة خائفة ولكن كل شيء تغير الآن ولم يعد هناك وجود لمشردين فى جبل الكرمل. ثم أعطتها قبلة فى صدغها جعلتها تفهم من خلالها أنها فى جميع الأحوال سوف تفعل ما تريد.

– سأذهب وحدي، قالتها وهى تنظر إلى والدتها بعينين ما بين مبتسمتين وعنيدتين، تنمان عن وجود شيء فى هذا الأمر كله أكثر من مجرد نزوة بسيطة لطفلة مدللة. فبينما كانت تعانى من مشاكل مع الشرطة وعلى وشك أن تُطرد من الجامعة منذ ثمانية أشهر،

---

(١) كلمة تشير إلى أن هناك من يحمل أو يشهر أسلحة فى تهديد لمواطنين عزل.

تلقت والدتها نفس نظرتها الآن. ومثلما قالت لها فيما مضى، قالت لها الآن وهى يعتريها القلق: يا ابنتي، أنت تشبهين جدك المسكين، وهى مثلما كانت من قبل والآن مخطئة.

عندما جاء والدها ليصطحبها، نهضت السيدة سرات وقالت لتيريسا:

– أتمنى ألا ترتكبى أية حماقة وأن تعودى إلى بلانس فى الحال، وضعى هذه الثياب فى الصوان. ثم فتحت باب غرفة ماروخا وألقت نظرة على الفتاة وقالت للممرضة: إلى اللقاء، ثم عادت لتغلقه وقالت لابنتها: وافينى بكل الأخبار وهاتفيني... إلى اللقاء وأحسنى التصرف. دخلت تيريسا غرفة ماروخا ووضعت الثياب فى الصوان. ابتسمت الممرضة لها وقالت: هى ليست فى حاجة إلى هذه الثياب. فأجابتها تيريسا: إنها ثياب والدتي، واقتربت من مقدمة الفراش حيث ظلت ماروخا بلا حراك وعيناها مغمضتان فى إصرار عنيد ومقطبة جبينها، فلا أحد يعلم بأية فكرة أو رؤية ينشغل بالها، وقالت تيريسا لنفسها: لابد أن يراها. من الضرورى أن يراها. لاحظت فراغا مرعبا كلما نظرت إلى ذلك الوجه ذى الزرقة الضاربة إلى السواد. وفى هذين الجفنين الشمعيين وجبينها المقطب والمتألم والمثقل بصوت أو رؤية معينة داخلية وشفتيها المضغوطتين والرماديتين، كانت تبحث تيريسا بلا جدوى وخلال ساعات وبعيدا عن علامات العذرية المفقودة أو علامات الحب والموت، عن علامات أخرى لابد أن تميز هذه الخادمة لكونها اخترقت مناطق مجهولة من المستقبل وتعرف من خلالها لماذا يتقدمها دائما هذا المخلوق الغريب البائس الذى يعيش الحياة على نحو أسرع وأعمق وأكثر شغفا منها... ثم قالت فجأة وهى تنظر إلى الممرضة: من الممكن أن يأتى صديق لزيارتها؟

فى همس مخدر حدثتها الممرضة الميورقية بطريقة مهنية كالحمامة:

– لا يريد الطبيب أن يحضر إلى الغرفة أكثر من شخصين، وبعد لحظة من الصمت، استأنفت قائلة: طبعا، من الممكن ولكن للحظات... من هو الصديق؟

– خطيبها.

نظرت الممرضة إلى أسفل حيث كانت جواربها البيضاء تبدى سمنة ساقيها.

فتيات رقيقات ناعسات

يخرجن من السيارات

ويناديننى

بدرو ساليناس[١]

قادت سيارتها الفلورايد ببطء حتى قمة جبل الكرمل واستنبطت أثناء سيرها شخصية مجهولة الهوية لطيفة وغامضة (يغطى شعرها الأشقر وشاح أحمر وتحتمى عيناها الزرقاوان خلف عدسات نظارة الشمس) وتأملت عند المنعطف المجاور لمدخل حديقة جويل الجانبى بجانب كوتونلينجو، مجموعة من التماثيل الغريبة تتوسط الميدان المشمس الذى يلعب فيه الأطفال كرة القدم حيث توجد بقايا مازالت قائمة ومهينة (فى وضع الثبات) لفرقة موسيقى عسكرية؛ طبلتان قديمتان وبوق منبعج، طالما عزفت دون انقطاع وعلى وتيرة واحدة نداء نوبة الصحيان وسط هذا المكان الموحش، كالمكفوفين أو كالكثيرين ممن يؤدون فى نهاية الأمر عملهم، مصدر رزقهم. كانوا شبابا بالغى النحافة يرتدون بنطلونات واسعة تربطها أحزمة بلاستيكية وقمصان المليشيات الخالية من الألوان وتطيع رؤوسهم الحليقة والمرفوعة الأوامر الصادرة إليهم عن بعد على نحو عسكرى مثير للشفقة. لم تستغرق سوى مجرد لحظة أو إشارة أو غمزة من الشمس تنعكس فوق الصفيح المصقول للبوق المنبعج أو رعشة غريبة تتخلل ذبذبات الطبلتين الحزينة، ولكنها بدت لها كافية وهيأتها مقدما للمضى قدما نحو الوعد القديم الغامض: «من الآن فصاعدا...»

---

(١) كاتب إسبانى .

ثم أكملت سيرها حتى قمة الكرمل. كان أول شيء أدركته، فقط عندما توقفت بسيارتها بالقرب من ورشة للدراجات النارية وشاهدت الأطفال يلعبون شبه عرايا وبعض المتطفلين يلتفون حولها، إنها كان لابد أن تترك السيارة بأسفل وتصعد سيرا على قدميها كي لا تلفت الانتباه. صارت أشعة الشمس عمودية ولم يُلاحظ مرور نسمة هواء واحدة ومما تسمعه بدا لها وكأنها تسمع عزف البوق والطبول قادما من جميع الأنحاء.

بدا مشهد «الفتاة والسيارة» غير الواقعي لطيفا، وسرعان ما تلاشى بين الجفون كأنه حلم يقظة: لم يشاهدها الأطفال الذين شكلوا دائرة حولها وهى تخرج من السيارة فى ثوبها الوردى الجميل عارى الكتفين فحسب، وإنما أيضا بعض سيدات الجوار من مداخل بيوتهن. بدت تائهة للحظة ثم توجهت إلى أحد الأطفال وقالت له: اسمع، أتعرف شابا يدعى مانولو؟ جاءت لها الإجابة من أمام باب مخبز مع ضحكتين عاليتين أو إيماءتين أذابتهما أشعة الشمس لسيدتين بدينتين وشابتين، تحميان أعينهما من الشمس بكفيهما، حين قالت إحداهما: «هنا، حضرتك، فى الورشة» ونظراتها المتجهمة ناشبة فى منكبى الفتاة العاريتين، ولكن الطفل أشار لها نحو نهاية الطريق بجانب كنيسة صغيرة وقال لها: «لا إنه عند النافورة». شكرته تيريسا ثم واصلت سيرها مسبوقة بحملة من الأطفال المتطفلين على نمط الطبول والبوق. وعند مرورها أمام حانة ديليثياس، تناهت إلى مسامعها كلمات غزل غير بريئة لم تستطع فظاظتها مع ذلك أن تقضى على نغمتها الناعية الحزينة ورأت عند الباب شابين فى قميصهما يستند كل واحد منهما بذراعه إلى كتف الآخر بينما يتابعانها بنظراتهما. ورأت تيريسا مجموعة أخرى من الأطفال بعيدا حول النافورة لا يكاد يُرى من خلالهم سوى البريق النحاسى لجزء من ظهر عار ومبتل ومنحن تحت المياه المتدفقة. كل الرؤوس تتجه نحو رأس واحدة وهى تتقدم ببطء وتحل الوشاح المعقود أسفل ذقنها (أما نظارة الشمس فلم يخطر ببالها أن تنزعها)، فظهر بريق شعرها المسترسل المهتز الذهبي. وفى خطى كثيرة وسريعة، أحاط الأطفال جانبيها بينما تهتز أذرعهم فى سعادة وتكاد تلتصق رؤوسهم بأطراف ثوبها الوردى المتطاير فى الهواء كأنها أسماك طائرة ترشدها أو تحرسها. وعندما توقفت تيريسا على بعد مترين من النافورة، برز متطوع صغير من حملة الأطفال وأشار بإصبعه وهو يقول: «هذا هو مانولو». لا يزال ظهره العارى

يترنح تحت تدفق الماء. فبدأ الأطفال يهزونه حيث بدا نائما أو مخدرا، بينما استحضرت تيريسا الليلة التى رأته فيها وهو ينحنى بجسده العارى فوق ماروخا فى الفراش كى يقبلها. لم ينصت لتحية تيريسا ولكن سمع سؤالها الخجول: أتتذكرني؟ فأدار وجهه كى يراها وظن للحظة: «لقد ماتت ماروخا». ظل يلقى بالماء على جسده، ثم انخرط فى الحديث معها قائلا: «نعم، أهلا». انزلق الماء دون أن يترك أثرا على جلده الذى صار مصقولا بفعل الشمس كقطعة حرير داكنة اللون ومغبرة ثم نفض رأسه لاهثا ورقبته القوية المشدودة وشعره المبتل. مد يده مقدرا المسافة بينه وبين الطفل الذى كان يحمل له القميص دون أن ينظر إليه وطلبه منه. كانت عضلات بطنه السمراء مشدودة كذيل سلحفاة تسجل إيقاع جهد أو نبضات قلب شبه حيوانية، لقد كان مذعورا.

- حضرتك هنا!

فقالت هي: أحمل لك أخبارا سيئة... عن ماروخا

- من؟

- ماروخا، خطيبتك.

كان مانولو ينظر إلى الشمس بعينين شبه مغمضتين ثم أمال رأسه و فرك رقبته، حاملا القميص فى يده ولم يرتده. أكان يريد أن يجفف نفسه أكثر أم أراد فحسب أن يبعث الحياة فى إحدى اللقطات المضيئه التى اعتاد أن يجمعها منذ صغره؟ من المحتمل أن يكون كذلك، وهذا لم يذهب سدى، فكل الفتيان ينظرون إليه كأنهم ينتظرون منه شيئا: حيث كان يلتقط حدسهم ضربا من المغامرة يحوم حول الفتى دائما حتى عندما كانوا يرونه وحيدا، ضجرا، هائما على وجهه، فى الحي. الآن بدأت الطبول والبوق بأسفل تعزف نداء عاما. وقال سريعا:

- ليس لى خطيبة ولا أعرف أية ماروخا.

فوجئت تيريسا للحظة ثم ابتسمت وقالت: «أنا أتفهم» بينما ظل المُرسى يفكر وعيناه ناشبتان فى الأرض وذراعاه فى خصره ونظر إلى الفتاة المرتدية النظارة السوداء. فدائما

ما كان يقلقه الحديث مع الأشخاص الذين يخفون أعينهم خلف نظارات سوداء. ثلاثة أيام فظيعة ويائسة مرت عليه دون أن يعلم إذا كان قد ترك ماروخا حية أم ميتة، والآن عليه أن يتحقق ذلك من خلال عدستي نظارة شمس ملعونتين. ثم صرخ قائلا للأطفال الذين ما لبثوا أن تحركوا: «هيا، أيها الفتيان، ابتعدوا عن هنا». عادت تيريسا لتقول له: «أنا أتفهم، لا تخش شيئا» وأضافت بنفس نبرة صوتها المقصودة: «كلنا معك، اهدأ، فأنا أعرف كل شيء». أدار ظهره لها وداعب فجأة شعر الطفل الأقرب إليه المجعد. فهو لايزال مذعورا: ماذا تنوى الشقراء؟ وماذا تعرف؟ فيما قالت هي: إن الأمر شديد الخطورة. لقد سقطت فى المرفأ وأصابت رأسها ومضت عليها عدة أيام فاقدة للوعي... لقد اتصلت بك...

شرع المُرسى فى ارتداء قميصه الأسود قصير الكمين للغاية والمطبوع على صدره دائرة تشير إلى الاتجاهات الأربعة الذى علا رأسه بينما كان يتحسس كميه. كان جانباه وداخل الساعد أميل إلى السمرة الشاحبة وشبه المضيئة. سألها فى هدوء الآن: سقطت! أين؟ لكن، فجأة، خمدت عزيمتها وبدأت تتحدث عن شيء آخر:»...إنه ذنبي، فى الواقع، ذنبى وحدى لأننى لو لم أهدها الصندل ولو لم أتعجلها... فهى فى غاية اللطف. أنت تعرفها...»

– أين هي؟ فى المنزل؟

– لا، هنا فى أحد المستشفيات، يا لها من كارثة. فكرت فى إخبارك وفى أنك سوف ترغب فى رؤيتها...

– بالطبع

– هل ستذهب الآن؟

تقدم بضع خطوات نحو الطريق، وتفرق الأطفال المحتشدون، ثم مر بجانب تيريسا وتوقف. فهو لا يزال لا يفهم شيئا البتة. رأى سيارتها الرياضية واقفة على بعد حوالى خمسين مترا ومحاطة بالعيون المتطفلة (بعيدا عن مرأى روسا – برهة كافية لتناول كأس فيرموت فى حانة ديليثياس– كان هناك أيضا برناردو بفضوله الشبيه بفضول القرود

المهين تماما يبدى إعجابه بهيئة السيارة البراقة) وعلى مسافة أبعد قليلا وقف أخوه عند باب الورشة متأهبا لإغلاقها، وفكر قائلا: الآن؟ أليس لدينا متسع من الوقت؟

– إذا أردت من الممكن أن أرافقك. اقترحت عليه تيريسا ذلك وهى تقف بجواره.

– ألن أتسبب لك فى أى ضيق؟

– أوه! مطلقا. فلقد خصصت يومى كله لذلك. شاب صوتها شيء فى غاية الخصوصية لم يمر على الشاب القادم من الجنوب عندما أضافت قائلة: تستطيع أن تقول إنى وحدى فى برشلونة وهذه هى المرة الأولى التى أكون فيها وحدى فى فترة الإجازات، ولكى تواجه رعدة عاطفية غامضة خفية قالت: آه! كنت فيما قبل غارقة فى بحر من السعادة، أما الآن، لا أعرف... كل شيء يبدو مبتذلا. كما أننى أفكر فى ماروخا.

كانت تفوح من مقاعد السيارة رائحة فى عذوبة حلواء من الكريمة، وببساطة تلاشى برناردو المسكين عندما تحرك ليفسح مجالا لمانولو كى يمر ودار برهة حول الفلورايد عن بعد، كذئب عجوز وهرم يحوم حول القطيع الذى لم يعد قادرا على افتراسه. أغلق المُرسى باب السيارة على نحو سيئ (كما كان يخشى أن يفعل) وأخرق بدا لها فاتِنا على عكس ما كان يظن، ثم قالت وهى تنحنى نحوه فاحتك كتفها المصقول بذقنه كى تعيد فتح باب السيارة: «اتركه لي، لا تقلق»، وأغلقته بدفعة واحدة، وقالت: «هكذا، أرأيت؟ بقوة». بدأت السيارة تتحرك ويركض الأطفال خلفها حتى وصلت إلى أول منعطف على الطريق. حينها، توقفوا كى يتابعوها بعيونهم بينما تنعطف ببطء نحو أسفل الطريق.

وقبيل وصولها إلى حديقة جويل، كانت تيريسا قد روت له حادثة سقوط ماروخا على سلم المرفأ وكيف وُجدت فى فراشها اليوم التالى وهى فاقدة للوعى بعد مرور خمس عشرة ساعة على وقوع الحادثة. وتحفظت على أن تقول له فيما بعد إنها تعرف أنه كان مع ماروخا فى نفس الليلة. كان ينصت إليها، وهو ينظر أمامه معبرا عن إحساسه بخطورة الموقف وواضعا ذراعيه على صدره. كل ذلك بدا معقدا بما يكفي. أغلق عينيه وتذكر مرة أخرى ماروخا، وهى تدخل الغرفة بنظرتها المحمومة والغافلة، وهى تسير بلا قوى، فكانت مصابة بالضرر بداخلها وبالتالى لا ذنب عليه فيما حدث لها. ما لم يكن يفهمه هو

كيف قامت تيريسا وصديقها بدعوة الخادمة لنزهتهما فى القارب، ولماذا لم يجبراها على العودة إلى المنزل بعد سقوطها (الأمر واضح: لسبب ما، ربما الإهمال. لقد تسببا فى إضرار ماروخا) وتذكر ما قاله لها أكثر من مرة: «يا لك من غبية، دائما ما يخدعونك» وشعر من جديد بالشفقة تجاهها وفى نفس الوقت بالراحة حيث إنه ظن عندما تركها فى الفراش فى نفس الليلة أنها قد ماتت. فى ذلك الحين، كانت تيريسا تقود السيارة وهى تتحلى بفكرة أسطورية لطيفة، بدءا من يديها حول عجلة القيادة وجميع الطقوس المطلوبة فى هذه اللحظة والرفقة ومنظر المدينة العام اللطيف، وصولا إلى قدميها، فكرة تنم عن شعور حميم بالرضا فى كل حركة، بصرير الإطارات، بمنحنيات الطريق، ودون أن تدرى زادت سرعتها. كان مانولو منتبها إلى الطريق وإلى وجه تيريسا، فعند رؤيتها هكذا وجها لوجه، بدأ الشاب الجنوبى يخلط من جديد أوراق مجموعته الرائعة من الصور الضاربة إلى الزرقة: الحادثة، تيريسا المجروحة، السيارة المحترقة، إنقاذه لها... ثم قالت هي:

– أنت صامت للغاية. متأثر بما حدث لماروخا، أليس كذلك؟

– بلى.

مرّا معا بالميدان، حيث لا تزال الفرقة الموسيقية المنهزمة تعزف تحت أشعة الشمس. اندهشت تيريسا قائلة:

– انظر، يا للروعة. يعجبنى حيك كثيرا. لماذا يعزفون؟ ومن هم؟

نظر إليها الفتى بطرف عينه، وقال: مصابون بالتهاب سحائي. أبناء الزهرى والجوع وكل ذلك. إنهم من هنا. من الكوتونلينجو. بؤساء.

– آه

– كيف عرفت حضرتك... كيف عرفت أنى أقطن هنا؟

– من ماروخا. فأنا أعرف عنكما منذ وقت طويل... أعرف أشياء كثيرة عنكما... قل لي، لمَاذا قلت قبل قليل إنكما لستما مخطوبين؟

– لأنها الحقيقة... فالأشياء لا تكون أحيانا كما تبدو. فأنا لست مرتبطا بأحد، لم أكن قط. لا يمكن. أنا لا أعرف ما قد حكته لك ولكن نحن... أصدقاء فحسب.

انتهزت تيريسا الطريق المستقيم والمستوى كى تنظر إلى الفتى، وقد انتقلت إلى السرعة الثالثة، وقالت وهى تضغط على بدالة السرعة إلى أقصى حد: «إنى أفهم ذلك»، فارتد مانولو إلى الوراء، وظن هو: فتاة عصرية، نعم يا سيدي، بثقافة مختلفة ولكن ما قاله فعلا كان: «أصدقاء فحسب. فهذا أمر شائع بين شباب اليوم». قالت تيريسا: لا تُخف شيئا يا رجل، فأنا أعرف كل شيء كما قلت لك. ثم قرر المُرسى تغيير الموضوع فقال: إذًا فماروخا فى حالة خطيرة؟

– لا أعرف ماذا أقول لك. فهى فاقدة للوعى ولكن أعتقد أنها تعانى كثيرا...

لابد أن يكون كذلك، لأن أثر دخولهما الغرفة (حيث خرجت الممرضة وهى تقول إن إجراء بعض الاتصالات ورؤية ماروخا منهكة وشاحبة للغاية) كان تأثيره أقوى كثيرا مما هو مفترض. فهناك أنبوب مطاطى صغير يخرج من أنفها ومثبت على جبينها بقطعة مستطيلة من شريط لاصق ممتد على الوسادة بملقط فى نهايته. لا تعلوها مسحة الموت فحسب، بل أيضا آثار التعذيب والإهانة، ثم بعد ذلك كله، منسية كأنها قد أمضت سنين هناك. يا له من مرض غريب؟ ماذا يكون قد حدث لها؟ بالفعل كانت تعانى (يكفى أن ترى جبينها المقطب)، ولكنها كانت تبدو قبل أن تمر بتجربة المعاناة والنسيان وقبل أن تصبح فتاة حزينة غير مضيئة وحتى قبل أن تدرك أنها لن تصير شيئا أو شخصا أبدا، كما لو أن هناك شيئا مفزعا ومجهولا قد أصابها بضرب من الصمم. ها هى هناك ممددة، مقلصة فى صمتها، غير مؤذية وهشة، تتصبب وتتصبب عرقا شاحبا باردا، لا تبدو على اتصال بأى شيء، حتى بذلك الغد المرتجف الذى كانت تحلم به لهما أو حتى بالأمل أو الحب أو حتى معه (وتساءلت: هل أحبها يوما ما؟ فلم يبق شيء من أى نوع يحمل لها الوفاء، فكم مرة قد صفعها فى هذا الفراش؟).

فوجئ، وهو جالس فى المقعد، بيديه تداعبان يد ماروخا، وأحس بحرارة فى صدره ثم لاحظ بقعة وردية وعطرة قد انتقلت من مكانها إليه: كانت جونلة تيريسا. مكث صامتا

لفترة طويلة، حتى سألته تيريسا بصوت منخفض: لم لا تحاول التواصل معها؟ أغمض عينيه وللحظة تراءى له هذا الرأس المشعث الرطب، ولكن غارقا فى ظهر وسادة أخرى، وأنصت إلى خرير الأمواج وهى تهدهد الأجساد المتصلة: «ماروخيتا، فتاتي... ماذا فعلوا بك؟». حينئذ، شعر بيد تيريسا وهى تربت على كتفه، فخشى أن يؤدى به الحنان أو التعاطف فى نهاية اللعبة إلى الإضرار به. فتحكم فى انفعالاته الأولية بعد أن ظل قامعا نوبة من الغضب طوال ثلاثة أيام بسبب شعوره بالخوف وتأنيب الضمير.

أما تيريسا التى جلست خلفه فى هدوء واستندت بظهرها إلى الباب، رأته وهو ينهض بغتة وينقض عليها بعنف، فسألته: ما بك؟ ورأت فى عينيه ذلك القرار الذى يسبق مشادات الأوباش: فقبل أن يقبض على ذراعها بيده القوية، فرك كف يده فى ملابسه بصبر نافد، وتنفس بعمق، حتى صارت الاتجاهات الأربعة ممتدة على صدره، واتسع لها الوقت كى تتذكر وتسترجع صيف طفولتها الغائم، عندما وضعها ابن لاجئ حرب فى أسفل ركن السلم، وضربها على رأسها بيده، وآلمها حتى تمكنت من الهرب. فأثناء فعله هذا، استنشقت رائحة عرق جلد الفتى الفاتر الشبيهة برائحة اللوز المر وقد اختلطت برائحة عطرها، فملأت المكان كله فجأة وأحاطتهما.

لم يكن يبعد عن وجهها سوى بمسافة شبر وعلى الرغم من ذلك لم يرها جيدا، لكنه سمعها وهى تصرخ عندما ظل يهزها وهو ممسك بذراعها، ويقول لها: لماذا لم تخبرينى قبل ذلك؟ قولى لماذا؟ ولماذا لم تذهبا بها فى الحال إلى الطبيب؟ لم أردتها أن تبقى معك فى القارب بحق الجحيم؟ أجيبيني. نظرت تيريسا إليه فى دهشة، وهى تقول: «من فضلك، أنت تؤلمني...» وأمسكت بيدها من وراء ظهرها مقبض الباب، وهى تقول له: «من فضلك لا تصرخ ولنخرج من هنا...» ولكنها لم تستطع أن تتحرك أو أن تفعل شيئا سوى أن تحاول احتواء هذا الاندفاع اللاعقلاني. بدت مفزوعة ومفتونة بمنظر وجهه، بهذه البقعة السمراء من جلده التى تتلألأ بداخلها أسنانه البيضاء، بالعينين الغاضبتين، بخصلة الشعر السوداء المنسدلة على جبينه، وبكلماته البذيئة ولعناته المطلقة على نحو غير معقول.

ظل يقترب منها أكثر فأكثر، حتى رأت فجأة يدها قد حطت على دائرة الاتجاهات الأربعة على صدره دون أن تحاول أن تدفع أو تكبح تقدم صدره نحوها، بل ببساطة حطت هناك كما لو أنها ترتاح، وقالت: «اهدأ، أرجوك. فماروخا مازالت فى حالة خطيرة...»

منذ هذه اللحظة، لم تعد تسمع ما كان يقوله وصارت المشاجرة جارفة: «ماذا تفعلين بحق الجحيم وأنت تقحمين نفسك دائما بين أرجل أصدقائك عند ذلك المدخل؟، هيا قولي!» وكان أول شيء فعلته هو إخراجه من الغرفة، فلقد استطاعت أن تفتح الباب قليلا، واقتربت منه كي تحركه من مكانه، ولكن عندما مال جسده عند الخروج، فقدت توازنها ولبث كلاهما محاصرا للحظة بين وجهى الباب دون أن يتمكنا من القيام بأية خطوة إلى الأمام أو إلى الخلف ومطوقين بموجة زرقاء من اللوز. فصرخت قائلة: « دعني، هل أنت مجنون؟» كانت تصارع كما لو كانت فى كابوس، وتشعر بارتباك من صوته الحانق واحتدام أسئلته غير المفهومة التى توجه الاتهام والتى لم يمليها عليه حبه المفترض لماروخا وإنما غضبه وسخطه. فمن الممكن إدراك ذلك حتى وسط هذا الاحتدام المتصاعد الذى يتصارعان فيه. ولكن كيف له أن يعرف هو؟ فأى صلات لديه تجعله على علم بلقاءاتها بعامل يعمل فى مصنع والد لويس ترياس، خاصة فى أوقات الإهمال وعدم المسئولية؟ فالاحترام والخوف والتمسك اللافت بالأخلاق وكل ما استشعرت فيه من ذلك كان اكتشافا جديدا. شعرت بألم فى ذراعها، وبدأت عيناها تمتلئان بدموع عذبة لم يكن ليتخيل عذوبتها أبدا. فأسندت– وقد استسلمت وخارت قواها تماما – رأسها على صدر الفتى عندما فُتح باب غرفة الاستراحة، فجأة، وظهرت الممرضة التى لم يعبر وجهها عن أية مفاجأة وهى تتجه نحوها وتقول بصوت منخفض كأنها تتحدث إلى نفسها: «ما يجعل هذا الأمر كبيرا؟ الطبيب لا يريد فضائح».

فابتعدا عن بعضهما البعض فى عجلة وبقى الثلاثة فى الصالة الصغيرة. التفتت الممرضة إلى تيريسا، وهمست لها: «لا شيء». بدأ مانولو يسير فى الغرفة من جانب إلى آخر كحيوان داخل قفص، وينظر إلى كل شيء كما لو كان يبحث عن شيء ليحطمه. فضرب بيديه الجدران وقطع الأثاث بينما ظل يذكر اسم الله والشيطان بصوت منخفض، والممرضة تتبعه محاولة أن تمسكه دون جدوى. كان من المحتمل أن ينتهى كل شيء

على نحو أشد ابتذالا ومهانة له (كيف كان سينتهى مشهد الاحتيال دون اعتذارات أو دون سخف) لأنه، على نحو غير متوقع وبسبب واحدة من ضربات الحظ التى أحيانا يكافئ فيها القدر الأشخاص المنعمين بالخيال والجسارة، يختلط الحب بالدماء، خليطًا له قدرة وحضور مطلقان: فعندما ضرب النافذة بقبضة يده، أثناء احتداده الباهر فى اللحظة التى همهم فيها باسم ماروخا كأنه يحتضر، أصاب نفسه بقطع بين مفاصل أصابعه، فتدفق كل من الدم والصمت فى سكون. أمرت الممرضة التى أمسكت بمعصم الفتى تيريسا بطريقة ركيكة ولكن عملية: «أحضرى الكحول والشاش من الغرفة» وبسرعة البرق أطاعتها الشقراء المذهولة. كان موضع القطع سيئا للغاية كى يلتئم. ترك الفتى نفسه يهوى فى المقعد، مهزوما بالظروف، جديرا بالاحترام، شاحبا، غائبا، للمداواة وتضميد يده.

اكتفت الممرضة الميورقية بالنظر طويلا إلى عينى الفتى كى تفهم ما حدث، كما أن لديها أفكارًا وصورًا عن المحبين الفقراء الذين يتمردون على الألم والموت، فوبخته قائلة: «أحمق. أرأيت ماذا جنيت؟» إنى أفهم ما تمر به ولكنك لن تكسب شيئا إذا أصبحت يائسا وأحدثت إزعاجا. وفضلا عن احتقارها للموقف (فهى تفتقد الخيال التشكيلي، كانت حساسة ومولعة بالموسيقى فحسب، مثل أصدقائها الأطباء، كما أنها لم تلفها من قبل رائحة اللوز المر الحقيقية)، أخطأت أيضا عندما أضافت قائلة وهى تنظر إلى تيريسا فى هذه اللحظة: «الأسوأ أن يُلقى باللوم على من لا يستحقه. إن المصائب تحدث بالطريقة الأكثر غرابة، فخطيبتك سقطت وحدها ولم يكن فى وسع أحد حينها أن يعرف ما سوف يحدث لها... أحمق وفى غاية الحمق. إذا فعلت ذلك مرة أخرى، سوف أبلغ الطبيب ولن أسمح لك أن تأتى لترى خطيبتك. ألا تعرف أنها مريضة للغاية؟ وها أنت جرحت نفسك فى النهاية، فلماذا؟» ضمدت جرحه واتجهت نحو غرفة ماروخا وقبل أن تفتح الباب، التفتت إليه وهى تقول: «مفهوم؟ سنرى كيف ستحسن التصرف...»

– أنا آسف. لم أرغب فى فعل ذلك.

ثم اشتركت تيريسا فى الحوار وقالت بينما يرتعش صوتها وأعصابها:

– لم يحدث شيء.

غمزت لها الممرضة بعينها لتعلمها أنها فهمتها تماما. فمن لا يدرى ما هو الحب؟ ثم دخلت الغرفة.

أصلحت تيريسا ثيابها وشعرها، بينما لبث مانولو فى مقعده حزينا ورأسه بين يديه وهمس لها: اعذريني. لم أكن أريد أن اصرخ فى وجهك. فالذنب ذنبي. هل تسببت لك فى أى ضرر؟

– لا...

– إذا كنت قد فعلت، فسامحيني.

جلست تيريسا أمامه، وأخرجت سجائرها ويدها ترتجف: لا تُبالِ، أتريد أن تدخن؟ وعرض عليها إشعال السيجارة، فدنت منه. ثم سمعا الضجيج الصادر عن عربة معدنية تمر فى الرواق. كانت ساعة الغداء، فنهض وهو يهمهم:»حسنا، حسنا». ورأت تيريسا يده المضمدة فسألته: أتؤلمك؟ ورد عليها: «لا. هيا بنا». خرج مسرعا وتبعته تيريسا، وأثناء هبوطه السلم طاف حول منكبيه جو من الحزن، وفى الطريق عندما تقدمت هى (دون أن تبعد عينيها عنه كأنها فى انتظار رؤيته وهو منهار، من لحظة إلى أخرى، بسبب الشفقة) كى تفتح باب السيارة، توقف هو على الرصيف، فسألته تيريسا: أتشعر بسوء؟

– اركبى أنت أولا.

قالت تيريسا: أعرف أنه ليس الوقت المناسب، كما أننا لا يعرف بعضنا بعضا جيدا. ولكنى أريد أن أتحدث معك عن شيء يا مانولو. هل أُقِلّك إلى جبل الكرمل؟

أدارت المحرك، ثم نظرت إليه، وقالت: «إنه أمر يتعلق بك وبماروخا». جلس مانولو بجانبها وأغلق الباب هذه المرة بثقة وبقوة. كان على وشك قول شيء عندما سبقته قائلة له: أنا لا أقصد لقاءاتكما فى المنزل (نظر إليها شزْرًا ومتفاجئا). فأنا على علم بذلك منذ وقت طويل حينما اكتشفته ولكن اهدأ. فلا أحد فى المنزل يعلم ذلك، بل أقصد الأمر الآخر.

– أنت تعرف.

لم يكن المُرسى يعرف شيئا، ولكن كانت لديه حاسة جيدة تجاه الخطر، فاقترح عليها: «دعيه ليوم آخر. إذا يناسبك، سوف نتحدث عنه فى وقت آخر».

فانطلقت السيارة محدثة هزة عنيفة. وقالت تيريسا وهى تنتقل إلى السرعة الثانية:

– حدثتنى ماروخا عنك كثيرا، ولكن إياك أن تغضب منها...

– كانت تتحدث عنك أيضا، ألا تصدقين؟ فنعرف أنك طالبة ثورية وما إلى ذلك... أيمكنك الإسراع؟ فأنا على عجلة من أمرى.

– أريدك أن تعلم ما كنت أفعله فى ذلك المصنع فى كوتونلينجو. فأنت مخطئ، إذا اعتقدت أنى ذهبت للاستمتاع...

– لا يعنينى هذا الأمر. فسوف تشرحينه لى فى يوم آخر.

كان ينظر بعينيه تجاه أسفل إلى ركبتى الشابة الجامعية البرونزيتين. وسألته: هل ستأتى غدا لترى ماروخا؟ وبعد لحظة صمت، قال: لا أعرف. أتأتين كل يوم؟

– بالطبع.

وعند دخولهما الطريق المؤدى إلى الكرمل، نظرت تيريسا إلى يد الفتى المضمدة وعادت لتسأله: «أتؤلمك؟». وهذه المرة لم يستطع أن يتحكم فى نفسه وقال: «نعم. الآن بدأت تؤلمني».

تتنبأ بالأجساد!

كحشرة جريحة.

تتنبأ ببؤرة الدم وتراقب

الأفخاذ التى تؤخر الفجر.

بابلو نيرودا

بقيت ماروخا فى حالتها الراهنة، تعلوها مسحة لون باهت، ولكنها تتنفس بانتظام. تتناول غذاءها فى شكله السائل المكون من الحساء ومرق اللحم كل ثلاث ساعات. تظل نائمة باستمرار، ويبدو على وجهها من حين لآخر تعبير بالضيق إثر شعورها بألم مؤقت. وشيئا فشيئا بدت تحركات السيد والسيدة سرات حول فراش المريضة تكتسب القدرة على التحمل المتوقع والمنتظم والخالى من الحيوية. فرغبتهما الشديدة فى رؤيتها معافاة هى جُل ما يستطيعان فعله من أجلها.

أما تيريسا، فتذهب كل يوم إلى المستشفى عادة فى أولى ساعات فترة الظهيرة بأناقة حادة وقلقة، مرتدية زى القرصان (قميص وبنطلون أسودان ومنديل أحمر حول رأسها). تجُول فى الممرات وهى تتوارى خلف نظارتها الشمسية وتتأبط كتابا ويبدو على هيئتها ثبات هادئ وعلى وجهها لمحة حزن تضفى على جمالها النضر وقارا وتجعلها تعيش لأول مرة صيف المدينة الحار من خلال شعور جسدها الجديد والغريب، على نحو مستمر وجسور، كما تعيش بعض الكائنات شبابها: كما لو كان شيئا لا ينفد أبدا. فلم يعد يشغلها أنها قد اضطرت لقطع عطلتها التى تقضيها فى الساحل. أما والدها، الذى تناوب مهام عمله مع عطلات نهاية الأسبوع، كان يتردد على المستشفى فى الصباح، ودائما فى

عجلة، حيث يستطيع التحدث مع الطبيب سلاديتش، بدلا من رؤية الفتاة. ولم يكن يرى تيريسا سوى خلال أوقات الطعام. زارت السيدة سرات ماروخا مرتين خلال الأسبوع الأول، إحداهما كانت بصحبة شقيقتها إيسابيل وقد اعتراها القلق الذى لم يكن مرده حالة المريضة فحسب، بل أيضا حالة ابنتها (يغلبها النعاس ويحيط السواد بعينيها وترتدى ملابس غريبة: يا لك من عنيدة! فى نهاية الأمر، قمت بما تبغين واشتريت هذا البنطلون الشنيع) وأرادت أن تصطحبها معها إلى بلانس، ولكنها أجابتها: «لا تصرى يا أماه. فأنا لا أفكر فى الانتقال من هنا حتى تتحسن حالة ماروخا».

من جانبه، صار خطيب الخادمة، المندفع الحزين، يظهر كل يوم فى المستشفى عند الساعة الخامسة عصرا، على نحو ينم عن الصمت والوقار، ويتملكه شعور عام بالمرارة والذنب. كانت عندما تراه فى طريقه إلى دخول المستشفى، تغلق تيريسا الكتاب الذى تقرؤه كى لا تفوت تفصيلة واحدة من هذا المشهد اليومى والموحي، حيث يدنو الفتى فى احترام من الفراش ويمكث واقفا بلا حركة عند مقدمة الفراش فى غاية الحزن، ثم تحين اللحظة التى يرفع فيها يده المجروحة (وضمادتها المنتفخة والضخمة التى يزاول أحد ما تغييرها له كل يوم، وساما على حسه البطولى فى الحياة)، فتتدلى خائرة القوى وبلا حياة بجانب وسادة ماروخا، كأنها ضحية لعذاب الحب، وعلى مقربة من وجه المريضة الشاحب الذى من الممكن أن نقول إنه يبدو فى حالة تضامن معها. يتباين لون البشرة السمراء مع الضمادة الناصعة البياض التى تتعدد ثناياها حتى المرفق. أما غير ذلك، فوجهه الأسمر الكتيم وهيئته الثابتة وهو يمكث واقفا ينظر إلى ماروخا (لمدة تصل إلى أربع أو خمس دقائق) لا يعكسان شيئا سوى نبل ملامحه. بعد ذلك، يبتعد الفتى عن الفراش فى بطء، وهو يحك إبهاميه بجيوب بنطلونه الخلفية وعلى نحو ينم عن اهتمامه بوضع المريضة: كان يتحدث قليلا وبصوت منخفض للغاية، موجها جميع أسئلته إلى الممرضة، وقلما ينظر إلى تيريسا. وفى نهاية الزيارة يحييها ويمضي. ولم يختلف سلوكه على مدار أيام. بينما ظلت تيريسا سرات تسأله إلى أى مدى لايزال يعتبرها المسئولة عما حدث لماروخا.

وفى مساء أحد الأيام، وصل مانولو قبل وصول تيريسا. فدخل الغرفة دون أن ينظر إلى أحد، وهو يهمهم بصوت أجش: «مرحبا» (هناك أناس جالسون فى الغرفة استطاع

أن يميز من بينهم، على نحو مبهم، وجه سيدة أنيقة قد سكتت ولم تكمل حديثها عندما رأته وهو يدخل)، ثم ظل متسمرا أمام فراش ماروخا. وبعد برهة، شعر بخطوات قادمة من خلفه وتناهى إليه صوت الممرضة وهى تبلغ أحد الموجودين بنوبات القيء التى تعانى منها ماروخا عادة فى فترة الصباح عند تغيير وضعها، وسمعها وهى تقول بصوت منخفض:«إنه خطيبها». ثم استشعر حضورا ناعما وعطرا بجانبه ورنين أساور، فالتزم الصمت طويلا دون أن يتحرك أو يقول شيئا، بل ظل ينظر إلى وجه ماروخا (ورأى فى تشاؤم أنه بدأ يتحول كل يوم إلى قناع)، فى الوقت الذى لاحظ فيه ناحية الجانب الأيسر من الوجه بانطباع لطيف يصدر عن عينين نسائيتين شغوفتين به، ربما هما للسيدة التى ميزها عند دخوله وظن أنها والدة تيريسا. ولكن عندما أدار رأسه، كانت السيدة قد رحلت والممرضة جالسة بجانب النافذة. وفى هذه اللحظة، دخلت تيريسا.

– مرحبا، ما لبثت أمى أن سألتنى عنك.

– لقد أخبرتها بذلك – قالت الممرضة.

فالتفت مانولو، ينظر إليها فى ريبة ودهشة، وكأنه أراد أن يبرز تعجبه من كون الممرضات يتحدثن. بعد ذلك اتجه نحو الباب. رافقته تيريسا إلى الممر وسألته إذا كان مازال غاضبا منها.

– أنا؟ لمَ؟ – أجابها، وهو يتكئ بيده المضمدة على الباب بالقرب من خصلات شعر الفتاة الشقراء التى التقطت من جديد رائحة اللوز المر.

– لا أعرف... هذا ما يبدو – قالت تيريسا –. أريدك أن تعرف أن لا ذنب لأحد فيما حدث لماروخا، وبالأخص أنا... وعن هذا كنت أريد أن أتحدث معك لأنك أيضا لابد أن تشرح بعض الأمور. من الممكن أن أُقِلّك إلى المنزل، إذا أردت.

بدا الفتى معارضا، فأجابها:

– شكرا. الأمر أنني... لست ذاهبا إلى المنزل. دعى هذا الأمر ليوم آخر. – وبعد أن فكر مليا لثوان، قال بصوت فاتر: اليوم لديّ شيء مهم كى أفعله.

وبعد مضيّ أسبوع على مفاجأة حمام الدم، فاجأهم الخطيب المنكوب، مرة أخرى، بظهوره غير المتوقع، مرتديا حلة فضية لامعة رائعة، جديدة، حياكتها ممتازة، وواضعا ساعده فى عصابة. وبينما ظل واقفا بهيئته المحترمة والمتأنقة أمام ماروخا، مكثفا من سلوك شبه دينى (فزياراته بدأت حقا تأخذ طابع زيارات الضريح)، لم ترفع تيريسا عينيها عنه. فيا لإيحاء وضع منكبيه الجديد، ويا لغموض ظهره المستقيم والقاسي، ودون شك صاحب الهندام الجميل، فضلا عن ساعده الموضوع فى العصابة: هل تسبب الجرح له فى ضرر؟ وفى التو، تعرفت تيريسا على المنديل الحريرى ذى اللون البُنّى مثل الشوكولاتة الذى كان يدعم يده به: إنه منديل قد أهدته تيريسا إلى ماروخا منذ زمن. واعترى تيريسا قلق لا تعرف سببه عند رؤيته للمرة الأولى مهندما على هذا النحو الجيد، فثمة علاقة جديدة وغريبة بين قيمة هذا الجسد الرصين الرائع والحُلة الممتازة التى تكسوه، وكأنّ بين هذين العنصرين – اللذين حتى اليوم كانا غير معروفين لبعضهما البعض – اتفاقا لم يلبث أن تم وكان، بمعنى ما، يشكل تهديدا وينذر بالخطر. فالمغامرة صارت وشيكة. وسألته وهى تشير إلى ساعده فى العصابة:

– ماذا حدث؟ لقد خرجت دينا للحظة...

– من تكون دينا؟

– الممرضة. لن تتأخر فى العودة. لم لا تريها يدك؟

– إنه لا شيء. فأنا أكثر راحة هكذا.

جلس برهة بجانب تيريسا يتصفح بعض المجلات. وعلى الرغم من أنه اليوم بات ينتظر ويرغب فى أن تعرض عليه تيريسا سرات أن تقله إلى المنزل بسيارتها، فهى لم ترافقه حتى إلى الباب. وظن أنها ربما لديها التزام ما. ثم جاء اليوم التالي، وخرجا معا من المستشفى وبما أن الوقت لايزال مبكرا وهو ليس لديه ما يفعله («أنا فى إجازة» كما قال)، فعرض على الفتاة أن يتوقفا فى الطريق ويتناولا مشروبا مرطبا. لم تَبْدُ مهتمةً ولكنها لم ترفض أيضا. وكانت تحبذ مكانا فى جبل الكرمل مما أدهش مانولو، فقال لها:

– لا يوجد هناك مكان لائق. لكنى أعرف مكانا قريبا سوف نمر عليه فى طريقنا.

تذكر «التبت» أسفل الكرمل، مكان عصرى (على هيئة كوخ، به عروش مطلية بالورنيش، وسقف من القش، وضوء داخل الزجاجات) على سطح برج قديم يرجع إلى الثلاثينيات وتحول إلى نُزل ومطعم وبه مكبرات صوت تصدر موسيقى ناعمة. مكان هادئ ومنعزل أعجبت به تيريسا. جلسا على منضدة بجانب شرفة تطل على الطريق وترى من خلالها حدائق ومزارع الخروب وبركة مياه تومض فى الشمس كالمرآة ومزرعة قديمة زحفت عليها المدينة منذ أعوام. وعند الغسق، تأملا السماء وهى تضيء فوق حديقة جويل خلف جبل يُعرف بالصلبان الثلاثة. مكثت تيريسا لوقت طويل تتأمل المشهد وهى ترتفق الشرفة بجانب مانولو.

– يعجبنى حيك

– أترين ملاعب التنس هناك أسفل، بين الأشجار؟ – قال مانولو وهو يشير بيده – هذا هو نادى التنس «لا سالود». منذ الصغر، عملت فى هذه الملاعب، أقوم بجمع الكرات مثل سانتانا بطل التنس... إلى حيث لم تأت مطلقا من قبل.

– لا تظن ذلك – قالت وهى تنظر إلى ربوة الكرمل – فهذا كله يبدو لى مألوفا إلى حد ما. فأنا لم أقطن دائما فى سان خيرباسيو. اعتدنا أن نعيش أثناء طفولتى فى ميدان خوانش فى جراثيا. كان هذا بعد الحرب. أتذكر أننى كنت أهرب كى أخرج للعب فى الشارع، وكان هناك صبية أشرار ولكننى لم أكن أخشاهم قط. – بدأت تضحك – كانت أمى منزعجة من جرأتي، ومازالت هكذا حتى الآن، فهى ترى أنى لم أتغير على الإطلاق. ففى يوم من تلك الأيام، هناك، وعلى سلم بيتنا، سحبنى من ضفائرى صبى من الكرمل، اختطفنى واحتجزنى خلف الباب لفترة حتى أنطقنى كلمة السر. –نظرت إلى الفتى بابتسامة لطيفة – من يدرى، ربما هذا الصبى كان أنت.

– لا – ضحك – لم أكن أعيش حينئذ فى برشلونة.

– من أين أنت يا مانولو؟

– من مالقة... قولى لي، هل والداك من قطلونيا؟

–والداى نعم. أمى نصف ميورقية ولكنها نشأت هنا.

– أنجلس؟ هيا تعالي. ماذا تشربين؟

– لا أعرف، مشروب الروم والكوكاكولا، حدثنى عن ماروخا، عنكما... أنت تعمل فى مصنع، أليس كذلك؟

جلسا أمام بعضهما البعض. ارتسم على وجه مانولو تعبير بالدهشة، وقال:

– أنا؟ أعمل فى مصنع؟ لا، على جثتي! من قال لك هذا الكلام الفارغ؟

وعلى الرغم من ابتسامته، فإن الأمر لم يعجبه. شعرت تيريسا بالحيرة وأجابته:

– ماروخا

– لن أفهم هذه الفتاة أبدا. أعمل فى مشروع أخى لبيع وشراء السيارات. لقد مضت الأيام الصعبة.

بدا واضحا أنه يكذب واعتقدت تيريسا أنها تعرف السبب وظنت: «زيادة فى الاحتياط! يا للسخافة. فأنا لم أعطه أى دافع كى لا يثق بي، بل على العكس،» ولكننى قد وعدت بألا أتدخل فى هذا الأمر وأحترم سرية موقف خطيب ماروخا. ولكن ما افترضته كان شيئا آخر.

– هل تتذكر – شرعت فى العودة بظهرها إلى الوراء، وهى جالسه، وتلبس نظارة الشمس – أن اليوم الأول الذى ذهبنا فيه إلى المستشفى معا وعند الخروج قلت لك فى السيارة أننى أريد التحدث معك بخصوص أمر مهم...؟ حسنا، لقد فكرت وأرى أنه لا يروقك أن أتدخل فى أمورك.

– هذا صحيح – أجابها بلا تفكير لأنه استشعر الخطر.

– ولكن ثمة شيء لابد أن تعرفه، شيء له علاقة بما قلته لى عندما أردت أن تخنقنى فى الغرفة... – بدأت تضحك وهو تبعها – وجهت لى اللوم بسبب علاقتى بفتى يعمل فى مصنع والد لويس ترياس، فى البويبلو سيكو. كيف عرفت ذلك؟

– آه، وقال وهو يبتسم: إنه سر.

– حسنا، لا أتعجب من ذلك، نظرا للصلات التى لديك... ولكن أنت لا تعرف الحقيقة كاملة، ولو عرفت لما تكلمت معى على هذا النحو. ولابد أن أوضحها لك، فلا يعجبنى سوء الفهم. كل ما قد رووه لك عنى وعن ذلك الفتى وعن لقاءاتنا لا يعنينى تماما فى الحقيقة. لكن يوجد الكثير من المتعصبين هنا يتنكرون برداء التقدميين، يا مانولو، وأنا أحذرك منهم. فأنا أرافق من يروقني، ولا يوجد سبب يجعلنى أضع أحدا فى الحسبان.

– أنا لم أسألكِ عن شيء البتة يا تيريسا. إنه لذيذ مشروب الروم والكوكاكولا.

– من ناحية أخرى – أضافت الفتاة الجامعية وهى تحنى رأسها إلى أسفل– أنا قررت أن هذا الأمر قد انتهى. فلم أعد أرغب فى معرفة أى شيء عن تفاهات الكلية... أو عن أحد. فهناك أشياء أهم لإنجازها. – عند قولها هذا، نظرت إليه فى جدية بالغة وتضامن معه، وهى تقرب الكأس من شفتيها:

– ألا تعتقد هذا؟

– حسنا، حسب الحالة.

– كانت لى تجربة، مؤخرا، بأشياء ليس من السهل نسيانها فى الحياة. تكاد عينا تيريسا تبدوان من خلف نظارة الشمس. وسرعان ما ارتسم على شفتيها تعبير مهين، وهمست «لو أنى أحكى لك...» وقال لها «احكي، احكي». «لا أفضل التحدث عن ذلك».

تناولت مشروبها فى بطء شديد، بينما يراقبها مانولو فى صمت. بعد ذلك، أخرجت علبة سجائرها الشيستر ودخنا. وأضافت تيريسا أن مجرد التفكير فى ذلك الأمر يثير اشمئزازها، وأنه سوف تمر سنوات قبل أن يعود أحد ليلمسها مرة أخرى. وقالت بنبرة

حازمة: «ومع ذلك، فهو قرار شخصي يخصني ولا يغير من قيمة الأشياء، ثم أكملت بقولها: إن ذلك الفتى الذي يبدو أنه يشغلك كثيرا، الفتى الذي كنت أواعده عند بوابة المكتبات، قد قدمه لي لويس ترياس. وهو يدعى رافا، إنه لطيف للغاية...» منذ هذه اللحظة، ركز مانولو كل اهتمامه وحاول جاهدا أن يخترق بطريقة ما علاقة الحب والكره الغريبة التي تضفر كلمات الفتاة الجامعية. بالإضافة إلى أن الرواية كانت معقدة: فهي، كما تقول، قد قررت أن تروي له كل ذلك، ليس لأنه سيئ الظن بل حتى لا يصدق، كما فعل آخرون، أنها صارت صديقة رافا كي تتبادل معه القبلات. وأضافت أن هذا الفتى كان مكلفًا أو شيئًا من هذا القبيل بالقسم الثقافي للشركة ومسئولا عن المكتبة ومديرا لفرقة مسرحية. المسكين لم يكن لديه استعداد كبير ولكن كانت لديه إرادة قوية، بل وفي سمات معينة كان أكثر جدارة من بعض الطلاب الذين ينتمون إلى العائلات الكبيرة الذين تعرفهم هي. واستأنفت قائلة: «نصحناه أنا وإحدى صديقاتي أن يحاول تقديم عمل ما لبريخت. هل تعرف بريخت؟». وقال هو: «أكملي، أكملي». أكدت تيريسا على أن الفتى اهتم كثيرا بالفكرة، ولكن لم يكن من السهل تطبيقها. أعارته كتبا ومقالات وصارا يتقابلان باستمرار ويتحدثان عن هذه الأشياء. وفي يوم ما، خطرت لها فكرة تنظيم حلقات دراسية بعد البروفات. على سبيل المثال، إذا تعذر تقديم عمل لبريخت، فعلى الأقل يمكن قراءته (لا أدري إذا كنت تعرف ما يدور مع بريخت هنا...)، ولكن مانولو ظل مصرا: «أكملي، أكملي». ثم أضافت أن كل ذلك، مع الأسف، لم ينته إلى شيء، جزء من ذلك يرجع إلى لويس ترياس الذي فقد حماسه في التو واللحظة...«ولكن هذه قصة أخرى. بدت فكرتي جيدة لكن ربما غير ناضجة. فانتقدني، لو تتصور، ومع ذلك مازلت أرى أن تقديم بريخت في الجامعة ليس له أي قدر من الأهمية، بل على العكس في مركز للعمال، فلك أن تتصور...» وسألها مانولو:

– نعم، لكن ماذا حدث مع رافا؟

– لا شيء. كنا نلتقي كل أسبوعين، قلت لك إنه شخص بشوش ولطيف. لكن الأقاويل شاعت وهذا ما أريد الوصول إليه: إن الشيء الوحيد ذا الأهمية في هذه القصة برمتها هو المحاولة على الرغم من أنها لم تنجح، أما ما بيني وبين الفتى فلم يكن شيئا وهذا ما لا أفهمه. دعنا من ذلك. وصاحت في حنق: لم نكن حتى لنعرض مستقبل الثورة للخطر. ما أسخف ذلك التزمت المذهبي. ألا ترى ذلك؟

ظل مانولو يفكر ثم أطفأ السيجارة فى منفضة السجائر، وقال:

– ما أريد قوله هو أنه يجب ألاّ نخلط الأمور. فهناك وقت لجميع الأشياء. أليس كذلك؟ فسنرى إذًا، ماذا كنت تريدين أنت من رافا؟ أن تعيريه كتبا أم تقبليه؟

ظلت تيريسا للحظة فى صمت، ثم شرعت فى الضحك، وقالت:

– يا للحمق! أيهمك كثيرا ما أفعل أم ما لم أعد أفعله؟ لأننى لابد أن أعرف، أيها الفتى، حتى أنت كان لابد أن تعرف! – أغمضت عينيها، برهة، ولكن ظلت شفتاها تبتسمان – ربما حتى يوجد تقرير مفصل عنى وعن عشاقي. سيكون شيئا ممتعا! ولتعذرنى على إصراري، فلقد أثرت انتباهى للغاية: كيف عرفت ذلك؟

ابتسم مانولو ابتسامة خفيفة وقال لنفسه: «إلى الأمام، يا أيها الفتى». رفع يده من فوق المنضدة فى بطء ونزع عنها نظارة الشمس وثبت عينيه فى عينيها وهو يقول:

– كل شيء يُعرف فى هذه الحياة. لقد كنت أقرب إليك مما تتصورين. أنت أفضل هكذا.

– أنا أتحدث بجدية يا مانولو.

– وأنا كذلك. ولكن دعينا من هذا كله.

– فذلك اليوم فى المستشفى، تعاملت معى كما يفعل ضابط شرطة حقيقي. انظر، لاتزال هناك علامة على ذراعى نتيجة لما حدث، فلتقر بذلك. نعم هو ذلك.

ولأنه لم يكن لديه رد فعل أفضل، فضل المُرسى أن يبتسم. تحدق فيه تيريسا بنظرها وهى تتقدم بوجهها نحوه وتقول:

– لماذا تتظاهر دائما بالبراءة؟ لا تخش شيئا يا رجل، فلن أسألك عن شيء قد يلزمك. فلنتحدث عن موضوع آخر، إذا أردت، عن عائلتك، أصدقائك...

عادت، مرة أخرى، لتسترخى فى المقعد ورفعت ذراعيها لتتمدد وهى تضحك فى شهوانية. هذه هى تيريسا، الفرحة، المرحة، الحقيقية، التى يسهل الوقوع فى حبها! هكذا

ظن هو وسعى لإرضائها بالحديث عن الحى الذى يقطنه حيث لم يتكهن بغموض الاهتمام الرائع الذى تخصه به الفتاة الآن باشتياقها إلى الحى فحسب، بل أيضا بضرب من الصراع الثقافى الذى لا يتعجب حتى مَن طبيعته. يرى فى عينيها الزرقاوين، العميقتين، الحالمتين، الواثقتين، نفس الضوء الصافي، المدهش لوقت الغروب قد عشش فيهما. فما هذه الظنون والآمال الغريبة، الأحاسيس والمشاعر التى تطفو من داخل هذا المجرى الأزرق الدافئ المحيط بنظرتها؟ أنصتت إليه للحظات كتلميذة مجتهدة، متكئة بذراعيها على المنضدة وبذقنها على يديها، وللحظات أخرى، بهذا الخمود الوردى النابع من تشتتها العاطفى وهى تحاول أن تستحضر على نحو عابر ما حدث. ودائما، تثبت نظرتها فيه فى تعبير هادئ وصاف، فتعبيرها التأملي والمفتون، إلى حد ما، يتناقض مع بساطة الموضوع وبعض الأشياء غير المتناسقة التى تصدر (بالطبع بشكل غير إرادي) من الفتى المُرسي: لا تبحث تيريسا عن المعنى الحقيقى للكلمات، إنما عما وراءها أو حولها، عن فحوى ما فى داخلها أو عن نسيج رقيق من الأفكار والأحاسيس التى هى نفسها، ودون أن تعلم، تربطها بأسئلتها. هى تبحث عن توافق بينهما يزداد ويثقل في الهواء، فى المساحة الصغيرة (والآخذة فى الصغر) التى تفصل بينهما فوق المنضدة وهو سينتهى بأن يحيط رأسيهما كسحابة صغيرة غير مرئية. لديها العديد من الأسئلة ولكنها حساسة للغاية، لا تبحث عن الحقيقة، إنما بالأحرى عن مناخ مثالى للحقيقة؛ لا تنصاع للرغبة فى المعرفة، وإنما لرغبة قوية فى التأكيد: لأن تيريسا سرات بالفعل تعرف وقد كونت فكرتها وحكمها العذب عن حياة شاب كهذا فى ضواحى المدينة. لذا فالعديد من آرائها التى تعبر عنها فى حماسة (على أية حال، لابد أن تكون رائعة حياة «الشيوعيين»[1] وحتى ممتعة فى حى مثل حيك، أثناء ليالى الصيف، مع الرفقاء، وحوارات المقاهي...) تستحق أن ينكرها المُرسى على نحو فورى وقاطع لكونها ملتبسة («ما هذه الأسماك الملونة ولا حتى ليالى صيفية، لا يوجد هناك سوى الضجر والمأساة!»).

---

(١) تنطق كلمة "شيوعى" المذكورة هنا باسم مشابه لكلمة "سمك" أيضًا فى اللغة الإسبانية.

كانت هذه العُصابة التى تغطى عينيها خير عون للفتى القادم من الجنوب، على الرغم من محاولته النبيلة لإرضاء هذا الحنين للحى الذى يشع من أسئلة الفتاة الحالمة، فى الأوقات التى يظهر فيها الوجه الحقيقى والبذيء لحيّه ولبيته ويظهر فجأة نسب دمه السيئ وصوته المنهك من الادعاء ليهدد بزوال هذه السحابة المفعمة باللحظات العاطفية التى تطوّقهما. ومع ذلك، كل هذا لم يمنعهما من قضاء وقت جميل: كانت ركبتاه تحتكان بركبتيها من وقت لآخر أسفل المنضدة، وجعل هذا الاحتكاك البسيط العالم يبدو، بغتة، أكثر واقعية وتناسقا مما كانت تحاول الكلمات أن تعبر عنه. وتركا أنفسهما رويدا وفى سرور ينهزمان بالصمت، حتى مرت أكثر من ساعتين دون أن يدركا ذلك. ها هى تيريسا، الآن، تشرب الجن المثلج. واستعاد المُرسى ثقته بنفسه الجسورة، فليس هناك ما يدعو للشك فى الرجوع إلى موضوع المؤامرة، إلى هذه الأرضية الزلقة دوما، حتى طرأ حدث على نحو غير متوقع، فالحظ النحس يلازمه (هذه المرة على هيئة فنجان قهوة مغلية متزن على يد النادل المرتجفة) كى تطرح من جديد قضية الشخصية الغريبة التى تبدو تيريسا سرات مصممة على أن تلبسها له والتى تتكشف من خلالها، فى نهاية الأمر، الطبيعة السياسية لصراع الفتاة الجامعية الثقافي. ما حدث هو أن النادل (رجل عجوز، أجهدته وعكات الشيخوخة وطعناتها، يتحدث إلى نفسه، سريع الغضب، ولكنه لطيف، فى رأى تيريسا) عند مروره بجانب مانولو، تعثر فانقلب فنجان القهوة على حلتة الجديدة. لسع السائل المغلى رقبته وقفز الفتى فى المقعد.

– حيوان! ألا تحس؟ وقال العجوز:

– آي، أي، إنى أسقط...

بالفعل لا يزال يتعثر، ولولا أن مانولو شده من ياقة القميص، لوقع بأنفه على حافة المنضدة. وصاح المُرسي:

– سحقا أيها العجوز! أنت تمازحني. انظر، ماذا فعلت بحلتي، اللعنة على موتاك!

لعن المُرسى جميع أقارب العجوز. فلقد ثار ولم يستطع أن يصون لسانه حتى إنه نسى تيريسا، وفقط عندما انتهى من قائمة السباب الطويلة (بينما تراجع الرجل المسكين

وهو يهمهم ويحك ركبته بعد أن أفسد سترة الفتى بماء الصودا)، نظر إلى تيريسا وفوجئ بتعبير اللوم على وجهها. قال وهو يجفف طية صدر السترة بالمنديل:

– ماذا؟ ألستُ على حق؟ إذا كانت يداه ترتجفان فليتقاعد. هذا رأيي. انظرى ماذا فعل بى الأحمق. وأكد كذبا وعلى نحو وقح أنه لا يقول ذلك بسبب الحلة ولكن بسبب ما حدث نفسه...

نظرت هى إلى أسفل، وهى تحمل بيدها الكأس وتحرك ما فيها، وتنظر إليه نظرة محبطة بشدة. وأضاف المُرسى رغم شكه فى أن ما سيقوله جاء متأخرا:

– فى النهاية، ما حدث تم نسيانه.

– هذا الرجل يعمل، قالت الطالبة التقدمية.

– حسنا – وأجابها لص الدراجات النارية – كلنا نعمل.

– بالضبط يا مانولو. لو كان شخصًا آخر لما اندهشت، ولكن، أنت، نعم.

– لماذا؟

– لأنك تفتعل الأمر.

– فلينتبه قليلا. – استمر مانولو فى تجفيف سترته بالمنديل ولم ينظر إلى تيريسا –.

– من الممكن أن أكون سيدا. خاصة، عندما تُساء معاملتي، عندما يحرقونني... من الممكن أن أكون قد مللت.

– أعتقد أنك لا تتحدث بجدية – صار صوت تيريسا تربويا – لا تقل لى إنك لا تؤمن ببعض المبادئ، فلا أظنك غير مبال بالناس إلى هذا الحد. أنا أتفق معك على أنه ذنب العجوز، ولكن هناك العديد من الطرق لفعل الأشياء و...

نظر إليها، وهى تقترب بوجهها مقطب الجبين من المنضدة (تقطيبتان ناعمتان، غير دقيقتين، ما لبثتا أن ارتسمتا وظهرتا، فجأة، فى أعلى جبهتها السمراء، فمنحتاها قوة

عقلية ناعمة أو قدرة ربما لم تكن لديها: مميزات الجمال). تمكنت تيريسا أيضا، بسبب قرب وجهها أن تقدر جمال فم الفتى الحزين وحدة قوس الشفتين. وقاطعها مانولو ليقول:

– لحظة من فضلك، ودعينا نفكر. أنا لا أعرف سوى طريقة واحدة لفعل الأشياء وهى أن أفعلها جيدا. وهذا الرجل لطخ سترتى وأحرق جلدى ولكن النساء أحيانا، معذرة، أنتن النساء لا تبالين. فأنا أعرف أنه عجوز مسكين، لكن ألا يستطيع الفرد أن يشكو؟

– «فى أحيان معينة، لا – وتدفقت فى نهاية هاتين الشفتين الحمراوين رغوة وردية مشتاقة حيث تختنق دائما ودائما المؤامرة، صورة طالما كانت تبدو كاشفة للفتى المدعى – عندما يكون الفرد على مستوى عال من الوعي، فلا، يا مانولو».

شعر فتى الكرمل بقشعريرة بداخله وكان أول ما حدّث به نفسه هو: يا لسوء ما كنت أرتديه حتى اليوم؟ وبعد ذلك: ترى أهذا هو الموضوع!، إلى أين سنصل يا مانوليتو؟ فلتلزم الصمت وادعاء البراءة، بينما تتحدث له تيريسا:

– ... بل إنه من هنا حيث علينا أن نبدأ، من المعاملة، فهذه هى الأشياء التى حقا تهم وليس أن تترك فتاة نفسها كى يقبلها أحد عند الباب. ولكن ما يزال، هناك، الكثير ليُنجز فى هذا البلد، فلا يزال كل شيء مقلوبا، حتى فى المعارضة، كما تقول ماريا أولاليا...

– من؟

– صديقة من الكلية.

قرر مانولو، وقد أصابه السأم من الحديث فى الموضوع المفضل للفتاة الجامعية، أنه قد حانت اللحظة التى يبدأ فيها بإستخدام قدراته الغريبة:

– دعينا لا نتحدث عن ذلك، إنه أمر خطير. فما رأيك؟

الموسيقى المفعمة بالوعود الغامضة هى التى جعلته يتجرأ ليمد يده نحو يد تيريسا التى كانت تتسلل فى طيات مفرش المنضدة، بينما تفكر دون أن تنبس ببنت شفة. أصغى إليّ يا تيريسا، إذا ما أصبحنا أصدقاء فلا بد أن تفعلى لى صنيعا: نترك هذا الموضوع

على الأقل الآن. وإذا استطعت، فيما بعد، سوف أحكى لك بعض الأشياء عنى ستدهشك... أما فى هذه اللحظة، فلا تسألينى عن شيء ولا تذكرينى بشيء، هل تفهمينني؟ لا أستطيع أن أوضح أكثر من ذلك.

نظرت إليه برهة وعادت لتنظر إلى أسفل وهى تهمس: إنى أفهمك. بدت عذبة فى خضوعها («الطاعة تناسبهن جميعا - ظن هو - ولكن بالأخص الصغيرات») ثم أضافت: «أنت على حق. لا تعر اهتماما لما أقول».

ابتسم مانولو بحنان وأمسك بيدها، وقال:

- خذى الأمر ببساطة. فأنت مندفعة للغاية يا تيريسا.

- أنا متوترة ولا أعرف ماذا يحدث لى هذه الأيام. حدثت أمور كثيرة على دفعة واحدة، ولا أفعل شيئا سوى التفكير والتفكير والتفكير...

- ترهقين نفسك فى المذاكرة.

- أنا لا أذاكر شيئا البتة.

- كم تبلغين؟

- سوف أتم التاسعة عشرة. والآن لا تسألنى إذا كنت أرافق أحدا لأننى لا أطيق هذا السؤال. - وأضافت وهى تبتسم - أعتقد أنى سأطلب كأسا أخرى من الجن ربما ينعشني. بالمناسبة، كم أنت أنيق اليوم، لم؟ تبدو حسن المظهر ولكن الجينز الأزرق والقمصان الرياضية تجعلك تبدو أفضل.

- لابد من التنويع، أليس كذلك؟ ولكن إذا كنت تقولين... أتذكر أني، فى مرة من المرات، فى ماربيبا، أمسكت يد سيدة ألمانية دون رغبتها فى البحر، فى مياه البحر... وقاطعته تيريسا:

- هل ذهبت إلى كوستا دى السول؟

– لفترة. أما الألمانية...

– للعمل؟ فى أى مجال؟

– لفترات قصيرة. وسرقت الألمانية قميصى الوردي.

– سرقت قميصك؟

– نعم، أقسم لك – قال وهو يضحك – فى البحر. قميص فاتح اللون. قالت إنه يروقها، ثم أعطتنى مائة بيزيتة مقابله. لم يكن يساوى شيئا.

– الألمانية أم القميص؟

– القميص، بالطبع.

فضحكا الاثنان. تمددت تيريسا إلى الوراء فى المقعد ونظرت إلى الفتى، برهة، ثم قالت دون خجل وبصوت ساخر:

– لديّ إحساس مسبق أنه كلما صار تفكيرى أقل، فى يوم ما، سأرتكب خطأ فظيعا. أعرف أكثر من صديقة فى الكلية قد حدث معها ذلك... ألم يقولوا لك قط إننا نحن الفتيات الجامعيات متحررات للغاية؟ – سعادة غريبة تسري، الآن، فى عروقها وظنت، على نحو غامض، أن ما يحدث لها لم يفقد متعته بعد، فقلما كانت تثمل، ولكن لا شك أن هناك فرقا بين أن تثمل مع لويس ترياس وأن تثمل مع عامل كهذا، فبدأت تدرك –. ماذا؟ ألم يقولوا لك؟ الآن، أنت عرفت... – شرعت فى الضحك وغيرت من نبرتها – حسنا، لا تخجل. أنا أمزح.

«يا لمعرفتك القليلة بي؟ أنا لا أخجل من شيء»، هذا ما ظنه هو، أما ما قاله، كان:

– أتحاولين أن تبهريني، أيتها الفتاة الصغيرة، وتدّعين كونك مثقفة؟ – كان ارتباكها غريبا: فلقد أصيبت فى مقتل. أجبرت تيريسا نفسها على الابتسام، ثم أضاف هو: أنا لا أعرف إذا كنتن... ذلك، ما يبدو لى هو أنكن مثل الأخريات، عندما تكن مهتمات، ما أستطيع قوله هو أنكن فطنات للغاية. على العكس، انظرى إلى الحمقاء، ماروخا، لم يبق لديها حتى الوقت كى تحكى لك القصة كاملة. حمقاء ودون رفيق.

– من فضلك، لا تقل هذا عن ماروخا. نحن صديقتان مقربتان. ولكن لا تعتقد أنها حكت لى شيئا، هى لم تجرؤ على الحديث عما بينكما، كان عليّ، غالبا، أن أتحقق ذلك بنفسي. كنت أعرف أنكما تقضيان الليل معا فى غرفتها... هل قلت لكما شيئا قط؟ أخرى فى مكانى كانت ستصرخ بأعلى صوتها، أَقِرّ بذلك!... ولكن أفكارى واضحة، وأسعى إلى أن أكون مخلصة لها. – تنهدت، ونظرت إلى فتحة عنق فستانها وتركت خصلات شعرها تنسدل على وجهها ثم أبعدتها بهزة عنيفة من رأسها – لم تنكر أن ما حدث العام الماضى فى أكتوبر كان حلما.

– بلى، لم يكن سيئا. أراد مجددا أن يغير موضوع الحديث – إنه لذيذ مشروب الروم والكوكاكولا. أتريدين كأسا أخرى؟

– قل لى الحقيقة يا مانولو: هل كنت تحبها؟

– أتقصدين ماروخا؟ ألم تزل على قيد الحياة؟... حسنا، نعم، أحببنا بعضنا بعضا ولكن على طريقتنا. أردنا دائما أن نكون أحرارا، أفهمت؟

– إنها متيمة بك للغاية. هل تعرف ذلك؟

– لا داعى للمبالغة. فهى امرأة طيبة، المسكينة. لكن ما بيننا لم يكن أكثر من مضاجعة فى فراش. حسنا، لست مضطرا أن أشرح لك أشياء بعينها، فأنت امرأة.

– لا تخف من الكلمات يا رجل.

– أصغى إليّ، أنا شخص صريح للغاية. يروقنى أن أنجز حين يكون لابد من الإنجاز ولكن الآن لا تظنى أن هذا هو فحسب ما أبحث عنه فى المرأة... لا، على العكس. لقد عرفت فاسقات كثيرات يا تيريسا ولكن لم يرقنى قط أن أضيع وقتى معهن. – علت صوته نبرة تحذير، دون أن يدرك ذلك، عندما حاكى القديس فراى لويس–: ولكن فتاة فطنة، لا تخشى الحياة، مميزة ومثقفة هى كنز، وإذا أحبها شخص ما فهذا أغلى شيء يحظى به فى الحياة. هذه حقيقة كالشمس.

كان ينظر إلى عينى تيريسا، والليل يهبط، وتومض من خلفها، بعيدا عن الشرفة، فى الخلفية، أضواء المدينة. نظرت تيريسا إلى أسفل، وهى تتأمل واستعادت نظارتها الداكنة:

– لابد أن تعيرينى كتابا ما يا تيريسا – قال هو.

– حسنا بالطبع، متى شئت. – لم تُبدِ اهتماما كبيرا ونظرت إلى ساعتها – تأخر الوقت. فلنذهب؟ بما أنك قريب من منزلك، فسأتركك هنا. هل تمانع؟

– إذا لم يكن هناك حل آخر...

وقبل أن يفترقا بجانب السيارة، فى حيرة من أمرهما، إلى حد ما (مصافحة لفترة طويلة بالأيدى وصمت معبر)، غمرهما إحساس رقيق وخوَر فى القوى يأتى بعد حمام دافئ أو حفلة شبابية صاخبة وينبع من إحساس معين بعدم التوفيق فى تصفيف تسريحة الشعر أو فى موضوع المناقشة. «يا لها من حياة ضجرة، أليس كذلك؟ – قالت وهى تجلس أمام عجلة القيادة – أشتاق للبحر، فى هذا الجو الحار...». عندما انطلقت السيارة وعادت تيريسا لتنظر إلى الوراء كى تراه، لوّح مانولو بيده المضمدة فى حماسة.

لم يكن قط مسافرا

لكن جلده بات محترقا وقويا

وزعمه ركوب البحر غامضا:

كأنما قد ذهب إلى كوبا مثلا

وعاد ثريا.

ميجيل بارثيلو

أورتنسيا، هو الاسم وراء سر الضمادة البطولية، وتُعرف أكثر في الحى باسم الحقنة، وأيضا برائحة اللوز المر (رائحة الكراميل الطبية الآتية من الصيدلية حيث تعمل) التى تفوح من جيوب معطفها الأبيض.

– أيعجبك هكذا، يا مانولو؟

– بل لفيه أكثر وأكثر. فمن الممكن أن يتلوث الجرح...

اعتاد مانولو الذهاب كل يوم بعد تناول الغداء إلى المنزل كى تغير له ضمادة الجرح. هى ابنة أخت الكاردينال: فتاة صغيرة جادة، تبلغ من العمر خمسة عشر عاما، شاحبة، صامتة، متحفظة، عيناها زرقاوان، شعرها أشقر ذو شقرة مقيتة وباهتة. تتحدث قليلا وتتعثر كثيرا، تراقب الأشياء فى ريبة كما لو كانت تعانى من قصر نظر ودائما ما تسير وحدها. يرى الكاردينال أنها قد ورثت هذا الطابع الأخرق والطائش من والدتها ولكن لهاتين العينين المنطفئتين وهذا الشعر الذى يبدو اليوم جافا، غريبا، هادئا، جامدا كنبات الحرشف، بريقا بدا حقيقيا عما سبق رؤيته، كما اعتاد أن يقول عنها خالها: «ما زالت

تحتفظ بمسحة جمال مما كانت عليه فيما مضى»، حيث إن مانولو لم يعد يفعل شيئا، فى الآونة الأخيرة، سوى النظر إلى هذا الوجه دون أن يعرف ماذا يجذبه فيه حتى إنه فى يوم ما بينما كانت تضمد يده، اكتشف فجأة التشابه الكبير بينها وبين تيريسا سرات على نحو غريب ومثير للقلق. ما أثار فضوله هو أنه على الرغم من معرفته المسبقة بأورتنسيا، منذ وقت طويل، لم يلاحظ هذا التشابه على الأخرى، أى أنه كان من المنطقى أن تكون تيريسا هى من تذكره بابنة أخت الكاردينال. فلماذا لم يحدث ذلك؟

بدأ المُرسى يتردد على منزل الكاردينال عندما كانت أورتنسيا فى التاسعة من عمرها واعتاد أن يلعب معها فى حديقة المنزل ويأخذها للتنزه إلى حديقة جويل وركوب الدراجات المستأجرة. فهذه المهمة التى أخذها على عاتقه كاملة - والتى حولته، دون شك، إلى جليسة أطفال، كما جعلته فيما بعد لا يتردد فى سرقة جهاز الأسطوانات «البيك آب» وأول دراجة نارية عند اكتسابه عطف وثقة الكاردينال - طالما أدخلت السرور إلى نفس الفتاة الصغيرة، باستثناء اللحظات التى استغل فيها عمدا اللعب معها فى حضور خالها، نظرا إلى أنه كان يبالغ فى حرصه على تملق الرجل العجوز الذى يشبه النعجة الوحيدة وهى تشاهد كيف يكبر صغيرها، لذا كانت أورتنسيا تبكى فى النهاية. هل كان لها حينئذ أن تتصور توقه للتحليق أو أن تقرأ فى وجهه الخدع المستقبلية؟ ففى الصيف مثلا، اعتادا الاستحمام فى حوض السباحة الكائن فى نهاية الحديقة والذى بات اليوم جافا ومملوءا بقطع الحجارة والقماش المحروقة. كانت الفتاة الصغيرة تسعد للغاية عندما يصب مانولو دلاء من الماء فوق رأسها وعندما يرشان بعضهما البعض بالماء ويتشاجران على سبيل اللعب، وكم كان صديقها يبدو فى غاية الملاحة عندما يصطنع «الغرق». ولكن سرعان ما اعتاد خالها على حضور لحظات اللعب البريئة الممزوجة بزبد المياه ولفحات الشمس: اعتاد أن يراقبهما، فى صمت، من تراس الحديقة المتهالك، وهو جالس على مقعد هش من الصفصاف المجدول، برتقالى اللون، بحنين عينين كعينى راقص معتزل، ملتزم ومهذب، من خلال ضباب مضيء، يلتقط إشارات - إيماءة مليحة لحيوان سنوري، ومضة ناعمة أسفل الإبط، لمحة خاطفة لعضلة ظهر - معتبرا إياها فائقة الوصف من المقام العالى لمعلم الرقص الذى يتحقق أمجاد باقة تلاميذه اليانعة المستقبلية. وكعادته الحانية مع

الطفلة، بدأ مانولو بضمير معدوم يستغلها، مثلما تستغله هى كدمية قديمة أمام خالها حين ترغب فى الحصول على أخرى جديدة، فتبدو مندفعة ومنعزلة ويسمعها وهى تصرخ: «انظر، كاردينال، انظر!» ويراها تقفز برأسها فى المياه من فوق حاجز الحوض – بدا جسدها الرشيق والمصقول بلا حراك فى الهواء، لمدة ثوان، يلمع فى ضوء الشمس كوجه عملة – ثم يعود ليظهر بغتة ليمتطى ظهرها ويعانقها بشدة حتى يتسبب لها فى الشعور بألم، باحثا عن أطرافها ليدغدغها وممسكا إياها بأسنانه ليضايقها، يلتويان ويلهثان معا فيشكلان ألف شكل ووضع بذيء ولكنه بالطبع خال من الشهوانية. وفى قمة حماسه الجارف – دافعا الفتاة إلى ابتلاع الماء رغما عنها متسببا فى بكائها – تمكن أن يعيد عالمًا برمته كأنه صبية تتدلل فى جرأة، عالم بعيد وماجن للأبد مكرمة لشخص يحتضر هناك على بعد بضعة أمتار تحت جفنين عريضين يتظاهران بازدراء حلم مراهق متأخر (الحنين إلى تدفق نهر البلاتا، أشعة الشمس البراقة على الجلد اليافع، ضحكات سعيدة وبعيدة لصيف آخر ضائع فى الزمن)، لا يصغى الآن سوى لدقات احتضار قلبه الهرم المهجور، قلب الكاردينال، السيد العظيم الذى كان لابد أن يسلم المُرسى مفتاح المدينة والمستقبل.

– ابسط ذراعك هكذا. أتشعر بألم؟

– لا. لا...

ربما كان، منذ ذلك الوقت، عندما بدأت تعلو عينيها نظرة الحقد الباردة ويغطى شعرها الحزن. كانت تقطن مع خالها منذ ولادتها فى ذلك البرج القديم القابع عند منعطف الربوة ويكاد يُنتزع من الحي، وكلاهما يبدو أن أحدا لا يعرف عنهما شيئا. فهل هى حقا ابنة لأخت الكاردينال التى توفيت فى ربيع ١٩٤٣ فى المستشفى عند ولادتها؟ أم المؤكد، كما يدعى آخرون، هو أن والدتها قد هربت مع شاب من جليقية، الصديق المقرب للكاردينال، تاركة خلفها طفلة فى رعاية الأخير؟ ففى الحىّ الذى تنتشر فيه الدعابات كالغاز من الخصر إلى أسفل (كما يقول التعبير المفضل لعدة سنوات) نُسجت كل أنواع التكهنات وتفاقمت الأقاويل حتى بلغت مانولو. وكانوا يقولون له: «لا تحسن الظن بالأمور» فى حانة ديليثياس التى فى كثير من المظاهر لا تتعدى كونها حانة لرعاة المعز. كان مانولو يبلغ

من العمر، حينها، خمسة عشر عاما ويحب ادعاء البراءة أمام الكاردينال. وسأله في إحدى المناسبات: «هل عشت بالفعل في بوينس آيرس؟» فابتسم له العجوز، وأجابه بنعم. «وهل كنت عازف بيانو لكارلوس جارديل[1]؟»

أطرق الكاردينال الوقور واعترت ظهره رجفة خفيفة وقال: «ربما، ربما» (لا داعي لذكر أن الجزء المتعلق بجارديل كان مجرد إضافة من قبل الفتى إلى الملحمة التي تروي أن الشاب المنتسب إلى جليقية كان يعمل بائعا للعاديات وعازفا للبيانو في الأرجنتين). «وهل صحيح أيضا أنك جمعت أموالا طائلة واستمتعت بحياتك كثيرا؟ وأجابه الثعلب العجوز بصوت كاردينالي: «ليست كذبة يا بني». راق مانولو فيما مضى أن يستمع إليه وهو يتحدث، بينما يختلج وسط كلماته حول رقبته ذو اللونين الأحمر والأسود كطائر صغير حبيس: حنان مبهم نحو الأصدقاء الضائعين في ذاكرة الزمن، الذي لم يعرفهم تماما ولم يتفهمهم، الحنين وشعور غامض بالشجن ليس تجاه كل ما قد فعلناه فحسب، بل تجاه كل ما لم نفعله وربما لن نفعله أبدا. في بعض الأحيان، كان ذلك يضفي طابعا رسميا على نبرته، مثلما هي الحال في المظهر الذي يعرف كيف يكون راقيا ومتواضعا في آن. ربما من أجل ذلك، أطلقوا عليه لقب الكاردينال.

ولكن هذا فيما مضى. ففي الكرمل، مر الرجل العجوز بالعديد من المآزق ومرت عليه أوقات عصيبة قد تحتمل ليلا ولا تحتمل نهارا: أحيانا يُرى، أثناء الفجر، وهو يسير في طرقات الحي المؤدية إلى منزله، وملامحه لا تكاد تستبين، مهزوما، حزينا، فاقدا رونقه، متكئا على عصاه. لابد أن هذا، أيضا، ما كدر عيني أورتنسيا وجعلهما تفقدان بريقهما وتسهدان بيد الدهشة التي تعكسها الوجوه المختلفة دائما ولكن المتشابهة للغاية: وجوه تأتي لشراء شيء ما، تحدث ضجيجا، تضحك بينما تستمع هي إلى ضجيج الدراجات النارية من فراشها. كانت وجوها شابة وتافهة، ملائكة ليلية زائلة، تقتحم غرفتها وتبتسم

---

(١) كارلوس جارديل هو المغني وكاتب الأغاني والممثل وربما أبرز شخصية في تاريخ التانجو الأرجنتيني.

لها. وفى اليوم التالي، بينما لايزال خالها نائما تسير بأجسام باردة حيوانية، على نحو غريب ومباغت، بعد تناولها السريع للقهوة المعدة مسبقا فى المطبخ. أكان حينئذ عندما فقدت بريق عينيها وشعرها؟ ففى الثانية عشرة من عمرها، حين كانت لا تزال ترتدى القمصان الخشنة والأحذية التالفة، طرأ على جسدها نمو سريع وغريب وحاسم. كانت تذهب إلى مدرسة راهبات بشارع الإسكوريال اعتادت أن تُمضى فيها النهار كله وتتناول طعامها مقابل بيزيتة. وعند الغروب، لدى وصولها إلى المنزل، كانت على موعد مع أشياء جديدة مسروقة ومع لقاءات تصير أكثر سرية مع مرور الزمن. بات خالها يرسلها إلى الحديقة حيث كانت تهز كتفيها وتتنزه فى الدروب المصنوعة من الطوب مطموسة المعالم وبين الورود البرية التى تجهل أسماءها وتبتسم وتتحاور (عم؟ ومع من؟): كانت جذوة عينيها تلطف من تعاسة الحديقة المهجورة كلها وتعاسة الحى برمته فضلا عن شمس الجبل الحزينة والتى بلا جدوى ومن ورائها خلفية سماوية بهيجة، وأيضا حزن الضاحية اليومى جميعه. وفى أحد الأيام، رأت مانولو وهو يقترب من السور ممسكا بجهاز بيك آب ضخم ولكنها لم ترغب فى السماح له بالدخول. فسألها: «ألسنا أصدقاء يا أورتنسيا؟» وأجابته «ليس لى أصدقاء». عندئذ، نسج سريعا هذه الحكاية: أنه قد اشترى لها هذا الجهاز كى يهديها إياه من أجل أن يرقصا ويستمتعا معا طوال الحياة. وكانت إحدى حيله: أن يبدى أنه فى خدمتها بهدف تحقيق أهدافه، مرة أخرى - أما البريق الذى رآه فى عينيها ربما كان، كما يعتقد الآن، آخر بريق يتذكَّره -: فتحت له الفتاة باب السور وأقلته إلى حيث خالها وحينها، سمعته يقول: «هذا من أجلك أيها الكاردينال، فهل أعجبك؟» فمكثت شهرا دون أن توجه له كلمة واحدة. وبعد ذلك، فى بعض أوقات الشتاء، عندما كان يقضى كل فترات الظهيرة فى حانة ديليثياس يلعب الورق مع كبار السن بجانب المدفأة، كان يراها وهى تدخل وتتجه نحو الواجهة كى تطلب قهوة بحليب، ترتشفها ببطء شديد وهى واقفة تنظر إليه بعينيها الخاويتين، شبه المغمضتين الناشبتين فى منضدة القمار من فوق أطراف الفنجان (وهو يخشى أن ينتهى بها الحال وهى تحطمها فى الأرض فهذا ما اعتادت أن تفعله فى المنزل) ثم، فى نهاية الأمر، تدنو منه لتقول له: «أسرع، خالى يريد أن يراك»، وعند خروجهما معا إلى الشارع، تضيف قائلة: «هذا ليس صحيحا» ثم تركض

هاربة. وفى أحيان أخرى، عندما كان الأمر حقيقيا، لا تقوم سوى باتباعه بمسافة متر وهى تردد قائلة: «مانولو، متى ستأخذنى للتنزه بدراجتك النارية؟ وتركض معى وأحيط خصرك بذراعى بشدة وتلامس وجنتى ظهرك وأرى رابطة عنقك وهى تتطاير أمام عينى وشعرك فى الهواء؟ فيجيبها: «غدا»، ولكنه لم يف بهذا الوعد كذلك.

- إذا كانت الضمادة تؤلمك، فأخبرني.

- لا. لا. إنها جيدة.

لم يعتقد قط أنها قبيحة، ولكنه لم يدرك أيضا أنها كان من الممكن أن تكون جميلة أو على نحو ذلك. والآن، عرف تيريسا وأدرك الأمر: كانت أورتنسيا مثل الرسم الكروكيه، رسما غير مكتمل ومشوَّهًا لتيريسا، يكفى أن ينظر إليها بجفنين مواربين: فما كان يرى بينهما ويحاط بنور ضبابى هو صورة مهزوزة لشقراء جميلة، لوجه عذب أشبه بقط دون ملامح، شعره مسترسل، قمحى اللون (نعم، هى صورة تيريسا الموضوعة على المنضدة بجوار فراش ماروخا وهى تقف بجانب سيارتها)، صورة لظل وجه مطموس، شبحى تقريبا لهذه الشخصية الأخرى المشرقة المرحة التى تزدهر تلقائيا فى الأحياء الراقية والتي، لسبب ما هنا، فى الكرمل، لا يسعها الوقت أو الوسيلة كى تتحقق. إنها نسخة مجردة من الجميلة الجامعية، تقليد هجين، خال من الألوان، بصورة فاسدة أو ربما متدنية. فوجوده اليوم معها كان يماثل وجوده بجانب نبتة عطرية وطبية. لم تعجب مانولو حبات الكراميل التى تهديها إياه، بل شعور قديم بالذنب، متأصل فى ألعاب حوض السباحة المترعة بزبد المياه ولفحات الشمس، أو شعور برغبة فى التعويض يجعله مجبرا على أن يقبلها منها فى كل مرة تضمد ذراعه وهى تميل نحوه من شدة حرصها على عملها: على الرغم من أن عينيها تبدوان زرقاوين فى بعض الأوقات - حسب النور المنعكس على حدقتيهما -، بدت زرقتهما دائما غائمة وصدفية و زائلة.

- أتريد حبة كراميل؟

- حسنا.

ها هى قد أوشكت على الانتهاء من تضميد جرحه. كانا يجلسان إلى منضدة غرفة الطعام وبجوارهما حقيبتها المدرسية التى تستخدمها كحقيبة إسعافات. وللحظة، رفعت الفتاة عينيها ونظرت إليه: ينعم أنفها الرقيق الذى يشبه أنف تيريسا بحياة حالمة وغريبة، كما يجذب الانتباه إليها الوقار الصبيانى لوجنتيها العاليتين. قد ملأت الشمس الرواق القابع خلفها، والذى يؤدى إلى الحديقة المزروع بها شجرتا كافور وشجرة برتقال تطرح ثمرا صغيرا، مائلًا إلى الصفرة، لاذعا وشجرة كرز تزهر فى شهر فبراير. أما ما كان يروق مانولو دائما وللغاية هو برج الكاردينال، برج ضخم، هادئ، سقفه عال، به بعض الغرف المظلمة القليلة التهوية التى قلما تُستخدم وبعض الأدراج التى تُركت مفتوحة عن غير قصد ومازال يفوح منها رائحة بطانتها المخملية، الرائحة السرية للأغنياء التى لا يزال يتذكرها من قصر آل سالباتييرا فى رُنْدة. فى الطابق العلوي، توجد غرفة على جدرانها ورق حائط، إنها غرفة أورتنسيا. وفى وقت سابق، كان المنزل يعج بالمرايا، مرايا قذرة، قديمة، مضببة وبالستائر الثقيلة، والسجاجيد الصماء وأغراض للزينة مثيرة للفضول وقطع أثاث ثقيلة وقديمة من جميع الأنواع أخذت، منذ وقت، فى الاختفاء من هذا الجزء من المنزل، وأجهزة راديو للكاردينال فى جميع الغرف تقريبا، فضلا عن ماكينات الحلاقة والثلاجات وأجهزة الأسطوانات. أما حاليا، وبسبب بيعه دون شك لأشياء كثيرة وامتلاكه لأخرى تقوم بنفس الغرض منها، حيث لا تزال هناك أغراض معبأة ومغلفة وحقائب مفتوحة فى بعض الأركان، يعم المنزل إحساس بارد بما هو عارض ويعكس مظهر الرحيل الذى يسبق حالة الخلاء.

– «خذها بنفسك» – سمع ما قالته أورتنسيا له ودون أن تنظر إليه كعادتها دائما –، «إنها فى الجيب العلوي».

يبدو واضحا أن الكاردينال خبير بالأثاث. لم يستطع مانولو قط أن يعرف أين يحتفظ بالقطع التى لم يتمكن من بيعها ولكنه كان يشتبه فى إحدى الغرف الموجودة فى الجانب الخلفي، بأعلى المنزل، بجوار غرفة أورتنسيا والتى ظلت مغلقة طيلة الوقت. كان جيب المعطف العلوى على يسار صدر الفتاة وفى كل مرة يحاول فيها استخراج حبة الكراميل منه (لم يرغب فى ذلك، ولكنه بات مستحيلا أن يتهرب منه)، تحتك أصابعه التى تتجه نحو

قلبها بحبة كرز صدرها الصغيرة الجامدة وظن على مضض أنه «شرك شيطاني!». لعل الضمادة الشاقة الممتعه وحبات الكراميل تكون تعبيرا خجولا وصامتا عن إحساس خفي: الإحساس بأن الحقنة تدبر شيئا بات يصير قويا، تحديدا عندما يشعر بنظرتها الرمادية ناشبة فى حنجرته.

يرتشف الكاردينال الكونياك وهو جالس أمام مائدة الطعام من كأس ضخم بنفسجى اللون. ولاحظ مانولو أنه لم يكد يلمس طبق الطعام الموضوع أمامه، طبق به قطعة لحم مخلية، ضخمة، محاطة بشرائح البطاطس المقلية، وهو يظن «لا يفعل شيئا سوى الشراب». يرتدى الكاردينال دثارا قرمزيا، مطوى الزوايا، طيتا صدره بلون بنفسجى مفتوحتان للغاية حيث تطل من بينهما خصلات شعر ملتفة رمادية. تجرع كأس الكونياك دون أن تنفصل عيناه الحزينتان عن الرأسين الشابين اللذين يتمايلان ويحتك بعضهما ببعض وتسطع شمس المغرب فى شعرهما كأنها تشعل حريقا.

– أورتنسيا، توقفى عن هذا على الفور، لابد أن أتحدث مع مانولو.

رفع مانولو يده المضمدة وبدت أصابعه النافذة عبر أشعة الشمس قطعا نارية قرمزية.

– ألا تسمعيننى أيتها الفتاة؟ ليس به شيء ولا بيده، إنه مدّع وأنا أعرفه.

ضحك بهدوء كما لو كان يضحك بداخله.

– يا لك من غبية، نعم، غبية وأنت تعلمين لمَ أقول ذلك...

أبدت الفتاة اعتراضها ولكن دون أن ترفع عينيها عما تقوم به. وتأمل مانولو وجهها حيث يشف من جفنيها كورقتين رقيقتين احتقار مطلق. عقدت أورتنسيا نسيج الضمادة وقامت بقطع الجزء الزائد بالمقص ورفعت يد مانولو إلى مستوى عينيه:

– حسن هكذا، أيروقك؟

– آه، نعم، شكرا.

نهض متكاسلا، ضاغطا على خصره كأنما يؤلمه. لملمت الحقنة أغراضها واتجهت ناحية الطرف الآخر من الغرفة. واقترب هو من الكاردينال يلعق جراحه. اجلس هنا يا مانولو – دعاه الرجل العجوز – هنا أمامى حتى أراك، هناك أمر ما يحدث لك. هل تناولت طعامك اليوم فى منزلك؟ الأمس، قالت لى زوجة أخيك إن أحدا لم يعد يراك وقلما يحدث ذلك أثناء أوقات الطعام وعند النوم. هذا ليس أمرا طيبا!

– الأمر أنها لا تعرف. فأنا آوى إلى الفراش متأخرا جدا وأستيقظ مبكرا.

– آه، أهو الأمر كذلك؟ ظننت أنك لم تعد تعمل. وماذا تفعل وإلى أين تذهب كل مساء ومع من تخرج...؟ تبدو نحيفا للغاية.

مازالت ترتسم، أسفل الأنف المعقوف وعلى الشفتين الممتلئتين والشفيقتين، ابتسامة الكاردينال التى توحى بالود والأريحية، كما لاحظ مانولو. ولكن كم من التغيير طرأ على باقى ملامح وجهه فى وقت قصير! كم صار منتفخا ومهذبا! وعلت رعشة حزينة وجنتيه المبللتين بدلاء من الماء والمصفوعتين بلطمات الوحدة.

– كنت فى الورشة – أضاف العجوز – أخوك أيضا لا يراك البتة، إنه قلق ... اجلس، ألا تريد أن تأكل شيئا؟

– لا، شكرا، قالها مانولو وهو يجلس على مضض مرتفقا المائدة التى يعلو غطاءَها ذا اللون الأصفر الشاحب مصباح شراشبه حمراء. وبعينيه المتجهتين إلى أسفل، ظل الكاردينال يفكر بينما يشاهد مانولو الحقنة وهى تضع أسطوانة فى جهاز البيك آب الموضوع على منضدة صغيرة بأحد الأركان، وسُمع فى التو صخب الموسيقى. فأمرها خالها: «أخرجى هذه الأسطوانة، فما زالت فترة الظهيرة سانحة لك بكاملها للعب الموسيقى. أطاعت الفتاة الأمر بتكاسل ثم اتجهت نحو المطبخ حيث سُمع على الفور دوى سقوط طبق على الأرض، ولكن الكاردينال لم يهتز له جفن. وفجأة، قرر: «أتشرب قهوة»، رافعا رأسه وهو يقول: أورتنسيا، أعدى قهوة من أجل مانولو!

– يااااااااااااااه! كان الرد المسموع من المطبخ.

نظر مانولو إلى الكاردينال وقال:

– نبدو متأنقين في الآونة الأخيرة – اعتاد الكاردينال أن يتحدث إلى مانولو بصيغة الجمع، إحدى التفاهات التي تتواءم معه، والآن ينظر الفتى إلى نفسه مندهشا، مما أضافه العجوز بقوله: أعني بذلك الحُلة التي ارتديتها لأول مرة منذ أيام. هذا ما قالته لي زوجة أخيك المسكينة.

– آه، إنها في المصبغة.

– بالفعل. يبدو أن الأمور تسير معنا على خير ما يرام.

– لا بأس، مشط المُرسي شعره بأصابعه نحو الوراء، لا بأس يا كاردينال. كنت أود التحدث معك تحديدا، فأنا أحتاج إلى سلفة.

– أهناك خطط لدينا؟

– خطط؟ ليس لديّ أية خطة.

– هيا، هيا احك ما لديك لعمك الوفي. ماذا هناك؟ ألديك مصروفات زائدة هذا الصيف؟ تبدو نحيفا للغاية... ولم تركنا العمل إذاً؟ ألم يعد الناس يركبون الدراجات النارية؟ لونك يبدو طيبا ولكني أكاد أجزم أنك صرت أكثر نحافة مما كنت عليه. ماذا، هل يأتي السياح في سيارات مصفحة هذا العام؟ أو ربما يكون السبب أبسط من ذلك كثيرا، ربما نكون قد وقعنا في الحب.

– دعك من هذه الخرافات – قاطعه مانولو، بينما تتقدم نحوه بنعومة بقعة بيضاء وتسحب مقعدا من وراء ظهره. مر ذراع أورتنسيا بكمه المطوي من فوق كتفه ووضع أمامه فنجانا من القهوة، فحفته رائحة اللوز المر من كل اتجاه ثم أضاف: أصغ إليّ، كنت أرغب، منذ أيام، أن أفسر لك الأمر، فلقد كنت أفكر في ذلك. كل شيء قد تغير، سوف أحكي لك، ولكن قبل ذلك أريدك أن تقرضني لأمر ضروري ما يقرب من ثلاثة آلاف.

– هل تفكر في أن ترحل عنا؟ سأله الكاردينال.

– لا، ليس كذلك، سوف أحكى لك.

– لا داعى لذلك، فأنا أرى أن لديك خطة بالفعل. ولمَ لا تفصح عنها أولا، أيها الجبان؟

– لم أقرر أى شيء بعد. وأنا لم أرك تأتى أو تذهب منذ فترة، ما أريد قوله هو أنك لا تفتقدني، لديك أمور أخرى (كان يعرف أن ذلك ليس صحيحا)، كما أن لديك الآخرين، باكو وفيرمين باس والأخوات سيسترز (لم يكن ذلك صحيحا أيضا: لم يعد باكو يريد التعاقد مع العجوز، أما الباقون بما فيهم برناردو فلم يرهم أحد منذ زمن طويل). لايزالون يعملون لديك، أليس كذلك؟

– لا تدَّع براءة الملائكة. فالأشياء لا تسير على ما يرام البتة. والحيلة التى نصبتها لباكو كانت بداية كل شيء. لقد قلت لك ألف مرة يا بنى إنه لا يمكن أن تكون أقل وفاء للأصدقاء. ولكن دعنا من ذلك. لماذا لا ترغب فى مزاولة العمل؟

– إنه لا يناسبني. فالأنظار تحيط بي، أنا خائف...

– خائف؟ لا تجعلنى أضحك. الأمر هو أنه أصبح لديك رفيقة. – يفكر فى الفتاة الخجولة التى اعتادت أن تصعد الكرمل خلال الشتاء الماضى بحثا عنه، أيام الخميس، مرتدية معطفا مربعاته سخيفه ومظلة.

صار العجوز يشتبه فى الآخرين، ربما، يتملكهم الخوف أو أنهم يضعون البضاعة فى مكان آخر أو يقطعونها إربا إربا أو يرون أنه بات رجلا هرما وأصيب بالخرف... على أية حال، لزم مانولو الصمت: فجأة، بدا مشتتا لعل السبب هو اضطراره، فى كثير من الأحيان، إلى الركض هربا من ملاحقة المراقبين الليليين له عن كثب. كان يراوده كثيرا ذلك الإحساس الحاد والأليم بالدخول رغما عنه فى طريق دون مخرج. والآن أيضا اعتراه إحساس بالقلق: فالحقنة التى ظلت جالسة فى صمت بجواره ترتشف القهوة، ترمقه بنظراتها الثلجية التى تجز ملامح وجهه. سكب الكاردينال الكونياك فى الكأس، وأضاف قائلا:

– على ذكر برناردو، ألم تكن أنت من يسخر منه؟

– ولكن برناردو تزوج.

– على الأقل لديه هذا العذر أما أنت، فلابد أنك مجنون. أفكرت كيف ستعيش؟ فزوجة أخيك المسكينة ليس لديها سوى ما يكفيها من المال، وقد أصاب أخاك الضجر منك أكثر من ذي قبل. أتنتظر منهما أن يعولاك دون مقابل؟ أو ربما تفكر فى أن تصبح لصا؟

– على الإطلاق، قالها الفتى بعزة نفس.

– إذًا، فيم تفكر أن تفعل؟ – حمل الكاردينال الكأس إلى شفتيه وتجرعه على دفعة واحدة. كان يتصبب عرقا غزيرا. وأمعن مانولو النظر إلى عينيه الدامعتين والناعستين – قل لي، فيمَ تفكر؟

– لم أعرف بعد. ربما... (أكانت حقا ركبة الحقنة التى تحتك بساقه أسفل المنضدة؟) ربما أبحث عن وظيفة. نعم، وظيفة مرموقة. فلديّ صداقات وعلاقات بـ... حسنا. مازال الوقت مبكرا على الإفصاح عن أى شيء ولكنى أريد أن أكون مستعدا.

– عجبا، عجبا.

– سوف أعيد لك المبلغ حتى آخر سنت أو الأفضل من ذلك أن أجلب لك دراجة نارية إن استطعت. أما الآن، فأنا فى حاجة إلى إجازة لجس نبض الحقل الجديد وإلى ما يكفى للمصروفات الأولية. وعن ذلك الأمر أردت أن أتحدث معك يا كاردينال، فماذا ترى؟

– لا أرى شيئا أيها الفأر الكبير. – كانت الصفات الأكثر غرابة تخرج من شفتيه كلما صار أكثر ثملا ولكن ابنة أخته والمُرسى صارا معتادين على ذلك –. لا أفهمك، هذا هو ما أرى. حدثنى عن فتاتك...

– لا توجد أية فتاة البتة! – قاطعه الفتى – فأنا لا تستطيع أية فتاة أن تغيرنى (بدءا من هذه اللحظة وعلى مدار الفترة التى تتبعها وهو جالس هناك تنمو بداخله فكرة غامضة بأنه محاصر فى طريق بلا مخرج). أؤكد لك أن الأمر جدي، يا كاردينال. أرجوك، أقرضنى ولو حتى ألفا... ولا تجعلنى أضيع المزيد من الوقت.

– أردت أن أعرف – قال العجوز – كيف ستدبر أمور معيشتك دون عمل. من المؤكد أنك تستولي، من حين لآخر وعلى دفعة واحدة، على مبلغ جيد، مبلغ قليل، لنقل، من أجل التبغ والسينما والمرطبات لآنستك المدللة. يا لها من حياة عظيمة، أيها الأرنب! ومن الطبيعي، لا شيء جديد عن الدراجات النارية فالدراجات من أجل اصطحابها إلى الشاطئ فحسب...

– فلتعلم أن لديها سيارة – زل لسان الفتى (ارتبكت نظرة أورتنسيا لوهلة وهى بجواره كى تستعيد، على الفور، حالة الثبات القوية وطابعها الرمادى الغريب) –. ولكن، حسن، فكل ذلك لا يهم. أنا لا أملك سنتا واحدا على الأقل خمسمائة... لقد جعلتك تكسب كثيرا، لا يمكن أن تنكر عليّ هذا الفضل...

خمدت همته ونشبت عيناه فى قاع فنجان القهوة. حينئذ، لاحظ محاولة الحقنة فى لفت انتباهه وهى تضرب ساقه بركبتها فنظر إليها: ابتسامة خفيفة وسقوط بطيء للجفنين، ربما أرادت أن تقول شيئا، ولكن نفد صبره، فنهض. وهمس الكاردينال قائلا: «هذا هو، دفعة واحدة من وقت لآخر، ما يروقكم جميعا ودائما أيها الهمجيون». ما يعلمه هو أن العجوز يعارض دائما فكرة «الدفعة الواحدة» (تعامل مع حقيبة السيدة دون أن تترك دراجتك النارية واهرب بأقصى سرعة) لأن الأمر، كما يعتقد هو، بالغ الخطورة. الدافع الحقيقى – ومانولو يدركه – هو أنه لم يكن ليستطيع أن يتحكم فى نتاج هذه السرقات أو فى بيعها. فى جميع الأحوال، هو لم يمارس السرقة منذ أن عرف ماروخا.

نهض الكاردينال بغتة وخرج من غرفة الطعام، حثيث الخطى، وتبعه مانولو. نهض العجوز يجر خفيه ويجوب الدور الأرضى مارا بعد ذلك بغرف الدور الأول. اعتاد المُرسى جولات العجوز التى كانت، فيما قبل ذلك، تخضع لرغبة طارئة وغامضة فى التأكد من حسن سير النظام فى المنزل، كزيارات تفتيشية (مستغلا الفرصة منها لإرجاع بعض الأغراض المنقولة إلى مواضعها أو نزع الغبار عنها أو لإثبات غياب شخص أو شيء ما، إلخ...)، ولكن الآن، أصبحت فى كل مرة أكثر سرعة وتقليدية: من خطوة كابحة، إلى خطوة واسعة لها وقع وهيبة، وصولا إلى درجة أن الفتى أصبح مضطرا إلى الركض خلفه إذا أراده أن يسمع حديثه:

– هل تسمعنى يا كاردينال أم لا؟

– لا. قل لى مع من تخرج أقل لك من أنت – ألقاها العجوز القادم من جليقية كما يُلقى الشعر وتجاوز الأروقة بسرعة، مخلفا وراءه أثر طيران أطراف دثاره القرمزى فى الهواء–. ولكن فى أى لحظة تعيش، أيها الفراشة؟ لا شيء يضاهى البقاء فى المنزل يا مانولو وأنا أعرف جيدا أن لا شيء يضيع مع البقاء فى المنزل.

– أعرف كيف أعتنى بنفسى وحدي. اسمعني...

– قل لي، قل لي.

– هل أنت غاضب مني؟ إذا كنت كذلك، فقل لي. هل حقا لا تستطيع أن تقرضنى هذا المال؟ أم لا ترغب؟

لم ينبس الكاردينال ببنت شفة. وبعد برهة، انتهى من جولته التفتيشية وعاد إلى غرفة الطعام، يلازمه مانولو دائما، وجلس أمام المائدة وأعاد ملء كأس الكونياك من جديد. رمقت عيناه المبتسمتان الفتى الذى كان قد جلس أيضا ثم ابنة أخته وتعثرت يداه وهى تتحسس المائدة باحثة عن غطاء الزجاجة بكوب الماء فسكب. نهض مانولو، وهو يقول: «أنا ذاهب». اتجه نحو باب الغرفة الزجاجى ونظر إلى الحديقة. وقال لنفسه بنبرة حاسمة: «اليوم ليس يومي». فى هذه اللحظة، أخرجت أورتنسيا منديلا ومخطت أنفها محدثة صوتا. وشاهدها خالها بتعبير ينم عن الكرامة المهانة:

– لا تفعلى ذلك أثناء جلوسك على المائدة، هذا سلوك سيئ.

تتظاهر نظرته، بلا شك، أنها توحى بالاحترام، لكن الفتاة التى رمقته من فوق المنديل بنظراتها الحاقدة كررت فعلتها مرة أخرى والآن، بصوت أقوى. فضرب الكاردينال على يديها عدة مرات متكررة ببطن أصابعه، دون قوة، وهو يعض على لسانه كما يحدث عند الغضب من الأطفال حتى تسبب فى إسقاط المنديل. فابتسمت، وظلت تنظر إليه، بهيئتها المماثلة لحشرة متقلصة، ونعتها خالها الذى كان يستشيط غضبا بالوقحة. وفى إيماءة تنم عن دماثة الطبقة الوسطى الماجنة التى يتسم بها الكاردينال ترك منديل الطعام على

مائدة الطعام، بالأخص على المائدة، وبلياقة شديدة مثلما يفعل بالضبط النادل فى المطعم (وهى مهنة اعتاد أن يزاولها فى شبابه)، مظهرا بفخر ومحبة مبالغ فيهما الأخلاق الحميدة التى لم يعرفها جيدا قط ولكن بات يلخصها بإيجاز فى اثنين أو ثلاثة من المبادئ الرئيسية (غسل اليدين قبل الأكل، لا غناء أو قراءة أثناء تناول الطعام، الجلوس على يسار كبار السن)، والتى يفرضها بشدة على ابنة أخته ولكن دون جدوى. كان هاجسها أن تمخط أنفها أثناء جلوسها على المائدة دون الرجوع إلى الوراء. التقطت الفتاة المنديل بهدوء ووضعته فى رقبتها ونهضت وهى تهمهم بين أسنانها لتنظف المائدة. وسرعان ما بدأ الكاردينال، منذ هذه اللحظة، ينهار وهمس قائلا: «رقيقة للغاية مثلما هى منذ صغرها»:

– حسنا – قال مانولو، وهو يمر بجانبه – هل تفعل لى هذا الصنيع؟ نعم أم لا؟

– فكر مليا، أولا، يا بني. أنا أستطيع البقاء فترة دون عمل، أما أنت، فلا.

– لا تكن بخيلا – قال الفتى وهو يربت على كتفه – لا يمكن أن تفعل بى هذا.

– هذا من مصلحتك – قال العجوز برقة – إنه لأمر مؤسف...

– أتعرف ماذا سأقول لك يا كاردينال؟ إنك وغد حتى النخاع. كان صوت العجوز حزينا، فى بادئ الأمر، ثم صار همسا، وهو يقول:

– وإنه لأمر مؤسف أنك، كل عام، عند مجيء الصيف، تفعل الشيء نفسه. حقا إنه لأمر مؤسف أن تشرع فى واحدة من حكاياتك النسائية وتهيم لفترة من الوقت معتقدا أنك الأول زمانه بارتدائك السترات الجديدة. فى أحيان أخرى، تمتد لوقت قصير ولكنى أراها الآن مشئومة للغاية وملعونة ومثيرة للنفور، فأنت لم تعد مراهقا، أنصت إليّ يا مانولو، فأنا رجل عجوز وأعرف الحياة جيدا، هن سوف يخدعنك ويسخرن منك، وأنت لم تكن قط بالحقارة التى تسمح لك بالدفاع عن نفسك... – وانقطع بغتة عن الحديث كما لو أن أحدا قام بسد فمه. وقرر مانولو، أسير شعور غريب بالقلق (ولكن أكثر تجاه أورتنسيا، التى توقفت فجأة دون حراك عند باب الغرفة، وهى تنظر إلى خالها فى انتظار شيء ما)، أن يرحل وأن يحاول فى يوم آخر على الرغم من أن الكاردينال قد استهل واحدة من حواراته الصماء التى كان يخشاها للغاية:

– ألا تستطيع حقا أن تبقى برهة؟

– سوف أعود.

– فلتأكل شيئا إذًا، يا بني، فى يوم من الأيام، ستهوى من الضعف هنا.

– إذا لم يكن كذلك، يا كاردينال... اسمع، سوف أدبر حالى بخمسمائة.

– لماذا؟ هل لديك أمر مهم كى تنجزه هذا المساء؟

– أقول لك إنى سأدبر نفسى بهذا القدر، اللعنة عليك!

– صرت نحيفا للغاية...

العينان ناشبتان فى غطاء المائدة والرأس المنحنى يغلبه الكحول والزمن الذى اعتاد محاورته يفصله برقة عن كل ما كان أمامه: الأكواب، الكأس، الغطاء، الزجاجات، مجانسا الغطاء مع يده كما لو كان الفراغ الموجود بينهما يعتزم القيام بشيء حساس للغاية. كانت أورتنسيا ومانولو يراقبان حركاته بعناية، لعله يتسبب فى كسر شيء ما ولكن لم يحدث. وعندما تيبس كل الدم فى وجهه، ولم يعد وجهه سوى مجرد قناع قانت، كرر العجوز قائلا: «فى أى عالم تعيش، أيها الفراشة؟»، وسقط بوجهه على المائدة بلطف. بدت خصلات شعره البيضاء كألسنة لهب على جبهته وعارضاه الثابتان واللزجان كجناحين أخضرين لطائر صغير ارتفعا إلى أذنيه. وظل متكئا بجبهته على ساعده واندفع مانولو نحوه وتبعته أورتنسيا وساعداه على النهوض من بينهما برفعه من الإبطين. لاحظ مانولو أن الفتاة تعاملت بسهولة كبيرة مع حالة خالها وكأنها باتت معتادة على هذه الحالات الطارئة، فبلا شك، تضاعفت نوبات الكاردينال خلال الشهور الأخيرة. أما هو، فقد أراد أن يمدده على الفراش ولكن أورتنسيا صرخت بصوت حاد: «إلى الخارج، إلى الحديقة، هيا». أجلساه على مقعد من الصفصاف فى تراس الحديقة الذى صار الآن خاليا من النباتات، لم يعد هناك سوى هيكل من القضبان الحديدية الهاوية وغير المطلية التى تنفذ عبرها أشعة الشمس وعلى الأرض وسائد كبيرة مبللة من أثر المطر والزجاجات الفارغة، وبجوار المقعد منضدة صغيرة عرجاء مليئة بمجموعة متنوعة من الزجاجات والأقراص الطبية. ودون

حراك وبشكل صحيح تماما كأنه منحوت من رخام فوق ضريحه، رقد الكاردينال على مرمى من أشعة الشمس النافذة عبر القضبان ذات اللون الأزرق الغامض. وبينما تجوف الوسادة بيديها، وقفت أورتنسيا ترمق مانولو بالضوء الأخضر الذى يشع من حدقتى عينيها. بدت ساكنة وقالت وهى تشير بإصبعها إلى المنضدة الصغيرة: «هلا أتيت لى بهذه الزجاجة؟ سوف أحضر كوبا من الماء» واختفت بداخل المنزل. أخذ مانولو الزجاجة وحاول أن يزيح غطاءها الذى بدا من الصعب فتحه. تنهد الكاردينال بعمق وأطرق وهمهم بشيء ما. كانت تملأ زاويته المفضلة رائحة الغبار والرطوبة والملابس التالفة، بينما يتصارع الفتى مع غطاء الزجاجة وينظر إلى العجوز متأملا تأثير سرعة الزمن الغامض، عام واحد تقريبا، على تدهور الحال هنا وكذلك فى كل أرجاء المنزل، وفى ما تبقى من الحديقة ومن الأثاث، وفى وجه الكاردينال النبيل، وفى عينى أورتنسيا. يا للبؤس اللعين!

وفى بحثه عن شيء ينزع به الغطاء، فتح مانولو درج المنضدة الصغيرة ورأى وهو يختلس النظر إلى أسفل، جوازَ سفرٍ قديمًا ومجموعة من الرسائل المربوطة بشريط وردى اللون، بضعة آلاف من البيزيتات.

– هذه لا – قال صوت أورتنسيا القادم من خلفه، وفى الوقت نفسه، انتزعت يدها زجاجة الدواء منه وأعطته أخرى – : بل هذه، خذ واحدا، واحدا فحسب.

– ماذا؟

– فلتأخذ ألفا واحدا، إذا أردت. لن يعلم عنه شيئا.

لم يتردد المُرسى للحظة. التقط الألف بيزيتة ووضعها فى جيبه ثم أغلق الدرج على الفور. لم يعرف ماذا يقول، كان مفزوعا نوعا ما. فهو لم يلحظ أى شيء مميز فى عينى الفتاة عندما وضعت الأقراص فى كف يده ولكن بات لديه شعور مفاجئ أنه قد سقط فى فخ ما: فخ مماثل لما عايشه مرات عديدة بين أحضان ماروخا. وفجأة، فتح الكاردينال عينيه الموحيتين بتعبير فظ ثم عاد ليغمضهما. وقال مانولو:

– يبدو أنك صرت أفضل.

– نعم، فلم يحدث شيء.

– حسنا، إلى اللقاء، ثم التفت قائلا: سوف نلتقى قريبا.

عادت الفتاة التى كانت تناول خالها الأقراص فى فمه وتقرّب منه كوب الماء، برهة، كى تنظر إلى الفتى وقبل أن يدخل المنزل، قال مانولو:

– أعدى له كمية كبيرة من القهوة عندما يفيق.

اجتاز مانولو غرفة الطعام وسار فى الرواق الطويل المظلم وعند وصوله إلى المدخل، لحقت به أورتنسيا ومرت أمامه كى تفتح له الباب، أمر لم يكن يتوقعه. مكثت الفتاة هناك فى سكون وهى تستند إلى حافة الباب المفتوح وتمسك به بيديها بحماسة غيورة لا تكاد تعيها. الآن انفك زر المعطف الثانى وأتاح ثقل حلوى الكراميل فى جيبها العلوى أن تنفرج فتحة المعطف أكثر لتكشف عن ظل أزرق بعيد المنال، ظل ذيل سمكة بين ثدييها. انحنى مانولو نحوها قليلا كى يقول لها بصوت خفيض ومسرور:

– لا أنوى نسيان ما فعلتِه من أجلى أيتها الحقنة الجميلة.

لم يهتز أى جفن للفتاة ودفعت الباب عند خروجه دون أن تغلقه تماما وتتابعه بنظرة خضراء زاهرة، بلا تعبير، بينما يبتعد هو تحت أشعة الشمس. كانت هى من لا ينوى نسيان ما حدث.

أحبتنى للمخاطر

التى مررت بها.

عطيل

فى بادئ الأمر، بدت مجرد خطوات غير مطابقة ومضطربة، مجرد هائم يحك فخذيه أثناء جولاته القصيرة عند الغسق.

بدأت القصة فى ظهيرة يوم حار من أيام يوليو، حين قررا فيه الخروج من المستشفى مبكرا عن الأيام السابقة. وقد تحولت غرفة ماروخا، بالنسبة لهما، إلى معبد للحب مقام على أطلال (فى حضور مؤكد للكاهنة دينا، الممرضة الميورقية) مترعة بلحظات صمت، ذكريات مضطربة، احترام مهيب، نظرا لحالة المريضة الخطرة: لا استجابة، لا تحسن، لا دليل على الحياة يعكر صفو السبات أو الصمت (صمت ماروخا التام، يا لغرابته، أى إيحاء يدل على المستقبل أثناء مرافقتها: ماذا يمكن أن يُفعل من أجلك، أيتها الصديقة المسكينة العذبة، ماذا نستطيع أن نفعل من أجلك؟) الذى يؤنب ضميرهما على نحو غامض ويخجلهما. حتى الآن، قضى مانولو وتيريسا أغلب أوقاتهما معا، جالسين فى مقاعد قاعة الاستقبال، يتحدثان عن ماروخا ويتصفحان المجلات خلال لحظات صمت طويلة مفعمة من حين لآخر ببريق نظرة مختلسة، وعند الغسق فحسب، يُطلق سراحهما للرحيل. أبدى مانولو حذره وتحفظه فى كل تصرف، تاركا إياها تأخذ القرار ولكن لم يصل بعد بريق القرار النارى وجسارته إلى أقصى لمعانه فى سماء مانولو. أحيانا، كانت دينا الممرضة، بابتسامتها الغامضة التى تركت خلفها ورودا رومانسية ذابلة، هى من يغرق أجسادهما المفتونة فى حوض مياه فاترة خضراء استوائية يعجز اللسان عن وصفها: «يا لجمال الشباب! لو كنت مكانهما فى إجازة ولدى سيارة بدلا من المجيء هنا فى هذه الحرارة

الشديدة دون عمل أى شيء – لأنكما تدركان جيدا أنكما لا تستطيعان فعل أى شيء من أجلها فلا مبرر للنفاق– ، كنت سأذهب إلى سيدچز[1] بدلا من إضاعة الوقت" ومن طريقة نطقها العنيفة لكلمة سيدچز، وتعنى طقطقة أو تقزح الصدف، ومن تفتت الكلمة فى فمها الأحمر العنيف كمحارة طازجة لابد من معرفة أن الميورقية لديها حق فيما تقول. بالفعل، ما الجدوى من قضاء فترات الظهيرة الخانقة فى مدينة زائفة، نائمة؟

أقلته تيريسا إلى الكرمل فى سيارتها واعتادا أن يتوقفا بإحدى الحانات ليتناولا المرطبات ثم يُبحِرا قليلا فى مجرى طريق الرملة والحى الصينى حيث تميل الفتاة الجامعية طبيعيا نحو اليسار، نحو شارع اسكوديير س وبعض الفنادق الشعبية غير المتجانسة. لم تقع المغامرة بعد لكنهما باتا يعددان جميع أنواع مشاجرات قصص الحب الدموية، بداية من المشاعر الصغيرة أحادية الطرف التى تتراوح من جسد لآخر بطريقة غير متواصلة متروكة للصدفة: فأحيانا وهما يقفان جنبا إلى جنب أمام طاولة العرض فى حانة مزدحمة – بدا أن الفتاة تعرف عددا لا بأس به من الحانات المثيرة للاهتمام، والتى راقها أن تجوبها سريعا كما لو كانت تتمنى أن تظل باقية هناك ذكريات مرورها عليها برفقة أصدقاء الدراسة، بنفس مجموعة أغانيها الفلامنكية، نفس نبيذها الجيد (الفاسد، كما ظن مانولو على الرغم من أنه لم يقل شيئا)، نفس عاهراتها وبائعات اليانصيب بها–، يحيطهما إحساس بالخلاص الوهمى من جلبة الناس وتحتك ساقاهما عن غير قصد: لم يستطع مانولو أن يشعر بهذا الإحساس ولكنه تحقق مع تيريسا فى ليلة من ليالى الشتاء أمام سور منزل سان خرباسيو، بواسطة لفاع عنقها الصوفى الخشن والذى تتنفسه الفتاة الآن من خلال حكة مفاصل الأصابع والساقين أو مع بضع كلمات موجهة إلى سائق حافلات كهربائية أو بائع متجول أو رجل كبير السن يزهو بأنه جمهوري. كان ذلك الشعور، بالنسبة لها، أكثر من مجرد ارتباك مرده مثلا يده القوية وهى تربت على ذراعها

(١) هى منطقة جنوب برشلونة وتعد مكانًا مثاليًا لقضاء الإجازات لما تتمتع به من شواطئ ومناظر طبيعية خلابة.

أثناء عبور الطريق وهما يركضان بين السيارات على الرغم من أنه أمْر غير مهم بالنسبة له. من الطبيعي، أن فتاة معاصرة من جيل الـ٥٦ تكون جدلية وموضوعية وخبيرة في رصد الواقع.

لكن الواقع لايزال جنينا ينام بهيئته البيضاوية داخل رحم الأم الرقيق: ثمة سوابق ثقافية ذات قوة أيديولوجية معترف بها ويُخشى منها قد أنجبتها في غموض وهي، الكريمة، غير الواعية، المفعمة بالنور، المؤازرة، تبحث الآن من خلال صديق جديد عن قناعة أخلاقية ذات طابع تقدمي، قناعة تختلط مؤقتا بالرغبة. لكن في بعض الأحيان، كانت تكفي قطعة موسيقية ناعمة ومبتذلة أيا كانت أو أسطوانة تصل إلى المسامع بالصدفة في حانة ما حتى تصبح نظرة المُرسى المخملية (التى تتأملها بعشق إلهى لا تجد أى مؤازرة أخرى) قادرة على أن تلمح، لوهلة سريعة، وجود واقع أكثر علوا وقربا وضرورة، إنه الموضوع الذى يصعب الحديث عنه والذى رشحته لهما الكاهنة دينا. كانت، دون شك، إيحاءات سريعة، خدَع فتاة برجوازية مقموعة وغير راضية - هذا ما اعتادت أن تقوله لنفسها وهى معنية جدا بالنقد الذاتى -، رغبات جسدية أنانية صغيرة تبدو غير جديرة وسخيفة أمام محارب حقيقي. لذا ولغموض الجاذبية التى يمارسها عليها المُرسى (إغراء ثلاثى الأبعاد: المؤامرة، الحب، الموت)، ما زال يبقى اضطراب عاطفي، مثير للفضول للغاية، يكاد يكون كوميديا، يُلقى بظلال بهلوانية وردية على هذه الأيام الأولى. فى أحد الأيام، على سبيل المثال، وفى ضوء قاعة السينما، الفضى الخافت، بأحد الأحياء الشعبية التى أصرت هي، على نحو نزق، أن تدخلها: يتمايل مارلون براندو فى خبث وإغراء (تعلم يا فتى) ببدنه الأسطورى العارى وشوارب إيميليو زاباتا السوداء، جالسا فى الفراش بجوار زوجته الشابة فى ليلة الزفاف، بينما ظلت تيريسا تنزلق فى مقعدها حتى أسندت رأسها على ظهر الكرسى وأظهرت للعيان، بهوائية مشعة، جزءا كبيرا من ساقيها المصقولتين. واستقبلت، بطرف عينها الطفولية للغاية، شعورًا بالراحة والسعادة، وهى تقدر جمال فكه المحكم ونظرات مانولو المضطربة التى ترمق وجهها. كان للمشهد المعروض على الشاشة (بصمة مؤثرة للبطل الشعبي: الثورى الأمي، الواعى بمسئوليته تجاه الشعب، يطلب من زوجته الجميلة فى ليلة عرسه دروسا فى النحو بدلا من الاستمتاع) أثرٌ قوى على

تيريسا، معتقدة أن الفتى يشعر بنفس الرضا الذى تمتعت به وأن نظراته تعكس عواطف مشابهة. كانت تعاود مرارا النظر إليه وتبتسم له وتعض على شفتها وتظل تفكر وتختبر بعينيها ما لا يعلمه سوى الله حتى فى نهاية المطاف، عندما مالت على الفتى كى تُسمعَهُ مديحا يتعلق بالفلاحين المكسيكيين بوعى طبقي، شاهدت، بغتة عصارة حارة تسيل على الجلد المتلهف ولمحت شيئا فى نظرته لها تعشقها، تعشق فى حقيقة الأمر ساقيها ورقبتها وخصلات شعرها التى لم يقل عنها شيئا البتة، فتشتت تركيزها الذى استرجعته من جديد لتواصل مشاهدة الفيلم. فى الوقت ذاته، أحست بشيء يتحرك من تحت رأسها، محدثا فراغا مفاجئا، فاكتشفت أنها لم تكن تستند برأسها، طوال هذه البرهة، على ظهر المقعد وإنما على ذراع الفتى القوى الصبور المتكتم. فحتى مع مشاهدة فيلم جيد، ينسى الفرد إحساسه بالواقع.

وتعد من بين المغامرات الجامعية الأولى الأكثر رعبا وإضحاكا مغامرة السباق الشيطانى والانتحارى الذى انطلقت فيه تيريسا بسيارتها الفلورايد، فى ليلة عادوا فيها إلى المدينة من طريق "كاستيلدفلس" السريع. قد خرجوا ببساطة فى الساعات الأخيرة من المساء ليقوموا بجولة، ولكن تيريسا تحمست إلى الذهاب أبعد من ذلك وعند عودتهم كان الليل قد هبط. كانت تيريسا ترتدى قميصا مخططا رقبته قصيرة ومنديلا أحمر من الحرير ظل يتطاير فى الهواء مع شعرها وقامت بتشغيل المذياع والاستماع إلى أغنية التشا تشا تشا. وعلى نحو متناوب، شاهد المُرسى الذى لم يجرب قط الإحساس بسرعة السيارات الرياضية انعكاس ضوء المصابيح على الأسفلت وعداد السرعة (الذى تجاوز مؤشره المائة والعشرين) ووجه تيريسا اللطيف، بينما قبض بقوة على الزجاج الأمامى وأبقى ذراعه الأخرى على ظهر مقعد الفتاة. وقالت تيريسا بصوت عال "أيروقك الركض سريعا؟" فأومأ برأسه على نحو غامض. وأحست فى صدغيها بخبطات شعرها الهائج وبغضب الرياح التى تضربها فى وجهها وتلتصق بجلدها كقناع ساخن، بينما يزداد فى مكان ما دويٌّ عذب يملأ كل شيء. كانت السرعة تزداد والدوى يصير أكثر وضوحا وحدة، ويعلو ويعلو خصرها أولا، ثم صدرها، وفجأة غمرت جميع حواسها وذابت فى شعور بالاكتمال الصامت، فى إحساس صبيانى بالإثارة بضوء القمر، بالطلاقة... أما مانولو،

فلم يكن يثق فى العواطف الآلية (وتذكر فى غموض الكاردينال فى إحدى المناسبات وهو يحدثه عن ماكينات القمار التى ما إن تُلقى فيها بعملة حتى تقضى عليك، لابد أنها مزحة فى الولايات المتحدة) واشتبه أن كل شيء قد تآمر عليه حتى يصعقه: فالقمر والنجوم والليل الشديد الزرقة تُمنّى بوعود خادعة. لم تكن جرأته المعهودة مع المرأة تحسب حساب هذا الهجوم الغادر ونشوة الأحاسيس تلك. ولأول مرة فى الحياة يشعر أنه ضعيف وضئيل ومخترق، وبشكل ما، قذر ومهزوم مقدما من قبل قوة مشتركة فاتنة (السيارة والفتاة الثرية والتشا تشا تشا) تطلق ليلا سرعات تصيب رأسه بالدوار. ولم يدرك ما وراء ذلك، أهو وجه تيريسا البديع بشفتيها المفترّتين أم شعرها الأشقر المتطاير المشتبك بمنديلها الأحمر (شعلة تتألق فى الليل) أم لمسة فخذيها المتقدة أو ربما السرعة ذاتها، ذلك الدوى الشديد كان ذروة اكتمال شيء ما، ومع ذلك شعر فى لحظة معينة ومفاجئة بسعادة مكتومة وبفراغ عذب فى النخاع (توقفي، أيتها المجنونة، أبطئى من سرعتك) وبإثارة لم يشهدها من قبل وأحدث لهيب حاد التغيير الثانى والحاسم فى حواسه: انسدت أذناه، بغتة، فيما يلج منطقة أثيرية فألقى برأسه إلى الوراء (توقفي، يا طفلة، توقفي) ونظر إلى السماء ولفّتْ موسيقى التشا تشا تشا رأسه وهفا فى الهواء، فارتجف وظن أنه يذوب هناك تحديدا... فى اللحظة نفسها التى أوقفت فيها تيريسا السيارة بشدة (أيتها الطفلة الجاحدة) على حافة الطريق السريع وبإيماءة طفيفة أسندت هي، أيضا، رأسها المشعث على عجلة القيادة وسمحت لنفسها أن تطلق تنهيدة عميقة:

– أف...! وقالت: يا للراحة. من حسن الطالع أنهم لم يلحقوا بنا.

– ما...؟ ماذا...؟ تلجلج المُرسى الذى لم يكن إلى تلك اللحظة قد عاد من مناطق متاخمة للجنون ففرت يداه كفراشة ليلية ثملة إلى ركبتى الفتاة زكية الرائحة وحطت عليهما متعبة.

– ماذا تفعل؟ – نظرت تيريسا إليه وهى تبتسم ولكن بدا عليها القلق – هل خفت؟ خشيتُ عند رؤية رجال المرور أن يوقفوني. فرجال الشرطة ليس لديهم حلول أفضل، فكرتُ بالأخص فيك... هل تفهم؟

حلقت الفراشة بعيدا: كانت الوردة مغلقة، راضية، نقية، غير واعية بوهجها الذى يفوق النجوم، ومن جديد، انطلقت تيريسا بالسيارة طراز فلورايد، وتوجهت مباشرة تجاه المدينة، دون أن تشتبه فى العبء المزدوج العذب الذى تحمله الآن.

ها قد فُتحت الدائرة العاطفية ببطء وبارتباك، بداية من الجولات القصيرة حول المستشفى (جولة حدائق البونانوبا، وبها أشجار النخيل والصنوبر وأبراج مخروطية وأسوار وأرصفة لا نهاية لها، وبحضور خادمات ثرثارات ورهبان فى عجلة من أمرهم وجو طليق) ثم طواف داخلي، ورع وموسع حول ماروخا الراقدة أشبه بدوامات البحر، وبعد ذلك، وبفضل الفلورايد وسبات أمسيات الصيف التي، من ناحية أخرى، حملت بدايات اشتعال رماد خامد، حيث تتلاشى الدوامات مع أول رياح ليل سبتمبر، تمكنا خلال الأمسيات المتعاقبة من مسح المدينة بأكملها وبضواحيها، من الحانات والكافتريات العصرية فى وسط المدينة إلى الحانات المشبوهة والمقاهى المتواضعة فى الضواحي، مع الوجود المستمر للسيارة (وعدا مطمئنا بالعودة) ولصور ارتجالية للآيس كريم والمثلجات وشرائح البطيخ التى تؤكل بعشوائية أسفل ظلال المظلات على جانب الطريق (وعدا حارا: أسنان تيريسا اللبنية عالقة فى زغب قرمزي) بين الذباب وأطفال يظهرون فجأة وينطوى التعامل معهم على خطر (تنزلق تيريسا فى سرور على سد من التراب بالضاحية مع شياطين ذوى طابع خشن: قطع فى بنطلونها الجينز) لترسو فى نهاية الأمر، فى الظل الأحمر لبعض المقاعد الوثيرة وتغرق فى مقاعد مبطنة بالجلد، تهزها قطعة موسيقى مختارة تُغنى للأحباء الأثرياء والمشاهير. على ما كان يبدو فى بادئ الأمر، كانت تيريسا كثيرة القراءة، فهى دائما تحمل معها كتابا فى جميع لقاءاتهما بثبات وبإصرار نادر كما لو كانت تقاوم تحطيم الجسور الثقافية التى أرستها فى خليجها الهادئ، كتاب منسي، يتثاءب خلف مقاعد الفلورايد، مكتسبا ضوءا أصفر فى ضوء الشمس هذا إن لم تهمله صاحبته. تسبح الفتاة وهى سعيدة فى مياهها الزرقاء الاستوائية، تخطط لرحلات لم تحققها من قبل ("فى المساء، أريد الذهاب إلى سوموروسترو ولكن وحدي") بينما يمارس الفتى هوايته الأكثر روعة: أن يضع نفسه فى موضع الآخرين ("لن أسمح لك بالذهاب وحدك"). وغالبا، حينما يثار الخطر الذى يشكله ذلك الحنين الغامض لحياة الضواحي، لا يذهبان ويجمعان بحكمة بين: النبيذ ومشهد الضواحى والمناظر البحرية

(تتناول تيريسا "مورو" الروبيان بين القمصان الزرقاء والمقلمة لشباب الصيادين) ومشروب الجن المنشط مع موسيقى باخ على مقاعد وثيرة من الجلد. وفى أجواء منعزلة (تتصفح تيريسا "دى بوفوار" الكتب المعروضة بداخل حانة كريستال سيتي) تمر هى بدور سينما متطورة حيث يضعون لافتة "مجسمة" ("متى سيدَعوننا نشاهد فيلم سفينة بوتيمكين الحربية؟") وبأحياء شعبية أثناء العيد الكبير وبمقابلات عادية مع سائحين مطمئنين (تتحدث تيريسا بالفرنسية مع الزوجين الشابين العاريين المحروقين بفعل الشمس والاذين أوقفا سيارتهما بجوار "الفلورايد": "انظرا إلى ذلك الشاب الذى هناك، كم هو جميل!") وبنسيم الميناء المالح وصخب ممشى الرملة الصيفى وتناول الجعة والحبار فى البلازا رويال والجولات القصيرة بحديقة جويل وأنوار الشفق التى تتأملها من جبل الكرمل بسيارتها الواقفة على الطريق عند لحظة الفراق.

كان هناك كل يوم يسبر غور نظرة صديقته الزرقاء الصافية للبحث عن إشارة، ولكن دون جدوى حتى الآن لأن الأمور كذلك لا تنتهى دائما على نحو طيب. كان لديهما العديد من المهاترات. وبدت تيريسا امرأه متحفظة، لا تعرف الكلل ومعقدة، يروقها، بالأخص، الحديث عن الحب كأنما تتحدث عن أحد أقربائها المتوفين الذى لم تحمل له يوما أية عاطفة. وفى ليلة، عند تركها مانولو فى الكرمل سألته على نحو مباغت:

– هل أنت على استعداد للموت من أجل حب عظيم، يا مانولو؟

– نعم.

فضحكت وقالت:

– كنت على يقين من ذلك! يا للغباء!

– لا أعرف لماذا – قال هو، محيطا إياها بنظرة حارقة – ألا تؤمنين بالحب؟

– الأمر لا يتعلق بالإيمان. فما يلهمنى بمزيد من الثقة هو الرغبة، إنه الإحساس الأكثر جدارة ونقاء. بالطبع، شريطة أن يكون متبادلا، ولا يخضع لأى نوع من المسئولية الأخلاقية.

– يا للهول! أنت تطلبين الكثير.

– لست أنا، بل الزمن.

– لا أفهمك.

– إنه أمر فى غاية الوضوح، يا فتى – تنهدت تيريسا وهى تفكر – هذه مرحلة انتقالية، ألا تعتقد؟ أقصد أن القيم الأخلاقية التى فى موضع خطر...

وبذراعيها المحيطين بعجلة القيادة وبنظرتها الشاردة فى ليل جبل الكرمل، شرعت الجامعية فى عرض نظريتها حول السبب وراء أن الحب أصبح فى أزمة حاليا. وعند الإنصات إليها بابتسامتها الرقيقة المتسامحة، أو بالأحرى، هو يعشق صوتها خصيصا من سروره لسماعها، لزم مانولو الصمت ثم حاول دون جدوى أن يجعلها تعود مرة أخرى إلى الواقع، مساعدا إياها بلعبة صبيانية: أوقد وأطفأ أنوار مصابيح السيارة واقترب منها أكثر وأبعد بإصبعه خصلة شقراء كانت تغطى عينها وانحنى فى النهاية على وجهها وحينها، وهو ما لا تفهمه هى (وقد مكثت فى صمت وسكون وارتياب من دنو الفتى، ماذا سيكون الرد الغاضب الذى سيُلقى بنظريتها على الأرض)، تجمد مانولو ورجع إلى الخلف، تاركا إياها كما هى ونزل من السيارة.

– تدّعين أنك فتاة مثقفة وقارئة، أليس كذلك؟ – قال وهو يغلق الباب بعنف –. حسنا، إلى اللقاء غدا.

وسار على الطريق فى اتجاه حانة ديليثياس، وهو يضع يديه فى جيبيه ويصفر.

لم يكن الإصرار المبدئى على أن يفرض أحدهما سلطته على الآخر هو الغرض الوحيد من ردود الفعل غير المتوقعة: من المؤكد أنه قادر على إغضاب رفيقته اللطيفة، وهذا يشكل خطرا، لكنه لم يكن لديه أى وسيلة أخرى للدفاع عن نفسه ولسد الفجوة الثقافية التى تفرق بينهما، فكان الأفضل ألا يغامر. وفى تأكيده وإتقانه لهذه الاستراتيجية، كان المُرسى يأمل أن ينزع تدريجيا ويبعد عن الجامعية المعقدة المناقشات الجدلية كى لا يبقى سوى مع الفتاة المرحة، الجذابة، ذات التسعة عشر ربيعا التى يروقها قضاء فترات المساء معه والترفيه عن نفسها بأى دافع. وقد ثبتت، أيضا، فعالية هذه الاستراتيجية فى حالات

النشوة لتيريسا وعلاقاتها بالرجال التى على الرغم من أفكارها التقدمية والحماسية فإنها لا تستطيع أحيانا أن تتجنبها. هى مواقف تلقائية وتافهة لفتاة عصرية، متحررة، عازمة على القضاء على بكارتها (كم كان يروقها الاتكاء بذراعها على كتف مانولو والتودد إليه أمام الناس، وهى تستشف علاقة حميمية قوية مازالت بعيدة عن أن تنال شرف العطاء!)، تثير فى صديقها نوبات غضب عارمة.

ومع ذلك، لا تستمر أى نوبة لأكثر من أربع وعشرين ساعة وغالبا، ما يوقفها مانولو نفسه بمهاتفة الفتاة تليفونيا كى يعتذر لها. وحينئذ، تصمم الفتاة على أن الذنب ذنبها وحدها، متهمة نفسها بالتعالي، وعلى هذا النحو كانت تسير الأمور، فتجول بخاطر المُرسى فكرة أنْ لو لم يتصرف بطريقة وقحة للغاية. وفى إحدى الأمسيات، عندما كانا يجلسان فى قاعة الاستقبال بالمستشفى، فُتح الباب وظهر السيد سرات، فلم تتبين ملامح تيريسا من شدة ارتباكها (كانت تلتصق بصديقها فى اللحظة التى فتح فيها الباب، رأسها مُنْحَنٍ على الجريدة، حيث كانا يراجعان معا نشرة الأفلام السينمائية) وهى تقدمه لوالدها. أما هو، فبجدية مباغتة، نهض ومد يده محاولا دون جدوى أن يقرأ شيئا فى عينى رجل الصناعة القطلوني. ودون أن يتوقف الأخير، صدرت بعض الأصوات من حلق السيد سرات، كأنها كلمات تحية ومد يده للفتى ومر مسرعا إلى غرفة ماروخا. كان على عجلة من أمره: من بين أهدافه الأخرى، كان يأتى لكى يقول لتيريسا إنه ذاهب إلى الشاطئ لقضاء إجازة نهاية الأسبوع ويطلب منها إعطاء بعض الإرشادات إلى البستانى الذى سيحضر إلى المنزل غدا، حيث إنه من المعروف أنه لا يمكن الوثوق بأحد فى فيسينتى أو الاتفاق معه. لحقت به تيريسا إلى غرفة ماروخا وبقى مانولو فى الصالة ولكنه استطاع أن ينصت إلى حديث السيد سرات، لأن الباب ظل مواربا، عندما سألها عنه. وحينها، شيء فى صوت تيريسا الذى بات مخنوقا خلال الوقفات التى تأخذها قبل الإجابة على سؤال والدها – فضلا عن النبرة الباردة وغير المكترثة التى أضفتها عليه – كشف لمانولو الدوافع الدفينة لاهتمام عاطفي، ينبع من حنين معين تصر الجامعية على خلطه بمجرد كلام فارغ عن السياسة. جاءت إجابتها فاترة وعلى مضض: "ما لبثتُ أن تعرفت عليه يا أبي، يقول إنه خطيب ماروخا ويأتى ليراها كل يوم" والتى أضافت إليها قولها: "يا للحسرة، الفتى المسكين".

وهنا يُسمع نوع من الهمهمة من فم السيد سرات فى اللحظة التى اقترب فيها مانولو على أطراف أصابعه من الباب وهو يفكر: إذا كان كذلك، بالنسبة لتيريسا، أمر رؤيتهما فى الخارج على هذا النحو، هو ليس أكثر من مجرد لقاء خطيب الخادمة المريضة أثناء زياراته اليومية إلى المستشفى بالآنسة التى لنبل أخلاقها تقله إلى المنزل بالسيارة. حسن، لا شيء. كل ذلك يحدث فى صيف، غير متوقع ولن يستمر إلى الأبد. كلانا فى إجازة وبدون رقابة عمليا من قبل العائلة، وحيدان، مجتمعان نظرا لظروف مأساة ماروخا ولكن المشهد الحقيقى يبعد تماما عن كونه مجرد "لا شيء. يا للحسرة على الفتى المسكين". حسن، هذا أمر طبيعى، فليس هناك ما يستدعى الحديث عن لحظات الهروب بالسيارة. ومع ذلك، وبفضل هذا الخليط الخاص جدا من الحقيقة والكذب الذى تكتنفه كلمات تيريسا (التى لم تكذب ولكنها لم تقل الحقيقة أيضا) جعل مانولو يفهم، فجأة، أن حذره كان مبالغا فيه وأنه لابد أن يتصرف بسرعة أكبر وبحسم.

وعند دخوله غرفة ماروخا، صار الموقف كالآتي: تتأهب دينا المنحنية قليلا فوق المنضدة المجاورة لفراش ماروخا لحقن المريضة بالمصل، وقد حظيت تحضيراتها باهتمام السيد سرات الواقف بجانبها، بينما على الجانب الآخر من الفراش، ظلت تيريسا تشبك يديها خلف ظهرها وهى تجيب ببراءة زائفة على أسئلة والدها المحيرة الموجهة لها حول ما إذا كانت تشغل وقتها بشيء بعد زيارتها لماروخا: بعبارات عامة، بدت تيريسا مصممة للغاية على إظهار عدم اكتراثها للفتى الذى ها هو يتقدم نحو الفراش ببطء (لم يلتفت إليه أحدهم، ولكنهم لزموا الصمت) ومكث فى صمت بجوار تيريسا واستند شاردا إلى أسفل حامل قطارة الجلوكوز المعلقة فى مقدمة الفراش، حتى إن أصابعه كادت أن تلمس ظهر تيريسا. كانت تيريسا ترتدي، ذلك المساء، ثوبا خفيفا، أخضر اللون، دون أكمام أو حزام، بسيط للغاية، ضيق وسحَابته تتوسط الظهر وتمتد من الرقبة إلى الأرداف. ومثل الآخرين راقب مانولو ما تفعله الممرضة شاردا، بينما ولانشغاله على ما يبدو بأمر مسلٍّ، ظلت يده تنزلق من أعلى لأسفل أمام شريط السحابة المعدني، محتكة بظهر الفتاة حتى إنه فى إحدى المرات ودون حل إبزيم الشريط أطبق إبهامه على سبابته على هيئة منقار طائر قد حط فوق سحابة ثوب تيريسا، وفى غمضة عين، أنزلهما إلى

أسفلها. فانشق الثوب كالجلد مفرجا عن وهج ذهبي: تراءت أمام عينيه، وعلى بغتة، روعة ظهر ناعم، مدور، نحيل، ضيق، شبه طفولي، برونزى اللون دون وجود أثر لأى خط يقطعه (هو يعرف أن الجامعية الجريئة لا ترتدى دعامة صدر مطلقا)، مطوى نحو الداخل فى انحداره العذب نحو خصرها الطفولى كى يستوى بعد ذلك بدفعة مجددة من أسفل البريق الوردى الخافت للقماش النايلون الذى يغطى ردفيها. كل ذلك حدث، بسرعة كبيرة وغير متوقعة، جعلت تيريسا تقف فى ذهول وفمها مفتوح، أما الجزء الأمامى من ثوبها والذى صار، كما كان من المنتظر، مثبتا بإبزيمين عند منكبيها، أطاح تماما بالوجه الآخر المجنون لحلم المُرسى (لنرَ: كيف سيواجه الوجه المحتال والنزق عينى أبيها وعينى الممرضة، لحظة واحدة، عاريا أمامهما). فى اللحظة نفسها، تلفّظ السيد سرات بشيء من قبيل ضعف ذاكرته وتطلع إلى ابنته، ولكن دون أن يلاحظ عليها أى شيء غير طبيعي، عدا أنها احتضنت نفسها كما لو أن قشعريرة أصابتها، وعاد ليولى اهتمامه لما تفعله دينا. صار لون وجنتى تيريسا قرمزيا وبنظرة غاضبة رشقت مانولو عندما حاول فى مراوغة خفية أن يرفع سحابة الثوب، فعاد أدراجه ببطء نحو الباب وخرج.

ثم وبخت الفتى وهى مندهشة ولكنها غير منزعجة تحديدا وأرادت أن تعرف سبب فعلته المجنونة هذه أمام والدها. فقال لها: "لو لم أفعل ذلك، لبقيت تختلقين الأكاذيب عنى وعنك"، ثم أمسك بذراعها كأنما أراد أن يفسر لها أكثر ولكن ليس هنا، دافعا إياها للخروج من المستشفى.

فى الليلة ذاتها، دعاها لتناول الشراب معه فى "معسكر الكشافة". وأحبت تيريسا فكرة أن تظهر فى صحبة المُرسى فى قبو القصر الملكى (حيث تنزلق كأنها فى حوض للأسماك، فدائما ما يُشاهد هناك بعض الطلاب المرموقين المتمردين، من بينهم لويس ترياس وهم يمارسون أعمالهم فى الخفاء أسفل خطوط ضوء أخضر، منفى، باريسي). كانت هناك مجموعة فريدة وبدائية من عازفى موسيقى الجاز الإسبانى تُدعى "فرقة ماريا جوليان للجاز" (لآلة فك الحمار صوت وفلسفة، هكذا يقول إعلان الحفلة) تعزف على آلات مصنوعة من عَظْم الحيوانات موسيقى مزعجة وساخرة وزائفة، وفى حال لم يأخذها أحد على محمل الجد فهى تتميز بأنها من الممكن على الأقل أن تجعلك ترقص دون أن

تخشى تدنيس مكانة الجاز الحقيقية. وفى ظل الضوء الأحمر للمكان، كانت تيريسا ترقص وهى تحتضن بشدة صديقها الجديد أمام نظرات الطلاب الثاقبة (التى تحتقرها وتزدرى رجعيتها، هذا ما همست به فى أذن مانولو)، تاركةً – هى الجامعية – إياه لأول مرة يلمس وجنتيها وجبينها بشفاهه.

فى اليوم التالي، عند خروجهما من المستشفى، اقترح مانولو الذهاب إلى الشاطئ. كانت الساعات الأولى من المساء والجو حار للغاية والمُرسى أكثر ثقة، يرى بعض الاحتمالات المواتية على الرغم من أن السيف لا يزال، من ناحية أخرى، معلقا على بُعد سنتيمترات قليلة من رأسه: هو على وشك أن يبقى بلا سنت واحد ولا يرى السبيل إلى فعل الأشياء دون مخاطرة بالغة. فذهابهما إلى الشاطئ بات قرارا متسرعا، فلا يحمل أى منهما مايوه البحر مما جعل تيريسا تقرر المرور أولا بمنزلها.

– سوف نبحث لك عن مايوه لوالدي.

لم تسمح له بأن ينتظرها فى الخارج، فى السيارة، ودعته إلى الداخل.

– يجب أن أبدل ملابسى – قالت هى بينما يجتازان حديقة المنزل –. سأتركك لحظة واحدة، إذا لم يكن لديك مانع؟

– لا، على الإطلاق.

تبعها مانولو من خلال طريق الحصى الممتد أسفل ظل الأشجار الوارفة (حيث، فجأة، هبط الليل وحل الشتاء) مرتديا كنزته الجلدية ولفاعه، بينما تركض الآنسة تيريسا تجاه الضوء ودوى الموسيقى الآتية من النوافذ، تركض بحذائها الرقيق ذى الكعب العالى ومعطفها الواقى من المطر الأبيض مثل الثلج المتساقط فوق المنكبين، وهى تنزع الحزام وتلقى به على الأرض وتضع المنديل الحريرى الأحمر فى جيبها... فتحت تيريسا الباب بمفتاحها وأدخلته قاعة واسعة مليئة بالأنوار.

– تفضل، استرح – قالت وهى تنزع حذاءها– وصُبّ لنفسك كأسا إذا أردت. كل شيء موجود هنا. لن أتأخر، دقيقة واحدة. ولا تنظر إلى اللوحات، إنها فظيعة.

واختفت من القاعة تحمل حذاءها بيد وباليد الأخرى تحل أزرار ثوبها الأمامية، ثم سُمع صوتها بينما تصعد السلالم وهى تقول: «بيثنتا، أنا هنا». وتجول مانولو فى القاعة. كانت هناك لوحات لمناظر طبيعية سويسرية على الحائط لم تبدُ له بهذه الفظاعة وصورة لامرأة تنظر إليه بأريحية من مناطق زرقاء لطيفة، رقبتها الرفيعة الوردية تخرج من الشيفون البنفسجى المحيط بمنكبيها الرقيقين. لابد أنها الوالدة. يا لجمالها ولعذوبة تعبيراتها! كان المنزل غارقا فى صمت تام ولكنه لا يشبه أى صمت آخر: صمت منازل الأثرياء، بالنسبة له، هو قوة نائمة وموحية، يشبه صمت أجهزة التهوية المعطلة أو حفيف أجهزة التدفئة الغريب تحت الأرض. بالإضافة إلى صورة كبيرة موضوعة فوق المدفأة لكلاب صيد، ليس أمرا سيئا، فلابد من وجود صحبة أثناء فصل الشتاء عند الجلوس أمام النيران بعد يوم عمل مرهق... جلس على الأريكة، أمام المدفأة، واضعا ساقا فوق الأخرى فى بطء لذيذ. وفجأة، سمع صوتا على يساره فوق الأرضية اللامعة يقترب منه، إنه خبب مسرور لبراثن ثعلب صغير، ملامحه مطموسة، رأسه مائل قليلا يتفقد بتجهم شديد الزائر المجهول الذى ترمقه عيناه الصغيرتان المشتبهتان واللتان لا تكادان تُريان من خلف شعره المنسدل كستارة أمامهما. وللحظات، نظر إليه مانولو بتعاطف ثم مد يده ليداعبه ولكن الحيوان رفع رأسه وتراجع إلى الخلف ودار حول الأريكة مرتين. وازداد شعوره الفضولى بعدم الثقة عندما تجاهل لفتة ودية ثانية وجلس على مؤخرته وأعاد رأسه فى اتجاه باب القاعة فى انتظار ظهور أحد من أصحاب المنزل، مبديا عدم اكتراثه ولكنه يتوجس خيفة من شخصية الزائر الدخيل. الآن، استطاع مانولو أن يدرك أنها كلبة. لازال رأسها المضحك الموحى بهيئة فتاة هوائية ولكن بالغة الذكاء متجها إلى الوراء فى ازدراء، لا ينظر إلى الغريب المشتبه فيه إلا من حين لآخر، وعلى نحو مباغت، كأنه يريد أن يوجه انتقادا على شيء لم يحدث حتى بعد. وهمس لها مانولو «تعالي، أيتها المغفلة، تعالى ... خذي». واقتربت الكلبة منه ببطء دون النظر إليه وهى تشمشم بدقة مفصلى ساقيه وحذاءه الرياضى ويده القاتمة التى تحاول مداعبتها، ثم أنزلت رأسها فى خيبة أمل كما لو لم يسفر الفحص سوى عن ازدياد شكوكها ودارت حول نفسها نصف دائرة وعادت لتجلس فى مكانها. وضع مانولو رأسه المنهك على ظهر الأريكة وتأمل من جديد لوحات الجدران

البراقة وخصوصية المنزل التى تبعث على الهدوء بفضول مثير وغير راض، ولكنه لطيف للغاية. واشتهى أن يدخن سيجارة واحدة.

بدا مثيرا للدهشة هذا الإحساس بالأمان الذى يعتريه هنا، وسط النظام والصمت الموحيين بالأريحية، وفى مقارنته لهذه الأوقات الحالية بالحماقة وشدة المعاناة فى بيئته ومنزله وحانة ديليثياس ذاتها ومع الكاردينال وابنة أخته (متذكرا آخر مرة زارهما فيها والطريقة الخسيسة التى أخذ بها المال) كأنه قد فقد جزءًا من تأثيره وقوته أمام هذا الإحساس بيد الإهمال أو عدم الحرص، إنه شبيه بإحساس الهرولة، كأنما وهو فى عجلة من أمره نسى شيئا أو ارتكب خطأ لن يذكروه به سوى لدى وصوله (إلى أين؟) ويحاسبوه عليه. ربما من أجل ذلك وعلى سبيل التحذير، تظهر أمامه الآن بغتة الأخوات سيسترز وهن يقمن بعملهن. بات المساء مترعا بالمفاجآت.

كان يجب أن يتقبل الأمر بهدوء وكأنه سخرية من القدر: فبعد ما تمكن من السيطرة على الكلبة وجد نفسه مستندا بظهره إلى النافذة المفتوحة والمطلة على الحديقة، واقفا أمام البيانو الذى لم يقرر بعد الضغط على مفاتيحه، نظرا لأنه لم يستطع تمييزه بين الأشجار القابعة خلف صف مزدوج من نبات إبرة الراعي. فالصورتان اللتان فى هذه اللحظة تحت شمس الغروب، تعبران الشارع فى اتجاه المنزل، كانتا لفتاتين مرسومتين بالألوان الطبيعية: الأذرع والأرجل بلون بنى كالشوكولاتة، والشفاه بلون بنفسجى والأعين محددة بظل أزرق حتى الوجنتين، وتصفيفة الشعر مرتفعة ومتصلبة تطلق فلاشات ضوئية، والملابس صيفية، خفيفة، متوهجة، تلتصق بجسدهما كالجلد. يعلو وجههما المستديرين ذلك اللون الغامق، شديد السمرة الذى يكشف عن كثرة المواد الدهنية ببشرتهما والتعرض المستمر للشمس مما تسبب فى ظهور حب الشباب. وفى سيرهما السريع والمتوتر قرار ما طارئ ولكنه وهمى يتناقض مع تعبير اللامبالاة والملل الذى يعكسه وجهاهما العبوسان. إحداهما، الأكثر قِصَرًا، كانت تحمل سرير أطفال محمولاً عليه رسومات ملونه ونخل وتقلص فخذيها كأنها تخشى أن تقع قطعة من ملابسها الداخلية بسبب السرعة. سمع مانولو صوت الجرس ولكن لم يذهب أحد لفتح الباب كما أنه لم يرَ الفتاتين تدلفان إلى حديقة المنزل ولكنه من مشاهدتهما حزر، فى التو، أنهما قادمتان وأنه كان يستطيع

أن يلاقيهما فى الخارج. ومع ذلك ولحسن الحظ، أخذت الخادمة العجوز متسعًا من الوقت لفتح الباب مما جعل الفتى يقرر الخروج إلى الصالة فى اللحظة نفسها التى حضرت هى فيها مسرعة، بينما يهتز ردفاها الكبيران فى تكاسل داخل الزى الرمادي. وعند مرورها، اتجهت نحو مانولو بابتسامة تقليدية خفيفة وفتحت الباب.

انبثق الضوء فجأة فلم يجعله يرى شيئا من مكانه عند باب القاعة حيث كان فى منتصف طريقه إلى الداخل يتأهب للدخول من جديد وقد قرر، بشيء من الغموض، أن يضغط على مفاتيح البيانو وما لبث أن تجمد فى مكانه حين تعرف على الفتاتين: هذا مستحيل، هذا لابد أن يكون مزحة ثقيلة، حظ أسود لا يلاحق سوى الفقراء وليس محض صدفة، ولكن ربما يكون إنذارا، تحذيرا قادما إليه من حى الكرمل.

فى الواقع، لا ينبغى أن يفاجأ على هذا النحو، فهو يعرف جيدا أن الأختين سيسترز تفضلان العمل فى الأحياء الراقية وأثناء العطلات حتى تجدَا الخادمات وحدهن بالمنازل. لم يرهما مانولو منذ الشتاء الماضى وكان يعلم أنهما توقفتا عن العمل مع الكاردينال ولكنهما مازالتا تمارسان تخصصهما وهى حيلة قطعة الملابس الداخلية.

كما كان يعرف الخطر الذى تمثله هذه الزيارة غير المتوقعة وغير المناسبة (لقاء مع المؤامرة الحقيقية لا يمكن أن تشتبه فيها الفتاة الجامعية على الإطلاق)، زيارة تهدد بقلب كل شيء رأسا على عقب: «إذا تعرفت هاتان الصعلوكتان عليَّ أمام تيريسا، فلتستعد يا فتى!» حيث إن تيريسا، فى هذه اللحظة ذاتها، قد ظهرت فى الردهة بحقيبتها معلقة على كتفها وبنطلونها الأبيض وحذائها الصيفى وسألت بيثنتا عن الطارق؟ ركضت الكلبة الصغيرة نحوها وهى تهز ذيلها: «اثبتى يا ديكسي». وبينما كانت الأختان تقفان على شرفة المنزل (يا لملابسهما الفاضحة! كم هى شفافة! ظن هو مفزوعا) خلف مظهر بالغ التعبير عن البراءة، بدا واضحا حرجهما من وجود مانولو. وللحظة، أصبح الموقف مخجلا: انتظرت الخادمة أن يتحدث الضيوف ولكن الفتاتين تبادلتا النظرات مع مانولو وهو مع تيريسا وهم يلتقطون ذبذبات خفية. وثمة صلة بين العامل والفتاتين قفزت بطريقة سريعة وسخية إلى الاستنتاج الذهنى الذى لم تتوصل نتيجته الحالية سوى إلى الآتي: «إما أنهما

فاحشات وإما أنهما عاملات فى مصنع أو الاثنان معا». من جانبه، ظن مانولو أن الفتاتين لن تجرؤا على القيام بأى شيء وستغادران المكان بأية حجة ولكنه رأى فى فزع أنهما لا تنويان التراجع حين تأهبت إحداهما (المتخصصة فى المحادثات المسلية) لإسقاط اللفافة على صدرية صديقتها التى كانت قد انقطعت أثناء الطريق... حينئذ، تقدم مسرعا نحو الباب دون إعطائهما فرصة للحديث بينما قال لتيريسا:

– دعى الأمر لي.

وقبل أن تتفوها بكلمة، لمحتا كيف حضر الفتى إليهما، فتلعثمت إحداهما:

– أنت...

– هذا الأمر يخصني، لا تنزعجى حضرتك – وكررها مانولو هذه المرة إلى الخادمة التى اعترضت طريقه تقريبا. ابتعدت السيدة عن الباب وهى تنظر إلى سيدتها مبدية استياءها مما حدث. أمسك مانولو بذراعى الأختين بعنف وخرج بهما إلى الحديقة مبتعدا على قدر المستطاع من المنزل. وتحدث الثلاثة فى الوقت نفسه:

– اللعنة عليكما! أيتها الصعلوكتان!

– مانوليتو! يا للمفاجأة!

– سيرا إلى الخارج!

– مهلا! – تعجبت الأخرى – ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟ نعم، يا لها من مفاجأة جميلة! اترك ذراعى يا حلو، لعلك تظن أنك فى منزلك؟

– اصمتى إذا أردت ألا أكسر لك ذراعك – قال هو – واصلا سيركما دون النظر إلى الوراء. اذهبا بحيلتكما هذه إلى مكان آخر، إلى شقة أخرى، واضحكا عليهم. كيف خطر ببالكم أن تأتيا إلى هنا؟ واليوم تحديدا! ألم تريا السيارة فى الشارع، أيتها المجنونتان، دلالة على وجود أحد...؟

– وماذا حدث؟ حين نجد السيدة بالمنزل سنخرج من المكان خاليتى الوفاض، هكذا

كان سينتهى الأمر. ولكن كيف لنا أن نتصور ... – قالت صاحبة الثوب المقطوع – دعنى يا حبيبي، فأنت تؤلمني. ماذا تفعل أنت هنا؟ هل تظن أن لك الحق فى السيطرة علينا؟

– لا وقت لديّ لأشرح لكما. إلى الخارج.

– لا داعى للعجلة، واشرح لنا...

– نعم، هو كذلك – قالت الأخرى – وهل لنا أن نعرف ماذا تفعل هنا، إذا كان لنا أن نعرف؟ وأضافت الفتاة ربما من أجل تخفيف حدة التكرار وأثره السيئ قائلة بنفس النبرة: يا لها من مصادفة رؤيتك هنا، بعد كل ذلك الوقت دون رؤيتك...

قادهما مانولو نحو سور المنزل.

– اخرجا من هنا فى التو. سوف يعلم الكاردينال هذا الأمر.

وخلّصت إحداهما، الأكثر طولا، نفسها منه وواجهته، قائلة:

– اسمع، أنت لا تهددنا! بالكاردينال أو بغيره! فنحن لا ندين بشيء لهذا العجوز البخيل.

– لا أريد جدالًا وغادرا، هناك أناس من حولنا.

– وهل مازلت تعمل معه؟ لم أظنك غرا للغاية، يا بني. يا لتأسيس الكاردينال! سوف يأتى اليوم غير المنتظر الذى سيغشك فيه هذا الكاردينال، يا مانولو، وأنا أقول لك ذلك! ولكن دعنى فحسب!

– لا تصرخى أيتها الغبية.

– دون سب يا جميل.

ها قد وصلوا إلى السور وأدرك مانولو أنه لا يستطيع التخلص منهما بهذه الطريقة.

– حسنا، سوف أحكى لكما فى يوم آخر... إذن، ماذا؟ كيف هى أموركم؟ وكيف حال باكو؟ هل ما زلتم تتقابلون فوق سطح البيت؟ والخونى ...؟

– لطيف للغاية، بل ألطف منك، يا من لا حياء له. وياكو، سوف ترى... إذا قدم لك يد العون مرة أخرى: مازلنا فى انتظار أن تدفع ما عليك لنا. أيها الوغد!

– ششششه...! أنا لا أدين لكم بشيء.

– سوف نرى! هل كنت أنت أم الكاردينال؟

– كان هذا يا امرأة – قالت أختها – ألا ترين وجهه؟

– حسنا، فلتذهبا الآن...

– هذا ما قلته – أصرت الأخرى – فالكاردينال يمص دمك، ألا ترى ذلك؟

– حسنا، حسنا...

– الآن – وأكملت الصغرى الحديث، وهى تضربه على كتفه – لدينا تاجر آخر، يدعى رافائيل. هل تعرفه؟ أنجبت زوجته توأمًا من الذكور فى عملية واحدة ويوم واحد. ولكن دعنا من هذا، أيضايقك إن قلنا لك مرة أخرى ماذا تفعل هنا، إذا لم يضايقك؟ – كانت دائما الأخت الصغرى تقول أشياء غير مألوفة، فلسانها يسبق عقلها كثيرا ولكن اليوم لم يكن لمانولو الوقت أو الرغبة فى الاحتفاء بهما – أيضايقك؟

– نعم، يضايقني. ارحلا من فضلكما، سأحكى لكما فيما بعد...

كانت تيريسا تراقبهم من نافذة القاعة وهى تنتظر حاملة حقيبة البحر على كتفها، بينما تمشط خصلات شعرها. «اثبتى يا ديكسي»، هكذا أمرت كلبتها الصغيرة التى ظلت تفرك قدميها. لم تستطع الإنصات إلى حديثهم ولكنها لاحظت غضب مانولو وكيف أومأ أثناء الحديث معهما ودفعهما إلى الخارج. أما هما، فودعتاه بضحكة عالية وقبلتاه فى صدغيه (أمر لا يُعقل: الأخت، الأكثر طولا، حاولت أن تقبله سريعا فى شفتيه وشاهدتها تيريسا كيف سعت إليهما بشغف وبوقاحة مداعبة شعره بيديها السمراوين الممتلئتين اللتين احتضنتا رقبته، بينما هو يدافع عن نفسه أمامها ويدفعهما إلى الشارع) وفى النهاية، غادرتا.

– ماذا أرادت هاتان الفتاتان؟ – سألته عند دخوله. ودون أن تتوقف عن تمشيط شعرها، كانت تحاكيه على نحو ظريف وبتعبير ونبرة ينمان عن طريقة فيها استجواب لابد أن يبدو له وديًا، فأشارت إليه بإصبعها ومازحته قائلة: فلنرَ، أيها الشاب الصغير، قل لي: هل تعرف هاتين الفتاتين؟

ظاهرها مانولو وهو يفكر متجها نحو أحد المقاعد.

– كنتَ أنت الذى تبحثان عنه؟ – أصرت تيريسا وهى تضحك – يا للفضول... فجميعكم انقلابيون وشيوعيون، نحن نحيط علما بذلك جيدا. فلنرَ ماذا ستقول، وإياك والكذب: كيف عرفتا أنك هنا؟

أدار المُرسى رأسه بسرعة حادة ولم يسمح بلحظة من التردد:

– من فضلك، سأكون شاكرا إذا لم تسأليني عن شيء! – خفف من حدة نبرته – لقد تركت رسالة فى المنزل تقول إنه فى حال حدوث شيء طارئ يستطيعون أن يجدونى إما فى المستشفي أو هنا... يوجد اجتماع هذه الليلة. فلتغفرى للحرية.

نظرت إليه، فى حرج، وخفضت رأسها.

– لا تقلق مني. أنا أتفهم ذلك. أردت أن أمازحك قليلا فحسب.

– لا تمزحى إذًا – قالها بجفاء، لكن بألم شديد: كانت تريسيا مخلوقا ساحرا، لابد من الإقرار بذلك – واعذريني، فليس لديَّ أى حق أن أصيح بوجهك ولكن الأمر أكثر جدّية مما تتخيلين. ولا أريد إدخالك فى كل ما يحدث، فلا داعى لذلك.

أدخلت تيريسا المشط فى حقيبتها ثم اقتربت منه فى بطء. رأته يغرق فى مقعده، رافعا يديه فى إرهاق إلى رأسه، قلقا، مثقلا لسبب ما. كيف السبيل إلى الهروب عند رؤية هاتين اليدين الداكنتين والقويتين وهذا الوجه ذى الملامح العذبة والقوية فى نفس الوقت، تقريبا ملامح منغولية؛ كيف السبيل إلى الهروب من إيحاء بمستقبل أكثر كرامة؟ ففكرة وجود مؤامرة خلف كل شيء تلك التى كانت راسخة فى رأسها نظرا لطبيعة هذه

الفترة جعلتها تكتفى بما يمكن أن تفترضه رعشة طفيفة من الخوف بهاتين اليدين وبهذه الخصلات حالكة السواد حتى تدخل عن طيب خاطر إلى دائرة المخاطر المزعومة. – هل يحدث شيء ما، يا مانولو؟ – كانت تقف أمامه فى هدوء بالغ وساقاها ملتصقتان داخل بنطلونها الأبيض الرخو، بينما لا يزال هو ينتف شعر رأسه ثم فتح عينيه ورفعهما إلى مستوى ردفى الفتاة (يا لعذاب هذا المثلث الساحر) وعاد ليغلقهما وهو يقول:

– لا شيء. هيا نذهب. – ونهض – فلنذهب إلى الشاطئ من فضلك، فأنا أحتاج إلى القليل من اللهو.

وفى السيارة، أثناء الطريق (فى اتجاه شاطئ كاستيلديلفس بجنوب برشلونة)، انتاب تيريسا شعور بالحاجة الملحة إلى تكوين حكم على الفتاتين، حكم واحد فحسب، من أجل الحفاظ على سلامة المجموعة:

– لابد أن يقوم أحدكم بإقناعهما ألاّ يتزينا على هذا النحو. إنهما تبدوان كالعاهرات. – ثم أضافت –: لقد وجدت لك مايوهًا للسباحة، أتمنى أن يناسبك.

– بالطبع. والآن، أسرعي، أسرعى أكثر...! تجاوزيهم جميعا...!

اسمحوا لى

فأنا ذاهب إلى البحر

رامبو

تركض تيريسا «سيمونز» على شواطئ أحلامها، ترتدى البيكينى وتستلقى على الرمال تحت سماء شديدة الزرقة حيث تصل المياه إلى خصرها، وترفع يديها إلى أعلى (يأوى بريق ذهبى إلى إبطيها ويتراوح كانعكاسات الماء أسفل الجسر)، ثم تسبح بأسلوب رائع فيظهر وسط الموج جسدها السعيد بردفيه الرشيقين، الناعمين، وأخيرا يتقدم بطنها نحوه من البحر كقطعة برونزية حية ورنانة وهى تخفق بشوق، ويغطى جسدها كله الرذاذ والومض. يبتسم «جان سرات» ويحييه من بعيد، بذراعه المرفوعة إلى أعلى، يحيى المُرسى المدعي، هذا الكم الهش، الخادع، المجازف من الادعاءات والرغبات والأشواق التى لا يصح الاعتراف بها والمخاوف الموجعة (سأفقدها، لا يمكن أن تكون لي. سأفقدها حتى قبل أن يتسع لى الوقت كى أكون قطلونيا مثلكم، أيها الأوغاد).

والآن، هى تستلقى فى الشمس على منشفة كبيرة، ملونة، لا تناسبها كما لا يناسبه مايوه البحر الذى يرتديه أو نظارات الشمس أو السجائر التى يدخنها، فكأنما دائما يعيش مؤقتا فى منزل غيره: ماذا تفعل هنا، أيها الفتى، ماذا تنتظر من هذه الصداقة العابرة والهوائية بين محطتين مثل ديوان فى قطار سوى تقلبات طفلة غنية ومدللة، ثم الفراق، والتجاهل. أمن أجل رؤيتها فحسب على هذا النحو وهى تسير فى بطء، عارية، واثقة، تبرز من خلف أشجار النخيل والغابة المجهولة – ألم تكن تكن هى الجزيرة المفقودة هذا الصيف؟ – كانت تستحق العناء وكانت ملكا له. ملكا له لفترة أكبر من كونها ملكا لأبيها أو لزوجها المنتظر فى المستقبل، بل ملكا له أكثر من أى من الفتية الآخرين الذين

من الممكن أن يعشقوها ويمتلكوها غدا. ها قد فُتحت بين يديه مجموعته الخاصة من الصور المضيئة كما تُفتح مروحة يد بالغة الروعة: هو وهى ضائعان فى الجزيرة الذهبية الاستوائية، وحدهما، وقد لوحتهما الشمس، بَهيّيْن، طليقيْن، ناجييْن محظوظيْن من حرب نووية مرعبة (التى بلا شك وبلا ظلم، قُتلنا فيها جميعا، أيها القارئ، فهذه الحال لا يمكن أن تستمر طويلا)، يُنشئان كوخا كأنه عش، يركضان على شاطئ لا نهاية له، يأكلان جوز الهند، يصطادان حبات اللؤلؤ والمرجان، يتأملان لحظات غروب الشمس من الوهج والزمرد، يستلقيان معا فى أسرّة من الورود، يتداعبان، يتعلمان ممارسة الحب دون أن تتملكهما هواجس غيبية، فيما تستمر حقارة الحياة فى مكان آخر فيما وراء ذلك الانطلاق الرهيف لأعضاء جسد برونزى (كانت تيريسا لا تزال تتقدم فى تكاسل نحوه فوق الرمال) يزحف الآن بقليل من البطء عما يبدو لمن ينظر إليه، بوهن بطنها الذى يتأخر قليلا: الإيحاء بعدم الحركة وسط جو ضبابي، وعد مؤلم يبدأ من منكبيها ويلتف حول ردفيها ويمتد فى ميل على طول ساقيها كى يتدفق بحرية وينسكب كالضوء عند قدميها، حتى يصل إلى آخر نبضة فى كل خطوة. حضرت بابتسامتها المشرقة وبثمرة جوز الهند بين خصرها وذراعها، لاهثة، مبللة، جالبة معها شيئا من الخضرة الباردة للأقاليم البحرية وارتمت ببطء بجواره وثنت ركبتيها الجميلتين مطلقة سراح ثمرة جوزالهند. بدا جسدها معتادا على الركض والاستلقاء على الشواطئ كما لو كان قد نما فيها أو اتسم بطبيعة غريبة من أجل العيش هنا ودائما، تحت الشمس...

– ألن تستحم مرة أخرى؟ – قالت عند وصولها.

راحت تيريسا تبحث عن نظارتها الشمسية داخل حقيبتها جالسة على قدميها ورأسها منحن إلى أسفل، شعرها يغطى بنصف وجهها وبدا فى فخذيها المبللتين وفى ظهرها المستقيم فوق خصرها الناعم جمال حيواني. يا لعذاب هذا البطن الغارق، الطفولي، المضموم فى قبضة، الهدف المفضل لعينى المُرسى المسافرتين.

– أين وضعت نظارتى بحق الجحيم؟ وسألته: هل رأيتها؟

– لا، – كذب عليها ضاحكا (قد دفنها فى الرمل) –. تمددى هنا، هيا، وانسى أمرها. أريد أن أتحدث معك عن شيء ما، أن أطلب منك صنيعا.

– صنيعا؟

– نعم...

أخذ يراقب بعناية حركات تيريسا وهو يستلقى على بطنه وذقنه يستند إلى ساعده، كانت تتأمل. شعرها الفاحم والناعم يسترسل بميل فوق جبهتها. قليل من الناس على الشاطئ لأن الجزء الذى يرتاده الناس كان الجزء الذى به أشجار الصنوبر. قليل من الناس وبلا ملامح عن بعد وسط الضوء الجيري. هما كانا فى أحد الأطراف، منعزلين، إلى جانب بداية شريط ممتد من عشب المستنقعات الذى يتلاشى بعيدا. فى الخلف، ترقد السيارة الفلورايد فى الشمس كأنها كلب مترف. كانت تيريسا قد احضرت معها كتابا وراحت تقرؤه حتى هذه اللحظة فيما بين حمّامها الأول والثاني. كان فى ذلك الوقت تحديدا وهو يراها تقرأ بتلك الوداعة شبه المنزلية (ورأسها يرتاح على الكرة وقد شبكت ساقيها، تتأرجح فى نعومة من جانب إلى آخر) حينها شعر بأنه بائس مهمل ومرت بخاطره مثل البرق فكرة سرعان ما تحولت إلى هوس: فلنجرب أن نمحو الماضى وأن نبدأ من الصفر، فها هنا الفرصة، يا تيريسا (ومع تيريسا والدها) للحصول على أى وظيفة، وظيفة جديدة وربما وظيفة إلى الأبد تعد بـ... رددت تيريسا:

– صنيعا؟ أى صنيع تريد؟

رسم مانولو بإصبعه دوائر فى الرمل، شاردا، وقال:

– ليس الآن. كلا، مازال الوقت مبكرا. نحن الآن فى وقت الإجازات. سأحدثك بالأمر لاحقا. أريدك أن تعرفى فحسب أنه أمر مهم جدا بالنسبة لي. هل لديك ثقة كبيرة بوالدك؟

– نعم، بالطبع. حسنا، هذا حقا أمر طريف – فى إشارة إلى نظارتها الشمسية التى لم تجدها. والآن، أفرغت الحقيبة من محتوياتها على المنشفة – ألم تكن معك يا فتى؟

– لا يا آنسة.

أزاحت تيريسا الرمل من حولها. وبعد لحظات، عندما لاحظت تعبير وجه مانولو وهو يتأملها، سألته:

– فيم تفكر يا مانولو؟

– فيم تبغين أن أفكر. فيك.

– غير معقول! أنت فتى غريب حقا. أريد أن أعرف شيئا... – ارتسمت على شفتيها ابتسامة غامضة، لا تكاد تُرى بين خصلات شعرها التى تغطى وجهها وهى تزحف على الرمال التى تزيحها. وتتحدث كما بات واضحا من خلال المحادثات السابقة بفضول متزايد ونهم عن ماضى صديقها، ولكن ليس عن حياتها العاطفية (وتُنحى جانبا قصته مع ماروخا) التى مازالت لغزا غامضا –. أعتقد أن لفتى مثلك... هل كانت لك مغامرات مع هاتين الفتاتين؟ بالطبع، إذا كنت لا ترغب فلا تخبرني.

– هاتان اللتان حضرتا اليوم...؟ إذا أردت معرفة الحقيقة فهى أننى لا أكاد أعرفهما. لم تسألين؟

– آه، لا يوجد سبب، مجرد فضول.

– علاوة على ذلك وبعيدا عن العمل، هما لا تروقانني.

– تبدوان كما لو كانتا... انظر، هناك طائرة!

– هل كنت تتنصتين؟ أنا قلما أراهما ولكنهما مثل أختين بالنسبة لي. أتعرفين؟ طالما رغبت منذ صغرى فى أن تكون لى أخت.

فضحكت تيريسا وقالت: «الأفضل أن تظل هكذا، ساذجا للغاية»، ثم مكثت تنظر إلى الطائرة وهى تهبط إلى أسفل فوق متلاطم الأمواج.

– أيروقك أن أكون أنا أختك؟ – أضافت وهى تضحك – هيا، جاوبني، أيروقك أن أكون أختك؟ دائما ما كنت وحيدة وطالما رغبت أيضا فى أن يكون لى أخ وسيم وخفيف الظل.

فى هذه اللحظة، مرت طائرة صغيرة فضية، أزيزها مدوٍّ، تلقى وابلًا من المنشورات الإعلانية التى تطايرت بفعل نسيم البحر حتى وصلت إليهما. التقط مانولو لاهثا ورقة فى

الهواء وعند سقوطه أمسك بإحدى قدمى تيريسا، ولكنها ظلت تنظر إلى أعلى، تظلل بيدها على جبينها وتشاهد الطائرة وهى تبتعد. احترس، أيها المغفل، محدثا نفسه، من أفعالك الحمقاء؛ فتيريسا فتاة ذكية ولن تخشى أن تسمى الأشياء بأسمائها.

– لا – قالها تاركا قدمها – لا أريدك أختا لي. فأنت بالغة الحسن.

غطت أوراق الإعلانات الرمال المحيطة بهما وقرأت تيريسا واحدة منها، ثم رمتها. وقالت:

– بالغة ماذا؟

– أنت خلقت من أجل شيء آخر.

– من أجل ماذا، هل لى أن أعرف؟ – وفى الحال –: ولكن أين تركت نظارتى بحق الجحيم؟ – ظلت تتحرك على ركبتيها وتزحف وتتمرغ.

– ليتها ضاعت، نظارتك. من أجل الحب، أنت خُلقت من أجل أن تكونى حبيبة، يا تيريسا.

– لا تكن رومانسيا، من فضلك؟

– أنا أفعل ما أشاء، بما أن الآنسة لا تكترث.

– أحسنتَ القول. كنتَ ترتديها منذ لحظات، رأيتك وأنت تفعل ذلك، فأين وضعتها؟

– انظري، هناك جندول...

– ورجوعا إلى الفتاتين...

– ماذا تريدين أن تعرفى عنهما؟ الكبرى متزوجة و... منفصلة، لم توفق فى حياتها ولديها طفل رائع، سيروقك رؤيته، إنه أشقر مثل الشمس، مثلك.

– والأخرى؟

– شاهدى الجندول. يحمله رجل عجوز، لابد أن تشاهدي. لا يأتى كثير من الناس إلى هنا، أليس كذلك؟ هيا تمددى وانسى أمر النظارة.

– أحتاجها للقراءة.

– ليس من الذوق أن تقرئى وأنت فى صحبة أحد. الأمر أن الآنسة هى فتاة معتدة بنفسها ومدللة وتستحق أن تضرب بالسوط وسوف أدفعها للركض...

– بمناسبة الحديث عن الركض – قالت هى – ألم تركض قط بين الناس بينما لا تبتعد رأسك عن عصا رجل الأمن سوى بشبر واحد؟ لقد خسرت شيئا جميلا...

بينما لا تزال فى بهجة، تحفها هذه الهالة من المخاطر وما يُفترض من العلاقات والاتصالات الخفية التى تفوح من جلد المُرسى الأسمر (ما أنسب مايوه الوالد القديم، الذى زال منه لونه الأحمر القاني، لهذا الجلد الناعم كالحرير)، بدأت تروى له بعض المخاطر التى تحملها الكفاح الجامعي:

– ... طالب آخر كان يركض أمامى – قالت تيريسا سيمونز المدهشة، تاركة منكبيها يسقطان على نصف المنشفة الخالى وتاركة، أخيرا، البحث عن نظارتها –، ولكننا افترقنا عند شارع البيلايو. الشيء الخطير فى المظاهرات أنها ممتعة للغاية، والشيء الآخر الخطير هو فقدان الاتصال أثناء أوقات الاعتصام على عكس ما يحدث فيما بيننا حيث يكون الأفضل هو بقاؤنا منعزلين دائما... لذلك، عدت مع صفيق المظاهرات الذى يتيح فرصة الانضمام من جديد وحينئذ عاد رجال الأمن ليهاجموا مرة أخرى بخيولهم، وفجأة، وجدت نفسى ملقاة على الأرض، مازالت هناك علامة فى ركبتي، انظر. ساعدنى أحدهم على النهوض، كان حارسا شابا، أتذكر لون عينيه الفاتح للغاية، عينان خضراوان، بالطبع كان من الفلاحين، بدا مذعورا أكثر منى ولكنه دفعنى برقة نحو عربة الأمن، فانقلبت عليه ولكمته وركلته، مازلت لا أفهم كيف لم يضربنى بعصاه وتمكنت من الفرار منه ولكن لم يكن هناك مجال للهروب من هناك، فالفوضى كانت عارمة، كنا على الأقل مائة طالب فى هذه الزاوية، مكدسين بعضنا فوق البعض، كلنا كنا عبارة عن أذرع وأرجل مبعثرة فى جميع الاتجاهات، كنا نفكر فى الهروب فحسب... اسمع، هل لديك متسع كاف؟ أتريد أن...؟ انتظر، اجذب المنشفة تجاهك، هكذا لديك ما يكفيك، اقترب يا رجل. أتريد التدخين؟

- حسنا.

- حسنا، كما قلت لك... إنه وجه من الكفاح لا تعرفه. أشعل أنت أولا... فلم نكن نفكر سوى أكثر من...

اقترب مانولو بسيجارته منها.

- تفضلي.

كان شذا خصلات شعرها الذهبية والمنسدلة على رأسها الجميل احتضارا آخر: انطفأت الشعلة بين يديها، فلم يرد سوى أن يستنشق مرة أخرى عن كثب ذلك الأريج القادم من فترة مراهقة لا يعرف أين ضاعت أو كيف يصفه. مرة أخرى، لامس بشفتيه الجبين المصقول المائل تجاه شعلة السيجارة الوردية وبعد ذلك، ابتعدت هى ونظرت بجدية غريبة إلى عينيه السماويتين بينما لم تستمر نظرة الفتى لأكثر من لحظة.

- حسنا، هكذا كان كل شيء حينما صرخت أنا، بأن أفضل حل هو اللجوء إلى الجامعة، ولكن أظن أنه لم يسمعنى أحد. كان ذلك المخرج الوحيد وبطريقة ما، استطعنا أن نصل إلى غايتنا. ولكن الناس كانت تعوقنا بدلا من مساعدتنا لأن الكثير منهم كانوا يتأملوننا دون أن يحركوا ساكنا، حتى إن البعض منهم مثل من يتقدمون الصفوف يبتسمون و... فى نهاية المطاف، قبضوا عليَّ وتهتك ثوبى ولم أعد أرى لويس أو الآخرين حتى أخذونى إلى مقر الأمن... حققوا معنا... كان شيئا وحشيا، لم أحكِ لك؟ تصور أن...

كانت عيناها مفتوحتين بشدة وناشبتين فى السماء - فلقد أسرتهما إحدى أزمات المثاليات التى باتت تفتقدها بعد مرور أعوام ووسط اضطرابات عدة وموجات من العلاقات العاطفية المتعاقبة -، وشهَر الضوء فى شعرها الأشقر سيوفا صغيرة ولامعة من الذهب. كان مانولو يتأمل ملامح وجهها على خلفية شفافة من الرمل والبحر وبينما ينصت إليها ويومئ برأسه من حين لآخر فى صمت، كان يتصور خِدَعًا براقة (تيريسا تسقط على الأرض تحت سنابك أحد جياد الحراسة وقد تمزق ثوبها، تصيح فى مقدمة المظاهرة الطلابية، يتم استجوابها تحت ضوء خافت، ثم يتم إنقاذها على يد والدها فى مقر الأمن)

ويقترب منها أكثر دون أن يعرف جيدا، الآن، أمن أجل استنشاق شذا شعرها عن كثب أكثر أم لاختراق رغبة حميمة ودفينة قد أخفتها هى وراء روايتها اللامنتهية (ألا تذكرنا قليلا على مستوى آخر بثرثرة لولا؟)، لكنه يعرف أن هذه الرغبة أيا كانت تستطيع أن تنمو بهدوء وبسعادة فى رحمها أو فى صدرها المراهق لأنه عاجلا أو آجلا سوف تتحقق. هو فقط يستطيع ألا يكون بالقرب منها كى يراها تتحقق.

– ألم تشعرى بالخوف قط؟ – سألها – أنت فتاة شجاعة.

– مانولو، هل لديك جواز سفر سارى الصلاحية؟

– لمَ تسألين؟ بالطبع، نعم.

– من الأفضل أن تكون مستعدا. أنت تعرف: حال اضطررت إلى الهروب سريعا، فتعبر الحدود. لن تكون أول من يهرب.

– ما أغرب أفكارك يا فتاتي. سوف أكون من الموتى.

– ماذا تقول؟

– سوف أموت لو اضطررت إلى الرحيل.

– لا أفهمك...

وفى إصرارها على فكرة الهروب المفترض، تشنجت أعصاب تيريسا فى حركة مفاجئة وهى على المنشفة وتنظر إلى وجهه وتضع كفيها المضمومتين أسفل خدها، فى إيماءة طفولية كأنها طفلة صغيرة قبل النوم ورمقت صديقها بنظرة ثاقبة وقالت: «ماذا تريد أن تقول؟» عثرت عيناها المتلألئتان بنور باسم، بنظرة حنين غير متوقعة من الفتى. ولعبت شمس الغروب الشاحبة بحبات الرمل التى علقت بمنكبها الراقى وعكست من خلالها ألوان قوس قزح البراقة. عند رؤيتها على هذا النحو وعلى هذه المقربة (عيناها تنظران شزرا قليلا)، استرجعت تيريسا اللحظة التى سارا فيها نحو شاطئ البحر بعد خلع ثيابهما فى السيارة، حيث تتبعه هى بمترين وتتابع بعينيها كيف يلائمه المايوه القديم

وتتأمل ظهره الممشوق وعرض منكبيه المستقيم وظنت على نحو غامض: «كانت العزيزة الخبيثة ترتجف بين هذين الذراعين خلال ليال وليال، بينما أنا أقرأ لبوفوار عنهما فى حجرتي، وحدي...» حينئذ، بدا لها أنها تلتقط فى ظهر الفتى الأسمر وفى طريقة سيره، تعبيرا عضليا عن بعض الآمال المجنونة. والآن، أبْعَدَ خصلات شعرها بيده ونظرت تيريسا إلى أسفل، ثم حطت يده (اليد المجروحة بالطبع) على رقبة الفتاة، ضاغطة برقة على ظهرها. كانت رقبة تيريسا الناعمة تنبض بين أصابعه كالطير المذعور. «أنت جميلة للغاية، ولديّ شعور أننى سأضطر للهروب فجأة لأى سبب كان، وأننى سأضطر إلى تركك. لا تستطيع أى من حماقات السياسة أن تجعلنى أنساك... («سيئ، إنك تسيء التصرف، أيها الجاهل»، قالها لنفسه) واقترب منها أكثر ولامس شفتيها الدافئتين المفتوحتين حيث تُرى من خلالهما أسنانها اللبنية. فهمست تيريسا وهى تنظر إلى أسفل: «من فضلك، ماذا تفعل...». بدت تفكر بعمق وتركيز شديدين فى نفسها: أصبح فراقهما وشيكا. وأضافت فى همس:

– كنت أعرف أن هذا سيحدث. كنت أعرف... إن الحياة مقززة.

– لا تقولى هذه التفاهات.

– ليست تفاهات. وبالرغم من أنك قبلتنى فإنى أحذرك، انزع من رأسك فكرة أنك تمارس الحب معي. أنا صريحة جدا يا مانولو، فأنت لم تعرفنى بعد. لقد مررت بتجربة ولا أريد تكرارها.

– من تحدث عن هذا؟ معى لا تخشى شيئا – كانت إجابته الغامضة.

– لن يتكرر ذلك أبدا، أفهمت؟ – أصرت تيريسا وعيناها دائما مغمضتان.

– اسمعي، هل لو اضطررت إلى الذهاب سريعا، ستفتقدينني؟

– أتعنى لو حدث مكروه؟

– نعم.

– طبعا.

– لماذا؟

– لأنه كذلك... لا أعرف – تنهدت –. ما أغرب كل هذا! أليس كذلك؟ أنت وأنا هنا فى غاية الهدوء ولم نكن حتى نعرف بعضنا بعضا منذ شهر... ما أغرب هذا الصيف! لو أنّ مَنْ فى المنزل أو أصدقائى عرفوا أنى أخرج معك... – أطلقت ضحكة عصبية ومُلهية – لكن هذا أكيد يا فتى، يا لشدة الخوف من قول الأشياء: سأكون آسفة للغاية إذا حدث لك أى مكروه.

– سوف تنسيننى سريعا.

– أنا، ولمَ؟

– أنت شابة صغيرة، تقريبا طفلة، سوف تنسينني؛ وتتزوجين من أحد الحمقى...

– أنساك، هذا مستحيل؛ الحياة تغير الأحوال، لكن أنا لن أتزوج أحمق حتى لو كان فى غاية الثراء.

– سوف ترين.

– يا لقلة معرفتك بي!

– هذا هو الطبيعي. – داعب شعرها وكتفيها الناعمين ورقبتها –. ما أسهل الوقوع فى حبك، ما أبسطه! إنه أبسط شيء فى العالم. أنت فتاة جميلة وذكية...

– ولكن ماذا تقول؟

– أقول إنك خلقت للعشق (خطأ، خطأ كبير، أيها البائس، ماذا حدث لك؟). أنتِ ملاك.

تلامست أجسادهما. وظلت تيريسا تنظر إلى أسفل.

– من فضلك... دعنا لا ننسى أمر ماروخا...

كان الهواء الجيرى يرتعد فوق الرمال كأنه بخار أحاط جسدهما معا. كانت تيريسا تنظر إليه وهو يرى نفسه داخل الدائرة الشاحبة لحدقتى الفتاة الشفافتين الساذجتين. وبفعل النسيم صارت المنشورات الإعلانية تحوم حول رأس المُرسى المذهول. وقفزت تيريسا لتقف كما لو أنها استيقظت.

– هل ستنزل البحر؟

– بعد لحظات...

– أيها الكسول!

هربت مهرولة نحو الشاطئ وعند عودتها: فهو كان يرى أن استحالة بلوغ بعض ما يوحى به الجسد من القسوة غير الآدمية تقريبا: انبساط خصرها المزدري، حياة ردفيها الشاردين والهوسيين، التنوع الغريب بين الحنان والازدراء الذى تعد به كاحليها الممتلئين قليلا وذلك التوقيع الزاهد والناعم لانحناءاتها. كان يدرك أيضا أنه لم يحسن استغلال الوقت الذى مُنح له اليوم ولم يغتنم أيًّا من مزايا التقرب إليها وأنه لا يزال يتخيل لعل أثناء السباحة يحدث أن تقع مغشيا عليها، فيخرجها من الماء حاملا إياها على ذراعيه، مبللة، ثم تفيق على الرمل... لكن الأشياء عادة لا تحدث على هذا النحو: هو يتكئ على مرفقه ويلهو بنظارتها الشمسية (التى أخرجها مرة أخرى)، بينما يراقب تيريسا بتمعن وهى تخرج من الماء، فيراها تمر بالشاطئ للحظة، تلهث، تهز شعرها الأشقر، تمشط خصلاته بأصابعها. تتلألأ الشمس بومضات نحاسية على جلدها. يرتدى مانولو نظارة الشمس ويتمدد على وجهه فوق المنشفة. حينئذ، يرى تيريسا قادمة نحوه مباشرة وفى بطء وهى تطأ الرمال برقة دون أن تنظر إلى اليمين أو اليسار، فى ليلة زرقاء، وشيء ما حلّ محل البخار الحائم حول الرمال الساخنة، شيء يشبه قطع السحاب فى جزيرة ما؛ وفى هذه الليلة المباركة، الزرقاء أو الخضراء (ألم تكن خضراء عدسات النظارة الشمسية؟)، يشاهدها وهى تتقدم نحوه، كما لو أن الفتاة تواصل مسيرة قد استهلتها منذ يوم بعيد مازال ضائعا فى ذاكرتها: كانت نفس الخطوة غير الحقيقية والخفيفة التى قامت بها الطفلة فى الليلة التى عبرت فيها مساحة الفراغ فى الغابة الغارقة فى ضوء القمر، وكأنه منذ ذلك

الحين وقد جعلت تدنو منه تلك الصداقة التى وُلدت على خلفية مضببة ومشبوبة لحلم، وتمتد الآن من خلال خطوات تيريسا البطيئة والمحسوبة. وهذه المرة لم تتجاوزه، بل أتته وجلست إلى جانبه وسألته بصوت خجول: «ألن تقبلني؟» (فى الحقيقة، قالت: ألن تستحم؟) وأضافت: «لم خبأت نظارتي؟» ومكثت هناك تاركة قطرات الماء تتساقط من شعرها على منكبى المُرسي، لا تبعد سوى شبر واحد عن فمه، تضم فخذيها معا فوق المنشفة كما لو أنها تستشعر ذلك التهديد غير المرئى فى سلوك شبه واع بالدفاع عن النفس. ولكن كانت تعلوها وتعلو رأسها البتول، فى السماء العليا، شمس الرغبة والتملك الحارقة البراقة بقوة شديدة، وفجأة أمسك الفتى بمنكبيها وجعلها تتمدد على ظهرها دون عنف ولكن بقوة، وهو ينظر إلى عينيها العميقتين كالبحر، فى الوقت نفسه الذى يهمس إليها فيه بشيء بين شفتيه لم تفهمه (ومع ذلك، بدا لها كإحدى هذه اللعنات الغامضة التى تفرضها الرجولة فى قمة عنفوانها، هى صوت الجنس الذى يفسح لنفسه مجالا بين مظاهر تكلف البرجوازية الصغيرة ومآزقها)، كما باتت قلقة من سرعته فى خفض رأسه الذى حجب الشمس تماما. كان فى الحقيقة يستطيع أن يوجه وجهه يمينا أو يسارا ولكنه لم يفعل ودعته يقبل شفتيها المالحتين بقبلة طويلة. وبمفاجأة لا تقل لذة عن التى صنعتها هاتان الشفتان المندفعتان نحو شفتيها اللتين بدورهما لم تكن لتدعهما تستمران فى تقبيلها على هذا النحو الجسور، لاحظت معدته الأبنوسية وفى وجنتيها شعور بحياة غير متوقعة تنمو بين ذراعيها، رفعت يديها واحتضنت بهما رأس مانولو، مدلكة شعره فى حنان يائس: قبلاتها الأولى كخطواتها الأولى تجاه المقاومة الجامعية، بدت مرتبكة بشكل فظيع وهستيرية فى الأساس.

تركت المبادرة برمتها بعد ذلك فى يدى المُرسى دون أن تتخذ احتياطاتها أو تكترث لكونهما على مرأى المصطافين المستلقين على بُعد منهما، تركت يديه الجريئتين تتخللان أسفل النسيج الرطب الذى يغطى ثدييها، كما سمحت له فى حركة طفيفة (مبدية، فى ادعاء غامض، رغبتها فى تغيير وضع غير مريح بعيد تماما عن معاناتها) أن يعتليها بشكل أفضل. ولكن ليس أكثر من ذلك؛ فهى تستطيع أن تهبه للحظة هذا الزغب الأشقر المحيط بفمها وحتى السماح له ببعض المداعبات الشريرة – كما تفعل كل الفتيات –، ولكن لا أكثر

من ذلك: لا تقبل أن يعتبرها برجوازية مشوشة من السهل إفسادها أو غير واعية بالحقائق الأخرى (الضرورية) التى تسمو على المغازلات الشبابية. ومع ذلك وبعد لحظات، لم تستطع مقاومة إضافة عدة درجات إلى زاوية فتحة رجليها. ولحسن الحظ، وصل فى اللحظة ذاتها رجلان بدينان، يرتديان لباسى بحر أسودين، بشعين، ساقطين على أرداف بيضاء تملأها حبوب وردية وجلسا على بعد أمتار منهما وهما ينظران إليهما على نحو صارم. ابتعدت تيريسا بنعومة عن صديقها الذى نظر حوله باحثا عن سبب الابتعاد. لابد أن لنظراتهما سرا قويا، حيث رأت تيريسا السيدين المتعجرفين يهتمان، فجأة، بمتابعة عدد السحب المنزلقة عبر السماء، بينما يستلقيان على ظهرهما على الرمال وتتشابك ركبتاهما. ثم أغلقت تيريسا عينيها وبقوة دفع جديدة، عاد الفتى إلى فمها الذى مازال دافئا دون أى مقاومة منها. الثقة فى قوة عزيمته الغامضة التى نقلت إليها موجات حارة تدعوها للاسترخاء، لم تكن مع ذلك تثير دهشتها مثلما فعلت يداه التى بعد أن سيطرت على خصرها ومر ذراعه من تحتها، جذبتها الآن نحوه وجعلتها تميل فوق كتفها، فاكتشفتا أسفل شريط البيكينى أنهما بداخل حقيبة تفاح.

تحرك الجزء الأعلى من المايوه عن موضعه الأساسى وصار نهدَا تيريسا يشبهان وجوه الأطفال عند التصاقها بجدار زجاجى، ترتشفان بفارغ الصبر صدر المُرسى العريض، بينما ظلت هى تتعهد لنفسها أثناء انفجار أضواء قزحية الألوان فى السماء ألا تستسلم، خاصة حين تركها بغتة، كأنما استطاع أن يخمن ما كان يجول بخاطرها. وفى محاولة غير مجدية ومتأخرة لتثبت لنفسها أنها هى من أخذ المبادرة، قالت: «إنهما ينظران إلينا»، ولكن حينها كان هو من قرر ألا يذهب بعيدا مما أثار إعجابها بالطبع. ودون وجود لأى تفسير بينهما التقت يداهما على علبة السجائر فبدآ يضحكان. وبعد أن أصبحت هى أكثر هدوءا (وبالأخص، أكثر سعادة وسعادة وسعادة)، تركته تيريسا يحتضنها برقة، كالمحب حنونا ومهموما: راكعا أمامها. وضع مانولو السيجارة بين شفتيها وأشعلها وأزال عن ظهره الرمال ثم رتب الأشياء المحيطة بهما وانضم إليها وحرك أطراف المنشفة التى عاد ليبسطها حتى تجلس الفتاة بأريحية.

ظلا يدخنان ويتأملان البحر معا، فى صمت، ثم بدأت السماء تلقى بظلالها حين قررا الرحيل. وفى هذه المرة، خاب أمل مختلسى النظر البدينين والحزينين.

...كان الأريج يعم حديقة الليلة ويرقص الأزواج على ساحة الرقص وتنطلق الموسيقى والألعاب النارية فى سماء ليلة «القديس يوحنا»(١٨) وكانت هى مذعورة للغاية. كان ذلك خلال استراحة قصيرة، بعد فترة إعداد وتوزيع صينية أخرى من الأكلات الخفيفة عندما قلت لنفسي: انظر، سوف نجلس برهة على حافة حمام السباحة كى نشاهدهم وهم يرقصون ونبقى بجوار الآنسة الجالسة وحدها، الآن التى دائما ما تفوق كل الموجودات فى الحفلة جمالا ولطفا كما أنها أكثر المحسودات، ولكن أيضا أكثرهن عُرضة للنقد. إذ فجأة، رآها قادمة نحوه حاملة كأسا فى يدها، فبدا هادئا وحازما: لم تكن لتقف أو تميل ولو لمرة واحدة وكأن من يرقصون عليهم أن يفسحوا منصة الرقص تلقائيا لحضور آخر دائم هناك، لا يحتاج إلى الإعلان عن قدومه. لم يبدُ هو مدركا لهذا الأمر، بدا واثقا بنفسه تماما، يا لوقاحته (من كان ليتصور أنه سيكون بهذه الجرأة). أما هي، فشعرت بضيق فى صدرها حين رأته متجها نحو تيريسا ولكن عند وصوله... – حينئذ، فكرت أنه لا يمكن أن يحدث أن نذهب إلى الرقص على الساحة مع الآخرين، لا يمكن يا حبيبي، هل تفهم؟ كنا نجلس فى الركن الأكثر ظلمة فى الحديقة –.

...استند برأسه إلى بطني، يتأمل أشجار الصنوبر والشاطئ السابحين فى ضوء القمر، بعيدا عن النافذة المفتوحة، وظل يتحدث ويتحدث حتى غلبه النعاس وبشفتيه الجميلتين الشبيهتين بفم الثعلب وبشيء عذب فى صوته، رعشة ما، همس بشيء لا أعرفه، شيء ينم عن الدهشة والاحتياج تنقله رقبته إلى أحشائى ويروى لى لمَ وكيف جاء يوما إلى المدينة، منذ عدة أعوام، حتى ينتهى به الحال على هذا النحو وبهذا الحماقة بين يدى خادمة، فى مصيدة للفئران، أظن هذا هو ما قاله، لا أتذكر جيدا. الأفضل أن أتذكر لحظات صمته، الأشياء التى لم يذكرها قط، الأصدقاء الغامضين، فتيات الحى الجريئات اللاتى يسكن عينيه، المعاملة العنيفة واليومية مع حياة الشارع ومع اللصوص ومع عائلته ذاتها، بينما يدعى هو ألاّ وجود لأى من هذا: لا يتحدث عن أهله مطلقا ويرفض حتى أن يذكر أسماءهم، اسم أخيه الأكبر أو زوجته وأبنائهم. هم ليسوا سوى مجرد ظلال وراءه، كائنات لا وجوه لها، أشخاص ممسوحة من تاريخ يحاول دائما أن يتجاهله. ومع ذلك، لابد أن يكون له منزل، لا مناص وأن تظهر فى جزء منه يدا امرأة، تكدّان من أجله، تغسلان

وتكويان قمصانه الجميلة ذات الجيوب الصغيرة وتضعان طبقه على المائدة يوميا... وهذا المنزل بالكرمل، ما أقربه وما أبعده: حين تمطر ينقطع عنه النور، الأمر الوحيد الذى يقبل الإفصاح عنه بسخرية فى كل مرة تسأله فيها ماروخا، فهى الوحيدة التى تستطيع أن تتخيل فكرة أن تنطفئ، بغتة، لمبة صغيرة فى غرفة طعام صغيرة بينما تمطر بالخارج ويُسمع صوت المطر عند سقوطه على صفيح الأكواخ، مما يجعلها تغرق فى الظلام والغموض وتجعل حياة شاب فى منزل عائلته غير محتملة. وبما أن حبه للفقراء هو عمله الخير الوحيد، فهو لن يتعلم أبدا أن يحب من يحبونه. أدرك ذلك؛ فالفتاة منا هى كما هى يا آنستي، وأنا أجهل الأمر ومعرفتى بالرجال قليلة، ولكن القليل الذى أعرفه عنهم، فى الفراش وتعلمته معه، أسنانه الجميلة الحادة كأسماك القرش لا تنتمى إلى أحد سواى وهو لا يقدر على خيانتى فى هذه الليلة الاحتفالية: فهو شخص وضيع بوسعه أن يخلط بين الثراء وبين مجرد وجه جميل وأن يقبله على هذا النحو الملح كأنما أراد أن يمتص العالم بفمه. من المستحيل تصور أن له أبوين وإخوة وأسرة يحبها وتنتظره فى مكان ما، فمن المستحيل أيضا تصور منزله، غرفته، فراشه، المرآة التى ينظر فيها ويمشط شعره كل صباح. فى الحقيقة، لم يبدُ أنه يحتاج إلى أحد يعتنى به ولا حتى إلى أية امرأة، كان يبدو مكتفيا بذاته، كما أوحى تجواله المستمر فى المدينة بإحساس غريب، لمن لا منزل له، ويتعزز هذا الشعور على نحو أكبر حيال رؤيته وهو يركض بدراجته النارية أو وهو يلعب الورق مع كبار السن. كل ذلك تستطيع أن تتكهن به فى تعبير وجهه وهو نائم عندما ينطفئ صوته بجانب كتفى ولا يزال يطوف فى الهواء خداع خطواته الأولى وهى قادمة نحوى من بعيد: ها هو، يسير وحيدا بين شوارع ماربيا، حاملا حقيبة بحر على كتفه بعد أن فر من رُنْدة. يتوقف، ينظر إلى زجاج المحلات، يستمع إلى موسيقى المقاهى وإلى لغة السائحين. ينزل إلى الشاطئ، يبلل قدميه فى مياه البحر، يراقب بعينين شبه مغمضتين مرور زورق يقفز فوق الأمواج، ثم يبرز وجهه الهزيل، الأسمر، المقلص من الموجات المتتابعة من المفاجآت والقرارات، ومن ورائه خلفية من المبانى قيد البناء ودوى من الحديد والطوب يسقط فوقه، ووسط سحابة من الغبار تصدى لها بعينين باردتين أسفل جناح قبعة رئيس عمال. نريد فرصة عمل، يا مواطن، نحتاج إلى العمل. وهذا حصاد عام

فى حياة عامل بناء: اليدان سمراوان وخشنتان هما مصيرى ومفاصل أصابع تبدوان جميلتين كخشب المُغنة، تنقلان من مكان لآخر دلاء من الماء والحجارة والرمل على عربة يد بعجلة واحدة، تطيعان أوامر وصيحات تقع عليه من السقالات الخشبية مثلما تقع العصافير المجنونة من شدة حرارة الشمس. وفى الليل، تستريحان مثل خطاطيف صدئة على فراش غرفة مشتركة مع رفيق يعمل نادلا، ابن ميخاس، الذى يحتفظ بمدخرات فترة عمله فى بطانة سترتة. جسده يشتد ويقوى، بينما هاتان اليدان اللتان تُلبسانه وتنزعان عنه الملابس كل يوم وتنفقان فى ليلة السبت كل المال الذى جناه طوال الأسبوع، تتنزهان المرة تلو الأخرى أمام المقاهى المترعة بالسائحين ولا تزال تفوح منهما رائحة الأسمنت والجص، هاتان اليدان هما أنفسهما اللتان فى يوم أحد مشمس على الشاطئ، انقضتا داخل الماء على يد أخرى فى يأس، مدعيتين أنهما قد أخطأتا الشخص، لأنه هكذا بدا الأمر برمته: سرعان ما تأسفت عيناه وابتسم: هى سنواته الخمس عشرة التى تبدو ثمانى عشرة قد قضاها فى عمله القاسى وتحت الشمس التى شكلت هذا البدن الذى تتنزه أمامه، الآن، عينان خضراوان، أستطيع أن أراهما: إنها امرأة صغيرة، ممتلئة إلى حد ما، لكن خصرها جميل وبشرتها ناعمة ولطيفة. من المؤكد أنها امرأة طيبة، السيدة؛ يعترى تقوس فمها فضول وخوف وصبر لا ينفد؛ ويملأ بطنها الناعم، الناضج، البرونزى حنين مقدر ومشروط بأوقات الصيف. هل السيدة سويدية، ألمانية؟ كم يوما ظل هو يستحم فى هذا الشاطئ وفى نفس التوقيت، بجوارها، يتجسس عليها وهو ممدد على الرمال كالعظاءة؟ من المؤكد (أى، نعم، من المؤكد) أن القميص الوردى الذى كان يرتديه ذلك اليوم كان هو الحجة: هى اشتهت القميص عندما رأته يرتديه وهو قادم وأرادت شراءه لأنه بدا لطيفا وأصليا بعد أن زال لونه من أثر الشمس، هى نزوة مثل نزوة القمصان المقلمة بخطوط زرقاء وبيضاء التى اكتشفتها الآنسة فى أحد محلات بلانس فى صيف ما، رخيصة للغاية، وجعلت منها موضة بين صديقاتها... ثم تأتى قصة الخادمة التى لا تعرف إذا ما كان هو من رواها لها أم هى من حلمت بها (انتظر يا حبيبي، لا تذهب الآن، لا تتركني، فما زال لديّ المزيد) ولكن تظهر خادمة، تمر سريعا، تتمنى نسيان متاعب اليوم المجنونة: أفواه الليل الشرهة والوجوه المنتفخة المدهونة بالكريمات عند الاستيقاظ، وجوه ناعسة وراضية

تعود إليه كأنها تسافر عبر نفق مظلم: لأن اليوم الجديد عندما استيقظ هنا بجانبي، كنت أقول له إن الحياة تكمن فى مكان آخر. لذا انته من عملك، الآن، حتى لا تعمل شيئا على مدار شهر سبتمبر سوى إنفاق مدخراتك وأنت جالس فى الحانات. السيدة الألمانية الحزينة تعود إلى بلدها، تصل فى الخريف وقد باتت فكرة حمل الرمال والحجارة خلال شتاء جديد غير محتملة. إنه رجوع هادئ إلى الساحل (ساحل توررِيمولينوس: للعمل فى مطبخ أحد المطاعم، ثم كنادل) حتى يصل، فى نهاية المطاف، إلى مالقة (أسبوعان من العمل فى محطة للوقود)، فتمتلئ رأسه بصفير القطارات حتى يقرر الرحيل إلى برشلونة، إلى منزل أخيه...

هنا، تفقد هى عصب الحكاية، تتقلص قليلا فى الفراش وتتكئ على الوسادة المائلة على جسدك القوى العارى الذى يتنفس حلما «هل أنت نائم يا مانولو؟». غاب القمر منذ قليل، وهى مازالت مستيقظة، عائدة إليك، لا تكلّ من رؤيتك. إنه ماض من الصمت والظلام: ألأنك تخجل من سرده أم لأن النعاس يغلبك، لن تحكى عمّن أتى بك إلى هنا أو كيف عرفته- بالتأكيد فى محطة الوقود نفسها التى يعمل بها، كما لم يعلق قط عن رحلته وعن الأشياء التى رآها -، لا يقول سوى أنه فى كل مرة تقف له سيارة لتقله يتعلم فيها كيف يعيش وهو يحمل ثلاثمائة بيزيتة فى جيبه وحقيبة بحر على كتفه ويرتدى صندلا جميلا كان لرجل إنجليزى (قصة أخرى لم يُرد أن يحكيها لي) ترجل من سيارة تحمل أرقاما غير محلية فى ميدان إسبانيا فى منتصف أكتوبر من عام ١٩٥٢. كان اللقاء فى مدينة برشلونة الرمادية تحت المطر، حيث تُرى السحب المتراكمة عند نهايات الشوارع ويُسمع تحت الأسفلت خرير الماء الجارى تحت الأرض، حيث يبغى المرء أن يكون فى العشرين من عمره، أليس كذلك؟ هى وحدها تعرف نهاية هذا الطريق، قبلة معينة يستحضرها المسافر بشوق: أطل برأسه من الشباك الصغير للسيارة التى تقله، رأس جميل نحيف أصهب، وهناك ظل هو، واقفا، يشير بيده بينما تبتعد عنه السيارة وتواصل رحلتها إلى فرنسا. اقترب من أحد سكان المنطقة وسأله عن جبل الكرمل، ثم ظل يجول بالمدينة، دون تعجل، معلقا دائما حقيبة البحر على كتفه، حتى انتهى به المطاف بالاستسلام إلى إغراء ركوب الترام؛ من المؤكد أنه بات يضحك من خلف الزجاج عندما وجد نفسه معصورا بين الناس وينظر

إلى كل الأشياء بعينين مندهشتين: مازال غير قادر على التمييز بين الجماهير، مازال أمامه الكثير حتى يفقد براءته، حتى يتعلم أن يفتح لنفسه مجالا بين هذه الأزواج الأنيقة والواثقة. كان يتقدم نحوي، المسكين، لا يعرف من أكون، لا يعرف أني لم ألبث أن وضعت الصينية، أني لمحته وهو يدخل، ومع ذلك، إذا طلبني للرقص سأقبل عرضه حتى لو قاموا بطردنا شر طردة، حتى لو أشاروا لنا جميعا بأيديهم، الأفضل هو أن نذهب إلى حيث لا يروننا يا حبيبي، فلنذهب إلى الظلام، إلى الظلام الأكثر دماثة...

دائما ما تنتصر الهيئة الجميلة

على قرارات الدفاع عن النفس.

بلزاك

- أنا ذاهب

كان دائما ضعيفا إزاء إغراء التحدى وخصوصًا التحدى الفردي. ربما لهذا السبب ولقدرته على تركيز خياله أمام أوراق اللعب ولجديته وصبره وتقديسه للصمت، استقبله مدمنو القمار العجائز بحفاوة كبيرة على طاولتهم فى حانة ديليثياس منذ أن كان شابا صغيرا. وقد اعتاد مانولو اللعب معهم من أجل الاستمتاع باللعب وليس من أجل جمع المال: كان يتملق العجائز بإصراره على أن لعبة المانييا[1] هى أفضل أنواع لعب الورق، ولكن الآن ومنذ وقت قليل، بات يفضل الطاولات التى تعج بالشباب الذين تجاوز عمرهم الثلاثين ولم يتزوجوا بعد ويمارسون ألعابا أقوى مثل لعبة الراميرو ولعبة الـ٤٢[2]. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يجلس على طاولة العجائز وفجأة، أصبح كل شيء مغايرا: دائما هناك، خلف ظهره، مجموعة من المتطفلين تتفحص أوراقه وتعلق عليها كأنما ترى من بينها ورقة الخماسى الملونة المليئة باحتمالات التفوق على باقى اللاعبين. وفى ليال عديدة، كان يترك منضدة اللعب ببعض المكاسب، يفرق ويوزع بدقة وبسرعة ولكن على مضض، كأنما أراد التخلص من الأوراق بأقصى سرعة والهروب من هناك. فذلك الطابع الصبور فى

---

(١) طريقة للعب الورق.

(٢) طرق أخرى محلية للعب الورق.

التوزيع، الأسلوب المتأنى والصارم والمدهش للغاية لدى شاب صغير، الطقوس الرصينة التى تعلمها على نار هادئة أثناء جلوسه مع العجائز وبجوار المدفئة القديمة، كل ذلك العلم المعقد والغامض لأصول الانتظار المتصبب من الأصابع المجعدة والملطخة بأثر القهوة الممزوجة بالنيكوتين من أثر توزيع الورق وتخفيف السجائر بالضرب عليها بالأصابع للتخلص من الرماد الزائد وتحصيل الأرباح المكتسبة من على الطاولة الخضراء باجتهاد وليس بضربة حظ، اختفت تماما من على يديه: الآن لم يعد لديه وقت ليضيعه. فمنذ جلوسه على منضدة المانيبيا اللطيفة والحكيمة، صار اللاعبون الكبار ينظرون إليه بفضول لا يخلو من بعض الحنين: يتصورون على نحو غامض أن بُعد الفتى عنهم ما هو إلا دليل على الفجوة التى حكمت بها الشيخوخة عليهم ولكن الأشياء أبسط من ذلك: هو فى حاجة إلى المال للخروج مع تيريسا، ولا يوجد مال على طاولة العجائز.

أما فيما عدا ذلك، فكان من النادر رؤيته فى الحي. وإذا حدث، فيبدو فى عجلة من أمره وكأن لديه أمرا طارئا لابد من إنجازه. إنه يشبه ذلك الإحساس بأنه قد أغفل شيئا ما من السرعة أو بأنه لا ينتمى إلى المكان هناك، لا سيما مع ذلك الصمت المغاير القادم من أماكن أخرى - خرير الماء تحت الأرض - الذى استشعره منذ بضعة أيام فى قاعة انتظار منزل تيريسا وصار يلازمه طوال الأيام الماضية وظهر على نحو معين فى إحدى الأمسيات عند وصوله إلى المستشفى، فى اللحظة التى رأى فيها تيريسا جالسة على المقعد تتصفح المجلات. بدا كأنه وحى مزدوج (لسبب ما، تذكر فى المشهد أن تيريسا لم تكن غنية فحسب بل إنه كان اليوم مفلسا) دفعه للتفكير على نحو غامض فى أن فتيات العائلات الراقية، عند جلوسهن، يضعن ساقا فوق ساق فى نعومة شديدة ولكن بالطبع، فى طريقة تنم عن اعتراضهن على شيء ما حيث يطوف حول حركة الركبتين الطفوليتين للغاية، عند التفاف الساق، ظل إصرار لا يقل طفولية ولكنه إصرار سلبي.

- قُضى الأمر. سوف أذهب إلى بلانس - قالتها تيريسا دون أن تنظر إليه فيما تتناول المجلة وهى تشد أطراف جونلتها، شيء لم تعتد فعله أمامه، وهو لا يدهشه كثيرا إصرارها أو سلوكها.

منذ ساعات مضت، باتت الأرض تتحرك تحت قدميه: فالمشاكل المستمرة الناتجة عن نقص المال (لم يكن مستعدا لمواصلة السرقة: فأى إهمال فى هذه اللحظات قد يؤدى إلى ضياع كل شيء) تجعله قلقا للغاية. ولم تنقذه كليا سوى ليلة من ليالى لعب الورق المحظوظة لمدة ثلاثة أيام أو أربعة، ثم عادت المشكلات إلى الظهور فى نهاية الأمر. هذا اليوم نفسه، فى الثالثة عصرا، عندما كان يتأهب لدفع حساب القهوة التى تناولها فى حانة ديليثياس، اكتشف أنه لم يبق معه سوى خمس بيزيتات. وفى هذه اللحظة، لمح شابا مهندما فى الثلاثين من عمره، كثيف الحاجبين، شعره يلمع بقوة (يعمل كموصل للأدوات الكهربائية، عملٌ له مستقبل باهر، كما ظن هو، ويدعونه بملك البوڤيهات)، ينظر إليه من الطرف الآخر من الحانة وأمامه كأس من الكونياك. فابتسم له مانولو قائلا: «كيف حالك خيسوسو». كما كان ينظر إليه، بتمعن، عاملان فى محطة المترو جالسان على منضدة من المرمر بجانب باب الحانة؛ يصفعان الذباب ويحاولان إبعاده فى ضجر بقبعاتهم. اقترب من الشاب وسأله: «أمن الممكن أن تأتى لحظة؟ أريد أن أتحدث معك...». أخذه إلى الخارج، فى ضوء الشمس، وجلس الآخر فى هدوء على أحد مقاعد الشرفة، واضعا ساقا فوق أخرى. هو أيضا، كأنما أراد أن ينهى الأمر من بدايته وقال: «ماذا تريد؟ مانولو الحقير الذى لا يراه أحد». «إنها الحياة، يا فتى» كانت إجابة المُرسي. وهمهم الآخر «آه». «أصغ إليّ يا خيسوس، أنا فى ضائقة، أيمكنك أن تقرضنى ثلاثمائة بيزيتة؟» كان ملك البوچى يعرفه منذ عدة سنوات وعلى الرغم من أنهما ليسا صديقين، كان يكنّ له التقدير. رآه مانولو يبتسم فى سخرية ويعقد ذراعيه. وعلى الرغم من لقبه (ملك البوچي) الذى يشهد له بشيء من تألق الشباب حازه منذ اثنى عشر أو خمسة عشر عاما على مستوى أيام الآحاد والإيقاع الراقص (كان قد فاز بجوائز فى رقص البوچى فى صالات الرقص المختلفة، وهى مسابقات كانت تذاع فى الراديو حسبما يقسم هو بأمه) فإن فارق العمر لم يسمح له بأن يعتاد على مرافقة المُرسى الذى اعتبره خليفة محتملا ولكن غريبا. "ماذا يوجد فى جعبتك يا مانولو، هل لى أن أعرف؟" "على أى موسيقى ترقص فى أيام الآحاد؟ سؤال يوجهه له فى بعض الأحيان بينما الآخر دائما لا يفهم قصده. ففى زمنه، كانت الفتيات يرتدين جونلات قصيرة للغاية ويحملن حقائب ألوانها براقة، حمراء، زرقاء، خضراء، ولا يعرف سوى أنهم الآن يرقصون الروك.

فى ليالى الصيف، عندما كان يجلس مع الشباب المتزوجين عند باب حانة ديليثياس، أخذ ملك البوچى يجول بنظراته بعيدا نحو ممشى الرملة والحى الصينى مختفيا عن الأنظار تحت الدخان المضيء الذى تلفظه المدينة فى الليل. وقتئذ، كان يفكر فى مانولو ولكنه لم يكن ليتخيله قط مستمتعا بحياته على النحو الذى استمتع هو بها، أو مترددا على الأماكن نفسها، أو مواقعا العاهرات، فعلى الرغم من أن الأمر يبدو مدهشا، فإنه ظل طويلا يشتبه فى كونه مخنثا. وها هو الآن يبتسم على نحو غامض بينما يصر مانولو: "من فضلك، اصنع لى هذا المعروف، فليس معى أية نقود". "اعذرنى يا فتى، فأنا أيضا فى إجازة صيفية، فلم لا تأخذها من الكاردينال؟". "سوف أدبر حالى بمائتين". "غريب أن أراك بلا نقود..." ثم قال له مانولو فى النهاية: "حسن، عشرون فحسب". ضحك ملك البوچى ورد قائلا: فلتنتزعها من العجوز، فهذا ما تجيد فعله". نظر مانولو إليه بوجه عبوس ضاغطا على فكيه وفجأة أمسك به من طيتى صدر سترته ورفعه من على المقعد: "أعد ما قلت!" وأمره الآخر: "ارفع يدك عنى أيها المخنث". بصق مانولو فى وجهه وهو لا يزال ممسكا به. ولم يفعل ملك البوچى شيئا ولكنه قال له: "لا تحاول أن تخيفنى أيها المخنث، فلست سوى مخنث وجميع من بالحى يعلم ذلك". مرة أخرى بصق مانولو على وجهه، ثم تركه إذْ اعتراه فجأة شعور بالقلق، على الرغم من أنه فى قرارة نفسه لا يبالى برأى خيسوس أو بخطابه الأخلاقي؛ وعلى الرغم أيضا من أن الحى بأكمله يشاركه هذا الرأي، إنما مرده خطورة أن يؤكد هذا الأمر ذلك الانطباع بالعزلة وعدم الاندماج والشعور بأن الأحداث فى الحى قد بدأت بالفعل تفيض من حوله منذ بعض الوقت دون أن يحيط بها علما، وكذلك التفكير بنفس الطريقة فى مشاعر الناس وتوجسه خيفة من هذا الأمر جعلت يده تندفع مسرعة كأنها تلقت إنذارا غامضا بالخطر نحو وجه ملك البوچى الذى تلقى صفعة مباغتة ومداهمة. حينها، سقط شيء من بين يديه، كانت علكة كبيرة. وتذكر مانولو واحدة من خواص ملك البوچى العجيبة"؛ فهو أحد هؤلاء الرعاع الذين يبغضهم تقبيل فم العاهرات ويذهبون بعد مضاجعتهن لمضغ علكات بنكهات الفراولة.

وقبل أن يُسمح له بوقت كاف للرد على هذا الفعل، ظاهره مانولو مبتعدا عنه. سوف يحاول فى مكان آخر: أولا مع زوجة أخيه (ورقة بخمس بيزيتات تفوح منها رائحة السمك

ولكنه شكرها جزيلا)، ثم مع "السانس" الذى اضطر إلى الذهاب للبحث عنه فى محل عمله (الآن يقوم بتنظيف عربات الترام، مرتديا حذاء برقبة وقبعة قذرة)، وفى نهاية المطاف، ذهب إلى الكاردينال، الشخص الوحيد الذى لم يكن يرغب تحديدا فى اللجوء إليه. وعند نزوله مسرعا على درجات السلم الذى يصل شارع جران بيستا بشارع الدكتور بوبيه، ظهرت أمامه عند المنعطف أورتنسيا على نحو غير متوقع. بدت الفتاة على عجلة من أمرها هى الأخرى، مما جعلت قوة اصطدامها به تزيحها عن مكانها نحو الجدار. كانت الشمس تحجب الرؤية عن عينيها الخضراوين الشاحبتين. فأسندها بذراعه بينما ظلت تعتذر له وهى تتلعثم. وعلى أحد أسطح المنازل الواطئة بحيث يبدو منخفضا عن مكانهما فى بداية الشارع الصاعد إلى أعلى، تراقبهما امرأة، عيناها كبيرتان وسوداوان، هيئتها شابة ولكن إلى حد ما غاضبة، وهى تبتسم فى سرور بينما تحمم طفلها فى وعاء من البلاستيك يلمع فى الشمس. كانت الحقنة المشعثة التى تحمل حقيبتها المدرسية الباهتة فى يدها وتستخدمها للإسعافات قد اتكأت بظهرها على الحائط ثم رمقت مانولو بنظرتها الزجاجية وسألته:

– إلى أين تذهب مسرعا هكذا؟

– إلى منزلك – قال هو – لرؤية خالك.

– سأرافقك.

كانت ترتدى حذاء أبيض عاليا لم يره مانولو من قبل، بينما يتجولان فى المنطقة وقد صارت أشعة الشمس ضاربة بشدة فى جدار الحديقة الخلفي، تسير بجواره، فى صمت، مطأطئة الرأس، تهتز قليلا فى مشيتها من أثر الكعب العالي، ممسكة جيدا بالحقيبة من مقبضها وتضمها بذراعها بقوة لتلتصق بجسمها كأنها مازالت تلميذة فى المدرسة. وقالت: "ذهبت لإعطاء حقنة للطفل لويس". "آه، حقا؟". "نعم، هذه هى المرة الثانية لي، إنه أمر سهل للغاية"، وقال مانولو: "هذا شيء جيد، حقا، هذا عمل جيد لك... ويروقك، أليس كذلك؟ فقد مانولو شعوره بالأمان حين جعلته يمر من خلال غرفة الطعام وأدرك السبب: لم يكن الكاردينال بالمنزل.

– عندما خرجتُ من المنزل كان لا يزال... – بدأت الفتاة حديثها.

– حسنا، لقد خرج – ساعدها بقوله هذا وهو ينتابه شعور بعدم الارتياح – سأعود في يوم آخر.

– انتظر، فلنبحث عنه في الحديقة. هل أنت في عجلة من أمرك؟

تبعته إلى تراس الحديقة ولكن قبل وصوله إلى هناك، وجد مقعد العجوز المصنوع من الصفصاف خاليا وعصاه مهملة على مسند المقعد، فيما لم تفارق عينا أورتنسيا الفتى. أزاحت العصا وجلست وهي تضحك، تمسك رقبتها بيدها، تتمدد، تلوح بساقيها، ثم قالت: "مانولو، لقد وعدتني أن تأخذني معك في يوم ما على الدراجة النارية". صوت يكاد يكون بشريا يصدرعن المقعد الصفصاف المتهالك تحت جسدها، بينما وقف هو على بعد خمسة أمتار من التراس، فلم يكن في حاجة إلى الذهاب إلى أبعد من ذلك كي يتأكد من غياب العجوز عن المنزل وأجابها: "نعم، في يوم من هذه الأيام...". قرر الانتظار قليلا وجلس على الأرض، معقوف القدمين، فيما راحت عينا الفتاة الناشبتان في ضوء الشمس تراقبانه بفضول. لم تستطع المكوث في هدوء وسألته وهي تضحك: "هل أحببت يوما يا مانولو؟" وأجابها بالنفي. ومرة أخرى، لاحظ عند متابعته لطريقتها في التعبير عن اهتمامها المفاجئ بشيء ما داخل حقيبتها (يميل رأسها، في هلع، كأنها اكتشفت وجود حيوان ضار بين الأعشاب التي تنمو بشكل طبيعي من حولها) التشابه الغريب بينها وبين تيريسا سرات، فهاتان الساقان الملوحتان في الهواء وتبدوان كسوطين يضربان الشمس لا ينقصهما سوى لون الشاطئ الذهبي كي تصيرا كساقي تيريسا. ضيّق مانولو ما بين جفنيه ليتأمل الفتاة بعناية: حقا بدت خفيفة الظل وشعر بحاجته الغامضة ليتساءل من جديد، لماذا لم يحبها قبل أن يحب تيريسا؟ الحب أعمى ولاعقلاني، كما يقولون، ولكنه ارتاب في كونه ليس أكثر من مجرد خدعة قذرة لخداع النفوس الضعيفة: لأنه لو كان قد تعرف على أورتنسيا وهي تقود سيارة رياضية فارهة، كما حدث مع تيريسا مثلا، لكان الوقوع في حبها أمرا سهلا للغاية. أهذا يعني أنه لم يكن حبا؟ بل هو حب، وحب كبير.

أسندت أورتنسيا رأسها إلى ظهر المقعد دون أن تتوقف عن تحريك ساقيها، وقالت:

– لم تعد تضع الضمادة.

– نعم.

– لمَ؟

– لأنى شفيت. – أدار رأسه فجأة ولم يعد ينظر إليها.

– ماذا بك يا مانولو؟ تبدو أحمق فى الآونة الأخيرة. تبدو شخصا آخر.

– أصغى إليّ يا حقنة، لديّ الكثير من المشاكل. – تمدد بظهره على العشب وأضاف قائلا –: حتى الآن لا أعرف كيف أردّ المال لك؟... هل عرف العجوز بالأمر؟

– بالطبع.

– وماذا قال؟

– آه، لقد ضربني. نعم، صفعني... وهو غاضب جدا منك.

– سوف أعيده لك – قال هو– حتى آخر سنت... لا أريد أن أكون مدينا لأحد.

– هل أنت خائف – قالت هى ثم ضحكت – يا للأضحوكة، أكاد لا أصدق! وصرت أحمق كذلك.

– ...أيتها الطفلة!

– الطفلة تعمل الآن، هل تعرف ذلك؟

– هذا طيب. – نهض من على الأرض –. نعم هذا أمر طيب، بل طيب للغاية. حسنا، سأرحل وأعود فى يوم آخر.

وعند مروره بجانبها فى طريقه للخروج حيث فضّل أن يخرج من الباب الخلفى للحديقة، داعب ذقنها بأصابعه وظن أنها سترافقه ولكنها لم تفعل ومكثت هناك مستلقية على المقعد. وفى ظهرها، بات يرى عينى الفتاة المعدنيتين حتى اجتاز الباب. وقال لنفسه وهو يفكر فى غضب الكاردينال منه: "صار الوضع أسوأ من ذى قبل". وفى طريقه إلى المستشفى، بدأ يستعيد ثقته: ففى النهاية، هو لا يشعر بالضيق سوى عندما يكون فى الحي، هكذا كان حاله دائما.

دخلت دينا الغرفة للتو. تيريسا جالسة على مقعدها تماما مثلما تجلس أورتنسيا على مقعد الحديقة، ولكن مع إظهار سلوك دفاعى بوضع ساق فوق أخرى دون النظر إليه. يبدو أنها لم تأخذ قسطا كافيا من النوم. "أنا ذاهبة إلى بلانس". باتت صفحات الجريدة الفاخرة تتقلب بين يديها وأدرك هو أنه قد جدَّ أمر يشغل هذا الرأس الأشقر.

– ماذا حدث يا تيريسا؟

– لا شيء سوى أن المسكينة ماروخا تسوء حالتها يوما بعد يوم وأنا... أصبحت مرهقة وعصبية. سوف أذهب لإحضار أمي.

– ولكنها كانت هنا أمس الأول.

– فلتعد مرة أخرى وفى الحال.

كانت تتصفح الجريدة بسرعة مدهشة، وبلا شك، لم تكن تشاهد أو تقرأ شيئا، بل وبدت غير راغبة فى ذلك أيضا. وسألها:

– هل ستعودين سريعا؟

– لا أعرف. – وبعد برهة من الصمت، كأنها تبدأ حوارا مع شخص آخر –: كما أنك صرت مفلسا بسببي.

– ماذا تقولين؟

– هل أصابك الصمم؟

كان ينبغى أن يؤخذ ذلك الأمر فى الحسبان: لا يروق أى فتاة الخروج مع شخص لا يملك مالا، ظن هو، ثم أنصت إليها وهى تهمهم قائلة: "ليلة أمس، كنت أفكر فى أمرنا. نحن مجنونان...". دعك من هذا الكلام الفارغ – قاطعها بصوت منخفض ومباغت – وقولى لى ماذا حدث؟ هيا! كانت تيريسا قد انتهت من تصفح المجلة، ولكنها أعادت الكرة مرة أخرى وبعنف.

- لا شيء. لم يحدث شيء.

مر مانولو أمامها ورأسه منحنٍ إلى أسفل ويده اليسرى فى جيب بنطلونه الخلفى (تماما مثلما فعل مساء أمس فى حانة ترينيداد المكتظة بسائقى الشاحنات المثيرين للجلبة، عندما قدم لتيريسا باقة من زهور البنفسج كانت تبيعها سيدة عجوز، حينئذ لمس فى قاع جيبه التغيير الكبير والحزين. "لا تقلق، سوف أدفع أنا - قالتها عندما أدركت محنته - فها هى فرصتى كى أدفع ولو مرة واحدة).

- أنصتى إليّ - قال هو الآن - لا أرى داعيا كى تبقى على هذه الحال. ولا يوجد صلة تمت بأن... ما أريد قوله هو أننى فى انتظار وصول دفعة من المال...

- بالطبع، يا مانولو، إنه يمت للأمر بصلة. ماذا تظنني؟ فتاة مدللة غبية لا تعرف قيمة الأشياء؟ أتعتقد أنى سأقبل أن تنفق عليّ؟ أنا أعرف فتيانًا مثلك، أنتم طيبون للغاية، حمقى للغاية. تسيئون فهم الصداقة. ما يغضبنى هو أننى لم أقع قط فى هذا الفخ سوى بالأمس... لابد أنك قد أنفقت عائد فترة الإجازة كلها.

- حسنا، لا أصدق أنك سترحلين بسبب ذلك. أنت تودين الرحيل لأنك خائفة.

- خائفة، من ماذا؟ حسنا، إن حالة ماروخا سيئة للغاية، وتقلقني... كما أنى فى حاجة إلى الاسترخاء.

عقد مانولو ذراعيه وتنهد. ثم قال:

- أنت تفكرين كثيرا يا فتاة.

- ضحكت تيريسا وقالت: كم أنت مضحك يا مانولو! - الآن بدت وكأنها وجدت شيئا مثيرا للاهتمام فى صفحات المجلة، حيث وجهت تركيزها كله إلى صفحة معينة وهى تقول-: ولكننا شخصان عمليان، نتحدث بوضوح، لذلك نحن أصدقاء. دعنا نناقش هذا الأمر، ماذا يوجد بيننا؟ صداقة، ليس أكثر من ذلك، أليس كذلك؟ هيا، جاوبني.

وفى التو، أدركت دينا المصغية إلى حديثهما بينما تجس نبض المريضة فى الغرفة المجاورة ما كان يحدث وابتسمت: بدأت تيريسا توضح مشاعر صديقها. سنظل دائما

حمقاوات، نحن السيدات، ظنت هي. دينا تعرف الكثير عن الحب. تعرف، على سبيل المثال، أن أخطر أنواع العشاق هو من ينفى فى كل لحظة وجود الحب، وليس من يسلم نفسه للحب؛ ولكنها تعرف أيضا أن شيئا ما فى هذا الشخص، فى هذا الصوت الهادئ، فى هاتين العينين الحادتين والساخرتين، فى هاتين اليدين الأنانيتين والسريعتين، يوحى فى الوقت نفسه بأنه لا هدف له من وجوده هنا سوى أن يكون محبوبا. وعلى المُرسى أيضا أن يتعلم شيئا من كل ذلك، لأنه خلال الأيام الأخيرة وعلى الرغم مما أظهره مع تيريسا من حنان وتدبر(حيث كانت دينا تفاجئهما بظهورها فى الصالة مرات ليست بقليلة) قد نجح فى الحفاظ على ما يلزم من هذا الهدوء كى يملأ حدقتى صديقته الزرقاوين بالريبة والاهتمام.

والآن بينما يتجه الفتى نحو غرفة ماروخا، قال:

– ما بيننا هو صداقة لا أكثر، وكُفى عن هذه المهاترات، من فضلك. هل قلت إن حالة ماروخا سيئة؟

ودون أن يقول المزيد، مغرقا دقات قلبه بلامبالاة مقنعة إلى حد ما (لم يدرك قط كيف تفضحه عيناه وكيف ينكشف كذب كلماته الجافة)، دخل الغرفة المجاورة، تاركا الباب مفتوحا. كان يعرف أن دينا تحقن المريضة وأن الطبيب يمر فى هذا التوقيت ولكنه لم يقابله قط لمغادرته المستشفى مع تيريسا قبل قدوم الطبيب. فى الواقع، بدت ماروخا كأنما استُنزفت خلال أربع وعشرين ساعة: وجنتاها شاحبتان، شفافتان، غارقتان تحت عظام وجهها، وجبهتها بدت كبيرة للغاية وفمها كذلك، وتعبيرها البائس صار حادا كأنما الكابوس الذى يلتهمها من الداخل أصبح أكثر ضراوة.

– هل حالتها تسوء؟ سأل مانولو.

– دون أن تلتفت إليه، سحبت الممرضة الإبرة من ذراعها وتركت على نفس الموضع قطعة قطن، وقالت: لا، ابقَ بالخارج، سوف نغير الملاءات.

– لديها آلام فى الظهر، هذا ما فى الأمر.

– هل هى خطيرة؟

– أستسمحك أن تخرج من فضلك. سوف يحضر الطبيب.

عند عودته إلى الصالة، كانت تيريسا قد اختفت. فعاد إلى الممرضة وهو يشعر بالحيرة قليلا، ثم قال: "لقد ذهبت لإحضار والدتها"، ومكث هادئا هناك عند الباب كأنما ينتظر من دينا أن تؤكد له كلماته، ولكن الممرضة ظلت منتبهة لما تعمله: ثنت ذراع ماروخا وأدخلته برفق أسفل الملاءة. "يا لسوء الحظ – قالت –. اذهب الآن وعُدْ غدا."

بالطبع هو سيئ الحظ: مثلما حدث له مع آخر دراجة نارية قرر سرقتها من أجل تحسين وضعه الاقتصادى قليلا، مستغلا فرصة أن تيريسا موجودة ببلانس. كان اليوم التالى بعدما أقنع زوجة أخيه أن تحضر له الحُلة من محل التنظيف (على الأقل، لو عادت تيريسا مع والدتها، لا يرونه مرتديا ملابس رثة)، تحديدا يوم الثامن عشر من يوليو. ففى الساعة الرابعة عصرا، هبط من طريق الكرمل القريب من حديقة جويل وقد تخطى عاشقين من الحى كانا يسيران أمامه وتناهى له حديثهما عنه ونقدهما له من وراء ظهره، وهو فجأة كأنه قد نسى شيئا وتوقف وظل يفتش جيوبه. ثم أخرج كل المال الذى معه: "هذا مستحيل، أنت رجل ميت لا محالة". ثم دخل إلى حديقة جويل. وحينئذ، توجس خيفة من أن القرار ربما لم يكن مفاجئا، إنما بات يحمله فى رأسه على مدار أيام: إن لم يكن هناك حل آخر، سوف أفعلها، ولكنها ستكون المرة الأخيرة. الدراجة من أجل الكاردينال ومما سيعطيه لى سوف أدفع ديونى وأدبر أمرى بحرص حتى نهاية إجازة تيريسا الصيفية. وفى الوقت ذاته، سأجعل العجوز مسرورا وأستعيد رضاه عنى من أجل بدايات جديدة. كذلك سأنفق دفعة واحدة (وأخيرة، حقا هذه المرة) من أجل المصروفات الطارئة.

وبعد مرور وقت قليل على اجتيازه بوابة الحديقة، بجوار الحواجز المغبرة حيث تقف دون نظام السيارات والدراجات النارية المسحوبة، دخل زوجان مرتبطان من بين الأشجار وصيحات الأطفال وصوت العصافير، بخطى بطيئة جعلت صبره ينفد: ها قد وقع نظره على الهدف، دراجة مونتيسا جديدة، لونها أحمر لامع، يراقبها حاقدا من الغابات الكثيفة كالدبور. واضطر إلى الانتظار خلال أكثر من ساعة إلا ربع، مدخنا نصف علبة

سجائره الشيستر، جالسا على أحد الأحجار الخرز الكبيرة المصطفة على جانبى ممشى النخيل؛ ولكن كل شيء مر سريعا بعد ذلك: ففى لحظة استغل فيها عدم مرور أحد، قفز على كرسى الدراجة وأشعل الموتور بعد أن تخلص من القفل. وعندما زودها بالغاز، انطلقت مسرعة من الحديقة وركضت بأقصى سرعة لتجتاز شارع راميرو دى مايتسو، ثم طريق عذراء المونتسرات. كان يقودها بساقين منفرجتين كى لا تشوب البنطلون أى شائبة: فهذا هو ما كان يشغل تفكيره.

أما الهدف الثانى فهو: حقيبة حريمى فى موقع مناسب (بجوار أورتا، شارع مهجور، غير معبد، وبه أشغال)، حقيبة سوداء كبيرة، تضرب فخذى امرأة نحيفة وناضجة، ترتدى ملابس سوداء ونظارة سوداء، قد خرجت من الباب وابتعدت عن الرصيف. وبموتور الدراجة فى حالة خمول، سار خلفها مكبوح الجماح. كانت تُسمع فى الشارع ضربات الفؤوس وأصوات البنائين. أما هو، فيراقب عضلات الساقين التى تعلو الحذاءين المسطحين الكبيرين والفخذين الناضبين، القميص الأسود الملتصق بالظهر، الشعر على هيئة كعكة على الرقبة، ولكن الآن عيناه قد انتبهتا لشيء آخر: لم يكن هناك أحد بالشارع. فاقترب أكثر من السيدة وعندما أصبحت على مستوى رؤيته (وجه قاسي، شفتان غير مطليتين، زغب أسود يعلو جبهتها) أخذ يتحرك بإيقاع أسرع وأدارت هى وجهها بغتة نحوه. فلم تعد المناسبة مواتية: الآن صارت الحقيبة عالقة فوق بطنها، الأمر الذى جعل السيدة تتذوق القليل من عطف ذلك الفتى قبل موتها: "من فضلك – قال الفتى مبتسما – هل تعرفين كم الساعة الآن؟". أما هي، فقد ثنت مرفقها فى هدوء (تحركت الحقيبة فى ذراعها كرقاص الساعة) دون أن تتوقف عن السير ونظرت إلى ساعة يدها التى كانت تختبئ تحت كم قميصها الضيق، وفى هذه اللحظة، خرجت يد الفتى منطلقة كالسهم واستولت على الحقيبة: تسديدة قوية، تنبأت بها وحاولت منعها برفع ذراعها (فى الوقت الذى تعلو فيه الجلبة المحيطة بها) حتى ظل مقبض الحقيبة الجلدى معلقا لثوان برباط ساعتها، ولكن التسديدة الجديدة كانت حاسمة، ففى غمضة عين أصبحت الحقيبة بين قميص الفتى وحلته الذى دفع بكل قوة بدالة السرعة (لص، لص!) وانطلق فى اتجاه ميدان لا فوينت كاستييانا، كى يهبط بعد ذلك إلى كارتاخينا. يا لها من انطلاقة رائعة بدراجة المونتيسا!

ولكن صرخات السيدة المجهولة ظلت تدوى فى أذنه خلال برهة. وبعد مرور خمس دقائق، خلف مستشفى سان بابلو، حيث تقف الدراجة وبجوارها يقف مانولو متفحصا ما بداخل الحقيبة: قلم لتحديد الحواجب، منديل معطر محفور عليه حرف "ميم" باللون الأزرق (مارجاريتا، مارجاريتا)، حافظة عملات معدنية، رخصة قيادة سيارة وأخرى للرعاية الاجتماعية، أجندة وقلم جاف، صورة قديمة لفريق كرة سلة نسائى (جونلات تضربها الرياح، أرجل طويلة القامة وابتسامات فى ملعب خرب: صليب مرسوم بالحبر فوق رأس فتاة تشبه القطة) مشط، أنبوب من الأسبرين، كتيب ("نفوس هائمة" أو ما يشبه ذلك) وبالفعل، (المخاوف كان لها أساس) لا يوجد سوى ورقة بمائة وأخرى بخمسين. يا لسوء الحظ! ترك الفتى كل ما فى الحقيبة بداخلها عدا المال والمنديل المعطر. واستمر فى سيره، ثم ودون أن يتوقف، ألقى بالحقيبة من فوق جدار الحديقة. سوف يجدونها ويعيدونها لصاحبتها. ثم مرت عشر دقائق بعد الساعة الخامسة. سوف يجعل تيريسا ترى هذا المنديل كأنه لا يقصد ذلك: ذكرى من مارجاريتا، ابنة رجل فى المنفى، حب قتلته الحرب، جرح غائر... يا للغرابة (ألقى بالمنديل كذلك). لا استطراد.

بعد ذلك، ترك الدراجة مخبأة بين سيارتين أمام المستشفى. كانت هناك دراجات أخرى وشاب يرتدى قميصا منقوشًا عليه مربعات يمر على الرصيف. إنما ما لفت انتباهه هو سيارة تيريسا الفلورايد الواقفة هناك. "لقد عادت" ظن ذلك مسرورا. صعد وكان أول ما رآه عند دخوله هو رأس رجل أشيب، جالس فى وسط الصالة ومتكئ على ظهر الأريكة. يبدو نائما. كانت النوافذ مغلقة. مر مانولو من أمامه دون أن يحدث ضجيجا ودخل غرفة ماروخا. كانت دينا جالسة بجانب مقدمة الفراش، تقرأ رواية وسألها مانولو بصوت منخفض: "كيف حالها اليوم؟"، وقالت هى دون أن تفارق عيناها الكتاب: "أفضل". لقد حضر والدها، ألم تره؟" "آه، والدها. وتيريسا؟" ولكنه لم يحصل على إجابة. كان هناك أحد خلفه ينظر إليه، أدار ظهره فوجد ذلك الرجل الأشيب. حياه مانولو برأسه، بينما ظل الآخر ينظر إليه بعينين مرهقتين تكاد لا تُرى من بين طيات جفنيه اللامتناهية. وبدا وجهه الداكن كأنه يعرض عن شيء ما، عن ضوء يتسبب له فى ضيق (حاجباه الكثيفان قد تثبتا على هذه الإيماءة القروية الدالة على محاولة تجنب أشعة الشمس) وعلى الرغم من

أنه لم يكن طويل القامة مثل مانولو، بدت نظرته تنخفض حتى تصل إليه، فثمة شيء فى هيئته لم ترُق الفتى. أبعد الرجل نظراته فى بطء شديد عن مانولو وثبتها على ابنته التى بجانب رأسها، قد حط على الوسادة سونار مضغوط بمشبك كأنه ثعبان صغير وماكر. تأوهت ماروخا فى ضعف: فوق بياض عينيها اختلج فجأة وللحظة جفناها القليلا الرموش، المليئان بالقروح، المتيبسان على نحو مفاجئ، بلا رموش، وظهر لبرهة سواد حدقتيها الساطع، حدقتى عينيها الكبيرتين، المفزوعتين، غير الثابتتين فى أى من الوجوه الحاضرة هناك؛ ولكنها كانت بالتأكيد نظرة (نظرة غير موجهة لأحد بعينه) جعلتها تبذل جهدا يفوق طاقة البشر. ثم أغلقت عينيها. وسُمع سعال الرجل. "أرأيت؟ – قالت الممرضة، بنفس نبرة الصوت التى تستخدمها للحديث مع الأطفال – إنها أفضل حالا." عاد مانولو إلى الصالة وفتح الشباك كى يدخل بعض الضوء. وبعد عدة دقائق، انضم إليه والد ماروخا، مرتديا حلة بنية اللون مستهلكة للغاية.

– هل أنت صديق الآنسة تيريسا؟

ظل يتأمل مانولو قليلا، ثم قال الأخير:

– نعم... وصديق ماروخا. تبدو أفضل الآن، أليس كذلك؟

– هذه مشيئة الله... كان ينظر إليه بعينين مجهدتين، والآن عندما أصبح بالقرب منه، أدرك مانولو أن هذا الرجل يغلبه النعاس وأنه غير مبال على الإطلاق بأى شيء. شاهده وهو يدخل يده فى جيبه ربما كى يدعوه إلى التدخين معه. وشعر بضيق كبير عندما أدار له ظهره. ولحسن الحظ، ظهرت تيريسا فى الوقت نفسه؛ دخلت على نحو فيه تصميم بالغ وبدت نظرتها الأولى (ومضة فرح لا توصف، لم تعد لتلمع فى عينيها حتى أصبحت معه وحدهما) موجهة إلى الفتى "آه – قالت – هل تعارفتما؟ – قدمتهما إلى بعضهما البعض –: السيد لوكاس، والد ماروخا... مانولو، صديقي". مد مانولو يده ليصافح قطعة من الخشب لا حياة فيها (بها سيجارة من المفترض أن تؤول إليه، ولكن الرجل لم يسحب يده فى الوقت المناسب فانشطرت إلى نصفين). "ها هو الفتى – يقول والد ماروخا مقدما له سيجارة أخرى– الذى يرى أيضا أن حالتها أفضل. وهذا قولى : إنها مسألة وقت. حسنا

– أضاف وهو ينظر نحو الباب –، وأين السيدة مارتا؟" "مع الطبيب، الآن ستأتى – قالت تيريسا –. ووالدى بأسفل". نهض الرجل باتجاه الباب ولكنه عاد، ودخل غرفة ابنته، قال شيئا للممرضة وعاد ليخرج، ثم ودعهما وغادر المكان مغلقا الباب بحرص شديد. حينئذ، جلست تيريسا أمام مانولو بالقرب منه ورفعت رأسها لتنظر إلى عينيه.

– أهلا – قالت بصوتها المدلل، كأنها مصابه بنزلة برد؛ بدا فى صوتها وعد رطب بمداعبات ماكرة. وسألها هو:

– متى وصلت؟

– هذا الصباح. نحن هنا منذ الثالثة، كل العائلة – أردفت دون أن تبعد عينيها عنه –. والآن ستحضر والدتي. لم تكن حالة ماروخا خطيرة، لقد أصابنى الفزع بلا داع...

– واليوم كيف تشعرين؟

– شعور رائع، كأنى ولدت من جديد. – تأملت سترته – كم أنت أنيق!

تناهت إليهما خطوات قادمة من الرواق. انفصلا قليلا وأعاد مانولو عقد رباط عنقه. فى هذه اللحظة، فُتح الباب ودخلت السيدة سرات فى الحال بصحبة أشخاص آخرين، حضرت وهى تتحدث فصار صوتها همسا متكررا عند وصولها إلى عتبة الغرفة، كأنها على وشك الدخول إلى غرفة تجهيز الموتى: «... فلقد وصلت تيريسا فزعة تماما وتقول إن ماروخا فى حالة خطيرة وإنها ظهرت عليها آلام مبرحة فى الظهر وجعلتنا نصاب جميعا بالتوتر! كنت أود الاتصال قبل قدومي، ولكن فى النهاية، الحمد لله، إنه كان إنذارا كاذبا... «أين لوكاس، هل غادر؟» أضافت وهى تنظر إلى تيريسا. «مع والدي». تراجع مانولو ناحية النافذة وظل منتظرا. رافق السيدة سرات كل من الطبيب سلاديتش وسيدة أخرى لابد أنها الخالة إيسابيل التى جلست على الفور وهى تشعر بالحر والتعب. اقتربت تيريسا من مانولو وقالت: «تعالَ»، ولكن والدتها اتجهت نحوهما. «والدك فى انتظارنا بالأسفل، يحاول إحضار سائق الشركة كى يقل لوكاس إلى ريوس. أعصابك يا ابنتي... (ثم نظرت إلى مانولو) آه، لابد أنك الشاب...» فقدمته تيريسا لها: «إنه يأتى ليرى ماروخا

كل يوم». لم تعره السيدة سرات اهتماما كبيرا (لم تمد يدها له، فلقد كانت مشغولة بتثبيت منديلها الأخضر حول شعرها) وعلى العكس، لاحظتهما السيدة الأخرى والطبيب وقامت تيريسا بتقديمه لهما أيضا. لم يكن هناك شيء معين في سلوك السيدة سرات، عدا نظرتها الفاترة الثابتة، نظرة فضولية، لا تختص به أو بالأحرى، به فحسب، بل اشتملت على ابنتها. أدارت رأسها تجاه ابنتها التي كانت في هذه اللحظة تتحدث ولكنها في حقيقة الأمر كانت تنظر إلى الفتى الذي يستمع إلى ابنتها.

– هذا كلام فارغ يا تيريسا – قالت السيدة – ماروخا في أفضل حال.

لم يعبر الطبيب سلاديتش عن تفاؤله، ومع ذلك أكد أن مخاوف تيريسا ليس لها أي أساس. وعندما تأهبوا للرحيل، بدأت السيدة سرات حوارا معقدا مع أختها وتيريسا حول ما يجب فعله: تعود هي إلى الفيلا في الحال (لديها ضيوف) في سيارة أختها، بينما زوجها «الذي بالطبع لم يتمكن من تحديد مكان سائق الشركة لأن اليوم عطلة»، قالت: ليس هناك حل سوى أن يرافق لوكاس في السيارة الأخرى. في جميع الأحوال – أضافت – يفكر أوريول في الذهاب إلى المزرعة خلال هذه الأيام.» واقترحت الخالة إيسابيل أن ترافق تيريسا لوكاس وأن يذهب أوريول معهما إلى بلانس (ولكن أوريول لديه أعمال في المدينة) واعترضت تيريسا قائلة إنها متعبة وإنها لابد أن تأخذ الفلورايد إلى الجراج للإصلاح، فيما ينتظر مانولو بجانب النافذة، دون أدنى حركة، ولكن الشيء الوحيد الذي خرج به واضحا في النهاية (الشيء الوحيد الذي يهمه، من جانب آخر) هو أن تيريسا ستكون غير مشغولة وفي برشلونة.

– كفاك هراء – أمرتها والدتها دون أن يعلو صوتها أي نبرة تسلط –. لقد صرت نحيفة للغاية، ها سوف نرى ما إذا بعد ماروخا، يأتي دورك أنت... سوف أقنع والدك بأن تأتي إلى بلانس لكي تستريحي لمدة أسبوع على الأقل.

– آه يا أماه، المكان هناك ممل للغاية. وأنت تعرفين أني أريد البقاء هنا بجانب ماروخا، ويجب أن يقوم أحد بذلك.

– حسنا، حسنا – كانت الكلمات الأخيرة للأم التى بالطبع لم ترغب فى الخوض فى الحديث عن هذا الأمر، ثم تحدثت للحظة مع ابنتها على حدة، وتمكن مانولو من سماع تيريسا وهى تقول: «ماما، لابد أن تعطينى بعض المال».

ألقت السيدتان التحية ورافقهما فى لطف الطبيب سلاديتش إلى الخارج. كانت الساعة السادسة، حين تركت تيريسا نفسها تتهاوى على المقعد وجعلت صندلها يسقط من قدميها وهى تتنهد: «أف، أخيرا». كانت ترتدى بنطلونا برتقالى اللون مشدودًا للغاية برباط يلتف من تحت كعبيها، وقالت دون أى نبرة استفهام «ماذا سنفعل». نظر كل منهما إلى الآخر وسألها هو «هل سيعود الجميع إلى الفيلا؟ وفى التو، ضحك معلقا: «يا لهذه الورطة التى أوقعت نفسك بها». اقترب منها وهو لايزال يضحك وأمسك بيدها وجذبها فى نعومة كى تنهض «هيا، أيتها الكسولة». كانت تيريسا تقاومه، ضاحكة، بساقيها المفتوحتين وقدميها الراسختين على الأرض بقوة: لا تكاد تستطيع إخفاء عدم صبرها. «مانولو، هل كنت غاضبا أمس عندما رحلت دون أن أقول لك شيئا؟». «لا» قالها وتركها فى اندفاع، فارتمت تيريسا فى أحضانه. ترنحا للحظة كدميتين وهما يضحكان دون صوت وتخور قواهما كأنها قد رحلت عنهما، وأطالا الاستمتاع بحلاوة هذه اللحظة الممتدة حتى اصطدما بباب غرفة ماروخا. تلاشت الابتسامات من وجهيهما واستحالت توترا نهما. وتبادلا القبل على نحو متسرع وهما يرتعشان.

– دينا موجودة بالداخل – همست هى –. يا لها من راحة معرفة أن ماروخا ليس بها شيء، أليس كذلك؟

– نعم – قال هو – هيا بنا.

– انتظر... أنا...

– فلنذهب إلى مكان حيث نكون وحدنا. إلى التبت.

– حسن، ولكن... – ابتسمت وهى تخفض رأسها نحو صدرها وتنهدت – مانولو، لا أريد أحدا أن يعلم بذلك الأمر. يجب ألاّ يعرف أحد أننا نخرج معا، فليبقَ سرا بينى وبينك، هل تفهم؟

– هل كنت تفكرين كثيرا فى أمرنا وأنتَ فى الفيلا؟ سألها هو، فيما تلعثمت تيريسا:

– من فضلك، لا تقفز إلى استنتاجات بهذه الأنانية (ارتعشت عينا الفتى فى ارتباك). لا تقل شيئًا لأحد، أرجوك – وضعت إصبعها على شفتيه –. هل تعرف؟ لقد عثرت بين أوراقى على خطاب كتبه لى صديق من السجن، كان طالبا. لو تعرف ما بداخله، وكيف كتب، وأعاد السكينة إليّ...نحن جبناء، يا مانولو، هذا هو ما أراه، جبناء لأننا لا نجرؤ قط أن نفعل الأشياء الطيبة والتى تروقنا. يتحدث لى فى الخطاب عن ماوريسيو.

ظل قريب، بلا شك. وقد لاحظ هو أنه كلما أشارت تيريسا إلى أية صورة بارزة وقريبة، تخفض عينيها على نحو فيه تضرع وترحيب بتلميذة حقيقية ومجتهدة: لم يكن عالمها الشبحى من المشاعر والعواطف والانطباعات الإيجابية عالما أكثر رحابة وكرما من عالمه فحسب، بل أيضا أكثر قدرة على التضامن الأسطورى والأقرب إلى التآمر، لذا كان ينذر بالخطر. فقط بعد ذلك، عند وجودهما فى السيارة، التى لم تتمكن تيريسا من أن تجعلها تنطلق – لم تكن تكذب عندما تحدثت عن عطل بها –، التقط هو الإشارات الجديدة، ثمرة تأملات الفتاة الذكية خلال الأربع والعشرين ساعة التى قضتها بالفيلا والتفاصيل التى تبدو تافهة فى ظاهرها ولكنها تحمل بطاقة فاخرة مدوَّنًا عليها السعر والإرشادات (أيها المُرسي: ممنوع اللمس): «ما أمتع الخروج من المجهول، أليس كذلك؟ – قالت تيريسا –. على كل الأحوال، سوف أقدمك إلى بعض الأصدقاء الذين يرغبون فى معرفتك. هم طلاب». «آه». وأدرك هو أن الأمور فى طريقها إلى التعقد لا محالة وأنه أمر منطقي، فهو لا يستطيع أن يزعم أنه يعيش مع تيريسا داخل بلورة من الزجاج أو كأن هذا الصيف هو حقا جزيرة السعادة الضائعة. إذا كان لابد أن يواجه ما سوف يأتى له من ذلك الجانب بل وأن يحاول أن يستفيد منه، أكثر مما سوف يأتى له من الجانب الآخر، من جانبه هو، من حيه، ذلك الانتقام الرهيب المتفاقم والقادم من الكرمل. وكيف ها هنا جاءت نهاية تاريخ آخر دراجة نارية مسروقة: حينما وجه نظرة خاطفة إلى ما حوله – فى اللحظة التى تمكنت فيها تيريسا من أن تنطلق بالفلورايد – كى يتأكد من أن الدراجة فى مكانها («هذه الليلة سوف أنالها») بدا له أنه يرى بدلا منها شخصا جالسا على الحافة، ضاحكا ومستهزئا به، إنه الكاردينال نفسه... لم يكن سوى والد ماروخا (الذى كان بالطبع ينتظر السيارة التى ستقله إلى ريوس)، ولكنه كان على وشك أن يطلق صيحة ويوقف تيريسا.

بلا شك، اليوم أيضا قد استيقظ وهو يلازمه سوء الحظ. أمن العدل أن يواجه ذلك كله؟ المزيد والمزيد من المضايقات والمفاجآت والنذر الصغيرة التى غالبا ما تصل إليه فى شكل إشارات مرور تحذره من وجود منحنيات وتقاطعات: كان ذلك خلال أمسية أخرى غير مرتبة مسبقا على الشاطئ (مرفأ صغير به مطعم صغير ومكان لوقوف السيارات، هو وهى ممددان بجانب هيكل مركب قد عفى عليه الزمن) عندما ظهرت على نحو غير متوقع الإشارة الجديدة على هيئة فتاة مبتسمة، شعرها مضفر، تركض نحو تيريسا، يحترق بطنا قدميها من الحرارة، تلتحف بمنشفة حمراء وقد وصلت إلى الجامعية عندما توجهت الأخيرة إلى المطعم. فى البداية، كانت تنادى اسمها حتى راح صوتها من الصياح وكانت قادمة مع فتى تخلف عنها إلى الوراء. استلقى مانولو بجوار المركب ورأى كيف تعانقت الصديقتان وتبادلتا القبل. والتفتتا مرتين أو ثلاث مرات تنظران إليه وهما تبتسمان وتهمسان: ظن هو أنه لن يتحرر من كونه حاضرا، على نحو خاطئ (هما لا يقدران سوى ذلك الجسم المثالى المليء بالحركات الإيقاعية). كانت الابتسامة تعلو وجه صديقة تيريسا الصغير البرونزى طوال الوقت، ولم تهدأ للحظة واحدة، وهى ملتحفة بالمنشفة ومستمرة فى حركتها. لم يستطع أن يسمع ما تقولانه، ولكن كان يعرف أنهما تتحدثان بالقطلونية (استنتج ذلك من التعبيرات العنيفة الظريفة التى تبدو عليها الآن، والتى قد تعلم أن يقرأها) وبدت تلك التعبيرات والضحكات التى تطلقانها فى كل مرة كافية كى تتسبب له فى الشعور بالقلق. وتأكدت هواجسه عندما وصلت إلى مسامعه مع الرياح كلمة «دخيل» الفظيعة على لسان صديقة تيريسا وتلتها ضحكتها: كان ذلك التهكم القطلونى المهيب والخبيث هنا من جديد، يرتاب ويتجسد فى هذه الفتاة السعيدة (يا لغموض ابتسامتها) كأنه وعيد. عم تتحدثان، ولماذا لا تنادينى تيريسا وتقدمنى لصديقتها؟ تناهت إليه كلمات أخرى طليقة، أسئلة عكرت صفوه: «هل يعمل؟»، «فى إجازة؟»، «احترسى يا فتاة».

شاهد تناسقا مألوفا بينهما وبين الطبيعة المحيطة بهما التى استشعر بخنوع فى عناصرها: الشمس الحمراء وهى تغرب، تسطع بين رأسيهما الطائشين، وأشعتها تتحلل فى خصلات شعر تيريسا الشقراء، مطلقة العنان لأحلام ناعمة وعظيمة (ما يسمى بالتعليم أو التقدم أو الحياة الكاملة) ولحنان لا نهاية له ولابد من بذل قدر كبير من الذكاء

لاستحقاقه... فى نهاية الأمر، كانت الاثنتان من قطلونيا، جميلتان وعلاوة على ذلك، ثريتان. ثم ودعت كل منهما الأخرى بتبادل القبل من جديد.

– من تكون؟ سألها هو عندما عادت تيريسا.

– لينور فونتاليا، صديقة من الكلية. لطيفة للغاية.

– لم كنتما تضحكان؟

قفزت تيريسا عند استلقائها بجواره.

– كنا نتحدث عنك – قالت –. هل يزعج ذلك الأستاذ؟ تقضى لينور إجازتها فى سيدجز. وقد فرت مع صديق لها. أنصتْ إليّ، هى تقول إن الجميع الليلة سيكونون فى «سان جيرمان». هل تود أن تتعرف عليهم؟ نستطيع الذهاب لتناول كأس من المشروب. سوف أقدمك لهم.

– من هم؟

– أصدقاء

– ولكن أى نوع من الأصدقاء؟

وفى أكثر النبرات طبيعية، أجابت هي:

– طلاب يساريون.

(٣)

يقفز بريق واقع مرير - كعادته - من قلب ذلك الربيع نفسه. لأن الشباب...

فيرجينيا وولف

بعد مرور أعوام وعند استحضار صورة ذلك الربيع الخاطف، لم يكن لديهما فقط الإيحاء العام بضوء الأحداث الماضية (على مختلف أشكاله المُزينة بانعكاسات عهود زائفة، وكثير من خداعات مستقبل فيه الخلاص) ولكن أيضا كان ثمة بعض القتامة فى علاقة الإعجاب بينهما ووسط تلك القبلات فى وضح النهار حيث كان يُعشش صقيع الشتاء وموت رمز ما.

– هل أنت صادق معى يا مانولو؟ أخاف أحيانا...

– مم تخافين؟

– لا أعرف...

تمكن منها انهيار الخرافات الداخلية ولكن دون أى نقص فى حبها المتزايد له. فقد تراءت لها شخصية فتى الجنوب الحقيقية بوضوح (وكانت تكفى ثلاث ليال) حيث كانت على يقين تام بأنها مفتونة برجل وليس بمجرد فكرة. فى البداية كان شعورا بالضلال والشرود العقلي، بضرورة مراجعة بعض مفاهيم العالم الغريب الذى نعيش فيه عند اكتشاف الاجتماعات البعيدة عن الشبهات، أحضان الواقع الفاضحة مع الوهم: أصرّت تيريسا على دخول ملهى جيناردو للرقص ظُهر يوم أحد مُشمس مع هطول بعض الأمطار

المفاجئة (كان فى أواخر شهر أغسطس). وكانا قد احتميا من المطر بحانة ويشاهدان مصادفة من خلالها ملهى صالون ريتمو على الجانب الآخر من الشارع حيث يزدحم الشباب والفتيات فى مدخله مهرولين تحت المطر.

وخطر على بال مانولو أن يقول إن هذا الملهى هو مكانه المفضل للرقص منذ أعوام ماضية، بعينين فرحتين وبراقتين اقترحت هي: "لماذا لا ندخل؟". نبهها مانولو: "لن يعجبك لأنه مليء بالفاسقين والماجنين والصعاليك"، ولكنها ألحت كثيرا ("بسبب المطر ولم تكن السيارة لديهما حينئذ، ماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك؟") فلم يكن لديه أى بديل سوى أن يُرضى رغبتها. فى تلك اللحظة كان وابل من المطر الغزير يسقط من السماء. وعند عبور الشارع خلع مانولو سترته وألبسها إياها كى يحميها بها واقتربت منه تيريسا وهى تضحك. فى شباك التذاكر كان يقف رجل مُكتنز ذو بشرة وردية وكان يُدخن نوعا من التبغ وطلبت منه تيريسا واحدة. عاتبها مانولو بلطف: "لا تكونى سفيهة"؛ "اسكت سنستمتع كثيرا وسترى". ٢٥ بيزيتة للشباب و ١٥ للفتيات كرسوم للدخول. "هذه تفرقة!"، هكذا علقت الفتاة الجامعية الفرحة. السعر يشمل المشروبات. سوف تعزف كل من فرقة الأوركسترا ساتيليتس بيرديس ومطربها كابوت كيم (خواكين كابوت) مايموه برادرز (أنغام أفروكوبية) لوثينا كانيا (ناقلة عن الأغانى القطلونية) وآخرون من المطربين المعاصرين. قالت تيريسا: "شيء يَعِدُ بالكثير".

كانت تبدى إثارة وشغفًا غريبًا منذ البداية. مقطوعة واحدة وخاصة لفرقة "تريو مورينيتا بويز" (نغمات رقصة الساردانا الرخيمة والروك الحديث فى مجموعة موسيقية واحدة) عند الدخول صاحت تيريسا: "رائع، أنا لا أضيعه أبدا". كان المسرح شديد الزحام حيث لا يمكن الوقوف ولا يوجد أى مكان، شباب يرتدون ملابس يوم الأحد، عيون صفراء، جو فاحش، يتلكئون من جانب لآخر فى مجموعات مُدمجة، يضايقون الفتيات، يقتربون منهن يحدقون النظر فى ملابسهن العارية عند منطقة الصدر ويلقون إليهن بعبارات الغزل. كانوا كلهم تقريبا من الأندلس. النظرات المثيرة التى كانت تقتنصها تيريسا كانت شديدة التعبير بصورة مزعجة، ووجود مانولو الدائم معها حماها من حصار ما كان ليبقى في إطار من مُجرد الإعجاب بها فقط، كما فى حالة وجودها بمفردها. شاء الحظ أن يُبديها ذلك

اليوم فى هيئة بسيطة خاصة بأيام الأحد تقريبا (جونلة بيضاء مطوية وبلوزة زرقاء ذات رقبة طويلة وحزام أسود عريض) وكم كان ذلك يناسب ذلك المناخ لولا شعرها المسترسل كالطفلة وبشرتها البرونزية بفعل أشعة الشمس فى أوقات الفراغ، مفاتن خادعة، فربما كانت تريد أن تبقى دون وعي. كانت هناك مجموعات من الفتيات فى المقصورة والكراسى المحيطة بالمسرح وكُن يهمسن من حين لآخر، وفى النهاية على المسرح الصغير كانت توجد فرقة ساتيليتس بيرديس والتى كان يرتدى راقصوها ملابس براقة، والمطرب (رخيم الصوت، كما هو شائع) ذو شارب أسود رفيع وصوت أنفى وجريجوري.

يرجع تاريخ هذه الحانة إلى طبقة قديمة مثقفة وعاملة (حيث كانت مقرا لنقابة الحائكين) وقد تحولت اليوم بكل روادها وجمهورها ومكتبتها ومسرحها إلى "صالون ريتمو"، ولكن تغير كل ذلك مع إعلان الملكية. ديكور مهيب وعتيق: أربعة حوائط يعلوها حزام من الزهور، عناقيد عنب وأذرع من الجصّ بارزة ووجوه من الداخل موجودة تحت اسم مشهور (برات دى لا ريبا، بومبيو فابرا، كلابيه)، شخصيات قطلونية مجيدة ورجال من تلك الطبقة العاملة أمثال "أورفيو وكاراميس" وكانت صورهم تبدو وكأنها تحتقر غزو هؤلاء الأُميين الأندلسيين يوم الأحد فى هذا الملهى. مازال يطوف فى معرض الدور الأول، وسط رائحة الشرفات الخشبية العتيقة، الشبح الكئيب لروح مألوفة وصانعة كانت تحكم قديما وتُعد اليوم ملجأً فقط: مخزن للمشروبات والأمتعة التى لا نفع فيها، من قبل كان مكتبة وصالة بلياردو، والآن يمتلئ برفات وبقايا مبتورة ومرتجفة إلى الآن لكل من دوستويفسكى وبروست المترجمين إلى القطلونية إلى جانب سالجاري، ديكنز، باتوفيه وماراجاى وغيرهم من الشخصيات المجيدة التى يعلوها الصدأ ومشاهير نقابة الحائكين القدامى حيث يرقد الحُلم والنسيان معا.

كان الجو فى صالة الرقص شديد الحرارة وتسودها رائحة عرق هائلة. كانت تيريسا تكبح جماح الكثير من الرغبات الصريحة. آه، رقصات يوم الأحد: العالم ملك لكم. جُزر بلا أخلاق ومكتظة بالسكان، سماوات عنيفة: رقة قلب مقهورة، حدائق بلا شذى حيث يزدهر فيها بالرغم من ذلك الحب، الغد هو ملك لكم. وفى هيئة المخطوبين هى مُتشبثة بذراع مانولو أو يجلسان معا فى نهاية بلكونة: جسد مستلق ولكن الرأس فى نفس وضع

الترقب والاستيقاظ على مقعد بالسينما (تتنفس هواءً مليئا بالأشباح) وتلمع رقبتها الرقيقة العارية، ولم تضيع هى أيًا من تفاصيل ذلك المشهد وتُعلق وتمدح هؤلاء الشباب والفتيات الملتحمين الذين كانوا يتجولون بالمسرح دون تعب كأسراب من النمل. تعرف مانولو على بعض الأشخاص المشهورين بالحى حيث كان يراهم كثيرا: كانوا هم أنفسهم الذين يترددون أيام الخميس على ملهى صالون برايس ليرقصوا مع الفتيات وأيضا يذهبون إلى ملاهى لاس كانياس، ومترو وغيرها من الملاهى الليلية مثل: أبوللو ، وإلى دور العرض السينمائية أيضا مثل: إيبيريا وماكسيمو وروفيرا وتكساس وسيليكو، شباب مُرسيون غارقون فى عرقهم يرتدون قمصانا مخططة لها رقبة متيبسة وبَذْلات مختنقة على شكل صليب، راقصين رقيقى القلب ولا يجدون أبدا نصفهم الآخر، كانوا يدورون ويدورون أكثر حول المسرح ينظرون بوجوههم المتجهة إلى البلكونات وأعينهم شَرِهَة للفتيات الجالسات كتماثيل على الكراسى بهدوئهن المُزدرى أو عدم اكتراثهن بحركاتهم الصبيانية: (" ترقصين يا حلوة؟" "لا." " ولم لا؟" "بدون أى سبب" "إذن، اذهبى إلى الجحيم" "تنبال وبلا حياء". وبالطبع كُنَّ غير عادلات وأكثر قسوة من الإهانات التى كن يتلقينها وذلك وفقا لما أوضحته تيريسا لمانولو.

ربما لهذا السبب ومع ملاحظة أن مانولو فى ذلك اليوم كان لا يشاركها رغباتها كثيرا (قد فاجأها ذلك كثيرا: حيث إنها استطاعت أن تقنعه أن يرافقها إلى المسرح لترقص مرتين فقط: حتى دون إبداء أية رغبة من جانبه). لم ترد تيريسا أن ترفض أى عرض للرقص من الفتى الذى كان ملازما لهما على حين فجأة، مُصممًا أن يُذكِّر مانولو بتلك السهرة التى جريا فيها معا لوقت طويل. أرادت تيريسا أن يتعرف مانولو عليه وسأله عن الحى الذى يعيش فيه وعن عمله. كان الفتى من حى تورى باروه، ضاحية نائية وقال إنه أخصائى بالإلكترونيات. وسأل بذوق شديد: "أتريدين حضرتك أن ترقصي؟". ولم تكن تيريسا قد قررت بعد (رأت أن مانولو كان يضحك فى سخرية ولامبالاة) ولكن شيئا كان سوف يحدث ليدفعها أن تقبل بفرح: كان الثلاثة يقفون فى ركن من الصالة، كان ينتظر الجميع أن تبدأ فرقة الأوركسترا فى عزف المقطوعة الراقصة التالية (فقد انتهى دومين مارك من الغناء، وأُعلنت فقرة التريو مورينيتا بويز) عندما حدث فجأة اضطراب فى وسط المسرح، صوت

بعض صرخات الفتيات، تحرك الشباب والفتيات وعادت الكثير من الرؤوس تنظر باتجاه صرخات الفتيات. فظهر من بعيد مزّاح كان يمشى من بعيد ويقرص الفتيات. وضحكت تيريسا كما لو كان هذا أكثر شيء طبيعى فى الحياة. وقالت "كم هو مُسَلٍّ! يبدو لى حسنا جدا". كانت واقفة أمام صديق مانولو الذى كان رأسه المنبعث منه رائحة العطر بمحاذاة وجهها: على الرغم من أنه كان يعطى إيحاءً بالرقة كان جريئًا وقويًا وذا جسد نحيف تنبعث منه رائحة كولونيا نفاذة، وكان يرتدى بذلة على شكل مربعات وله عينا يابانى نادمتان وخصلة شعر لامعة. كانت تيريسا تنظر إليه بتعاطف ولكنها كانت ماتزال مُترددة عندما شعرت حينئذ بلدغة بارع بطيئة ومهذبة وانتهازية فى مؤخرتها. لم تَقُلْ شيئا وأخفت ذلك ووجهها شديد الاحمرار من الخجل كالطماطم، أُتيحت لها الفرصة لرؤية خيال غير منتظم لشخص ما، كتفين مريبتين لشخص قصير كان يتسلل ضاحكا بين الشباب والفتيات.

فى نفس الوقت سمعت فتاة تقول لصديقها: "أعرفه، اسمه مارسيه، رجل قصير وأسمر ذو شعر مُجعد ويسير دائما واضعا يديه فى جيبيه. قرصنى الأحد الماضى وأعطانى رقم تليفونه ما إذا احتجته فى شيء، ماذا يبدو لك؟" وسألتها الأخرى: "وهل اتصلت به...؟". لم تستطع تيريسا أن تسمع الإجابة لأن المُغازل القصير القامة الذى كان أمامها استمر فى النظر إليها بدهشة وهو يُصر: " نرقص يا تيريسا؟". (لطيف، رقيق، الإلكتروني). كانت فرقة الأوركسترا تستعد للبدء، ومازالت تيريسا فى حالة فتور بسبب تلك القرصة فى مؤخرتها، ومن يدرى فإذا تحركت محتمية بالظلام وبتلك المهمة التى تستوجب الشكر مثل أبطال مجهولين) أو ربما لانبهار ما بالجو المحيط، انتهت فى أحضان ذلك المُرسى الصغير الآتى من حى تورى باروه ثم انطلقت فى خوف معه إلى بحر هائج من الدفعات العنيفة ولكزات بالكوع وهذيان وعرق . فرقة "التريو مورينيتا بويز" قدمت أعمالها الأكثر نجاحا، مقطوعة موسيقية رائعة للرقص. فى ذلك البحر المضطرب من الرؤوس التى كانت تتحرك ببطء وسط الظل لم يكن هناك على عكس ما كانت تعتقده تيريسا، أى سعادة رصينة أو متحررة خاصة بعُقد البرجوازية. الرقص فى تلاحم شديد وهدوء، جدية غريبة فى الوجوه، كان يطفو هواء فاحش من الوقار، هواء رومانسى وحذر بفظاظة، أكثر مما يمكن أن يوجد فى رقصات مجتمع مُنظم من ثريات أهل للزواج.

تابعت تيريسا مانولو بعينيها لمدة طويلة، كانت تراه من ظهره وهو يبتعد فى ضجر وسأم، كانت تراه من بعيد ومن فوق الموجات حتى تيقنت أنها كانت تغرق دون إنقاذ. كان شيئًا فظيعًا بالرغم من أنه قد أعطاها فى البداية بعض البهجة، لم تكن هى على وعى بجونلتها الخفيفة المتطايرة وأنها لم ترتدِ ملابسها الداخلية تحت البلوزة ولا من سفك الأحلام الذهبية التى كان سيثيرها ذلك الاكتشاف الغريب مع صديقها. وقد تحول الإلكترونى فجأة إلى أخطبوط تائه وغير مكبوح وله ٥٠ يدا، أخذ يقترب منها كثيرا، مال فمه يلهث على صدرها الأيسر فى الظلام حتى إنه فقد النُّطق وأخذ يجتهد فى مشقة وألم فى دفعها ببطنه وكانت هى تحاول المقاومة حتى إنهما كانا مضطهدين من الشباب والفتيات فى وسط المسرح. لم يستطيعا التحرك أكثر فبقيا هادئين ومتلاحمين وكان هو منحنيا (شعرت تيريسا بيد صغيرة خشنة الملمس تجرى كعنكبوت على ظهرها) إلى الخلف كراقص تانجو نحيف ومُنهك القوى. أين كانت تلك السعادة الغامرة للرقصات العامة؟ رائحة عرق، وكان ذلك هو كل شيء. توقف الشباب والفتيات عن الرقص وظلوا فى هدوء، الوجوه ناحية المسرح تستمع إلى أغنية التريو مورينيتا بويز. علاقات أيدى تائهة مع الخصر ومغازلات غريبة وفظة. مازالت تيريسا تحاول أن تضحك ولكنها كانت المرة الأخيرة ذلك اليوم. فبقيت حادة وصارمة فجأة: كان يقترب منها ويشد عليها ذلك القصير الإلكترونى حيث كانت غير مستقرة معه ولكن دون أن يتركها تلمس الأرض بقدميها. لم تعد ترى مانولو منذ قليل (أغادر هو وتركنى فى أيدى هؤلاء المتوحشين؟) وفجأة وبخوف شديد أطلقت نظرة غاضبة لصديقها، معتقدة أنها بقيت وحيدة وأنها لم تستطع الهرب من هناك وكان هو فى حالة مؤسفة من الذعر. عند رؤيتها عينيه الصغيرتين فإن ما خمنته تيريسا (بعد مرور وقت طويل فهاهى مازالت تتذكر تلك العيون الصغيرة الحزينة والمزدحمة الناظرة إليها من أسفل وكأنها عيون كلب مضروب بعصا: فى الحقيقة كان هذا هو اتصالها الأول بالواقع) كانت على وشك أن تُعلن غضبها وعصبيتها التى أطلقتها فجأة وبدأت تُفسح الطريق بلكزات بالكوع وهى تشعر بأنها فى حاجة إلى التنفس.

كان كل شيء كذْبة: أغانى التريو، أصدقاء مانولو الموظفون، الرقصات الشعبية... كان الشباب والفتيات ينظرون إليها ويضحكون ولكن لم يُبد أحد استعداده لأن يتركها

كى تغادر المسرح. سمعت أحدهم يقول لفتاة: "إنها فتاة مُرفَّهَة!". "فتى مسكين. هذا لا يحدث" وأخيرا استطاعت الوصول إلى حيث تركت مانولو. لا أثر له. فى وسط الظلام بقيت حائرة. تهمس بضعف "مانولو". كان يمكن أن يكون واحدا من الخيالات التى تراها. وجوه غير مألوفة، ينبعث منها العرق والضوء بصورة غريبة وكأنه كابوس، تنهال على وجهها وتتأرجح على نغمات الموسيقى ثرثرة مُخيفة. "مانولو...".

أيد جريئة من بين خصلات شعرها الذهبية الرقيقة، وشفاه مُلتصقة بفظاظة بأذنيها الرقيقتين هامسة بكلمات فاحشة. "أتبحثين عنى أنا أيتها الشقراء؟" "طفلتى ما أجملك" "لا تجرى كثيرا كيلا تفقدى ملابسك الداخلية". كانت هناك فتاة قوية البنية ذات شفتين مَطليتين تُدافع عنها وتسُبُّ الصعاليك الفاسقين. كانت ساقاها ترتجفان، خجولة وغاضبة فى نفس الوقت تبحث عن مانولو بعينين تائهتين فى الملهى كله، وأيضا فى معرض الدور الأول حيث يوجد بعض الشباب والفتيات يرقصون ويتعانقون بعمق تحت جُنح الظلام. وفى ممر هناك خُيِّل لها أنها رأت مانولو يدخل فى غرفة ما وهى تُدركه سريعا. فى الداخل كان يوجد مصباح قديم، يبث ضوءًا أصفر اللون وتقبع عليه الحشرات، كان يُشع فى عذوبة ضوءًا مُتسخًا وفاحشًا على صناديق نبيذ مُكدسة إلى جانب رفوف يعلوها الصدأ من زجاج مكسور تُعشش بها خيوط العنكبوت، وفى وسط الحجرة يوجد على الأرض كتب مُغطاة بالغبار، وأكوام من المجلات القديمة فى وضع الاستعداد للاحتراق. وهمست هى "مانولو هل أنت؟". كانت الغرفة تنبعث منها رائحة رطبة. سُعال مُختنق من وراء صناديق النبيذ. تعثرت قدم تيريسا فى جبل الكتب (خُيِّل لها سماع صوت ضحكة سعيدة من إحدى الفتيات) أو بعبارة أفضل فى مُجلد كان بعيدا بعض الشيء عن تلك الكومة، كان مُجلدا مُكونا من أوراق حمراء اللون يرقد على صورة اصفرّ لونها بفعل الزمن، كانت تبرُز فيها لحى بيضاء وقورة: مدام بوفارى وكارل ماركس اللذين كانا يتدحرجان على الأرض ويتشابكان بعمق، متحمسين وفارين من جبل العلم والمعرفة الجاهز للاحتراق أو لجامع الخرق والأشياء البالية. همسات فى رُكن ما بالإضافة إلى أنها قد سمعت جيدا صوت الضحكة الخليعة وهى تسخر منها، من دهشتها، من خوفها أمام الواقع. تحرك شيء فجأة خلف الصناديق: فتاة سمراء، ذات عينين نجلاوين حالمتين، لها ضفائر، وكانت

تتراجع إلى الزاوية بينما تُصلح الجونلة. تنظر مبتسمة إلى تيريسا نظرة خجل ولكن دون أن تطُرف بعينيها وبلا تكلُّف مُحتمية لقصور ذاتى خلف كومة الصناديق. إلى جانبها كان يقف فتى قوى البنية، ذو شعر أحمر، يرتدى ملابس عامل بوفيه ويمسك فى كل يد زجاجة نبيذ. "هل تبحثين عن شيء ما؟". أصدرت الفتاة خلف الضفائر ضحكتها الغامرة والحالمة وعيناها مُتجمدتان الآن فى صديقها. خفضت تيريسا عينيها (وللمرة الأخيرة نظرت إليهما وهما مُتشابكان، وسط رائحة رطبة من القطيفة) ثم تمتمت بالتماس العذر وخرجت وهى تجري. عادت إلى المعرض المُطل على مسرح الرقص. كانوا قد أطفئوا الأنوار. ومن هناك عاليًا، حيث تُطل من الدرابزين كانت ترى المسرح والبلكونات بالكامل. لقد تبخر مانولو. "ربما يكون قد غضب. أنا غبية، سفيهة...". عند عودتها انتابها قلق آخر: فمازال المُرسى الصغير خلفها ينظر إليها، بيديه الغارقتين فى جيوب البنطلون ويبتسم مُصعرا خده فى غير وضوح. كان ينتظر فى احترام وتواضع وفتنة بالغة. هربت تيريسا وهى تجرى مرة أخرى وأخذت تهبط الدرج أربع درجات فأربعًا ووصلت أخيرا إلى المدخل حيث توجد مكان حفظ الملابس والبار.

كان مانولو هناك واقفا يتناول كأس نبيذ. كان باعث تيريسا الأول هو أنها هرعت إليه واستلقت بين ذراعيه. ولكنها بذلت مجهودا حتى تهدأ واقتربت ببطء من ظهره وهى تنظر لأسفل. عندما وصلت إليه وقفت على أطراف أصابعها وقبلته فى خده. عاد مانولو ونظر إليها مبتسما بحنان: "هل أتعبك الرقص؟". هزت تيريسا رأسها فى ثبات ونظرت له فى تواضع مُصطنع وسرعان ما خارت قواها وأسندت رأسها إلى كتفه. "من فضلك، لا تفعل ذلك مرة أخرى، لا تتركنى وحدى مرة أخرى.". طلبت منه أن يحملها إلى الخارج سريعا.

أخذ يمزح معها بلطف – فى أى عالم تعيشين يا صغيرتي؟– عندما أوضحت له كل شيء. – لقد أخبرتك بذلك، ليس هذا مكانك المناسب – عانقها وداعب رأسها بحنان ورقة حتى هدأت. اختتموا الحفلة فى الكريستال سيتى بار بين مجموعات محترمة ورصينة من الشباب والفتيات الذين كان عليهم أن يعودوا للمنزل فى تمام التاسعة ليلا. ثم انتهى بتبادل القبلات فى مُرتفع لا يستطيع اجتيازه المُرسيّان غير المُتعانقيْن أمام كأسين من النبيذ بشرائح الليمون المُعقمة.

وهكذا فى أيام متتابعة، كان صوت تيريسا العاطفى بطيئا ومُتغيرا بصورة رقيقة. انشقاقات أخرى: ليالى جبل الكرمل السارة والحماسية، صخب الجيران، شباب بالغو الجمال يرتدون قمصانا، طُرقات رومانسية فى ضوء القمر، خضوع واستسلام لمطالب مهنية فى حانة ديليثياس الشهيرة... منذ وقت كانت الفتاة الجامعية تحترق برغباتها لمعرفة تلك الحياة الحماسية والنشطة. ولكنها اكتشفت مؤخرا أنها رسمت صورة خيالية لجبل الكرمل، أرض أسطورية (كفلوريدا فى فترة الغزو). إلى الآن لم يكن ذلك الحى فى مُخيّلتها سوى دائرة غير واضحة المعالم من الظلال الغريبة من بعيد، وذلك لأن مانولو كان يرفض أن يأخذها إلى هناك أو يُقدمها لأصدقائه ولكن كان هناك اسم يتردد كثيرا على سمعها وهو: برناردو. بسبب هروب مانولو من رواية بعض المغامرات (كان يُفضل أن يُسميها هكذا، بالرغم من أن تيريسا كانت تستخدم تعبيرا علميًا وأكثر حساسية: اجتماعات الخلية) التى كانت تأخذه هى بمحمل فُكاهى ولكن هو لم يعتبره هكذا أبدا، قرر فيما بعد أنه عندما يتحدث عن برناردو سوف يتبع نفس الأسلوب الغامض الذى كان قد تعلمه من الطلبة عندما سمعهم يتحدثون عن ماوريتيو. كان برناردو قد تحول إلى زعيم ذى نفوذ وسلطة، فى مأمن بحيث لا يصل إليه أحد ولا أحد يمكنه أن يعرف من خلاله الأسرار المهمة: "أتعرفين برناردو؟، هل سمعت أحدًا يتحدث عنه؟ فبرناردو يمكنه أن يوضح لك أفضل منى كيف يفعل ذلك؟ أنا لا أعرف شيئًا" كان يقول لها ذلك كثيرا عندما تمكن فضول الفتاة أن يضعه فى مأزق. "هل ستُقدمه لى يوما ما يا مانولو؟". وعلَق هو "إن ذلك أمر خطر". وفى حالة إعجاب تيريسا ببرناردو حتى دون أن تعرفه، ربما أقل من إعجابها بمانولو أولًا ثم لحسّها الأخلاقى الجريء. ولكن كان حسها الأخلاقى مُسهبا ومُندفعا على حد سواء (فواقع تيريسا الأخلاقى كان لا ينبع من مجهود تحليلى كما كانت هى تعتقد وإنما بفعل الحب ولذلك فهو مازال يحميها من الانخداع).

وفى ليلة رافقت فيها مانولو حتى أعلى نقطة فى حى الكرمل، وعند توديعه عرضت عليه أن يطوفا قليلا فى الحي. رفض هو فى بادئ الأمر، ولكن رغبته فى معانقة الفتاة من خلف الأكمة على الجانب الآخر من الشارع، وفى أن يتحدث معها بجدية عمّا يدور برأسه منذ وقت طويل (إمكان حصوله على عمل من خلال السيد سرات) جعلته يوافق. "حسنا

فلنطف قليلا على الجانب الآخر وأُطلعك على وادى إيبرون". تركا السيارة بالطريق. طوق كتفيها بذراعيه، كان يحميها من نظرات بعض الجيران الذين كانوا يستنشقون الهواء فى مداخل المنازل، أخذها مانولو إلى شارع جران فيستا. اجتازا حانة ديليثياس، كان هناك بعض الأطفال يلعبون فى وسط الشارع، وكانت هناك طفلتان تشدوان فى ضوء ينبعث من أحد مداخل المنازل وكانتا تمسكان بيد بعضهما البعض:

فناء منزلى

هو فناء خاص،

يتبلل عند هطول المطر، كباقي...

اقتربت تيريسا منهما وأخذت تُغنى معهما لفترة وجيزة وهى تجلس القرفصاء. عادت نغمة صوتها العاطفية لترتفع بشكل مُريب، كان الليل باردا ومترعًا بالغيوم، يدور القمر فى مشقة ويسبح فوق أسطح المنازل، مُلتفا بغلالات خضراء، وتتوردُ الغيوم على ضفاف السماء. كان الشيء الوحيد الناقص هو جهاز راديو، ثم انبعث بقوة صوت راديو من شرفة ما، ينشر فى الظلام نغمات دارجة ومبتذلة. فى الخلاء وفى نهاية شارع الجران فيستا كان يبدأ طريق عربات الكارو الذى يؤدى إلى حديقة الجيناردو. جلسا قليلا على أريكة مُحطمة وشبه دائرية من الحجر ثم هبطا من ذلك المُرتقى من بين أشجار التنوب الصغيرة بالحديقة ويدها فى يده وسط شدو الطيور. استلقت تيريسا على العشب الأخضر. كانت شفتاها صافيتين ولامعتين تلك الليلة، وعيناها مغلوبتين مفعمتين بالكرم والحنان، اعتقد هو أنها ربما تكون هى اللحظة المناسبة لمصارحة الفتاة بأنه عاطل بلا عمل، ويرى أمامه مستقبلا غامضا، ولعل والدها يمكن أن يدعمه بوظيفة ما لها مستقبل مضمون ومسئولية، إذا طلبت منه هى ذلك...

– اسمعى يا حبيبتي، والدك... أليس بإمكان والدك...؟.

كانت الشفتان الحارقتان والصدر الصغير الحاد الذى يشبه ثمرتى فراولة السبب فى تعثره فى الكلام وتردده وحيرته، كان ذلك العالم المزدوج الذى يمتلكه فى راحة يديه،

الذى كان يحرقه ويغلبه ويرهقه ويسبب له الأزمات القلبية والتشنجات العذبة للكرامة والمستقبل المزدهر... نهض كى يرتب أفكاره قليلا. كانت تيريسا تنظر إليه وهى مستلقية على الأرض بعينين يغلبهما النعاس. وعاد إليها مرة أخرى مُتشككا: هل بإمكانى أن أكون ملكًا لك وعشيقك لفترة ما، ربما لمدة شهور وشهور، ولكن ماذا أستفيد من وراء ذلك؟ ماذا كانت تعنى تلك الكلمة العميقة: عشيق؟ ماذا عن فتاة مُعاصرة، جامعية أم لا، ولكنها ثرية ذات أفكار جديدة، ليس لديها اليوم عشيق دون أن يحدث شيء؟ ثم ينسى كل شيء، كان شيئا جميلا ولكنه انتهى، عاطفة خاطفة وتلاحُم جنسى وليد اليوم، شيء معروف بالفعل، هكذا الحياة. لا أيها الغلام، إن فكرتك عن تيريسا فى السرير ليست دقيقة برمُتها: فبالطبع يمكن اقتناء صورة محترمة ومثقفة تُثير الإعجاب كهذه (وحقا فإن دفاعاتها الأخلاقية لم تكن مُترسخة بنفس الدرجة التى ينادى به وقار واحترام طبقتها الاجتماعية) ولكن ليس من الممكن امتلاك العالم الذى تعيش فيه. فلتضع فى اعتبارك أنه يجب عدم مداعبة هذه الخصلة الذهبية الجميلة أكثر من مرة واحدة، وهاتين الركبتين البرونزيتين الناعمتين كالحرير، يجب عدم امتلاك هذا العالم المزدوج المليء بثمرات الفراولة واللؤلؤ أكثر من مرة وذلك لأن هؤلاء هم أبناء مُرفهون بذل آباؤهم جهدًا اجتماعيًا ما، ولنَيْلهم يجب أن يُبذل جهد مماثل، ولا يكفى بسط براثنك المرتجفة لاقتناصهم...

وقفت تيريسا وذهبت إلى صديقها وعانقته من ظهره. "ياللروعة. كل شيء واضح من هنا، أليس كذلك؟" كان شذا الصنوبر ينبعث بقوة من حولهما. ومن بعيد تسطع أضواء مونتابو ووادى إيبرون حيث كانت تنزلق السيارات فى طرقها بمصابيحها المضيئة وهى تصطف الواحدة تلو الأخرى فى مشهد موكبي. وهى تضحك ثم طافت حوله عدة مرات. وقالت "يعجبنى الحى الذى تعيش فيه" "أدعوك إلى فنجان من "الكاراخييو"[(١)] فى حانة ديليثياس" "يُسمى فنجان من "البيرفومادو"[(٢)] صحح مانولو مُبتسما. وقالت هي: – إذن، وهو كذلك...– أريد فنجانًا من البيرفومادو فى ديليثياس.

---

(١) نوع من القهوة بالمشروبات الروحية.

(٢) القهوة المعطرة.

كان مانولو يقترب منها ببطء، مُتمتما ببعض الكلمات، يبتسم ويطفو كما لو كان فى حلم، مرة وأخرى كان يُقبلها ويَعضّها فى رقبتها ويتمايل بوجهه بين خصلات شعرها الذهبية (والدك، والددددددك يمكنه...) حتى كانت تنطلق وهى تبتسم وكانت تُكمل وراءه. وكان هو يلحق بها فى تعثر، كان يصل إليها، ثم يفقدها "سوف تتسببين فى جنونى يا صغيرتي" "أريد فنجانًا من (الكاراخييو) ومن (البيرفومادو)". كانت تتحدث فى عناد. وعرضت مبتسمة فى غير مقاومة "خذنى إلى حانة ديليثياس ثم نعود إلى هنا مرة أخرى بعضًا من الوقت؟". وفجأة بدأت تجرى لأعلى حتى الشارع عندما توقفت ونظرت إليه واستمرت فى الجرى باتجاه شارع جران فيستا. وكان مانولو يتبعها ببطء مُطأطئ الرأس ويداه فى جيبه. كان يغضبه صوت غناء الطيور. لم يكن يرى تيريسا. ثم سمع صيحاتها حيث كانت الفتاة على بعد ٥٠ مترا، لم تُمكنه ظلمة الطريق من رؤية أى شيء، ولكنه قرر فى الحال أن يجرى صوبها. وجدها مُلتصقة بالحائط تغطى وجهها بيديها وخيال ظهرها ينعكس على الجانب الآخر من الطريق. تهتز كتفاها وترتجفان.

– ما الخطب؟ –

بذلت تيريسا مجهودا كى تستعيد حالتها الطبيعية، همست وهى تضع يديها على خصرها. كانت تبدو غاضبة أكثر من كونها خائفة من شيء ما.

وتمتمت:

– هناك، عند البوابة... يوجد رجل...

وأشارت إلى جانب غارق فى ظلمة الليل، أحد أروقة حائط منزل بيتش ملتصقا بالربوة ومن الداخل كان مسكونا. ضوء المصباح الوحيد على ناصية الشارع والذى كان ينير ذلك القطاع من الشارع لم يصل إلى هذا الرواق ولكنه كان يكشف شيئا من المجهول: حذاء قديم كانت تتدلى عليه ثنيات مُلطخة بالوحل لسروال بالغ الطول. وهمست تيريسا "لقد أخافنى خوف الموت هذا المجنون، فمن المؤكد أن يكون مجنونا، خرج من الظلام فجأة ووقف أمامى فاتحا ذراعيه وكل ملابسه مفتوحة، مبتسما وهو ينظر إليّ، ليس بإمكانى أن أصدق ذلك". ثم سمعاه وهو يلهث وصوت حركة قدميه. توجه مانولو

إلى هناك كالسهم ومد يده فى الظلام وعثر على رقبة مكتنزة تخرج من قميص (لامست أصابعه لحية غير مُهذبة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، وملمسا مألوفا لأنف كبير) تنبعث منها رائحة نبيذ نفاذة وغير محتملة. وصاح مانولو "هيا، تعال، اللعنة عليك، فأنا أراك" ودفعه بقوة: الذى خرج من بين الظلام مرتجفا وكأنه خادم فى ضوء المصباح الخافت، لم يكن سوى السانس أو بمعنى أدق ما تبقى منه بعد عامين فى خدمة السيدة روسا وزوجها. قال له مانولو وهو يدفعه ويعنفه فى غضب مفاجئ "ألا يخجلك ما فعلت أيها البائس، وأنت رب أسرة" وراح يضربه بقوة. لم يكن ذلك بغريب على السانس فى حى ناء ومُظلم كهذا، كان ذلك يحدث باستمرار وكان مانولو على علم به. وبالرغم من ذلك وقع عليه هذا العقاب (كان شعور بالانتقام يتحرك بداخله، شعور بعيد عما كانت تستوجبه إهانة تيريسا) حتى إن الفتاة نفسها اندهشت. "لا تزد عليه الضرب، دعه وشأنه" ولكن مانولو استمر. صاح "هذا ليس له أى حق فى الحياة، لقد قلت له ذلك منذ وقت طويل، لقد أنذرته، الشقي، انظر إلى ما وصلت له" . كان السانس فاقد الوعى تماما، يضحك فى حزن وقد غطى وجهه بذراعيه واستند إلى الحائط. تمتم فى غير وضوح وهو يتعثر فى الكلام "أنا لم أكن أعلم، لم أكن أراك، أقسم لك أننى لم أرك" . واستطاع أخيرا أن ينجو بنفسه وأخذ يجرى متعثرا فى خطواته وشبه زاحف تقريبا. ومازال مانولو يصيح قائلا: "اللعنة، يا حيوان، هكذا يجب أن تكون نهايتك، أيها البائس، تُسبب الخوف والرعب للسيدات العزلاوات، اختفِ من هنا، ولتذهب إلى الجحيم، فليس لك أى حق فى الحياة" . ثم عاد إلى تيريسا التى كانت تنظر إليه فى دهشة واستغراب وأحاطها بذراعيه ثم أوضح لها: "تلك الأحياء... قلت لك من قبل إنها شوارع مظلمة ولا تستطيع الفتيات المحترمات أن تخرج إليها ليلا بمفردهن. وأحيانا السيدات المتزوجات أيضا، لقد حدث ذلك لزوجة أخى أيضا، فكانت عائدة إلى المنزل فى ليلة ما وهى تبكي... "هل فعل بك شيئًا؟" "كلا، كلا..." "هل يعيش فى هذا الحي؟ يبدو أنك تعرفه." "كنت سأقتله، اسمعي. لم يحدث أى شيء...– همس وهو يفكر– لا تصدقى فلم يكن شخصا سيئا. ولكن تعقدت حياته. كانت الأمور تسير على ما يرام، ولكنه هو المسئول الوحيد عن ذلك. قلت له ذلك كثيرا، وكنت أحذره. ولكنه انتهى الآن، فقد اعتاد الخمر ولم يعد يفعل شيئا سوى مثل هذه التصرفات الشائنة. ربما يظهر هنا فى يوم ما

ورقبته مكسورة". "ولكن – قالت تيريسا – إذا كان صديقك فلماذا ضربته هكذا، ففى الحقيقة هو لم يلمسنى مطلقًا".

أنهى مانولو حديثه وهو فى حالة سيئة وقال: " إذن ألم أقل لك؟ لأنه يستحق هذا... هو كان يبحث عنه".

وبالطبع فإنه قد احتاط كثيرا حتى لا يخبرها أن ذلك السفيه والخرقة المحمومة هو فى الحقيقة برناردو سانس الشهير، البطل الآخر غير المعروف بحى الكرمل. لم يكن ذلك يعنيها فى شيء، لأنها عند عودتهما إلى السيارة أرادت الفتاة أن تتناول كأسا فى حانة ديليثياس (بالرغم من أن هذه المرة لم تكن بنفس حماسة المرة الماضية، مُبررة أنها كانت تحتاجها حتى يزول الخوف). عندما لاحظ مانولو وأراد أن يستدعيه، كانت تيريسا بالداخل. كان برناردو هناك، وحيدا جالسا على طاولة فى ركن بعيد حيث كان مازال يلهث، وأنفه ينزف، كان هادئا وكأنه فأرة مذعورة. ليس من الممكن أن تكون تيريسا قد تشككت فى الالتقاء بشقيق مانولو هناك. عاد الجميع عندما رأوها تدخل: اثنان يعملان بتحصيل تذاكر الأوتوبيس كانا يتحدثان مع شقيق مانولو، متكئين على طاولة بالحانة، أربعة فتيان كانوا يلعبون الدومينو، ويجلس رجل عجوز إلى جوار الباب. اقترب منهم شقيق مانولو. كان يضحك فى غير ثقة ويطيح برأسه فى الهواء، كان رجلا يبلغ من العمر ثلاثين عاما، طويل القامة، منحنيًا، ذا وجه أسمر وسخيف يشبه العصا وأسنان كبيرة صفراء اللون، رابط الجأش، بطيئًا، قرويًا يصافح الناس بحرارة شديدة، وكان يرتدى ثوب العمل المُتسخ بالشحم وكأنه لم يكن لديه غيره. فى الحى يتعاملون معه وكأنه معتوه ولا أحد يعيره أدنى اهتمام. كان مولعا بالنكت السريعة العابرة (كان هناك قحط وجفاف شديد، شديد، حتى إن الأشجار كانت تجرى وراء الكلاب، هاهاها...). ولكن كان على النقيض مُسهبا ومهتما كثيرا بالتفاصيل عندما يحكى أشياء أخرى، ويستطرد كثيرا فى الكلام ذاكرا حكَمًا وأمثالا لم تكن مسموعة فى الحقيقة وكانوا يهربون منه فى الحانة. ولهذا السبب تحديدا كثيرا ما كانوا يتركونه وحيدا والكلمات عالقة بين شفتيه، كان لديه أسلوب ممتع وتفصيلى عند حكيه للأشياء: فكان يبدو دائما أنه كان يقوم بقصها فى مكان آخر، لشخص آخر (والذى كان يدير له ظهره دون انتظار معرفة النهاية) وكان حاضرًا

هناك باحثا بعينيه عن رفيق مستعد لاستكمال القصة. ولأن الحدث كان يتكرر كثيرا، كانت النتيجة مجموعة من الفصول اللانهائية والمُقسمة فى عدل على مجموعة من معارفه، وكان لا يهتم أحد منهم بالبداية ولا حتى بالنهاية. على الرغم من ذلك كانت تيريسا تهتم بنهاية قصة تلك الليلة لأنها تشير فى دقة إلى برناردو. لم يكن لدى مانولو أى حل سوى أن يقدم تيريسا فقال ("إنها صديقة. فلنذهب حالا") ولكن أخاه أصر على أن تتناول الفتاة كأسا صغيرة من النبيذ وأوضح ("إنه مفيد جدا للنساء") دون أن يعرف ما هو الهدف الحقيقى وراء تلك الطيبة وذلك الكرم) وشكرته تيريسا فى رقة وذوق. وجدت أن أخا مانولو شخص لطيف بتعبيرات وجهه الوديعة التى تشبه قليلا الخيول، ولكن كانت تتكرر أمام عينيها صورة برناردو سانس فى مكانه وهو ساكن وخجول. كان أخو مانولو قد اقترب مرة أخرى من محصلى الأوتوبيس اللذين كانا يشربان الخمر على الطاولة. بدأ فى حكى شيء ما، ولأنهما أصرا على إعطائه ظهريهما وعدم الاكتراث به التفت هو على عقبيه وتوجه إلى تيريسا كى يكمل لها:

– ... يبدو أنهم قد ضربوه ضربًا مبرحًا هذه المرة، انظرى إليه، يمكنك أن تريه، يشعر بسعادة ما، ها هو هنا ذلك الضار (وأشار إلى مانولو) يمكن القول عن أخي، فمنذ زمن كان هو وبرناردو .... وأشار إلى برناردو–، (وشعرت هى بصدمة هائلة عند سماعها اسمه) كانا يخرجان معا، عندما كانت الأمور تسير على ما يرام وهنالك اهتمام بالعمل وقليل من الكرامة. ولكن لصديق برناردو حظا سيئا مع روسا. وأنهى حديثه فى دقة مُتبجحة "روسا هى زوجته".

كان ذلك فى نهاية تلك الليلة المُملة. اعتقدت تيريسا أن البداية يجب أن تحتوى بلا أدنى شك على اعترافات وحقائق أخرى ليست أقل مفاجأة، ولكن من المستحيل استيعابها، كانت تفسد صورة محصلى الأوتوبيس فى الذاكرة. على أية حال فإن الشك المخيف كان يبقى هنا من جديد: فذلك العظيم الذى يُدعى برناردو الذى كان يتحدث عنه مانولو كثيرا، والذى قارنته هى بمانولو (خيالا باريسيا شاردا ومولّدا) يمكن أن يكون هو ذلك الشيء المتبقى من ثمالة البشر الذى كان ينزف دما فى هذا الركن البعيد؟ وتزايدت شكوكها عندما نظرت إلى مانولو بجانبها نظرة مُختلسة كانت تتحسس من خلالها الأفكار التى

تدور برأسه وسريعا ما سيطر عليها من جديد ذلك الشعور بالتقزز وخيبة الأمل الذى كان قد انتابها فى ملهى يوم الأحد. فى تلك اللحظة رأت برناردو وهو يستعد للخروج: أهذا المسكين الذى يسير متأرجحا، منحنيا، دافعا بوجهه وكأنه كفيف أو معتوه، ذلك الانحدار الأخلاقى والجسدى يمكن أن يكون هو برناردو العظيم، القوى، والعقل الذى لا يُقهر الذى يعمل فى الظلام؟... لا يمكن أن يكون لأن ذلك المظهر شيء مُبك، زحف الأقدام، شبح الكرمل المثير للغضب والضيق، كانت قد انفجرت هى فى الضحك. وهل كان يجب على شخص غير مسئول شبيه بذلك النوع، لديه نفس المستقبل الجنسى الإجرامي، يتولى مسؤولية طباعة المنشورات للطلبة؟ كانت تعرفه، وتتشكك به: حيث إن جبل الكرمل لم يكن هو جبل الكرمل، لم يكن شقيق مانولو يعمل بتجارة السيارات ولكنه كان ميكانيكيا، لم يكن هنا أى وعى مهني، كان برناردو نتاجا لخيالاتها الثورية وحتى مانولو نفسه...

دون أن تعى جيدا ما تفعل، طلبت كوب "بيرفومادو" (وقد أثار ذلك ضحكة طويلة من جانب شقيق مانولو) فى الوقت الذى كانت تسأل فيه الفتى بعينيها، فاقدة الحس والوعي، مُحبطة وبائسة مما قد حدث لهم. ولم تجد فى عينى صديقها السوداوين سوى العشق، دون أية إشارة خفية إلى أى شيء قوى، ولا أى افتراض بطولى للخطر، ولا أى شعور آخر سوى العشق والإعجاب بها. خرجت مسرعة من بار ديليثياس وتوجهت إلى سيارتها. كان هناك صوت راديو أحد الجيران يدوى عاليا: نغمة رقيقة ولكنها فى غير وقتها، لا تشعرى بأن شيئا ينقصك فشباب الضاحية الوسماء لم يعودوا ليتنزهوا ليلا على أضواء القمر الخافتة وهم يرتدون القمصان. ذهب مانولو إلى جانبها يلاحظها ويرقب حركاتها وكأنه والدها، كما لو كانت هى فى الحقيقة طفلة صغيرة تخطو خطواتها الأولى بمفردها ومن الممكن أن تسقط. كان يخشى رد فعل تيريسا، جبل الأسئلة الذى كان سينهال عليه بين لحظة وأخرى. ولكن تيريسا كانت قد غاصت فى صمتها. تسير فى عجلة، ويُخالجها شعور بالمهانة، اكتفت بصحبة الطريق فى عتمة الليل. عندما وصلت إلى السيارة جلست هادئة على المقعد وأمسكت بعجلة القيادة وهى حائرة تنظر بعينيها إلى الأمام، انزلق مانولو إلى جانبها فى رقة ونعومة وكأنه قط يريد أن يقطع حبل أفكارها، أخذ يتأملها للحظة فى صمت تام ثم لامس صدرها بشفتيه وأخذ يلهث فوقه.

قالت تيريسا:

– كفى يا مانولو. أكنت تعتقد أنى طفلة ساذجة؟

– حاولت أن أشرح لك وضع الحي، حتى لا تعيشى بأوهام كثيرة...

– اسكت. أنت مُخادع.

رجعت تيريسا للخلف وحدجته ببصرها. كان صوت الطيور يُدوى على جانبى الطريق. تحمّل مانولو نظرات الفتاة المنبعثة من عينيها الزرقاوين. فى تلك اللحظة شعر بأنه يحبها كثيرا، أكثر من أى وقت آخر. خُيل إليه أنها فى دقائق قد تحولت إلى امرأة يمكن أن تضربه فى صدره كما يمكنها أيضا أن تُفسح له مكانا فى سريرها للأبد. وفكر: هل أتحدث معها بصراحة ووضوح مرة واحدة الآن وهنا وأعترف لها بأننى لا أساوى شيئا، عاطل بلا عمل، لص يعمل بالضاحية، عاشق غير محترم؟ ...

– انتظرْ، اهدأ. (قالت هى بصوت حزين)، أريد أن أعرف شيئا واحدا: ماذا حدث مع نساخ المطبوعات التى تعهدت بأن تقوم بتسليمها لنا؟

أخذ مانولو يُمرر يديه بين خصلات شعرها: كان قد نسى تماما ذلك العهد الغريب الذى قطعه على نفسه دون تعقُل أو تريث، ولم يكن يخطر بباله أى شيء لتقديم أعذار أو مبررات. وأمرته تيريسا:

– اخرج من السيارة!

– ماذا؟

– اهبط من السيارة... (وسريعا ما هربت منه الكلمات)

– لماذا لم تكن صريحا معي؟، أعتقد...، أعتقد أن ذلك أقل ما تستحقه.

كان سيقول شيئا ولكنها كانت قد فتحت الباب وهبطت بسرعة. أغلقت الباب وراءها بقوة، وتركته هو بالداخل، ووقفت هى بعيدا فى الشارع وهى تضم ذراعيها. كانت العصافير تغرد من خلفها وأضواء المدينة تشع من بعيد. ثم صاحت:

- يا لها من ورطة ! آمل أن تتحسن حالة ماروخا فى أقرب وقت ممكن وأنتهى من كل شيء دفعة واحدة وأرحل، الصيف والأجازات تنتهي، وتلك الخروجات أيضا وكل شيء. أشعر بالضيق.

قال هو:

- سامحينى يا تيريسا- سأشرح لك، هيا، اصعدي.

ولكنها لم تتحرك، وفتح هو الباب:

- هيا يا سيدتي، اصعدي!

- عندما تهبط أنت، إذا كان لا يزعجك ذلك.

كانت تنظر بعيدا، وذقنها على صدرها ولكن كان يسيطر عليها حنين ولهفة تنم عنهما إيماءة ازدراء مليحة بشفتها العليا. كان يتأملها هو قليلا: وكانت تثيره كثيرا هيئة تيريسا الجديدة التى مازالت مُحتفظة بالخنجر لأعلى، كانت تبدو له رقيقة فى غضبها. ثم همست وكانت عيناها تدمعان "إلى الجحيم". عندما لاحظها مانولو قفز من السيارة وتوجه إليها. ولكنها أعرضت عنه وجلست على مقعد القيادة وأخذ يتوسل إليها - "تيريسا اسمعيني..." - ثم أدارت الموتور ولكنها لم تتحرك بسرعة فربما كان هناك مشكلة مع الموتور (حيث إن السرعة الأولى لم تعمل) أو ربما كانت تنتظر منه شيئا ما. وعندئذ أدرك أنه يجب عليه ألاّ يتركها تذهب دون أن يقدم لها أى توضيح أو مبرر، أى توضيح. وفكرت فى يأس شديد أنه رجل يتساوى لديه الحب والمؤامرة فهما شيء واحد. ثم اكتشفت شيئا آخر.

قال هو:

- حسنا، كما تريدين. (وكانت يداه تقتربان من خصلات شعرها فأصدرت هى إيماءة ريبة ونفور)، عليّ أن أذهب غدا لأتسلم تلك المنشورات الخاصة بأصدقائك. ستأتين معي، متفقين؟ سأنتظرك فى المستشفى فى تمام العاشرة صباحا.

نظرت إليه تيريسا آخر نظرة حزينة وانطلقت فجأة بالسيارة مُحدثة الصخب الصبياني الطائش الذى يهز المُرسي. كانت صورة الفتى تختفى شيئا فشيئا فى الشارع. وعندما وصل إلى المنزل أخرج من الدولاب سروالًا أبيض وطلب من زوجة أخيه أن تقوم بكيه كى يرتديه غدا. ثم اضطجع على سريره الضخم (كان أخوه يناديه، ولكنه لم يعره أى اهتمام، وأخذ يسبه من حجرة الطعام) ثم درس خطةً ما بكل تفاصيلها.

من جانبها لم تقم تيريسا بأى شيء بمجرد وصولها إلى المنزل إلا أنها اتصلت هاتفيا بالمستشفى: ماروخا فى حالة جيدة، أي، لا تزال على وضعها الحالى دون أى تغيير. ثم استحمت، خلعت حذاءها وهى ترتدى حاكيت البيجامة، مطأطئة رأسها، وجلست على طاولة الطعام، وحيدة (فكان والدها قد سافر إلى بلانس فى ساعة متأخرة ظهرا) قدمت لها بيثنتا الطعام ولكنها كانت تأكل بالكاد. وضعت أسطوانات أغان لفرقة أتاهوالبا ويوبانكى، تناولت كأسى نبيذ مثلجين، ثم ذهبت إلى السرير بكأس ثالثة، كاد رأسها ينفجر من كثرة الشكوك والتفكير والتساؤلات. طرحت مائة سؤال جاد عن صديقها حتى إنها اكتشفت أنها لم تكن تسأل فى أمانة وصراحة. كان يدور حولها الظل اللذيذ للنقد الذاتي: فالتغيير الذى كان بدأ يقر فى أفكارها كان يخيفها كثيرا. كانت ساخطة على نفسها وأسلوبها مع مانولو كان يسبب لها أزمة وضيقا، كانت تسمو وترتفع بسذاجة – اعترفى بذلك –. تفكر الآن وهى مستلقية على سرير غرفتها المطلية باللون الأزرق، دون قدرة على النوم (كان خفق بطنها يبدو وكأنه عزف نغمات على قيثارة) ويسيل منها عرق النبيذ الموسيقى من بين الدُمى وأسطوانات الموسيقى والكتب، تلمس فى حنان ورِقّة كتفَها العارية بخدها. الحرية، المعارضة، الوطن...

وفى نهاية تلك الحسابات والتساؤلات، ما المعارضة؟ ماذا يعنى رجل شرطة فى قضية ما؟ الشيوعى نفسه ما هو؟ (صمت: عضلاتها تتصبب عرقا حلو المذاق، دراجة بخارية تعبر سريعا الليل الهادئ فى حى سان خيرباسيو). كانت تفكر فى النهاية، أنا وحيدة، كنت على قيد الحياة حتى ليلة البارحة فقط، تحيط بى الأشباح. الوحدة، الكرم، الرومانسية، الفضول، الاهتمام، البلبلة، الاختلاف: كانت تستطيع إحصاء تلك المشاعر لأنها تعتقد أنها وجدت المفتاح المفسر لسلوك وتصرفات الفتى ولتصرفاتها هى

أيضا: كلاهما، كل منهما على طريقته وأسلوبه كان فى صراع مع المصير. ولكن يتبقى لها الفضول وحب الاستطلاع. أيهما يمكن أن تكون فكرة الحرية فى ذهن فتى مسكين كمانولو؟ الذهاب بالدراجة الفلورايد من جانبى بسرعة تزيد على المائة وخمسين كيلومترا فى الساعة، أو تقبيل يد والدتي، أو ممارسة فعل الحب على ساحل الشمس مع أجنبية ثرية، أو ربما لم يكن هذا إلا وسيلة لشغل وقت الفقر والتعاسة والنسيان. نعم إنه رجل يحاول استغلال الوقت جيدا، رجل فى حرب مع المصير، هكذا هو مانولو، وهكذا نحن جميعا. ولكن كيف تكون فكرته عن الحرية؟ سيارة رياضية على الموضة، سيارة مكشوفة بلا سقف سريعة وبراقة. دراجة بخارية ماركة "فلورايد" ذات لون أبيض يستخدمها الجميع (لا تحد عن الصف وسر فيه بانتظام) بدلا من عالم يمكن أن توجد به "الفلورايد" للجميع. خطأ فى المنظور– لم يكن ذنبه هو– وبشكل ما فهو نفس الشيء، أود أن أقول إنه شيء طبيعي. إنه شخص ذكي، جذاب، كريم ولكنه صعلوك، وقح وربما كذاب: كان يدافع عن نفسه بكل طاقته. لأنني: ماذا أعرف أنا عن الآثار الغريبة التى يخلفها الفقر فى العقل، ماذا أعرف عن الشعور ببرودة البرد، عن الجوع، عن مخاوف القمع والظلم، الحقيقة التى يجب أن يشعر بها فتى مثله حتى ولو لم أسأله عن رزقه وقوته اليومي، (إذا صممنا دائما على ألا نتحدث عن يومية رجل ما، عن سلوكه فقط، إذن حسنا، يا أصدقاء، فأنا أؤكد أن سلوك الإنسان يتوقف على عمله اليومي) إذًا اليوم، يحملنى كفتاة ماركسية ساذجة ترفس بقدميها أمام سائق سيارتها، أجبرته على النزول من السيارة، إذا كنت أريد أن أسأله بدلا من أن أساعده، إذا كان هو شديد الجاذبية والجمال والذوق والصبر معي...

لا. وبالرغم من هذا، فإنه يتعهد بمسؤولية منشورات الغد؟ فمن المحتمل كثيرا أن يكون كل ذلك فى النهاية مجموعة من التصرفات الجنونية والحماقة. لا يعنى إلى أى شيء. تدور المئات من الأسئلة والإجابات حول صديقى مانولو: سواء أكان حقيقة أم كذبا، مهما كانت طبقته الاجتماعية، رؤيته المستقبلية، فإن السؤال الحقيقى هو... (آه يا أملي، لا أستطيع النوم)

يكمن السؤال المهم فى الآتي: إلى أى مدى سيمكنه الوصول من خلالي؟

أأنتمي؟ أحقا أنتمي؟

أحقا هو ينتمي؟ وإذا رآنى أحد أتحدث إليه، ماذا سيعتقد؟

أننى أنتمى أم لا؟

تريلينج(1)

إن طبيعة السلطة التى يمارسونها لغامضة كطبيعة موقفنا: يمكننا فقط أن نقول عنهم إن أفكارهم معارضة. وتنبع حماستهم الجامعية والمراهقة من نقائص فردية وذلك من سوء الحظ حيث لا يوجد نهج لويس ترياس فى جامعتنا فهم يتغنون - بتفاخر وتبجح أقل بلاغة مما يمكن أن نتخيله - بوجود الديمقراطية وبأن الوعى السياسى ينشأ من صحوة حماسية وإصرار فكرى وبالتالى تظهر طبيعة هذا الجيل الفاسقة، المظلمة وغير المفهومة والسرية فى علاقته مع انقلاب الحكم والسياسة وبأنْ لا أحد يمكنه أن يتقلد الحكم. ففى عام ١٩٥٦ بدوا كأنهم قاموا بضربهم بالسياط على ظهورهم كدُمى صلبة ومتيبسة ومتآمرة بخناجر مختفية فى ملابسهم ومتخذين بأعينهم المتطاير منها أعيرةٌ نارية قرارا غير قابل للنقاش أو التغيير.

مؤثرين ومتأثرين بأنفسهم، يبدون فى طرقات الجامعة غامضين ومعتزين بأنفسهم، حاملين كتبًا غريبة تحت الأذرع ومن يدرى ماذا يحملون فى وعيهم من أمور وأفكار مبلبلة، موجات من الخطر غير مرئية، شعارات ورسائل مبهمة ومقابلات سرية مثيرين بذلك

(١) ليونيل تريلينج (١٩٠٤ - ١٩٧٥): ناقد أدبى أمريكى.

إعجابًا وريبة وقلاقل ظاهرية بالإضافة إلى رؤى براقة نحو مستقبل أكثر عزة وكرامة. جباههم النبيلة والمثقلة بالمسئوليات والقرارات المتطرفة تنتشر وتتوغل وكأنها خزانات مُعبأة بدخان طلقاتهم النارية، فهم يهدمون جذور المقاومة ويثيرون الشائعات والأحقاد، يسحقون النظريات والانتقادات المعارضة ويفرضون الصمت كما فى نهاية مفاجئة لحفل ما، فإن فى تلك المناجاة تظهر كلمة فاحشة: "...أرى – أنتمى إلى – الحزب الشيوعي".

وكثيرا ما كان يجتمع اثنان أو ثلاثة منهم فى كافيتريا الجامعة على طاولة بعيدة ويتحدثون بصوت منخفض ويقرءون ويوزعون المنشورات. ودائما ما كانت تجتمع معهم تيريسا سرات فهى ناشطة حادة ومعقدة يشع من داخلها نور وردى تماما كشاشة عرض. فبعض الآراء اليمينية مرهونة بقول إن الفتاة الشقراء الجميلة والتى تخوض دورا سياسيا تعيش مع أصدقائها، على الأقل لويس. ولكن العالم كله يعرف أن كل ذلك لا يساوى شيئا بالرغم من أنه وقت لفحص وتقدير الآراء والأفكار المختلفة.

ويقارنون بشدة بين التغير التاريخى المذهل وصناعة الوالدين، يحملون وعى الشباب وهم ناكرو الذات وعُزّل ومستسلمون كرجال الدين فى ملابسهم الأرجوانية التقليدية، وتواضع نظرة أعينهم. يشع منها نور المقاومة البطولية والحقد على الآباء ذوى السلطة والثراء المرير، وتحقير الأصهار، والسيدات الورعات اللائى يحيط بهن بشكل متناقض عطر الرهبانية وتدليل أمهات ثريات وحلوى لتناول الإفطار. كل ذلك يجعلهم فى معاناة شديدة وخاصة عندما يشربون النبيذ القاتم اللون فى لقاءاتهم مع المسحوقين والمُتعبين بالحى الصيني. ويجدون أنفسهم طوال الوقت محلا للانتقادات، حيث يظلون بمنأى عن بعضهم البعض فى حجرات الجامعة، لا يمكن لأحد أن يَنْفُذ إليهم. يتحدثون قليلا فقط فيما بينهم لأن عليهم استكمال مهامّ عاجلة وخاصة. وبألم عميق يكنون نظراتهم المعبرة ويداعبون بلطف الصمت النهائى الذى يتركونه ينمو أمامهم كالأشجار. يشمون رائحة الخطر ككلاب ذكية محبوسة فى أقفاصها. يُعدّون اجتماعات ومظاهرات للمعارضة، ويتواعدون كعشاق ملعونين وفاسقين عبر التليفون ويتبادلون كتبًا مُحرّمة.

ومجموعة الطلبة المختارة ليست كبيرة. وليس من السهل تصنيفها بشكل محدد. لويس ترياس هو قائدها وزعيمها، فتى طويل القامة، هادئ لا يتحدث كثيرا، ذو رأس منحنٍ بعض الشيء وذائب فى عطره الوردي، يشبه إشارة المرور المضيئة مُنظما دورة الأفكار والمشاريع التى تستهدف قلب نظام الحكم عندما يمر فى طرقات وحجرات الجامعة. ولكن يتساءل الآخرون: هل هو بالفعل على صلة بذلك؟ تهتز إشارة المرور عندما تنظر إليه تيريسا.

والحق أن كل ذلك قد بدأ كبداية الحياة نفسها. وذلك عندما انطلق فى الشوارع العامة القلق والمقاومة العالمية فى عام ١٩٥٧ فى مطالبات ثقافية وسياسية (وبسقوط البذرة الطيبة التى كانت من الممكن أن تنبت بعد سنوات، وذلك القول لتهدئة الذاكرة من مشاهد الشهداء الذين مازالوا باقين على قيد الحياة، والذين يخضع البعض منهم للإرث العائلي) والذى جاء متمثلا منذ وقت طويل فى ثلاث فتيات ساحرات من كلية الآداب، تيريسا واحدة منهن، والأخريان من كلية الفنون الجميلة. عندما كن يأتين إلى المحاضرات بعد مرور سنتين منذ ذلك الوقت ببطلونات تحت الأذرع. وعند الخروج كن يذهبن إلى بيت بشارع فونتانى وكانت صاحبة هذا المنزل تسمح لهن بالخروج بكل ترحاب وحب. وهناك كانت الفتيات يرتدين تلك البنطلونات ويدخنّ السجائر ويستلقين على الأرض على وسائد كبيرة، وتسرع نبضات قلوبهن وهن يتحدثن عن الأفكار الجديدة بعنف وبحدة تشبه حدة الداعرات عند وصول الأسطول السادس الأمريكي. وبعد ذلك الوقت فإن الطلاب المتزايد عددهم فى كل مرة يأتون إلى محاضرات التاريخ للمدرس المساعد العائد مؤخرا فكانت لديهم الفرصة لمشاهدة كيف كانت تتحقق معجزة ما بصورة دورية أمام أعينهم المندهشة. فأثناء إلقائه المحاضرة بكلماته الساحرة وعرضه بعض حقائق الحياة بصورة مسهبة وجدلية، كان يتحدث عن نفسه (حيث قال منافسوه بعد ذلك إنه لا يتحدث إلا عن نفسه) كما لو كان طائرًا عجيبًا وغريبًا متحررا بمنقاره من قطع ملابسه ومرتديا ملابس غيرها، أو كتحول بطيء وسحرى بعصا سحرية كجنية إلى أن ارتدى ملابس رجل الميليشيات بحزام خرطوش وبندقية وكل أدواته أمام أعين التلاميذ المنبهرة.

(وبالطبع فإن الذين كانوا يألفون منهم صورة وشخصية رجل الميليشيات الحقيقية أدركوا الشبه البعيد والهزلى فيما بينهما). كان يطوف فى الحجرة كلها قلق واضطراب وهمي، وكانت الفتيات يستمعن إلى الأستاذ بأفواه مفتوحة وعيون مغلقة. وقال أحد المعارف – كثير المداعبة وصاحب يد طويلة – إنه شعر بوضوح تنهدات، وسمع آخرون صوت دقات الأجراس، لقد حان الوقت يا أصدقاء، أطلقوا الحمام فسوف أكون أبا فتلك كانت قصة ولادة متعددة ومراهقة، فيوجد الكرم والتضحية ولكن أيضا الإهمال والبلبلة. فالأب لن يعترف بكل الأبناء، تلك هى الحياة، حيث كنا جميعا شبابًا صغارًا وتحدث أشياء كثيرة هكذا.

وتتابعت الأحداث بعد ذلك: وكفى به حدثًا عندما قام ترياس دى چيرالت برحلة سريعة إلى باريس، بهدف إشاعة أنه أيضا كان منضما، (ذلك الخبر الذى قام بتحويل لويس إلى الشخص الأكثر جدارة لتولى رئاسة المنظمة السرية الابتدائية، والحقيقة أن هذا الخبر قد صدر عن إحدى تلك الفتيات اللاتى كن يترددن على الاجتماعات التى تُقام فى منزل شارع فونتانيا: وكان ذلك إثر ليلة من تناول النبيذ والمشاجرات الكلامية مع صاحب حانة سانت جيرمين حيث إنهم أخفوا علاقاتهم بقوى غامضة وخفية). كان يجب على جامعة برشلونة أن تبقى فى نفس مكانة جامعة مدريد التى كانت فى تلك المناقشات جادة وتابعة وفعالة. "فى فبراير ١٩٥٦، وبعد توقف مؤتمر للطلبة فى مدريد كانت النفوس ثائرة وحدث الصدام، فقد سُمع صوت طلقة رصاص، ووقع شاب على الأرض بعد أن أُصيب بجروح خطيرة" وكان لويس ترياس فى مدريد فى ذلك الوقت (وقد أصبح شخصية ذات حضور قوي) وقد تم إلقاء القبض عليه وحُوكم بالسجن لمدة ستة أشهر.

وكانت تيريسا تستقبل رسائله التى كانت تقرؤها داخل أروقة الجامعة حيث آثرت النأى بعض الشيء عن أصدقائها ولكن ليس بالقدر الذى لا يجعلها تلاحظ أنها مراقبة ومحسودة. بعد ذلك، اشتركت الشقراء الجسورة هى وأصدقاؤها فى محاولة إضراب عمالى ولكنها باءت بالفشل. وكانت تلك هى المرة الأولى التى يلتحم فيها الطلاب بالحركة العمالية، وفى حجرات الجامعة كان يزداد نفوذ ومكانة الفتيات الأربع بكل جدارة وعزة ومخاطرة وانتشرت عدة نسخ من "العصور الحديثة" الموجهة لليسار فيها أخبار تثير الدهشة والاستغراب.

ظهر فى نفس الوقت فى كلية الآداب طالب مصرى ذو مظهر تنبؤي، شديد الجمال، ذو عينين سوداوين أسطوريتين ولغة منذرة بالكوارث ("أتيت كى أخبركم بأن مآل هذه القصة الزوال") فاستحق لقب "الواصل جدًا" دون أن يعرف أحد مُطلقًا إلى من يستند. بالرغم من أن الشكوك تدور حول فتاة خامسة مُتخفية انضمت مؤخرا للجنة الرئيسية الصغيرة. وعاد لويس ترياس (ولكنه لم يعد وحده بل جاء مصطحبا معه شبح الكارثة) لقد كان زعيما غير قابل للنقاش (بدرجة الواصل جدًا والمُنتمى بشدة). وبدأ يتقابل فى كل الأوقات والأماكن مع تيريسا سرات التى لم تُكمل طوال فترة غيابه مسيرته بشجاعة فحسب ولكن أيضا ظلت مخلصة ووفية له. ومنذ ذلك الوقت قاموا بتنظيم العديد من الأشياء معا كان يجب أن تتوج بالمجد والانتصار. وذات يوم عندما كانا محاطين برجال الشرطة المسلحين دون أن يستطيعا الخروج من الحجرة وبقيا عدة ساعات دون أن يقضيا حاجتهما، ولكنهما نجحا من خلال خطاب مؤثر لهما أن يتناسى الشباب والفتيات مشاكلهم الاجتماعية المتعلقة بالبرجوازية، وكانا قد قررا أن يقضيا حاجتهما هناك أيضا دون أى خجل: حيث تلون هذا المشهد بطابع من التضامن والاتحاد بكل ما تحمله الكلمة من معنى – ومازال الكثير يتذكرونه. وقد انتهى نشاطهما بمظاهرة أكتوبر الشهيرة حيث قامت السلطات بعدها ولمدة أسبوع بإغلاق الجامعة – وقد أصبح للعديد من الطلبة ومن بينهم تيريسا ولويس – ملفات، وآخرون قد تم طردهم أو اعتقالهم. فلم يكن من العدل إخماد شعور التسليم النبيل والعنيف فى نفس الوقت والذى يبرق كشعاع فى جو من الجسارة والمجازفة للسلوك الجريء لكل من تيريسا وأصدقائها وما تزال طبيعة هذا الشعور مادة خصبة للنقاش اليوم.

وبعد مرور حوالى عامين بدا كل شيء فى الجامعة أنه عاد لوضعه الطبيعى فالحماسة الديمقراطية مازالت تنبض بحدة ربما أكثر من أى وقت آخر، ومع ذلك وللدقة فيجب أن نكشف عن النقلة التى بدأ يعانيها هذا الاحتدام الديموقراطى بداخل هؤلاء الشباب: حيث يمكننا القول بأنه قد انحدر باتجاه العواطف الأكثر حساسية ولهذا فإن بعض هؤلاء الطلبة بدءوا يفقدون الهالة الوهمية التى هم عليها الآن (فمثلا ذلك الطالب المصرى الذى كان يحتل مكانة الرائد فى كل شيء، وكان دائما يتقدم الجميع ويحظى بحب النساء فإنه لم يكن

مُنضما إلى أى منظمة أو جماعة فقط، بل ولم يكن حتى مصريا) بالرغم من أن الكثيرين منهم كانت تتعزز مكانتهم الرائدة تلك، مثل تيريسا ولويس. وفيما يتعلق بالفتيات فإن واحدة منهن فقط هى التى استطاعت الانضمام بقوة وحتى النهاية إلى القوى السرية، وإذا كان هذا الأمر يدعو للأسف فمن يدرى إذا كان على مدى الحياة كلها، كانت الفتاة الخامسة المنهمكة فى الأساطير والخرافات ضحية الانجذاب العاطفى (للطالب المصرى كما عُرف بعد ذلك) والتى جرفتها الدوامة الأخرى، الحركة الدائبة تحت الأرض التى كانت تؤثر أيضا على السقف، والتى انتهت فى باريس بعد أن تركت عائلتها وبقيت دراستها معلقة ووالدتها مقتنعة بعض الشيء بالواقع وكانت تعمل (بمحل حلوى). كان أحد الطلاب شاعرا (وكان قد أصبح مشهورا فى الخارج بعد أعوام بكتابه الذى يضم عدة قصائد بعنوان أضع الإصبع فى الجروح) وهذا الشاعر قال إن زهور الحرية والثقافة تُولد من كل قطرة دماء بتولية مسفوكة.

وبالطبع فإن جميعهم لم يستطع مواكبة الظروف. ولقلة عددهم ونزعتهم المتأصلة للخرافات والفلكلور لن تذكر أسماؤهم وستبقى بلا صدى (ومع ذلك سيذكر لهم بكل حنين أنهم عاشوا ربيعا مثمرا ومجيدا) ولكن ليس فى هذه الحكاية التى – بكل احترام – (فمازالت هنالك جروح لم تلتئم بعد) لا تزال فى حاجة ملحة لذكرهم حول تيريسا سرات وذلك ليسهموا فى توضيح أفضل لطبيعة أخلاق ومبادئ الصراع الذى ألقى بالفتاة الجامعية الجميلة فى أحضان الشاب المُرسي. وأيضا حتى نكون عادلين معهم: حيث إنهم مازالوا مُثقلين بوضع اجتماعى عقيم تم غزوه خلال تلك الأيام المجيدة، بصيرة بلا هدف، بؤرة ضوء ضالة فى ظلام ليل التخاذل الحزين والمتخاذل، مُتشرذمين فى حانات على الموضة ومتوحدين فى شكل جديد وهو الشكل الأوروبى الذى سيكونون هم وأسرهم أول المنتفعين به، وقد علاهم الصدأ مثل العملات الرديئة، يتشدقون ويتظاهرون بنضج لا نفع فيه بإصرارهم الحزين على متابعة تمثيل دورهم القديم كأعضاء حركة أو متآمرين محترمين كحالهم اليوم تقريبا، مخلفين وراءهم بلا عدل انحرافات مذهبية مزعومة ومشبوهة.

ومع ذلك فبدلا من أن يلحق ذلك الضرر بهم يجيء فى مصلحتهم: فهكذا هم شهداء مرتين، وممثلون لجبهتين مؤسطرتين ومحبطتين فى آن. ولكن يموت الشباب عندما يفقد

رغبته فى التأثير والفتنة. ويتحول شبح العاصفة البهى بمرور الوقت إلى شبح المأزق الشخصي، ويتحول إلى ببغاء مُحنط ومُشبع بالكحول بأحمر شفاه بنات الذوات، يتحول إلى بقايا بائسة لروح قصة الجامعة المعاصرة التى كانت خالدة فى يوم من الأيام ولا تذبل أبدا. ثم يأتى الهوى وتنوع أصوات الكورس وقرار هيئة الكورس: قال أحدهم إن كل ذلك لم يكن سوى لعبة صبيانية بكل ما فيها من مطاردات وجواسيس ومسدسات خشبية أطلق أحدها فجأة طلقة حقيقية، فيما عبر بعضهم عن ذلك بعبارات رنانة وتحدثوا عن محاولة تستحق الاحترام، وفى النهاية قال آخرون إن الأكثر أهمية فى الحقيقة لم يكن هؤلاء الذين تسلط عليهم الأضواء ولكن الآخرون المختبئون فى الظلام وهم الذين يستحقون الاحترام. على أية حال فلا شيء يعد غريبا إزاء ذلك الدافع النبيل الذى أسفر عن كل هذه الأحداث وكل ما يحدث الآن وتلك البلبلة بين الواقع والظاهر. فما الذى يمكن انتظاره من هؤلاء الطلبة الجامعيين الإسبان؟ ولو حتى الرجال الذين يدعون أنهم فى خدمة القضايا الثقافية والديمقراطية الحقيقية لذلك البلد فإنهم رجال يرجئون حياة المراهقة حتى سن الأربعين. وبمرور الزمن يبقى بعضهم كممثلين، وآخرون كضحايا، الغالبية منهم بلهاء أو أطفال، أحدهم رصين ومُتعقل ولا أحد منهم فطن فجميعهم كما كانوا فى الماضى شباب من أبناء الذوات الملعونين.

وكانوا يترددون كثيرا على حانة سانت جيرمان دى برى بالحى الصيني. بعد العشاء تلك الليلة كانت تيريسا سرات بعينيها الحانيتين بفعل أشعة الشمس الفجائية بين السحب وبشرتها المحترقة بملامسات واحتكاكات مانولية تعود بسيارتها سريعا متجهة إلى ميدان سانياى حيث ينتظرها مانولو هناك. مازالت تراودها فكرة تقديمه لأصدقائها حتى ذلك اليوم ولكن الآن – فجأة – أصبحت الفكرة تزعجها كثيرا. حيث إنها لم تكن تخشى تصرفات ليونور فونتالبا المُدللة وغير المسئولة، ولا حتى سفاهة لويس ترياس النابعة من حقده وضغينته، ولكن ما كان يقلقها هو الفعل نفسه، تقديم هذا الفتى فى جو تسوده الثقافة والنظريات والفكر (ذلك الجو الذى أصبحت تسأمه هي، وهاهى قد أدركت الآن أنها قد عرفت مانولو جيدا) حيث إنها سوف تتسبب فى خلق حالة من التشوش أو الدهشة لذلك الفتى سواء أشادت به أم ذمته مجموعة أصدقائها على حد سواء. فهل يجب أن تخبرهم

بأن هذا الفتى كان عاملا: أى إنه لم يستوعب "لم يتحمل" أية مفاخرات جدلية، وإنه رجل لديه مشكلات من نوع آخر؟ وتحديدا فعندما تفكر تيريسا فى هذا الموضوع فإنها تشعر بالهدوء والعظمة: كانت تؤمن بشدة بهذا الفتى، بقدرته على الفتنة والإثارة، بأسلوبه، بعدم اهتمامه غير المسئول فى كثير من الأحيان ولكنه محترم أيضا، وبشكل خاص كانت تؤمن بالشكل المُحدث لسلوكه. بشيء لم يستطيعوا إغفاله ولا حتى طمس الذكريات الأولى لغجرى مهيب كانت تراه وهو يطرف بعينيه فوق رأسه الشامخ كما لو أن الليل يُحدث غمزًا بعينيه من بين خصلات شعره. وبالتأكيد فإن طبيعته الحديثة التى أصبح عليها مانولو كانت أوروبية أكثر منها إسبانية، وهذا ما قيل لليونور فونتالبا التى كانت تطلق عليه "مهاجر من جنوب إسبانيا". وبالطبع لم تكن ليونور فونتالبا كأية فتاة فى عمر الشباب المزدهر (أى أنها لم تعش شبابها بسعادة: فهى ببساطة شديدة فتاة مثل فتاة من الجنوب، فتاة إشبيلية) حيث كان لويس يعتبرها الفتاة المثالية لمثل هذه الاجتماعات والندوات التى تُقام بالحى الصينى حيث إن لكليهما شخصية لفظية ولبقة، وهما من هواة الثرثرة واللهو وبالتالى لا يتسببان فى أى ضرر(هذا ما قاله لويس فى إثارة غريبة مُشيرا إلى الجانب المشئوم المتعلق بذلك الطالب المصري، ذلك الفتى الأسمر) ولكن كانت مملكته شيئا آخر، لا تقل لى إنها غير ذلك، ماذا تريد، فعالم أهل إقليم مرسية إما عالم جسدى وإلا فلا، وقال ذلك أيضا لليونور. حيث إنه فى هذا المعنى فإن المُرسى بإمكانه أن يصبح أوروبيا أفضل بكثير من القطلوني، وفى النهاية فإن تصرفاته المُتكلفة هى أيبيرية وحسب حيث إنه كان مُغترا وواثقا بنفسه، ولم يكن ذلك عيبا بل على العكس تماما...

شعر بشخص خلفه يضع يديه على عينيه فبلغت القشعريرة جذور شعره:

– مانولو... ماذا تفعل؟ كم تحترم مواعيدك!.

تلك لم تكن الحقيقة. فكانت تنتظره منذ أكثر من نصف الساعة وهى تجلس فى سيارتها وتمسك بعجلة القيادة شاردة الذهن دون أن تشعر بمرور الوقت. أغلق الباب مرة أخرى بهدوء وثبات.

شرحت له تيريسا فيما بعد – أن من الطبيعى أن يكونا ذكيين – وهى تشُد رقبتها وتستلقى فى السيارة وتريح يديها فى تراخ شديد على عجلة القيادة وكأنها تحلُم – من الطبيعى أن يكونا شديدى الذكاء–

توقفا فى ميدان لاس رامبلاس وكان مانولو - بداعى الانحراف الوظيفى المحض - يشاهد الموتوسيكلات التى تنتظر تحت الأشجار...

- ولكن لو رأيت أنهم يمزحون أو يسخرون أو أنهم يثقلون بالحديث عن الأدب أو حتى عن أمورنا الخاصة بالجامعة فـ...

- أنا لا أتحدث فى السياسة أبدًا.

- ما إن تُشر لى سنرحل.

- أُحبهم كثيرا ولكنى مللتُ رؤيتهم، وأعرف جميع جلسات السمر التى تقام فى ملهى إنكارنا عن ظهر قلب.

وتوقع مانولو الذى لم يكن يعرف بالطبع أصدقاء تيريسا (بالرغم من أن الحانة التى اعتاد ارتيادها منذ ثلاثة أعوام تدور فيها أمور ربما تُدهش تيريسا كثيرا لو تعلمها) أن من الممكن أن يحدث شيء حاسم تلك الليلة إذا استطاع هو أن يحل لُغزا ما فربما يتمكن من تحقيق هدف عزيز المنال. لأنه حتى إذا كانت تيريسا تؤمن به حقيقة فإن وضعه لم يكن مدعوما كثيرا. فحتى الآن استطاع أن يتحايل على الموقف، بالقيام بدور هذه الشخصية العجيبة التى أسندت إليه وبأنه وسيم، ولكنه كان يُدرك أن الأمور تتعقد بطبيعتها ومع تقدُّم الوقت، لذا فقد حان الوقت إذًا لمواجهة المخاطر التى لم تزل واضحة إلى الآن ولكنها ليست كما كانت فى البداية. وعندما دخل إلى الحانة لاحظ فى وجهه دفقة الهواء البارد للخطر، خلخلة الهواء التى تسبق الانفجار (وفى بداياته كلص للسيارات كان قد شعر بذلك الإحساس) وقد تعهد أنه لن يتحدث معهم إلا لضرورة مُلحة، وكان لديه الحدس بأنه سيكون هدفا لهجوم ما مقصود أم لا، ولم يكن مكترثا من أين سيأتيه هذا الهجوم.

كانت طاولة الحانة مُكتظة بالرواد. شغلوا مائدتين تحت لوحة سلفادور دالى فيها امرأة مُكتنزة وذات بشرة وردية مُلتفة فى غُلالات رقيقة. كما غادر لويس ترياس بعد تناوله كأس النبيذ الرابعة، فتاتان وثلاثة شبان هم قوام المجموعة، ترك أحدهم المجموعة غامدًا سيفه: وكان قد أخرج إلى لويس عُملة فئة خمسمائة فقال له: "سأعيدها لك غدا". كان يُدعى

جييرمو سوتو، طويل القامة، مستهتر، وكان عائدا مؤخرا من إيديلبرج حيث يدرس هناك، ولا يعلم ولا يعير أى اهتمام لأمور أصدقائه التى تُسبب له قلقا بالجامعة ("لقد تخطيت هذه المحنة من قبل")، ولكن أصدقاءه كانوا يعتبرونه شخصا وضيعا وسيَافا ماهرا. وقد ألقى سوتو بنفسه فى ظلال بعض المشاهد الغريبة والحارة التى تُثير لهفته الزوجية لخطيبته ماريا خوسيه روبيرالتا التى كانت مع أسرتها فى الساحل لحراسة أعمال بناء فندق وكان يحتاج كى يُخرجها من هناك لملء السيارة بالوقود. وعند انصرافه مدّ يديه دون أن يتوقف أمام تيريسا ومانولو، مازال يحمل العملة فى يده اليسرى (وعندئذ لاحظ نظرة مانولو السريعة والثاقبة إلى العملة)، وفى اللحظة نفسها أنعم فيه النظر سريعا بعينيه العابستين المُتعبتين، بلا توقف، ثم أطلق يده وضحك ضحكة يمتزج فيها الود والتواطؤ كما لو كان يريد أن يقول لهما "أمازلتما هنا". واختفى بعدها.

وسمع إحدى الفتيات تقول له: "هل أصابك الجنون يا لويس لتعطيه مالاً". كانت ماريا إولاليا بيرتران طويلة القامة، نحيفة، شديدة الأناقة، كثيرة النُعاس والذهاب إلى الملاهى الليلية، كانت تتحلى بكل أنواع الزينة الغريبة حتى إنها كانت تهتم كثيرا بزينتها أكثر من ملابسها. كانت تستمع فى غير وضوح – وكأنها طائر جارح تحت سطوة فريسته – إلى ما كان يقرؤه ريكاردو بورى فى ذلك الوقت حيث كان يجلس إلى جانبها وبيده كتاب مفتوح على الطاولة. كان ريكاردو فتى نحيفًا، شاحب اللون، لطيفًا ويهتم بالجماليات كدُمية مُستهلكة تعود بعد أعوام لتستعيد شبابها وتكتب روايات موضوعية. وكانت الفتاة الأخرى هى ليونور فونتالبا التى كان قد تعرف إليها على الساحل، كانت صغيرة الحجم ومرحة، تغمز بعينيها وتتحدث فى عجلة شيطانية وتظهر قسمات وجنتيها إذا ضحكت. خايمى سانخينس هو العضو الرابع بالمجموعة، ثمل طوال الوقت، يدرس فن الهندسة المعمارية وله لحية سوداء كمن يقوم بدور خائن فى فيلم ما، يرتدى قميصا أصفر اللون ذا هيئة عسكرية. تلونت بشرتهم جميعا باللون البرونزى بفعل أشعة الشمس، كانوا يقضون الصيف بمناطق مختلفة وساحرة على الساحل (حيث المياه الزرقاء الشفافة، يتحدثون بالفرنسية، ويتغنون بالجسد، ويخمد الوعى والضمير بهدوء فى بطونهم كثعبان ملفوف فى الشمس) ولكنهم يُشكلون خطورة كبيرة فى فصل الشتاء فقط عندما يكثر الجدل

وجلسات السامر والدردشة والثرثرة الحامية وحالتهم النفسية الطبيعية والمُعتادة عندما يجتمعون معًا – مزيج من السعادة الفكرية والخضوع الحيوى –، ذلك كله كان يدفعهم إلى إعلان آرائهم الأخلاقية فى أصدقائهم. والواقع أن المُرسى قد تسبب فى خلق إحساس وانطباع ما. فقد قامت تيريسا بتقديمه إلى أصدقائها، وصافحهم بالأيدى فى حرارة شديدة، مع ملاحظة أن تحية لويس الذى كان آخرهم كانت طويلة وحارة وودودة فى غير ضرورة: ربما من هنا سيأتى الهجوم. جلسوا جميعهم إلى جانب ليونور.

قال لويس:

– لديكم هيئة ساحرة، هل ذهبتم اليوم إلى الشاطئ؟

ثم التفت إلى مانولو:

– إذن أنت مانولو الشهير؟ هل تعلم أن تيريسا لم تعد تتحدث عن أى شيء سواك منذ عدة أشهر؟ (ونظرت تيريسا إليه شزرًا) ومازلت أنت لم تعرفها جيدا. شهورًا وشهورًا...

وقال خايمي:

– أعوامًا وأعوامًا وأعواما...

وأضافت ليونور:

– فى رأيى قرونًا...

ثم اقتربت من تيريسا لتخبرها شيئا فى أذنها بصوت منخفض ونظر إليهما مانولو نظرة خاطفة وجافة: (كفاكما أسرارً، فلدينا منها الكثير).

وسألتها ماريا إولاليا وهى تبتسم وتنظر شزرًا إلى مانولو:

– احكى لنا يا تيريسا فى أى مغامرات مجنونة تتورطين؟ هل بإمكاننا أن نعرف؟

وقال هو:

– ماذا تشربين يا تيريسا؟

– لا أعرف!

وسأل لويس ترياس:

– كل شيء على ما يرام يا مانولو؟

– اللعنة!

– كيف حال ماروخا؟

– سيئة!

– منذ فترة طويلة وهى على هذه الحالة، أليس كذلك؟

– منذ شهر تقريبا.

– كنت أريد أن أزورها ولكن أخبرتنى السيدة مارتا بأن الأطباء لا يريدون أى زيارة الآن.– هذه الفتاة سيئة الحظ، إنها كارثة غير محتملة... شيء غير معقول أبدا. إننى أحبها كثيرا، أحب ماروخا. حسنا، تيريسا، ماذا ستتناولين؟

وتوجه إلى مانولو من جديد:

– أعتقد أنك تشرب نبيذًا!

ونظر إليه مانولو وهو فى ريبة من شيء ما. حيث إن لويس كان يحارب بأسلحة لم يكن على دراية بها، كان يجب الانصراف بحذر. فضحك:

– الآن، أريد كوبًا من الحليب.

ربت لويس على ظهره:

– كما يحدث فى الأفلام. أليس كذلك؟ أنت فتى قاس!

جذبت ماريا انتباه تيريسا فى ركن بعيد مشيرة إلى مانولو:

– أين عثرت عليه؟

– آه، سر!

وسألته ليونور:

– ألم نتقابل فى مكان ما يا مانولو من قبل؟

– بلى، تقابلنا بالفعل، ظهر اليوم!

– كلا، أقصد من قبل.

صاحت ماريا:

– اللعنة. كنت سأسأله نفس السؤال!

وسريعا ما انهالوا عليه جميعهم بالأسئلة وكانت كلها صبيانية ومن جانب الفتيات (بالإضافة إلى سؤال لويس ترياس)، أما هو فقد ترك ضحكاتهم الفاترة تسقط كقطع الثلج من جانب إلى جانب. كانت جبهته السفيهة السمراء تطوف وتتجول للبحث عن تلك الإشارة المُعلنة عن الموهبة أو عن الذكاء والذى يتأخر كثيرا جمال الملامح والصفات الخارجية فى إزاحة اللثام عنهما وإظهارهما فى محيط من الانخداع والتعسّف فى استخدام قدرته وسلطته. ولكنه كان يرد على تساؤلاتهم بإيجاز ثم – فى غير عناء – يستعيد صمته المحبب إليه حيث كان يبدو فى حالة أفضل به. عاد مرة أخرى انتباه الجميع إلى ما كان يقوله ريكاردو بورى الذى كان يستند بكتفيه إلى ماريا إولاليا التى تتقدمه بذراعها المزين بالحلى المختلفة فبدت كأنها جناح طائر.

وقفت تيريسا ونادت:

– إنكارنا! كوب نبيذ وآخر حليبًا!

سُمع صوت أجش مغامر وودود:

– أتريدين كوبًا من الحليب أيتها الفتاة؟. من ذلك الحيوان الذى يشرب حليبًا؟...

اقتربت تيريسا من الطاولة وهى تبتسم. أزعجت ليونور مانولو بضحكتها الفجائية التى تشبه البدر.

– تعدّينه جيدا. فالنبيذ طيب للغاية.

– حقا؟

– بالطبع أعلم ذلك. ألم تكن تعرف ذلك الشيء من قبل؟

وعاد مرة أخرى ذلك الصوت الأجش، ولكن هذه المرة بسبب ضحكة تيريسا المنتعشة:

– ... مولود جديد، هذا القزم، من أين عثرت عليه يا فتاة؟

وسألته ليونور:

– هل دائما تتناول الحليب أم إنك تريد أن تقوم بلعبة؟

نظر إلى يديه.

– لا أفضل ذلك، فلم أعد أذهب إلى المدرسة –

وقلبت الفتاة عينيها فى ارتباك ثم بدت وجنتاها وكأنهما ستنفجران من الضحك. أما مانولو فقد ساوره الشك فى أن شيئا لم يكن على ما يرام وضحك:

– إن اللبن مضاد للسموم.

سمع لويس صوتًا بجانبه يقول:

– شيء خيالى للغاية!

بينما اندهش مانولو لنظرته العميقة والباحثة عن شيء ما وقال فى نفسه: "هذا هو الثور الذى يوجد فى المبارزة".

أعاد النظر مرة أخرى إلى ليونور فونتالبا التى مازالت تبتسم له بسذاجة وكأنها تدعوه لاستكمال حديثه أو لتقبيلها. ولكن الحقيقة لم تكن لا هذا ولا ذاك، وعندما أطلت

الفتاة فى عينيه (موجة من الليل أحاطت بها فى جزء من الثانية) وأماط اللثام عن فهمه الخاطئ الناتج عن ضحكاتها، عندئذ استدرك المُرسى وتنحى جانبا: لقد تأخر قليلا تلك الليلة فى فهم أمور كثيرة: أولها ضحكة تلك الفتاة التى لم تكن مجرد ضحكة معتادة ولكنها مصادفة، سحر خاص بسّام ينبعث من خديها المنطويتين تحت الوجنتين. فمنذ عدة سنوات مر مانولو بنفس تلك التجربة مع أجنبية حزينة وناضجة تعرف إليها فى ساحل الشمس ولكن مع الاختلاف حيث إن ذلك الخطأ (الذى اكتشفه غفلة فى يوم ما، حيث لم يكن لدى هذه الألمانية أى مبرر كى تستمر فى الضحك: عندما واجهته باختفاء بعض الأموال، لم يكبح أبدا رغباته فى أن ينال إعجاب الناس به ولم يغير خططه، بل على العكس). وبمرور الزمن كان يجب معرفة الكثير من الضحكات الدائمة وغير المتغيرة كهذه الضحكة التى تدفع للتفكير تماما فى أنهم كما يرثون المال والذكاء ولون البشرة الصحى يرث الأغنياء أيضا تلك الابتسامة الخالدة، مثلما يرث الفقراء أسنانا قارضة وجباهًا مفلطحة وسيقانًا شديدة النحافة. هكذا كان يجب أن يحدث، وذلك لأنه يسمع الآن أيضا عبارات مسترسلة لم يفهم فحواها مطلقا.

– كان فى يوليو عام ١٩٥٣، عملية اغتيال، تبجُحًا وغرورًا...

– أولياء رومان للمملكة الجديدة...

– ... ابن عاهرة يُدعى جرينجلاس، أتتذكر؟

– ... وشيخ يسارى خبيث يُدعى ماكارثي...

– ... تلك الأنواع من الأشخاص تؤكد أن الشيوعيين يعيشون فى الخطيئة...

– ... كما يقول جييرمو سوتو الأبله.

قال خايمى سانخينيس:

– ... ليس أبله كما تعتقد. إنه من الحزب اليمينى ولكنه متواضع.

وأجابه لويس:

– بما أنه يميني، تحديدًا، فمن الأفضل أن يكون يمينيًا قلبا وقالبا وحتى النخاع أى على أكمل وجه.

– إنها حماقة وهراء. كالرغبة فى تحول الطبقة الوسطى المطحونة... كى تندلع الثورة قبل ميعادها كلما أمكن. حيث يجب الحصول على الأشياء بالجهد، يا صديقي. ما رأيك يا مانولو؟

فى مثل هذه المواقف كان مانولو يتأمل صورة السيدة الملفوفة بقطع القماش ويتفحص إجاباته جيدا حيث يبدو من خلالها كلاسيكيًا:

– فى هذه الحياة أى مجهود له مقابل.

كان يعلم أن ذلك كذب حقير وأن شخصًا قبله ابتكره، قال ذلك وهو يبتسم (بينما كان جادا بداخله) لكى يبقى بمنأى عن الشبهات. واكتشف فجأة أن المرأة التى توجد فى الصورة هى صاحبة الحانة ولكنها أكثر شبابا. فرت منه كلمة "لعوب".

وسألته ليونور:

– هل أعجبتك؟ –

– ليست سيئة.

– إنها مخيفة.

أشعل المُرسى سيجارة.

ثم فسرت عبارتها:

– أقصد السيدة!

– آه، إنها فاتنة، وفى تلك الصورة أيضا.

– إذن ذلك فقط.

لم يكن مانولو يفهم كيف - معترفا أن المرأة التى توجد فى الصورة فاتنة - أن تلك الصورة تثير الرعب والفزع. وجلست تيريسا بين لويس وخايمى حيث كان مانولو يجلس أمامها وقالت:

- أمازال التبغ معك يا حبيبي؟

التفت إليه لويس ثم أخرج مانولو علبة التبغ وطرحها على الطاولة، وقعت حبات رمل وضحكت تيريسا مندهشة، فبينما كانت تنظر إلى مانولو قامت بالتقاط حبات الرمل بيديها وكونت بها جبلًا صغيرًا فى وسط الطاولة: إنه تمثال شعبى قائم بذاته. مازال يُقيم كل من ماريا وريكاردو المخيمات. كان يُسمع صوت ريكاردو وهو يقرأ أو يُعلق فى نبرة مدح على بعض فقرات الكتاب. كان كتابًا فى النقد الأدبي، حديثا، يقرءونه فيما بينهم فى الجامعة. وفى صمت عام وبناء على رغبة ماريا، صوت القارئ حول فكرة غير مألوفة، واحدة من هذه المظاهرات التى تُقلق حياة الكاتب أو الفنان وتلاحقه وتتبعه ليلا وكأنها كابوس "فيمكن القول بأن روائى القرن التاسع عشر هو صاحب ذكاء محدود"

من جانبه أضاف ريكاردو:

- هذا شيء جيد - فقد حان الوقت أن يقوم أحد بإزاحة اللثام عن بَلْزاك وأمثاله.

صاحت تيريسا وهى ترقب مانولو متخوفة من الاتجاه الذى يأخذه الحوار:

- يالها من حماقة!

قالت ماريا:

- اللعنة، ولو كانوا جميعهم رجعيين.

وأضافت وهى تنظر بعينين مجنونتين إلى ريكاردو:

- أتفق معك فى أنهم عباقرة ولكنهم مُتفاخرون بقدراتهم الإبداعية.

كانت تخشى أن تخطئ فى الحديث (فربما تنسى كل ما قرأته فى الكتاب) فأحيانا كان من الصعب عليها أن تتجادل وتتعامل مع ريكاردو لأنه شديد الوضوح والموضوعية.

قال لويس تائها ومتناولا كوب النبيذ السادس:

– الإنسان يسير مع الآخر .

صاحت تيريسا التى كانت تريد أن تعارضهم تلك الليلة دون أن تعرف لذلك سببًا:

– بالنسبة لى أنا فأنا مقتنعة أن راستيجناك يُمتعنى أكثر من لوبث ساليناس.

لسوء الطالع كان رأيها فرديًا ومرفوضًا بشكل فاضح. وبلا تردد – إزاء توافق الآراء – رد ريكاردو:

– تقولين إنه يُمتعك، ليس له أى أهمية. وعلاوة على ذلك فإن راستيجناك ليس بَلْزاك.

ارتابت تيريسا فى أن ذلك الرأى التأكيدى هو لعقلية خاصة متأخرة ولكنها لم تعلق بأى شيء، حيث إنها كانت فكرة شخصية وربما تكون بلا أية قيمة. ثم نظرت إلى مانولو الذى كان ينظر إلى يديه (حيث إنه كان مُنشغلا طوال اليوم بالنظر إلى يديه الكادحتين، فكان يبدو وكأنه متخوف من إظهارهما لأنهما قبيحتان وغير نظيفتين). اليدان القويتان اللتان ضغطتا ردفيها خلف زورق، على الشاطئ، فى نفس ظهر ذلك اليوم. كم يكون من الأفضل الإمساك بهما مرة أخرى والحديث فى أمور تافهة لا أهمية لها بدلًا من إهدار الوقت مع هؤلاء الصعاليك المتحذلقين. ومن حين لآخر كان المُرسى الثابت فى مكانه وكأنه جذع شجرة أو حجر مزخرف، بعدم اكتراثه الذى كان يعجبها كثيرا، يرسل نظراته إليها من خلال دخان السجائر والمناقشات وصوت نغمات الموسيقى، نظرات خاطفة ودودة ومنقذة، تحتوى على الأمان اللازم كى تشعر بالهدوء. وتوجه إليها لويس مُدنيًا كأس النبيذ من خدها وقال:

– كنت أبحث عنك.

– ماذا حدث؟

– لا شيء. كنت أبحث عنك. هذا كل شيء.

– هل بدأت أية استعدادات لبدء الدورة...؟

– نعم. ولكننى لم أبحث عنك لهذا السبب. فلسنا بحاجة إليك الآن.

لم تبد تيريسا ضيقها لما قاله.

– إذن لماذا؟

– قلت لا شيء. أردت أن أراك. علمت أنك لن تعودى إلى بلانس، وسوف تعيشين هنا...

– كان يجب أن يبقى أحد مع ماروخا. أليس كذلك؟

– لست بحاجة لتقديم أعذار.

– أنا لا أقدم أعذارًا يا أبله. أنا أكذب عليك.

وقامت لتذهب إلى المرحاض. لم يستطع أحد إلى الآن ملاحظة أن العلاقة بين تيريسا وقائد المقاومة الجامعية قد أصابها بعض التغيير الطفيف منذ تلك الليلة الشائنة بالفيلا: وذلك حيث إن تيريسا التى أشادت به فى منصبه كزعيم للطلبة، ها هى الآن تُسقطه من نظرها بل وتبدو على استعداد أن تضع سلطته ومكانته السياسية موضع الشك. إذن فقد بدأ ذلك القائد صاحب النفوذ والسلطة فى الانحدار والسقوط.

عند عودتها جلست تيريسا إلى جانب مانولو الذى كان يمسك قدّاحة فى يده ويلفها حول إصبعه وهو شارد الذهن. سألته: "هل تريد أن نرحل؟" وأجابها " لا. الآن، لا".

لاحظت تيريسا أن ماريا تشير إليها وتومئ من طرف الطاولة وكانت تمرر ذراعيها المكتظتين بالحلى من فوق رأس ريكاردو كما لو كانت ستشرع فى رحلة جوية. وصاحت فيها تيريسا: "أنا لم أفهمك".

– لماذا لا تتركين خصلة من شعرك مسترسلة مثلى. اجعلى النظرة أكثر عمقًا.

عندئذ قام مانولو بتمرير ذراعه على كتفيها (وشاهده الجميع) وأخذ يقترب منها حتى إنه لامس وجهها بوجهه. وقد بدا ذلك طبيعيا لتيريسا، حيث شعرت كأن مانولو أراد

أن يدافع عنها، كأنه أراد أن يمنعها أن تجيب على سؤال ماريا بطريقة سخيفة. طلب لويس كأسا من النبيذ. قال خايمي:

– ولماذا لا نذهب لمكان آخر؟

وكلما هم أحدهم بالذهاب كانت ماريا تجيب:

– ألا تريد أن يقرأ لكم ريكاردو ذلك؟ اهتموا قليلا بالفتى. أليس كذلك؟

وفى جدية قال لويس:

– أتعرفون من موجود فى برشلونة؟

وبعد لحظات من الصمت أردف:

– ماوريثيو!

سألت ماريا:

– هل رأيته؟

تبعتها ليونور:

– من أخبرك؟

– تأكدت أنه هنا، أعرفه جيدا.

ثم التفت إلى مانولو:

– هل تعرفه؟

فقال هذا لنفسه: "أخيرا، ها هو هنا". ولكن لم تكن تلك هى الصدمة التى كان ينتظرها، "ولكنه إذا جاء سوف أرحل من هنا". وكانت هذه هى المرة الثانية لنفس السؤال فى أقل من ٥١ ساعة (فسألته تيريسا نفس السؤال ظهر اليوم على الشاطئ) كم يحبونك يا ماوريثيو. ترك مانولو القداحة على المنضدة، وغير نظرته إلى تيريسا (فكانت نظرة تعنى

أنه لا يريد أن يقول شيئا، وتعني أيضًا التيقن من أن نظرة الآخرين لا تلاحقه)، ثم أحنى رأسه قليلا وقال بصوت حزين:

– لقد حدثنى عنك.

وعم الصمت.

ثم قال لويس:

– عنى أنا؟ ماذا تقصد؟

– لا شيء يا رجل. ذلك فقط.

اقتربت ليونور من تيريسا كي تخبرها بشيء. ورأى الجميع كيف كانت تحرك رأسها الأشقر فى ثقة تامة. وربت خايمى على ظهر لويس بشيء من الخضوع والاستسلام. ومن خلال نظرة ماريا الحنون فقد سمع الذى يلعب الدور الثنائى للمؤلف والقارئ فى الوقت نفسه صوتها مجددا:

– حسنا، استمعوا إلى ما يلي:

"المؤلف، التقنيات الحديثة..."

وقف مانولو ورآه الجميع. وكان يبدو عليه الغضب (فى الحقيقة كان قد أصابه الملل) وكان قد وقف ليذهب إلى المرحاض. طلب لويس تبغًا أسود من إنكارنا وهو مازال غاضبا. ولكن لم يكن لديها تبغ. ضرب الطاولة بقبضة يده.

– شيء مستفز يا إنكارنا ألا يكون لديك تبغ أسود أبدًا. شيء يثير الغضب، هيا بنا.

وقال الصوت الكهفي:

– اسكت.

أثاروا على مائدة المناقشات موضوع غضب الرجل المعاصر. وأشار لويس فى هذا الموضوع إلى أن الرجل الإسبانى فقد قدرته الخرافية على الغضب والسخط، حيث

إنه يتحمل كل شيء ولم يعد يسيطر عليه الغضب لأى سبب. وأيده خايمى فى رأيه بينما علقت ليونور بأنه مازال يوجد نوع ما من السخط ولكن يجب أن نصرح بأنه لم يكن من جانب الرجال، لم يكن غضبا أو سخطا قوميا. وكعادتها كانت تتحدث بسرعة ودون ترابط للأفكار:

– من الطبيعى أن يكون غضب الرجل غضبا سياسيا. وبطريقة أخرى فإن طبيعة غضب وسخط الرجل هى – أو يجب أن تكون – فى أصلها سياسية. فنرىَ الآن الرجال يظهرون غضبهم فى أشياء ساذجة كهذا الرجل الأبله من بامبلونا الذى كسر واجهة محل فى غضب عارم لأنه كان يعرض موديلات مايوهات بكينى عارية، قرأتموه فى الصحف بالأمس، وذلك الرجل الذى رسم على إعلان مارلين السينمائى فى ممر جراثيا أرأيتموه؟، أو حتى هؤلاء الرجال الذين يذهبون لمباريات كرة القدم يهتفون ويصيحون، وحتى أنت الآن (ونظرت إلى لويس الذى كان شديد الغضب فى تلك الليلة وكان لديه بعض الأسباب ليكون غاضبا) بما تريد من تبغ أسود...

قالت تيريسا التى قامت بتقديم الكأس الثالثة من النبيذ:

– أتعرفون؟ ما أثقلكم اليوم وكل ذلك يسبب لى ضيقا وإزعاجًا...

وبالرغم من أن رأى تيريسا لم يكن له أى قيمة فإنهم استمعوا لها باهتمام ليس لأنه نابعًا منها ولكن لأنه صادر عن شفتين ذابلتين تلك الليلة بشكل خاص: كانت تفكر فى المُرسي.

صاح خايمي:

– ماذا بك اليوم؟

قاطعه لويس:

– لقد تغيرت تيريسا، فقد اكتسبت دهاء مذهبيا.

– لماذا لا تتوقف عن الشرب يا لويس إذا كنت لم تعرف؟

وأردفت ليونور دون إظهار هزيمتها:

– لذلك السبب تحديدا يعجبنى صديقك المُرسي...(كان مانولو يقضى حاجته فى المرحاض، وتحديدا فى نفس اللحظة التى لاحظوا فيها أن بنطلونه قد تبلل قليلا) لأن السخط والغضب من وجهة نظره لهما طابع سياسى ورجولي.

فى تلك الأثناء، كانت ماريا إولاليا تخبئ ريكاردو تحت جناحيها وكأنها دجاجة.

– هل أعجبك الكتاب؟

أجاب ريكاردو:

– يجب قراءته بعناية شديدة، هل يمكننى استعارته لبضعة أيام؟

ردت عليه ماريا مقلدة صوت الدجاجة ومغلقة جناحيها سريعا:

– لقد أحضرته لك يا حبيبي، إنه هدية.

فى ذلك الوقت كان لويس يتحدث عن أراكيستاين وعن تأثيره على وسائل الجامعة الإعلامية. ولم يُعر مانولو أدنى اهتمام (كان ينظر إلى رقبة تيريسا العارية، وخيالها الرقيق المتأرجح بين صدرها كصف سمك صغير أزرق اللون) له أو لأركستاين الذى كان يشكل لغزا محيرا بالنسبة له. وفرت من ماريا – التى كانت تسمع لويس بالصدفة – ضحكة صغيرة محيرة ولكنها كانت واضحة وليس لها أية علاقة بالمناقشة ولكن باقتراب ركبتها أو ذراعها من قلعة الحيادية المنيعة المتمثلة فى ريكاردو.

وظل مانولو صامتا.

قال لويس فى سخرية:

– أنت مهم جدا يا مانولو!

وقال فى نفسه: اللعنة على موتاك.

وعندما دقت الواحدة تقريبا أعلن لويس فى وقار واحترام شديدين أنه سوف يذهب فى جولة ويغادرهم. واستغرقت تلك الجولة نصف الساعة. رافقه خايمى بعد أن أومأ

له خلسة برأسه. عند عودتهما بعد مضيّ نصف الساعة كان لويس أكثر هدوءًا ويتحدث بنفوذ وحكمة الفترات التى قضاها بالجامعة والتى منحته الشهرة. كان يحمل فى يده ورقة صفراء اللون فى حجم المظروف وكان بها شيء مطبوع. من بعيد تراءى لمانولو أنه منشور إعلانى. جلس لويس وخايمى عند أحد حواف الطاولة الخالية الآن (اقتربت إنكارنا من الطاولة وأخذت تمازحهما. قالت: "لديك وثائق جيدة"؛ وكانت تنظر بإمعان شديد بعينيها الصافيتين إلى بنطلون مانولو ذى البقع فى محاولة منها أن تتذكر متى وأين رأت هذا الفتى من قبل) واستمروا فى حديثهم خفية وعادوا من جديد للمجموعة فى قلق واضطراب. عادت إنكارنا إلى مقدمة الطاولة مع مانولو الذى طلب كأس نبيذ. وعندما دوّى من بعيد صوت الآلات الموسيقية برأسه وتذكر صورة المرأة الضخمة صاحبة الصوت العذب الرءوم ("يا حبيبي، أنا أعرفك ولا أعرف ماذا") أظهرت له صورها فى فترة الشباب والتى كانت معلقة على الحائط، استمع إلى ما كان يدور من الأحاديث الجارية على المائدة: طلب لويس أن يعيره الجميع الاهتمام والتركيز، لم يكن أحد يسمعه جيدا، فى البداية اعتقد أنه يقصد الحافلة الكهربائية. وتدخل الباقون. كثرت العبارات غير المكتملة، المقاطعات والاعتراضات بسبب الإذعان أو الخوف، وشقت القضية المثارة طريقا فى مشقة وصعوبة. سمع مانولو عدة مرات كلمة حافلة كهربائية وشيئا آخر مثل "غشية أو إغماءة" تقريبا "غشية"، تمت مصادرة بعض المنشورات التى كانت طباعتها وتوزيعها أمرا عاجلا، خطأ ارتكبه شخص ما (وصفه لويس بأنه شخص مُدلل وغير مسئول) وتاريخ محدد ومعروف، غير مؤجل. وركز المُرسى (على الرغم من أنه كان قد عرف بالبداهة أن حياة صاحبة الحانة المرتسمة على الحائط والتى تشبه مارلين ديتريتش فى شعرها الأشقر اللامع) كانت تخبئ أسرارا وإنجازات شخصية أكثر نفعا ومتعة بالنسبة له، كان يشعر بالفعل بأنه ابن روحى لهذا الصوت المغامر الذى لم يطرحوه للنقاش على مائدة المؤامرات، ولكنه أرجأه إلى مرة قادمة، أعار تركيزا شديدا وكان على وشك الوصول إلى الحقيقة. ربما يكون ذلك هو الشيء الذى كان فى انتظاره طوال هذه الليلة دون أن يعرفه. فكان لديه ذلك الهاجس.

– ضعيه لى فى هذا الكوب من فضلك – قال مشيرا إلى كوب بالغ الطول والضيق ذى لون بنفسجي. ذلك هو الذى جعل إنكارنا تتذكره فى الحال: "منذ ثلاثة أعوام تقريبا وأنت لا تأتى إلى هنا، ألم يخجلك ذلك يا سيدي؟ أين كنت؟". مع كل الألم الروحى والتقدير لهذه المرأة، قال مانولو إن الأمر قد اختلط عليها (مرآة صغيرة من الدهشة والإرهاق أعادت له سريعا صورة ارتباطه بهذه الحانة، فمنذ ثلاث سنوات: كان هو فتى صغيرا حزينا، ذا شعر مُصفف بعناية، تطل من عينيه السوداوين لا مبالاة – كان لديه شعور صعب بطلب الصفح والعفو عن ذنوب مُرتكبة قبل ولادته – وتقبع على قفاه أصابع سيدة عاهرة ناضجة وحنون، أو نظرات مدير المسرح الذى كان يقول إنه صديق لأمريكى يُدعى تنيسي. ولكن كان ذلك ماضيًا ميتًا ومدفونًا) من وراء ظهره سمع صوت حبيبته تيريسا وهى تتحدث عن "الإغماء" وتقول فى غير صبر:

– عجبا، فذلك ليس مشكلة. أعتقد أن هناك أكثر من واحدة فى برشلونة.

سأل لويس:

– من لديه...

فترة من الصمت.

– اسمعوا، ربما يعرف مانولو أحدا منهم (كان هذا صوت ليونور الباسم) ألم تقل إن هذا الشاب هو...؟ (وهنا ذاب الصوت وأصبح سأسأة) يبدو أنه يعرف ماوريثيو.

قال أحدهم، ربما كان ريكاردو بوري:

– مممممم.

وقال لويس:

– يا إلهي، كفاكم خرافات. هذا الفتى من العائلة الرومانية مثلى.

أجابت تيريسا:

– أنت مخطئ يا فتى.

– حسنا، كفى. فيما يخصنا، بالنسبة لك يا تيريسا يُخيل لك أنه يجب أن يكون شخصٌ ما باستطاعته أن يضطلع بذلك الأمر. فلنر من هو؟

بدأت هي:

– كنت أود أن أقول... إننى أعتقد...

قاطعها لويس بفظاظة:

– تيريسا، من فضلك، حاولى أن تكونى مُحددة أو لتصمتي.

من المحتمل أن يكون قد حدث له ذلك من قبل، ولكن كان فى هذه اللحظة عندما قرر أن يضعه موضع التنفيذ. كان يبدو له أن كل شيء يسير بإيقاع شديد البطء والرتابة، ولكن فى الحقيقة هو فى منتهى السرعة، وربما بسرعة بالغة: توجه إليهم من مكانه وهو يحمل فى يده الكوب الطويل (كانت تيريسا أول من شاهده)، وقف إلى جانب الطاولة وانحنى ليأخذ علبة تبغ سقطت تحت كرسى لويس: "ليس لديكم أى حرص"، همس عند انحنائه (ولبرهة تمكن من رؤية ساقَيْ تيريسا البرونزيتين الرقيقتين، واللتين تستحق رؤيتهما العناء والمشقة حقا) وبعد أن طرح العلبة على الطاولة ظل هناك واقفا، لم يحرك ساكنا، ومازال يحمل فى يده ذلك الكوب ذا اللون البنفسجى المليء بالمياه الغازية، حكّ رقبته ومال برأسه وهو يفكر (كانت تيريسا تعشق تلك الحركة) وقال بصوت مُنهك:

– اتركه لي. سأتولى هذه المهمة بنفسي.

اختفى المنشور فى ذلك الوقت من يدى لويس (وتوقفت أصابع المُرسى السمراء السريعة المتّجهة لأسفل أمام أنف القائد للحظة). قال لويس محركا رأسه ورافعا يده المفتوحة كما لو كان ينتظر أن يرد إليه المنشور ثانية بحركة سحرية: "نحن لا نلعب، لا نلعب". ولكن لم ينظر إليه مانولو وكان على نفس وضعه، واقفا، بيده الكوب وكأنه كاهن يُقيم قُدّاسا ثم أخذ يقرأ المنشور (والحقيقة أنه كان يُمعن النظر فى الحروف الكبيرة

التى كانت تعلو النص المكتوب: برشلوني). احتسى قدرا كبيرا من الكوب، طوى الورقة وحفظها فى جيبه.

سأل:

– تقول لمتى؟

همهم لويس:

– أقرب وقت ممكن – ولكن من المؤكد أنك...

قاطعه لويس قائلا:

– لا يوجد كلام آخر بعد ذلك!

نظر إلى تيريسا:

– ستأتين؟ عليّ أن أبكّر غدا.

وطلب لويس:

– لحظة واحدة! (ربما كانْ يريد أن يعرف إلى أين سينتهى ذلك).

ولم يّتردد المُرسي:

– أتعرف برناردو؟

– لا...

– إذن، هيا بنا يا تيريسا.

نهضت تيريسا. وقال أحدهم: "سنرحل جميعا".

على يقين تام بأهميته الخاصة (ومن ثم فهم مُجردون من السخرية وليس باستطاعتهم الاستهزاء أو السخرية) كانوا كأنهم يختنقون أمام الأهمية المُمكنة لشخص آخر. وعلى الرغم من ذلك شعر لويس بأنه يجب أن يصرّ أكثر من ذلك قليلا واقترب من مانولو:

– ألا تريد أن تعرف (ونظر إلى شفتيه) ما هى الكمية اللازمة؟

فأجابه الآخر:

– فلنترك الآن هذه التفاصيل، سوف توضح لى تيريسا كل شيء غدا، ستكونين معى غدا. قمنا بحل الأشياء الأكثر أهمية، لا تقلق.

عند خروجهم من الحانة حدث ما كان يسبب له ذعرا فى بادئ الأمر ولكنه الآن لم يعد يعنى له أى شيء على الإطلاق. فالأسباب التى كان من المتوقع أن تُثير الحدث المؤسف لن تخرج بوضوح إلى النور مُطلقا ولكن التى استنتجها ريكاردو مؤخرا ستَلقَى الاستحسان العام. طبقا له، عندما خرجوا من الحانة، كان لويس قد سأل المُرسى إذا ما كان واقع تيريسا بالفعل، والفتى المسكين (فتى مسكين: لاحظ افتقاد ريكاردو المفاجئ للموضوعية) اعتبر ذلك بمثابة إهانة لتيريسا. (أوضح بوري: يجب ألا تنسى أن العمال متعقلون للغاية فيما يتعلق بهذا الصدد، أقصد أنهم مازالوا متمسكين بذلك المفهوم عن الشرف المُثير للحيرة والإزعاج، فيجعلون من كل شيء مسألة شخصية) وشعر بأن لزامًا عليه أن يصفع لويس صفعة. وأنهى ريكاردو عبارته قائلا: "إنه شخص مُتعنت".

ولكن لنعد إلى الأحداث. عند الخروج من الحانة لم يكن هناك ما يثير الشكوك حول ما سوف يحدث. مازال لويس يُردد وهم يودّعون إنكارنا "أحقا يمكنك أن تقوم بكل ذلك منفردا، أتعرف أحدا...؟" واتفق الجميع على أن السؤال كان فى حقيقة الأمر سطحيا. ظل كل من لويس ومانولو متأخرين قليلا فى الخروج من الحانة لأن كليهما كان يريد أن يدفع الحساب (كان مانولو فى هذا المشهد مهزوما بشكل ملحوظ) ولكن كان لديهما بعض الوقت لسماع كلمات لويس الأخيرة التى تحمل بين طياتها سخرية لم يلحظها أحد (غير المُرسي) قال مُبتسما:

– معذرة! (ونظر إلى شفتيه مرة أخرى) لكنى ما زلت أراك غامضا...

– من هو برناردو؟

لم يعرفوا ما إذا كان مانولو قد أجابه أم لا، فلم يعودوا يسمعون أكثر من ذلك لأنه كان فى الشارع. بعد ذلك وعند بلوغ الناصية الثانية من الشارع فى اسكوديرس، كان قد

تأخر أيضا ريكاردو – الذى افتقد دفء وحرارة أجنحة ماريا – ليقضى حاجته فى أحد مداخل المنازل المظلمة. فى المقدمة كانت تسير تيريسا وخايمى وليونور وماريا. تأخر ريكاردو فى اللحاق بهم، وقالت ماريا سريعا بصوت حزين: "يا له من تبول طويل". ولكنه عاد وتنفست هى الصعداء وكانت سوف تتعلق بذراعه عندما دار هو فجأة وأخذ يجرى باتجاه الحانة مرة أخرى. لم يصل فى الوقت المناسب: كان مانولو ولويس قد وصلا إلى الناصية ويقف كل منهما قبالة الآخر.

توجه لويس إلى مانولو قائلا:

– أنت غير واضح.

كان ذلك مجالا لاستغراب مانولو: فنظر إليه وكأنه لغز مُحير:

– ماذا تقصد يا فتى؟

كاد ريكاردو أن يقترب من الناصية، وكان الآخرون يسيرون خلفه، سمعوا صوتا مُزعجا لنعل حذاء يسير على البلاط وقال ريكاردو: "هيا لا تكونوا كالدواب، أسرعوا"، وقبل وصولهم رأوا الجثة المصابة بطلقات نارية تخرج فجأة وتتجه ناحيتهم، ثم سقطت. كان لويس، وكان يبدو كما لو أنه قد تعثر أثناء السير. وسأل خايمي:

– ماذا حدث؟

حكّ لويس لحيته، لم يُرد عون أحد كى ينهض. كان رأسه منحنيًا تماما. خرج مانولو من الظلام دون النظر لأحد. قال بدون توقف:

– هل ستأتين معى أم لا؟

وفى غير شك كان يقصد تيريسا ونظر إليها الجميع. استكمل المُرسى طريقه مُتجها إلى شارع اسكوديرس. توقفوا جميعهم لحظة دون معرفة ماذا يفعلون. كانوا يعرفون أن مثل هذه الأمور تحدث إذا زاد تناول النبيذ (لم يتذكروا أن مانولو كان مُقلا للغاية فى الشراب). ولكن الأمر الذى لم يكونوا على علم به منذ ذلك الحين هو أن صفعة المُرسى هذه

كانت تعنى بداية سلسلة مفاجئة ومذهلة من الصفعات التى كان سيتلقاها القائد المُبجل منذ ذلك اليوم دون أى سبب ظاهر وتقريبا دون معرفة من أين تأتي، كما لو كان قد وقع فى محنة. فالمصائب تنهال على الإنسان دون وجود أى سبب مُحدد. ابتعد مانولو أثناء سيره فى الشارع، يداه فى جيبيه، مُطأطئ الرأس. دوّت أخيرا من خلفه الخطوات التى كان ينتظرها. أبطأ من خطواته. عندما وصلت هى تعلقت بذراعه. سألته:

– هل أنت غاضب بسببى أيضا؟

– لست غاضبًا من أحد. ولكن هيا بنا من هنا. فعادة ما تنتهى مثل تلك السهرات هكذا.

– ولكن ما الذى حدث؟ ربما قد أخبرك لويس شيئا عني...؟

حاول أن يخبرها بالحقيقة لأول مرة. ولكن الذى قاله هو "إنها أمور خاصة بنا"

اهتزت تيريسا قليلا. وقالت وهى مُغمضة العينين:

– أنا أيضا فاقدة الوعي، تعرف؟ ولكن سآخذك إلى منزلك، إلى الحى الرائع الذى تعشقه، جبل الكرمل. أخبرنى من هو برناردو؟

ظل هو فى صمت. ولكن كان عليه أن يكسر هذا الصمت. لأن تيريسا ظلت هادئة، لم تحرك ساكنا وكأنها نائمة بين ذراعيه. أسندت رأسها الأشقر بشعرها غير المصفف إلى صدره. كانا تحت وميض ضوء قنديل. أخذ مانولو يُزيح بيده خصلات شعرها المُتصبب بالعرق ويُداعب وجهها الذى كان يُشع صوتا عذبا كهديل الحمام. وهو يرى ذلك الوجه المُغيّب الوعى الآن، المُتعَب، وجه طفلة يغلبها النوم، ومن يدرى ما هذه الانفعالات والعواطف، ابتسم المُرسى تحت ضوء المصباح الأصفر، ابتسم بحزن ومرارة غريبة شعر بمذاقها فى فمه.

لامس بنعومة ورقة شفتيها المفتوحتين قليلًا بينما كانا يسيران ببطء فى شارع جانبى باتجاه الرصيف (كان يريد أن تستعيد وعيها قليلا قبل أن تبدأ فى القيادة) ولكنها

تقلبت بين ذراعيه كقط صغير وأحاطت رقبتها بذراعيه وأجبرته أن يتوقف مرة أخرى. قبّلته وقالت له: "أشعر بالسعادة". الآن هما فى المكان الأكثر ظلمة. سمعا فى ناحية ما صوت تصفيق ونغمات عزف القيثارة. اعتقد مانولو أنها ستكون مجرد قبلات سريعة فقط، لأنها لم تستطع الوقوف على قدميها ولكن شفتيها المضغوطتين اللتين تشبهان ثمرة الفراولة الرطبة بدتا وكأنهما قطعة إسفنجية رطبة وخاضعة، وهو يجذب الفتاة إليه ويبادلها القبلات بشراهة ونهم. وأخذت تتراجع إلى الخلف ببريق لامع، ضارب إلى الزرقة، حتى أسندت ظهرها إلى الحائط حيث ظلت يداه وقتها مُقيدتين، مُتحققا جنونًا ما بأصابعه: وأخذ يُمرر أصابعه لأعلى ولأسفل ومُتحققا عدم وجود ملابس حتى يتخيل مرة أخرى شعور العُرْى المُرتجف، وحرية النهد الصغير المرتعش تحت البلوزة. والآن تجذبه هي، مُقدمة ردفى التلميذة صغيرة السن بحركة سعيدة وبذيئة فى لذة. تركت يديه تُداعبان فخذيها لأعلى ولأسفل، وسرعان ما أترعت حواسها لتفيض من عسل لذيذ باهر. "لا، هنا لا ..."، همهمت عندما شعرت بالشفاه الحارقة فى كتفيها ورقبتها. وألقت برأسها إلى الخلف بضيق مُرتجف، وعادت إليه من الظلام، مانحة إياه الشفتين المرتعشتين بنهم ولهفة، فيما تتوسل بعينيها (كانت قد حسمت أمرها) أن يحملها إلى مكان ما، لأنها عشيقته وملك له حتى الموت.

قال لنفسه: اهبط، هنا يمكنك أن تتوقف. آلمته كثيرا نظرتها الرقيقة الخاضعة وإحباطه وخيبته ولكنه أحاط كتفيها بذراعه بشدة وحملها إلى السيارة. هناك استلقت على صدره وأخمدت المشاعر الملتهبة وكانت تضحك بسعادة، فمازالت بدون وعى بعض الشيء. كانت تزفر هواء شديد البرودة. وأخذ يُداعب خصلات شعرها الشقراء، مُرجئا صورة الغد المُسبقة والثابتة والمشتعلة، ثم عاد فجأة لحزنه دون معرفة السبب الحقيقي.

مسلحًا...

بالشجاعة لا بالفولاذ.

جونجورا

كانَ الشارع يبدو وكأنه قاع نهر: وَحْل وأعشاب وحجارة. وفى أقل من عام كان قد غرق كأن مياه الفيضانات المتلاطمة قد مرت من هناك، وتساءلت تيريسا ماذا حدث من فتى بعينه، عامل ذى ضحكة بريئة لم يسمع قط عن برتولت بريخت. ترتفع المداخن الشاهقة فى السماء وتصبغها بلون الدخان الأسود المنبعث منها. تظهر فى نهاية الشارع بدايات مرتفع مونجوي. كانا يصعدان فى صمت إلى الرصيف المتهدم، بجانب سور المصنع الطويل الذى يدوى من خلفه صخب الماكينات كنبضات القلب. لا أحد فى الشارع، لأنه لا يؤدى إلى أى اتجاه فى تمام الحادية عشرة صباحا وحرارة الشمس شديدة. أثار الصخب الناتج عن المصنع حنينه للسير فى الشوارع شتاء وصورة ساقى تيريسا، استحضر فى ذاكرته ضحكة ماروخا، ذراعها المعلقة بذراعه، حقيبة الأغطية الثقيلة... خرجت مجموعة من الأطفال من أحد المداخل تجرى وراءه وتلاحقه بمسدسات من البلاستيك. فى نهاية الشارع توقف مانولو: قال وهو يشير إلى بوابة صغيرة:

– ها هنا، بالتأكيد سوف أجدهم فى سطح المنزل. من الأفضل أن تنتظرينى هنا أو بالسيارة، كيفما تشاءين. فلا يريدون أن أصطحب أحدًا لا يعرفونه... ولكن إذا تأخرت اصعدي. متفقون؟

لم تُجب تيريسا، كانت تشاهد الأطفال الذين يلعبون على الجانب الآخر من الشارع، ولكنها سمعته جيدا. رأت بعينيها الغاضبتين مانولو يدخل المنزل. ولأنها بقيت وحيدة

بدأ قلبها يخفق بقوة. منذ أن تقابلا فى المستشفى منذ نصف الساعة تقريبا لم تتفضل عليه بالحديث معه سوى مرة واحدة فقط. كانت حيرتها تفوق غضبها منه: حيث كانت تراه حاسما فى الأمر المُتعلق بالمنشورات. كان مُستسلما بشدة وسذاجة حتى يستعيد عطفها وثقتها مرة أخرى. ومن جانب آخر، حدث شيء فى الصباح فى المستشفى يجعلها فى حالة دهشة حتى الآن: عندما كانا معا. بجانب سرير ماروخا، وفى اللحظة التى مد فيها مانولو يده كى ينتزع خصلة من شعرها الرقيق المقصوص (كانوا قد قصوا شعرها الطويل)؛ فجأة، فتحت ماروخا عينيها بنظرة ما بين التوسل والإنذار، وأمعنت النظر كثيرا فى تيريسا لبضع ثوان. كانت دينا هناك أيضا، ولكنها لم تلحظ أى شيء ولم تنتبه إلى أى شيء لا هى ولا مانولو ولا حتى أعاروها أى اهتمام. وبالرغم من ذلك كان هناك شيء أكثر من مجرد حركة بسيطة وغاضبة لجفن العين، شيء أكثر من الضلال الأعمى لحدقتى دُمية مكسورة، لحلقتين من الكريستال: كانت هى قد أقسمت (فى تلك اللحظة على الأقل) أن ماروخا تبدو كأنها تتحدث إليها، حيث إنها حركت شفتيها، وكان ذلك بمثابة نداء مباشر وشخصى لاستيعابها وحالتها كفتاة، إشارة ضوء فجائية كانت تطلب منها بطريقة ما أن تثق بالفتى وأن لا تدعه لتصرفاته الهوجاء أكثر من ذلك، عند الخروج من المستشفى، بينما كانا يصعدان إلى السيارة ، كانت هى تستعد كى تحكى له، عندما طلب منها فى إيجاز إن تحمله إلى حى السيكو. طوال الطريق هو فقط كان يتحدث: يا له من صيف رهيب. الشوارع مبتلة، يبدو الهواء مُعطرا، الأحياء الجميلة تبدو نائمة وخالية، آه يا تيريسا فالمدينة ملك لنا... وأضاف "ماذا بك؟ أمازلت غاضبة؟". كانت تقود السيارة بسرعة، شاردة العقل وتبدو جميلة للغاية لهيئتها المتمردة والغاضبة، (رائعة فى الحقيقة: مستندة إلى الخلف على الكرسي، الذراعان مشدودتان فى كبرياء وتمسك بعجلة القيادة، الذقن على الصدر، وفى نظرة تحد: كان يجب أن يموت جيمس دين هكذا) منتبهة للطريق ومزدرية للآخر. كانت تحاول إخفاء فضولها، وذلك الاهتزاز الموسيقى الذى مازال يستمر فى بطنها من ليلة البارحة، تحت قناع من اللامبالاة. أما هو فكان يرتدى زى الميدان: قميصا وردى اللون بجيبين وكُمّين طويلين، وحذاءً رياضيا وبنطلونا أبيض نظيفا يناسبه كثيرا. عندما كانا فى حى الباراليلو طلب من تيريسا أن تسلك الجانب الأيسر من الشارع وأن تقف فى بدايته. وبمجرد أن تعرفت على الشارع، كان لديها مفاجأة أخرى.

سألت فى استغراب ودهشة:

– هنا؟–

– نعم. فلنترك السيارة هنا–

وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى تحدثت فيها ذلك اليوم. وتساءلت "لماذا أقاوم كثيرا الخداع؟ ربما فى ذلك الخداع أفضل شيء فى الفتى؟". وأخذت تستطلع المكان حولها داخل البوابة. كان هناك سلم ضيق ومُعتم ذو درابزين حديدى وباب واحد على كل بسطة. قاومت تيريسا ٥ دقائق وهى وحيدة (وهو كان يتوقع أن تصبر ١٥): صعدت إلى الدور الثالث الأخير فى صمت مُتأملةً الجدران والدرابزين. من هناك ١٢ درجة سلم كانت تؤدى إلى منطقة يشتد بها الضوء الذهبي: باب خشبى صغير تنفذ منها أشعة الشمس وكأنه حقيبة قديمة ذات خرقتين كعملات معدنية فى انعكاس الضوء. صعدت تيريسا ببطء وهى ترتجف واقتربت من ذلك الضوء ونظرت من خلال إحدى هاتين الفتحتين، وشعرت بأنها فقدت بصرها بفعل أشعة الشمس، ثم رأت أرضا مُغطاة بخيوط العنكبوت، وملابس وطفلا مُدللا تتدلى من رأسه خصلات شعره الشقراء كان يتجول عاريا. وفى النهاية، جالسين جميعا على الأرض، مُستلقين بظهورهم ، ٥ من الشباب يرتدون قمصانا ويقرؤون مجلات. استطاعت تيريسا أن تتعرف الفتى الذى كان جالسا فى المنتصف يداعب قطا أسود على ساقيه، كان يأخذ حمام الشمس مُتحررا من ملابسه ويلبس نظارة داكنة اللون. بالقرب من قدميه كانت هناك فتاتان ترتديان ملابس الاستحمام، تستلقيان بظهريهما على منشفة، ووجهاهما مطليان بالمساحيق (الوجوه لأعلى باتجاه الشمس فى حركة اتزان أو فى وضع الاستعداد لتبادل القبل) تعرفتهما تيريسا فى الحال: نفس الفتاتين اللتين حضرتا من قبل إلى منزلها وسألتا عن مانولو. كانت تحيط بهم العديد من المجلات التى تحمل على صفحاتها الرسومات والصور المختلفة والروايات، وزجاجات النبيذ، وصندوق ماء وراديو صغير يبثّ مقطوعة موسيقية راقصة. كان أفق الرؤية أمام تيريسا غير واضح تماما بسبب ذلك الطفل صاحب الرأس الأشقر حيث كان يتحرك كثيرا. أما الفتى صاحب النظارة الداكنة فكان يبدو أنه ينظر بدقة لشخص ما لم تستطع تيريسا أن تراه (من المتوقع

أن يكون مانولو) وكان يوجه له كلمات من حين لآخر، وأصدر إشارات جنونية بيده حتى يقترب الآخر، ولكن تيريسا لم تستطع سماع ما قاله بسبب صوت الموسيقى. وسرعان ما تعرفت صوت مانولو، شديد القرب منها، ثم رأته يدخل بظهره فى أفق رؤيتها ببطء. كانت الشمس تسطع بقوة. اقتربت من الباب حتى تتمكن من رؤيته جيدا، حيث كان يسمح لها هذا الوضع أن تراه دون أن يراها جيدا (كانت منجذبة فى يأس، يجب قول كل شيء، لبصيص ضوء خافت يتحرك بداخلها: شعاع الشمس) حينئذ كانت هناك وقفة قصيرة فى الراديو سمحت لها بأن تسمع الكلمات التى يقولها مانولو: "... أنا لم آت لطلب أى شيء ليس من حقي، وإذا ضايقنى شيء يا باكو فإنها أكاذيب شقيقتيك". سمعت إحداهما تقول: "أليس فاسقا؟"، "إذن، فلم يأت مُطالبا بأشياء بدلا من أن يرد ما عليه: هو وتلك المجنونة ابنة الكاردينال...؟". ورفعت الأختان وجهيهما المطليين بالمساحيق فى تثاقل كى تنظرا إلى مانولو. وصاحت إحداهما: "لقد أتى هذا الرجل ليسبّنا ويثير غضبنا، ألم تشعروا بذلك؟". عادت الموسيقى لتدوى بقوة، تخدش الأسماع: كانت موسيقى مارش عسكري. وسط الصخب، سمعت تيريسا حديثهما عن علاقةٍ ما بين المتهم وفتاة تُدعى خيرنجا، قالت الأخت الأصغر بهدف إقامة حفلة فى بيت الكاردينال: "إننى أحتضر". وعندما عادت مرة أخرى، فتى آخر قذف المجلة التى كان يقرؤها فى تهديد. وعبْر نغمات الموسيقى تلفظ مانولو حوالى مرتين أو ثلاثا ببعض الكلمات: "منشورات وإغماءة" (أكان ذلك هراء أم إنه لم يكن يعرف حتى النطق الصحيح؟) بالإضافة إلى اسمها أيضا: تيريسا. ولكنهم لم يعيروه أى اهتمام، لا يبدون غير مهتمين أو مستغربين تحديدا ولكنهم أكثر غضبا فى كل مرة. قال أحدهم "إنه مجنون". كانوا يتبادلون فيما بينهم نظرات نافدة الصبر، أما الفتى ذو النظارة الداكنة فكان يحرك يده بشيء من الهدوء. ظلت تيريسا مفتونة. سمعت بجانبها صوت رفرفة الطيور، ربما يكون برجا للحمام. رأت مانولو وهو يتقدم قليلا ناحية المجموعة دون أن يكف عن الإيماءات والإشارات، كان قد أخرج يديه من جيبيه ولكنه مازال فى الوضع المتراخى الذى كان عليه من قبل، ذلك الوضع المثير للغضب ولكن فى هدوء. وفكرت هى ماذا يقترح الآن؟ اقتربت أكثر من الباب وهى تمعن النظر فى قفا الفتى، وفى الوقت نفسه لاحظت وقوف إحدى الفتاتين (يا له من ذعر). هنا سوف يحدث شيء ما. هل

أدفع الباب وأخرج الآن؟ قال هو وإذا تأخرت... وقالت هى مستعينة بالساعة لم يمض ولو حتى عشر دقائق. لم تُرد استخراج أى ملخص أو تفسير لما كان يحدث فى ذلك المنتجع الصحى العام (لم يكن ذلك فيما بعد خلية سرية، كم هو مثالى ليبدو عصابة من الفاسقين أو العاملين العاطلين). فى أفق حى السيكو البعيد الغارق أمام مداخن المصنع، الملابس المنشورة بأسطح المنازل والسماء المصطبغة بلون الدخان الأسود كانت هى تفكر فى كل هذه الأحداث جيدا وتعيرها اهتماما أكبر. ثم راحت تراقب المشهد الغريب دون أن تنحاز إلى أحد (ربما فيما عدا تلك الهيئة الشامخة والمتعجرفة ذات اللون الأبيض والوردى التى كانت تتحدى أشعة الشمس)، التفتت فى موضوعية شديدة إلى بعض التفاصيل ونتائجها السريعة، كالضوء الذى يؤلم عينيها، ربما يكون أخف وطأة عن ذى قبل، لأن أجزاءً من السحب فى ذلك الوقت حجبت أشعة الشمس الحارقة. ولكن كان هناك شيء غريب آخر: فقد حجب الطفل الرؤية فجأة بخصلات شعره الذهبية ووجنتيه المطليتين بأحمر الشفاه، وأدركت هى أن إيماءات فمه كانت هى الانعكاس المخيف لما كان يراه. وعندما ابتعدت (جذبت الأم يد الطفل بعنف) ألفت مانولو مُحاصرًا وعندئذ أدركت أن "العلقة" على وشك الوقوع. سمعته جيدا وهو يكرر: "لا أسمح لك أن تتحدث هكذا عن تيريسا، ولا حتى تكذب عليها"، وكان صوته مختلطا بصوت الموسيقى والسباب بين المتقطع والغاضب الذى كان يطلقه الفتى صاحب النظارة الداكنة، ثم ضربه مانولو بقبضة يده، أنين وتوجع، قال أحدهم "مجنون". فى طاعة ربما لإشارة يد مهددة لم تلحظها تيريسا، رجع الآخرون خطوة إلى الخلف، ينظرون وهم يتشاورون فيما بينهم. هجم باكو على مانولو بينما رأت هى جزءًا من ظهر عار، أصيبت الأذرع والأكتاف بالشلل ثم صرخت، دفعت، ركلت الباب ولكنه لم يُفتح. بعيدا عن ثقب الباب كان مانولو يتشاجر بقميصه الممزق، وتزايدت خفقات عضلات بطنه الداكنة (عندئذ اقتربت هى من الباب مشبكة ذراعيها كالصليب، تضغط ببطنها الساخن مرة أخرى بفعل حرارة الشمس ويديها، ولكن لم تنجح فى فتح الباب، لم تتمكن) ورأته يتراجع للخلف ويعثر فى ساقى إحدى الفتيات ويسقط للخلف طريحا. هجموا عليه جميعا وأخذوا يضربونه ضربا مبرحا، يلوون بقوة رقبته القوية المتصببة بالعرق، وصرخ هو ناظرا ناحيتها: "تيريسا" بصوت يؤثر كثيرا فى النفس.

اعتقدت أنه قد مات. واستمرت فى دفع الباب وهى غارقة فى البكاء دون انتحاب ولكن بلا جدوى (كان يبدو لها أنه قد مرت أعوام) وفى النهاية عندما تمكنت من الخروج إلى سطح المنزل، جرت نحوه، كانوا قد تركوه، وكان هو يرقد وفمه لأسفل إلى جانب الراديو الذى يبث بعض الأغانى غير المناسبة لذلك الموقف. اندهش الجميع لظهورها، وابتعدوا يجمعون أغراضهم فى عجلة حتى إن تيريسا لم ترهم، كانت تصرخ فقط: "كفى، اتركوه، اتركوه" وهو مغشى عليه. كان مانولو يتنفس بصعوبة، ساعدته كى يعتدل، نظر إليها بعينيه المنتفختين من أثر الضرب وأخذ يضحك فى هيئة المُضطر لذلك. كان أحد حاجبيه قد تشقق، ووجهه مُلطخ بالدماء والرمال وقد تبعثر شعره، واتسخ بنطلونه الأبيض تماما، وتمزق قميصه الذى فقد كل أزراره وأصبح مفتوحا تماما من أعلى لأسفل. ساعدته تيريسا وهى ترتعش كى يزحف قليلا (فى غير وعي، كان يبدو أنه قد فقد كل قواه، وأخذ المذياع خلسة) وحمله وراء ظهره فى اتجاه معاكس لدرابزين السلّم. عندما تطلع حوله، كانوا قد اختفوا جميعا. همست تيريسا دون أن تلمس وجهه:

– رحلوا يا مانولو، ماذا فعلوا بك؟ لماذا كانوا يضربونك هكذا؟ وماذا تعنى هذه التصرفات السفيهة؟.

– أرادوا أن يشتبكوا معك ومع والدتك ...

– ولكن، لماذا، من هم هؤلاء؟... ولماذا جئنا إلى هنا؟

كانت قد أخرجت منديلا ومسحت به على وجهه، داعبته، أخذت تُبعد خصلات شعره المُنسدلة على جبهته. بينما أكمل المذياع مسيرته فى بث الأغانى العذبة الرقيقة بعد أن تركه مانولو فى غضب شديد بالقرب منها.

– آه يا مانولو، انظر ماذا فعلوا بك!... من فضلك، تحدث، أخبرنى بأى شيء!...

– هؤلاء...، هم فقط الذين يستطيعون مساعدتك، فهمت؟

رفع رأسه ونظر إلى الشمس، مُتظاهرا بأنه قادر جسديا، على التفكير العقلى العميق: لم يتبق أمامه الآن سوى هذا الجزء الآخر وإن لم يكن هو الأكثر خطورة (كانت الصفعة أقوى مما كان يتوقع، عليك اللعنة يا باكو) نعم إنها الأكثر رقة وعذوبة

– كنت أريد تنفيذ تلك المهمة من أجل أصدقائك.

ازدادت دهشة تيريسا وحيرتها وغرقت سريعا فى سرور وابتهاج.

– آه يا ربي، مانولو! ماذا تقول؟ أنت مجنون؟

– لا... لقد رأيت، لقد حاول، كان يستوجب الألم... ولكن لا يمكن أن تحدث معجزات. لقد تعهدت أن أساعدكم... فقط لأنى أحبك، فقط من أجلك أنت، لأجلك أنت.

– أعرف ذلك، أعرف، ولكن لا تتحدث الآن، يا حبيبي، انس كل ذلك، الطلاب والمنشورات وكل شيء...

عانقته وهو مغشى عليه، تطوق صدره العارى بذراعيها وتمرغ شعرها برقبته. وقالت: "لا يهموننا فى أى شيء"، وأخذت تتردد بين الضحك والبكاء وكأنها طفلة صغيرة (الراديو إلى جانبهما، يرسل أغنية ذات ذكرى سعيدة، مهداة من جندى لحبيبته)، بينما توقف مانولو عن الانزلاق ببطء حتى وصل إلى الأرض: قال: "تعالي، تعالي، اجلسى بجانبي، هكذا، عانقينى بقوة... والآن اسمعى يا تيريسا." ولكنها قالت وهى تستميل رأسه إليها "لا تقل شيئا، لست بحاجة لذلك، هل يؤلمك يا حبيبي؟" وأخذت تمر بأصابعها المرتعشة على فمه وحاجبه المتورّم. لابد أنه يؤلمك، هيا بنا إلى المنزل، كى أضمد هذه الجروح...

وساعدته كى ينهض.

قال هو

– انتظرى يجب أن أشرح لك كل شيء، يجب أن أفعل ذلك (ثم رفع صوت الراديو بإصبعه فى خلسة دون أن تلحظه: "تحدثت ليلا مع القمر وشكيت له آلامي، وصرحت له بحبى ولهفتى إليك – يجب أن أعترف لك أنه...")

قاطعته هي:

– لا يهمنى أى شيء: مفهوم؟. إنى أُحبك، أُحبك: آآآه نعم إنى أُحبك! (أترعت وجهه بالقبلات وعانقته فى رقة ونعومة وإثارة حتى لا تزيد من آلامه.)

وفجأة قال هو:

– أنا فى مأزق حرج يا تيريسا.

نظرت إليه مُتوجسة:

– ماذا بك؟ هل ارتكبت خطأ ما؟

– لا، لا... ولكن ليس لديّ عمل.

– ليس لديك عمل؟

– نعم. لا أملك أى عمل، أقصد: أنى قد فقدت عملى أيضا...

همست هي:

– آه، اعتقدت أن الأمر خطير.

اقتربت منه فى ارتياح: كانا يرقدان معا على الأرض مقتربين من الدرابزين، وتستند هى برأسها إلى صدره ويمر الهواء على جفونهما التى يُغالبها النّعاس.

ولكن المُرسى أوضح:

– ولكنه مهم وخطير بالنسبة لي، كيف يمكننى أن أنظر إليك وأنا لا أملك وظيفة؟ (ثم أضاف وهو يتحسس ساقى الفتاة بيده)، أنت ملاكى الصغير يا تيريسا، ولكن ماذا سيقول والداك وأصدقاؤك؟

تشنجت هى وأجابته:

– لا يهمني، لا يهمنى أى شيء من كل ذلك. انظر ماذا فعلوا بك... (استندت إليه بوجهها وأطلقت العنان لخصلات شعرها الذهبية تُلامس شفتيه المتشققتين)، كل هذا

بسببنا، بسببى أنا وأصدقائي. لا يا روحى لقد انتهت هذه اللعبة. يمكنهم أن يلقوا بالقبض عليك لانضمامك لأحد التنظيمات غير الشرعية ذات الدعاية غير القانونية، فهمت؟ لقد فعلت الكثير لأجلنا، أكثر مما تستطيع، أكثر مما تستحقه الجامعة.

– هذا لا شيء. (كانت هذه إجابة الفتى الرقيقة، تفوقت عليه يداه المضطربتان فى صورة مقنعة.) وبمرور الوقت سنقوم بأشياء نافعة كثيرة، سترين. سأكون لك كما تريدين، سأتغير كما ترغبين، فقط لأننى أُحبك.

– أحقا تحبنى يا مانولو. فلتقسم بذلك.

– أُحبك أكثر من أى شيء فى العالم كله، إنى أعشقك، أنا بحاجة إليك يا تيريسا.

وأخذت شفتاها تنحدران فوق فمه وكأنها حشرة مُشعة ثم قالت:

– سترى ما سوف نفعله يا حياتي: فلنوجه اهتمامنا لك أنت الآن، لا تقلق: سأساعدك كى تجد الوظيفة التى تحتاج إليها. ليس عليّ سوى أن أتحدث مع والدى فى هذا الأمر، فلديه معارف وأصدقاء كثيرون. سيكون أمرا سهلا، وسترى، اتركه لي.

– أخبريه أنى لديّ خبرة تجارية كبيرة وأنني...

انحنت تيريسا وعادت لتقبله من جديد. كان الهواء مُشبعا بالأغاني: "تحدثتُ البارحة مع القمر، أخبرنى أشياء كثيرة، ربما يأتى ليتحدث معك الليلة مرة أخرى..."

كانا ينزلقان حتى وصلا إلى الأرض غائبين عن الوعى من أثر نغمات الموسيقى وأشعة الشمس، مُنهكى القوى لجيشان العواطف والأحاسيس؛ واستمرا طويلا فى العناق كما لو كانا نائمين. كانت هناك حقيقة عليا تجعلها فى حالة من الانبهار والدهشة وعدم الوعي، الظل المُحبب الأخير، الشبح الأخير الذى كان يهرب إلى نهاية ذلك الرأس الذى يغوص بحب وحنان فى صدر المُرسي: كان صديقها الحنون والجريء وحيدا وتائها مثلها، تلك هى الحقيقة.

"كم أشعر بالضعف الآن، ولكن كم أنا سعيدة" - قالت لنفسها. حتى إنه كان عجيبا بالنسبة لها: لم تكن تتوقع أبدا أن ذلك يمكن أن يحدث هكذا، لم تكن تعرف أى شخص مثله، يعيش وحيدا فى صراع دائم، لم تكن تتخيل إطلاقا أن قوته تكمُن فى فقره، تعبيره الأكثر صرامة للحقيقة. فكرت سريعا: ولا حتى أنا، فمنذ وقت قريب كنت أعتقد أنى وحيدة وتائهة لأن الأشياء لم تنته كما توقعت، أو كما كان يتوقع الجميع أيضا، كما تعلمت فى المنزل والجامعة. ولكنه استطاع أن يقنعنى بأننا هكذا والأشياء هكذا أيضا وتسير هكذا. سمعا صوتًا يقترب منهما: كان الطفل يجرى إليهما وهو عار، وصل إليهما، أخذ الراديو، نظر إليهما قليلا بعينيه الواسعتين الدامعتين وانصرف. بينما كان يقع ببطء شديد بين قدمى ذلك الرجل المجهول الأنيق، وهو يثنى ركبتيه شيئا فشيئا، فى ضعف، الرأس فى ضعف واستكانة، اليدان تبحثان عن الدعم فى الفراغ، بينما يقع فى هدوء بفعل حرارة الورشة الخانقة، يغلبه النوم والإرهاق وتهديدات الأيام المتلاحقة التى يقضيها مع أخيه "لا مكان عندى للكسالى".

إذن كم تبدو المدينة غريبة وبعيدة يا حبيبي، كم يبدو الناس متشككين مرتابين، يا له من مكر فى الأصوات، فى اللهجة القطلونية، فى الشوارع المُضيئة، فى الصديقتين اللتين تحملانها أيام الخميس إلى ميدان قطلونيا (تمسك إحداهما بذراع الأخرى وتضحكان وتتناولان الآيس كريم)، فى ضحكة الجندى الخائفة، وفى رأسه الحليق (وعندما ينبت شعره أرى أنه كان أشقر فى لون الشمس)، يتذكر القبلات الأولى فى ظلمة الحديقة، رائحة البارود المحترق المنبعث من المدافع، رائحة منظفات المسبح: إذن فكان هو نفس وجه القمر الرومانسى الذى كان يسطع فى يوم المهرجان الشعبى ولكن فوق أشجار أخرى، قبلات أخرى، حيث كانت هى أصغر سنا وأكثر اندفاعا وجنونا ولم تفكر طوال الوقت سوى فى الانقلابات العسكرية الناتجة عن الحماس الطلابى بالجامعة، وفى أسلوبها العذب عندما تتحدث وعينيها الزرقاوين الجميلتين لطفل من جزر الكنارى واللتين قد أطلتا كثيرا على البحر، كم كانت تخاف أن تفقده، ماذا كان يمكنه أن يفعل غير ذلك، تكلمي، لاحظى أيضا أنه فى مرات كثيرة على الشاطئ، بصحبة أبناء السيدة إيسابيل، لم يكن لديها حتى الرغبة فى أن تتركهم يلعبون أو حتى يستحمون، كانت تفكر فى أن تظل هادئة

بزيها المعتاد الأسود وغطاء الرأس، جالسة فى تثاقل وكسل على الشاطئ فى محاولة منها أن تعرض ساقيها للشمس: خلال شهور وشهور، بعد أن ذهب هو إلى الأبد، كانت تعتقد أنها ستجد أية علامة فى ركبتيه، إشارة، خيال يد الجندى التى لم تعد تعانقها قط فى حديقة القلعة، على بعد خطوات قليلة من نقطة المراقبة، وسيطر عليها الخوف البائس والخجل من أن ترى السيدة ماذا فعله بجسدها. كانت تنادى الأطفال من حين لآخر كى تمسح لهم المخاط أو كى لا يقتربوا أكثر من الماء، وخاصة حتى لا يزعجوا الرجال الذين كانوا يستلقون على أراجيح النوم لينهلوا من أشعة الشمس، بينما كنت تسقط أنت فى حى الكرمل على الأرض أمام الورشة، فى هيئة انطوائية للأمام، غارقا فى عرق بارد، كنت على وشك أن تفقد الوعى ولا نعرف مطلقا إذا كان ذلك حقيقة أم إنها مجرد حيلة من حيلك كى ينخلع بها قلب ذلك الرجل الغريب. ولكن هنا – على العكس – كان كل شيء واضحا، حيث إن اليوم المضيء والطويل كان ممتلئًا بالضحكات الصريحة والأفكار المفاجئة بخصوص الزواج، الأسرة، الأعمال والصفقات وبعض السيدات الغائبات. انتهز الأطفال فرصة أنها لم تراقبهم، وغلبها النّعاس بسبب حرارة الشمس، أو أنها همهمت ببعض الليالى الجنونية، واقتربوا كثيرا من الشاطئ فى خطورة – ماروخا. سيدتي... الأطفال...

أجل، كان يوم الأحد عندما ذهبت هى مع السيدة إلى بلانس فى الصباح الباكر بسيارتها، كى تحضر معها القداس، ثم كان الأسوأ، حيث كنت أنت فى سريري، أشعر بك إلى جانبى عندما تنام وذلك الشيء الحقيقى والأجمل فى حياتي. ولكن تلك الأمور لم يكن يراها أحد، الأشياء التى لم تستطع أى واحدة أن تشرحها للسيدة، حيث كانت السيدة بمثابة والدتها. وذهب أيضا باقى أفراد العائلة وأحد المدعوين إلى الشاطئ للاستحمام وهى تنظر، كعادة المشاهدة، إلى أجسام الرجال الضخمة ذات البشرة البرونزية اللون، تنظر إلى الفتاة وصديقاتها المستلقيات على المناشف، وفجأة يجمعهن شعور من الود المفاجئ والاهتمام بالفتاة فهى شديدة النشاط والرقة، فلديها أسلوب لتصفيف الشعر أفضل من هينيه بيالباو ونينيه بيالبا، أين ستتوقف (لم تأت السيدة نينيه ذلك اليوم، واضح) ويسألونها إذا كان لديها صديق بالفعل، أليس كذلك؟ كيف يمكن؟ فشباب اليوم لعنة. يتحدثن وينظرن إليها، ولكن لا يَريْنَها، فيبدو أن هؤلاء السيدات الواقفات أمام

إحدى الواجهات الزجاجية لا يرين ما بعد الزجاج، يحملن صورهن فوق جباههن، واثقات بأنفسهن، يستمعن باستمرار إلى قصصهن الغرامية التى تبدو بلا بداية وبلا نهاية-، أقول ذلك، لأنه فى النهاية ما الذى يهمّ المرأة: أن تمتلكك، تستلقى قليلا بوجهها على رمال الشاطئ، ظهرها أمام الناس وتهمس: "ربما يأتى الليلة"، حيث لا تعلم أبدا متى سيصل، يقفز من النافذة، يأخذها بقوة بين أحضانه... يأتى أحيانا بوجه مُتعب وهالات سوداء حول العين، يأتى لينام فقط. تنم عنها أشعة الشمس، ومياه البحر، والساقان: تنظر إليها الفتاة بحنان حقيقي، ولكن لم تعلم هى أيضا أى شيء. بدأ كل شيء بشكل سيئ وكان يجب أن ينتهى هكذا أيضا: قبل هذا الصيف، قبل أن تراه لأول مرة فى المهرجان الشعبى بوقت طويل (فى الشارع، وهو فى غاية الأناقة والجاذبية مستندا إلى سيارتك، يدخن التبغ متأملا طريقة للوصول إلينا) قبل أن يحنى خصره ويسقط مُنهارا على أرض الورشة المتّسخة، عندما كانت إحدى الخادمات تتعلم كيفية وضع الأغطية على الطاولة، ومازالت تتحدث فى التليفون بخوف، فكان يقوم هو ببعض الحيل والمشاجرات حتى لا يرسلوه إلى القرية. يسير هناك، يرتقى مُرتفَع جبل الكرمل حاملا معه حقيبة الشاطئ المعلقة فى كتفه.

حل المساء بينما كان هو فى أعلى نقطة، شديد الهدوء مُتأملا المدينة وواقفا على قدميه. بالتأكيد، عندما رآه أخوه يأتى دون سابق إنذار وقال له: "لماذا تركت والدتك وحدها؟" وأجاب هو: "لم أتركها وحيدة، لقد تزوجت"، حتى الآن لم يعرف ما إذا كان يكذب أم لا، ولكنه شعر بالكذبة الأولى عندما أضاف وقال إنه قد جاء ليزوره ويتعرف على زوجة أخيه وأولاده فقط. وبعد مرور بضعة أيام قال له أخوه إنه لا يمكن أن يعوله ولا يوجد مكان له بالمنزل. قال هو: "سأعمل معك، وأساعدك فى ورشة الموتوسيكلات" "العمل لا يحتملنا معا لأن حالته تزداد سوءًا". كانت زوجة أخيه هى التى تُشفق عليه وساعدته فى أن يجد مكانا بجانب الأطفال على مرتبة وطبق على مائدة الطعام أثناء فصل الشتاء الأول. ليال طويلة خارج المنزل - لاس رامبلاس- تخيلى كان يقضى ساعات طويلة فى إحدى الحانات بالحى الصيني، يقول إنه يقيم صداقات، لم يكن يتحدث أبدا عن هذا الموضوع، شيء مؤسف، أنت لم تعرفيه بعد يا تيريسا. لقد ابتاع أول بذلة. وبغير فائدة سألتُه كيف حصل على المال: "أنا أعرف كيف ومن أين أحصل عليه"، كان يقول ذلك دائما.

كان يحضر إلى الورشة قليلا فى وقت الظهيرة فقط وفى المنزل خلال أوقات الطعام، وفى يوم كان أخوه متعبا وقال إنه لم يعد يطيقه أكثر من ذلك، سترين الآن كيف يرتعش ويسقط: كان فى منتصف اليوم وقد أقل إحدى الموتوسيكلات ونصفه الأعلى عار، غارقا فى عرقه بفعل حرارة الورشة الشديدة. كان أخوه ينهره ويشتبك معه كما هو معتاد – لا مكان عندى للكسالى – ولكنه لم يسمعه. يفكر فى الأشياء الغريبة التى تحدث فى الورشة مؤخرا (فهناك دراجة ليقوم بإصلاحها ولكن الحقيقة أنها لم يكن بها أى شيء تالف) وكانت هذه هى اللحظة التى يتكشف فيها الحل المنتظر لجميع مشكلاته. رجل أنيق، لطيف، مهذب، يتوكأ على عصا عاجية، ذو شعر أبيض جميل وجذاب، يمسك بابنة أخيه فى يده، طفلة شقراء. لم يفعل أى شيء عند دخوله سوى أنه بدأ يتناقش مع أخيه (فى هدوء، دون أن يرفع صوته، ولكن بثبات وسلطة تلفت الانتباه، سيخبرك إذا سألته) حول الأمر الذى يتعلق بالموتوسيكل الذى تم بيعه دون علمه. لم يستطع الميكانيكى أن يجيبه بشيء، يتملكه الخوف، ويهدده ذلك الرجل باسترداد الأموال التى أخذها منه منذ وقت طويل. لم يمنعه غضبه من أن يُنعِم النظر والتركيز فى ظهر فتى ذى بشرة داكنة كان منهمكا فى عمله فى نهاية الورشة وسأل من هو. أجابه الميكانيكي: "هذا أخي"، وانتهز الفرصة ليغير مسار الحديث: "لقد هرب من القرية ولا توجد أية وسيلة الآن لإعادته إلى هناك مرة أخرى، فكم هو سخيف" بينما كان ينظر هو إليه من بين كتفيه بعين غاضبة – كان ذلك كشفًا للحقيقة – ثم قال فى نفسه: هذا الرجل النبيل لا يمكن أن يكون سوى ذلك السيد الثرى صاحب الموتوسيكل المسروق الذى أخفاه أخوه فى الورشة. ولكن إذا سألته عن تفاصيل أكثر سيقول لك إنه رأى فقط صداقة فى عينيه، شيئًا من التفاهم والرقة والمرونة، ليس أكثر من ذلك لأن العجلة قد سقطت فجأة من يده ولاحظ أنه بحاجة إلى الهواء وأنه سوف يسقط، وربما يقول لك إنه مجرد دوار بسبب شدة حرارة الجو والإرهاق، حيث لم تعد ساقاه تحتملانه واقفًا، ولم يكن يستطيع تجنبه...

سمع صوته وهو يسقط بوجهه على الأرض عندما كان يعتقد أنه يستطيع أن يصل إلى الرجل ويستند إليه، ويحكى أنه كان لديه الوقت قبل أن يفقد الوعي، وشعوره بتلك اليد الحنونة التى تمسح على ظهره والتى قد وجدها فى المدينة، قلت أنا– الطفلة، كم أنا

ساذجة، ولكن لا، كان عمه الذى جثا على الأرض إلى جانبه ليعتنى به. قال السيد: "هذا ضعف، أيها الفتى المسكين" ممسكا به من ذراعيه. فيشير إليه الميكانيكى بإصبعه: "هذا مزاح أنا أعرفه (والآن فَلْتَبذُلى الكثير من التركيز والاهتمام يا آنسة: كيف استطاع أن يسمعهم دون وعي؟).

وإذا بيد بيضاء عطرة تنبعث منها رائحة الكولونيا تضربه كى تعيده لوعيه. وأوضح الميكانيكى أن الفتى لم يكن حتى أخوه، ولكنه أخوه من أبيه فقط، وأنه لم يشعر بأنه مسئول عنه، ولكن السيد تشاجر معه لأنه كان شديد القسوة وبلا ضمير، وأرسله إلى الحانة ليتناول كأسا من النبيذ، وأمر الطفلة أن تخرج لتلعب بالشارع. قال إنه عندما استرد وعيه، دعاه الرجل الطيب ليأكل بمنزله، وألزمه أن يستحم ويغتسل بنوع جيد من الصابون المُصنّع من زيت الزيتون، ومنذ ذلك الوقت أصبح صديقا للطفلة، كان يقضى أياما طويلة فى ذلك الشاليه، وبالتأكيد فإنه بدأ يعرف كل الأشخاص الذين يشكلون العصابة بلا خجل ويظهرون من حين لآخر ومعهم حقائب ممتلئة بالملابس، وأجهزة الراديو، وماكينات للرسم وللحلاقة، ولا أدرى أشياء كثيرة أخرى، ودون معرفة عدد الدراجات البخارية بالتحديد التى كانوا سيتركونها بالورشة والتى كان يحل أجزاءها هو وأخوه فى قطع صغيرة طوال الليل، كانوا يسمحون له بذلك الشيء فى البداية حيث كان شديد الصغر. ولكنه لم يتنازل عن أن يصبح هو صاحب العمل: فبعد أن نجح بمساعدة السيد الثرى ومعاونته له فى أن يجعل أخاه يكف عن تهديده بالطرد من المنزل، بدأ بمرافقة الشباب فى فترات عملهم الليلية بمصانع الأحزمة فقط للمراقبة بينما كانوا هم يعملون: أحدهم من حى السيكو وآخر من حى الجيناردو والثالث يُدعى لويس بولو والذى كان بالسجن: كان فصل الصيف وكانوا يقومون بسرقة العشرات من السيارات. قال إنه بفضل السيد الذى أعاره اهتماما كبيرا منذ اللحظة الأولى (قال ذلك وهو يضحك) واستطاع فى النهاية أن يأمن شر أخيه بل ويجعله مسرورا وراضيا عنه: كان يتكسب قوت يومه ببراعة، فقد ابتاع البذلة الصيفية الثانية ذات اللون الأبيض وبصفى أزرار. ويعترف هو بذلك بل ويتفاخر به عندما يقصه عليّ، يضحك تلك الضحكة المترفة والتى تُميز الرجال عندما يتظاهرون بهزيمة سهلة، عندما يخدعون أحدا ما من خلال آخر: كانوا يفتقرون إلى الحياء والمبالاة

بالآخرين: بعض الشخصيات غير المتعقلة التى ترتبط بتاريخ القاطنين بحى الكرمل والذى كانت تسمع اسمه يتردد كثيرا عندما كان يداعب رأسه المستند إلى بطنها وهى مستلقية على ذلك السرير الغارق فى ضوء القمر، فتتملكها الغيرة والخوف، ذلك الخوف الذى ينتابها دائما بسببه، منذ اليوم الأول، ولكن ليس بسبب هذيانه وأعمال السرقة التى يقوم بها أو الخوف من أن تراه بالسجن حيث لم يكن ذلك الأمر يؤرقها كثيرا ولكن ليس ذلك تحديدا: هناك شيء آخر، يحدثنى قلبى بجريمة أخرى وسيكون ثمنها تعاسته طوال الحياة... يا الله، يا لها من سحابة حالكة السواد، يا له من ليل طويل، ضُمّنى بين ذراعيك يا حبيبى ولا تتركني، فعادة ما تغفو أنت أولا، لكنى أشعر الليلة...

المعاشرة الحارة، يمكن تخيل شهوة الشباب

بودلير

تدهور الأسطورة البطيء أتى معه بمتعة رغم كل شيء، فكانت تيريسا ترى، تستشعر ثم تُصدق. أما بالنسبة له، فبعد مرور أسبوع، كانت الإشارة الوحيدة التى تنم عن المشاجرة هى ندبة صغيرة وردية اللون فى الحاجب. كان يتجول فى الحى ليترصد بعض الأصدقاء كى يتسول فى بؤس شديد ويحصل على عشر أو خمس عشرة بيزيتة كى يستطيع مواصلة الحياة يسيطر عليه شعور دائم بضرورة أن يُفسح لنفسه مكانا فى الكرمل (حتى إنه كان متشككا على الأقل فى قدرة أى شخص على مساعدته التى تنم عنها نظرة خيرنجا الحزينة)، وفى مرة تمكن من اقتراض مائة بيزيتة من وراء ظهر الكاردينال من الفتاة فى ليلة ذهب فيها إلى منزلها كى تُضمد جرح حاجبه. كلفته هذه المرة قُبلة (زعم أنها أخوية) والوعد الرسمى بأن يأخذها للتجول بدراجة بخارية فى اليوم التالي. خرج ومعه حافظة النقود فى جيبه وذهب إلى حانة ديليثياس ونظم طاولة للقمار على عشرين بيزيتة للمراهنة. ظل يلعب حتى الثانية والنصف فجرا فى مراهنة خلف الأبواب المغلقة، وحالفه الحظ: فتحولت المائة بيزيتة إلى أربعمائة. وفى صباح اليوم التالى أعطى زوجة أخيه مائة بيزيتة. كان شديد الحرص وهو يفعل ذلك لأن أخاه كان موجودا؛ واشترى بما تبقى قميصًا أبيض اللون وزجاجة عطر ثم ذهب ليغتسل فى الحمامات العامة بميدان ترافيسيرا. وفى ظهر ذلك اليوم، عندما ذهب إلى حانة فيا أوجوستا الصغيرة الخالية حيث كانت تنتظره الفتاة الجامعية (لم يتقابلا فى المستشفى منذ أوائل شهر سبتمبر ولم ير ماروخا لمدة ثلاثة أيام) أحاطت تيريسا رقبته بذراعيها قائلة:

– اليوم تبدو أنيقا للغاية. نحن مدعوان على العشاء فى منزل بعض الأصدقاء.

– نحن؟

– بالطبع. فالأمر متعلق بعملك. أليس ذلك شيئا مفرحا لك؟ ثم تقول فيما بعد إننى لا أنشغل بأمورك.

– لم أقل ذلك قط يا تيرى – احتج هو – هل تحدثت إلى والدك؟

– حتى الآن لا، هو بالفيلا. ما فعلته هو أننى قمت بجس النبض: فتحدثت مع ألبرتو بورى صباح اليوم، كان يدرس معى بالجامعة. يعمل الآن بمجال الإعلانات والدعاية وتسويق الكتب، لا أدرى تحديدا، ولكنه على علاقة بالمكتبة الإدارية وإدارة الشركات، تلك هى واحدة من مخادعات أبي...

– مخادعات؟

– حسنا، خدعة، أنت تعلم، فوالدى مُشترك بأعمال الإصدارات التجارية وهكذا... لا أعلم جيدا، لا يهمني.

– إذن فلست على حق. يجب أن تهتمى فهذا والدك.

– حسنا، كل ما هنالك هو أن ألبيرنو على دراية أكثر مني، أينما يذهب والدى سيخبرنا هو. إلى جانب أن ألبرتو وزوجه من أقرب أصدقائي. اسمعنى جيدا، سترى ما سنقوم به... فى تمام التاسعة سآخذك من سينما روكسى ونذهب إلى الحانة، لا تتأخر. ارتدِ رباط عنق فربما نخرج لنتناول شيئا هناك... ماذا عن المال؟

قال شاردًا:

– الحقيقة ليس معى سوى ما يكفى لتناول بعض الأكواب.

– سأعطيك شيئا... انتبه، لا تأخذه بمحمل الكرامة لأن ذلك يضايقنى كثيرا. فهذه سلفة...(احتمت بذراعيه وهى تبتسم، وتلمس بأصابعها خصلات شعره. من جديد كانت قد تمكنت من تحقيق التوازن الحميمى المنشود بين المثالية والرغبة)، آه، لمَ لا تذهب بسروالك الأزرق الجينز و...؟

– ولا كلمة، فما زلت أستطيع أن أُقدم نفسى أمام أصدقائك بالأسلوب الذى يتناسب معهم.

وضحكت تيريسا ضحكة سعيدة.

– تبدو لى وكأنك برجوازى – وفى نبرة صوت أخرى أضافت: عِدْنى أن تكون ظريفا مع مارى كارمن، فهذا أمر مهم.

– من هى مارى كارمن؟

– زوج ألبرتو.

– وإذا اشتريت لها باقة ورد؟

خفت ضحكة رقيقة أخرى. أخذت تلمس بإصبعها الندبة التى بحاجبه، وألقت بخصلة سوداء من شعره إلى الخلف. وقالت:

– أنت مُذهل، كم أحبك. لا يا حياتى لست بحاجة لأن تفعل شيئا. فقط كن كما أنت فى بساطة شديدة. فهما يرغبان فى أن يتعرفا عليك، سنستمتع كثيرا، سترى. ويمكننا أن نخرج معهما فأعتقد أننى لم أر أيا منهما منذ قرون وقرون. ألم يحدث لك هذا؟ أحيانا أشعر...، لا أعرف، أننى أعيش بمدينة أخرى، غير معروفة، أنا وأنت فقط.

هَمْهمَ ناظرا إليها:

– وعندما ينتهى الصيف؟

– لا شيء، أنا إلى الجامعة وأنت إلى العمل، وسأنتظرك فى موعد انتهاء العمل، نسير تحت المطر...

كان بورى وزوجه بانتظارهما فى تمام التاسعة والنصف. واستقبلاهما بحرارة وفرحة غامرة وإعجاب شديد وكأنهما عائدان من سفرة طويلة: بريق من الفضول المتعلق بالزواج والتواطؤ فى الجريمة أيضا (بسرعة نشأت بين تيريسا ومارى كارمن قُبلات

ثم همسات وحديث جانبي، فذلك الحديث معتاد بين السيدات حديثات الزواج)، ولكن بلا أي سؤال مباشر عن علاقتهما وكيف تسير؛ كانا يريدان أن يعرفا فقط كيف عرف كل منهما الآخر (مانولو لاحظ، دون أي استثناء، أن أكثر ما يحتل بؤرة اهتمام جميع أصدقاء تيريسا هو: كيف تعارفا، وأين، وأي صدفة قد جمعتهما) فبينما كان يتحدث مع ألبرتو بوري، خرجت بعض الكلمات من ماري كارمن إلى تيريسا في صوت منخفض ("تبدو السعادة وكأنها مُرتسمة على جبهتك يا تيريسا. هل عائلتك تعلم أنك تخرجين معه؟" دون إجابة) جعلوها تفكر أن الليلة يمكن أن تبدو مليئة بفضولهم كعادة ماري القديمة. ولكن لم يكن الأمر هكذا. وما كان عجيبا هو إيقاع التباعد الذي لا يهدأ والذي منحه خياله لتلك الليلة، فإن وجود عشاء متواضع ومترف في الوقت نفسه (سلطة، نوع من اللحم، جبن فرنسي، نبيذ أحمر قاتم في أكواب صغيرة ذات ماركة معروفة من الخزف، وطاولة مطلية بالمينا) جعله يفتقد هذا الوهم المُسبق عن الترف والاحترام الذي ربطه بعالم تيريسا. أوحت إليه صورة حديثة للزوجين بوري، مُتكئين بذراعيهما إلى جانب مركب (صورة جانبية، الوجهان لأعلى ناحية السماء، ينظران بعيون تزدردهما عاطفة ما إلى طائر المستحيل، ويسحقهما إعصار من الغرور والزهو وإلهامات فنية تائهة وشاردة).

كان الزوجان يعيشان في الحي الإغريقي بالقرب من الكاتدرائية (تظهر عقارب الساعة لامعة في وسط الليل، يُطل من النافذة وكأنها خيال مُزخرف) بالطابق الأخير. بيت مُريح ومُترف ولكنه غير مُرتب بشكل ما: في أحد الأركان، خزف ونقوش في غير توافق، ألوان مختلفة من الآداب والفنون، لوحات غير أصلية لبيكاسو وغيره من التشكيليين (كانت تتقدم مائدة الطعام لوحة "جيرنيكا" الشهيرة) صور محفورة ونقوشات لمدرسة الواقعية الإسبانية جيل الطليعة، وفي جانب آخر كانت هناك مجموعة هائلة من الإعلانات والمنشورات والكتيبات الإعلانية الخاصة بأنظمة البيع والشراء والتحكم الإداري، كتب في الاستشارات (مُجلد خاص بالتسويق: "٤٠ نموذجا عمليا؛ وآخر على الأريكة بجانب ركبة تيريسا البرونزية اللون بفعل أشعة الشمس: صغار رجال الأعمال التنفيذيين"). قالت ماري كارمن- "لا تعيرا أي اهتمام لما يحدث حولكما. فألبرتو لا يُطاق، عندما عدنا من كاداكيس منذ ثلاثة أيام كان قد تحول كل ذلك إلى مكتب في نصف الساعة فقط". لم

يكن لديهما أطفال، كلاهما ينحدر من أسر عريقة ولكنهما يستقلان فى سعادة فى منزلهما هذا. عاشا فترة فى باريس حيث كانا يعملان هناك. كان ألبرتو شابا نحيفا، بالغ الطول، جذابا، ذا عبارة سريعة وخفة روح شديدة، يرتدى نظارة. يتبنى أفكارا يسارية ودائما ما يلحق به ضرر بسبب كلماته وآرائه الجريئة، اتجه دون أى رغبة إلى مجال الدعاية والإعلانات الصحفية. كانت مارى كارمن تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، تزوجت عن حب شديد قبل أن تنتهى من دراستها الجامعية بكلية الآداب، وعدما أنهتها، وفى الوقت الذى تتزوج فيه كل الفتيات اللاتى من نفس الطبقة الاجتماعية، اكتشفت أنها ليس بإمكانها أن تتزوج لأنها متزوجة بالفعل. لم تكن تعرف ماذا تفعل، قررت أخيرا أن تبحث عن وظيفة بين معارف وأصدقاء زوجها، وعملت فى قسم الترجمة بإحدى دور النشر. كانت امرأة صغيرة ورقيقة، شاحبة اللون، ذات نظرة موحية وشعر قصير وكأنها فتى، دون ماكياج، لها هيئة باريسية. كانت ترتدى قميصاً خفيفا أسود اللون، وله ياقة طويلة، ويوحى صدرها الشحيح البروز بل والغائر وكذا كتفاها المضمومتان بضجر أنيق.

هذان العالمان المختلفان، تلك الصورة المزدوجة فى بيت الزوجين (لوحة "جرنيكا" والتسويق) سرعان ما تجلت فى كلمات: قالت مارى لتيريسا:

– شيء مؤسف أن مانولو لا يجيد لغة أجنبية، كنت سأجد له عملًا فى قسم الترجمة.

وأكد ألبرتو وهو يسحق قطعة جبن ماركة "كاممبرت" فى قطعة خبز بالسكين:

– حسنا، فيما يختص بالعمل بائعًا متجولًا فليست فكرة سيئة. سيكون جيدا جدا كنقطة بداية.

وهمست تيريسا:

– سيكون من الأفضل العمل فى قسم الإدارة، أليس كذلك؟ أنا متأكدة من أنه يمكنه أن يبدأ بمرتب أساسى يتراوح ما بين سبعة أو ثمانية آلاف شهريا. سوف أجس نبض الأمر مع أبي...

قال لها ألبرتو:

– هذا يتوقف على ما يمكنه أن يفعل؛ فالآن أعتقد أنه يمكنه أن يقوم بوظيفة السمسار حيث يبدو إلى ذلك أسهل شيء الآن.

أجابت تيريسا:

– يمكن أن تكونى على حق.

همست لها مارى كارمن ضاحكة:

– أتعتقدين؟. هل ترينه قليل الشأن، أيمكننا القول إنه لا يهمك بأى حال من الأحوال. ليست الفكرة هى أنه بحاجة للعمل، على الأقل فيما هو فيه الآن، ولكنه لا يفعل شيئا سوى أنه يتحدث فى ذلك. آه لو علمت ما لديه من روح الفكاهة!

نظرت إليها صديقتها بضحكة غامضة وصوت الموسيقى يدوى فى أسماعهم (موسيقى ألبينونى فى الراديو طوال العشاء). كان مانولو يتحدث قليلا ويلاحظ ألبرتو الذى قال "بالطبع لابد أن يكون لديك مظهر حسن فهذا شيء ضرورى لمهمة بيع الكتب، أو فلنقل لبيع أى شيء، ولكن ليس هو الأساس... فشعرك طويل بعض الشيء، ربما. أليس كذلك يا ماري؟" وأجابت وهى تنظر لمانولو "إنه مناسب هكذا. لا تهتم به يا فتى فألبرتو شخص حسود" "أنا أتحدث بجدية يا ماري" "وأنا أيضا، أنت لا تفهم فى أمور الرجال" ثم غيرت نظرتها مع تيريسا إلى نظرة سريعة وخبيثة ثم ضحكت كلتاهما. "ربما لا يتفق معى ألبرتو، ولكن على العكس أنا أعرف عقلية بائعى الكتب. ليس لديّ اعتراض على ذلك الشعر ولكنه لن يساعده فى عمله" "أنت الأكثر اهتماما يا تيريسا، ما رأيك؟" سألتها مارى وضحكت تيريسا وهى تحتسى ما تبقى فى كوبها من النبيذ: إذا كانت لديكما الرغبة فى أن أتحدث عن شعره فسوف أقتلكما"، وقال مانولو فى نفسه وكان مستعدا لاستقبال أى استهزاء حتى يستطيع الحصول على الوظيفة: أأنت أيضا جميلة يا تيريسا فى سخريتك وهرائك؟

تحدثوا عن الأصدقاء الذين يقضون العطلة الصيفية والذين بدءوا فى العودة، عن باريس، وعن مهنة الدعاية والإعلان وعن بعض شعائرهم الدينية الغريبة. قال ألبرتو ناظرا

إلى مانولو: هكذا تسير الأمور فى هذا البلد، الشيء الذى له شأن ومستقبل هو مهنة الإعلانات والدعاية. إنها شيء أثيم، واحدة من اللاأخلاقيات الخرافية السائدة فى هذا العصر، فأنا أقضى طوال اليوم مع أشخاص سفهاء. ولكن، هل ترى؟ ذلك شيء مدفوع ثمنه يا مانولو، ولا تعتقد أنه يحتاج لجهد خاص، فإنه عمل يستطيع القيام به أى شخص، أنت نفسك. تخيل أن..." وكان سيعرض واحدة من أفكاره المهنية، ولكن كان يبدو أنه يمزح (مانولو لم ينته بعد من فهم روحه الفكاهية): نظام متفرد من المُلصقات الإعلانية فى الشوارع ليلا، فى اتجاه السيارات من خلال اتصال أوتوماتيكي، شيء رائع (وكأنها قصور أو مناطيد تهبط فجأة فى وسط الحقل) ويظهر أيضا فى صحون المطاعم، أسقف الغرف، فى المراحيض العامة، فى مؤخرة العاهرات، إلخ. "فهى أفكار قليلا ما تعصف بالعقول"، ثم أنهى قائلا: "إن الشيء السيئ هو أننا لم نستعد حتى الآن لمواجهة الشركات الأوروبية". كانت الفتاتان تضحكان. اجتهد مانولو كثيرا دون جدوى حتى يريه الوجه الحسن: كانت تبدو له أفكارا حسنة. وكان يريد أيضا أن يعود إلى موضوع عمله.

ولكن جوا من الغموض أحاط ببورى وزوجته، ابتهاجًا من الهروب والمراوغة المشوب بالسأم كان يُصر على تحول تلك الليلة إلى هراء. قررت كارمن أن تتحدث بدلا من أن تقوم بفعل أى شيء. تناولوا كثيرا من النبيذ، وبعد العشاء، فى سيارتين (كان لديهما سيارة سيات) ذهبوا إلى بار باجاتيلا فى دياجونال. وهناك وضعت تيريسا ثلاثة آلاف بيزيتا فى جيب مانولو عندما كانت تقبله، ثم اقترحت أن يذهبوا جميعهم إلى حانة تيبيت وأوضحت: "التى اكتشفها مانولو". وعند عبور الأحياء التى توجد على ربى عالية رأوا الشوارع المُزخرفة والمضيئة، مُزدحمة بالمُتجولين والراقصين على نغمات فرق الأوركسترا الصاخبة. أوضح مانولو "شيء يشبه أيام العيد الكبير".

وقد توقفت تيريسا بالسيارة حيث إنها كانت تسير أمام بورى وزوجته، ثم اقترحت التجول على الأقدام فى الشوارع الأكثر احتفالا وصخبا وازدحاما. وفى ميدان سانيلهى كانت توجد مظلة كبيرة يعرض تحتها العديد من الرقصات والاستعراضات المختلفة. اشتروا قبعات من الورق وآيس كريم، رقصوا وجابوا العديد من الشوارع والميادين. جلسوا فى النهاية فى حانة صغيرة وطلبوا نبيذا. كان الشارع يُدعى لاوريل ولم يكن طويلا

ولكنه ممتلئ بالأشجار وأسقف من الورق الصغير المُلون والزينة، مصابيح مُلونة فى المنتصف، بالقرب من حائط دير للراهبات، كان يوجد مسرح الفرقة الموسيقية وعلى الباب يجلس الجيران على الكراسى أمام منازلهم لمشاهدة تلك الاستعراضات والناس المزدحمة فى حركة ذهاب وإياب. وفى غير جدوى كان مانولو ينتظر مناقشة أمر وظيفته. استمتعت تيريسا كثيرا ولكن مارى كارمن (التى كانت تبدو نشيطة وحيوية فى البداية، حتى إنها رقصت مع فتى صغير كان قد دعاها لترقص معه فى تخوف) ولكن بمرور الوقت كان يسيطر عليها اليأس والإحباط شيئا فشيئا ودون سبب واضح. وفى لحظة ما، عندما اقترب منهما مانولو من الخلف (عاد ليُرِى تيريسا مكان المرحاض بالحانة)، ولاحظ هو نظرة مارى كارمن الغاضبة لزوجها وسمعها تقول له: "أبإمكانك أن تُقدم تلك الخدمة؟ نعرفك يا ألبرتو. دائما ما تعيش فى الخيال والوهم، دون مبالاة أو اهتمام بالآخرين، ألا تفكر فى أن تفعل شيئا لهذا الفتى..." بعد ذلك، عندما أسندت تيريسا رأسها إلى كتفه، جالسين على الطاولة، لاحظ بورى وزوجته عندما كانا يرقصان؛ كانت مارى تُعطيه ظهرها، وزوجها يرقص مُغمضا عينيه، كانا يتحركان بالكاد، مُتعانقين بشدة، وبدا وكأنهما فى حالة من الشهوة، ولكنهما التفتا ببطء شديد وعندئذ كان ألبرتو هو الذى يستدبرهما: وكانت هى بنظرة جامدة، فى فراغ مُطلق ومُخيف، عين مُتجمدة لسيدة لا تعير زوجها الذى يعانقها ولا الرقص ولا أى شيء أى اهتمام، بعينى طائر مُحنط أو تمثال أطلتا من بين كتفى ألبرتو بوري.

قال مانولو لتيريسا:

– أتعرفين. يحب كل منهما الآخر كثيرا أليس كذلك؟

هزت تيريسا كتفيها فى إشارة إلى أنها لا تعلم ذلك جيدا.

– بلى، هو يحبها، فإنه لا يستطيع العيش بدونها. ولكن هي... انظر، إنها تبدو يائسة بعض الشيء. فهمت؟

– لا

– خلال فترة الجامعة كانت لألبرتو موهبة عظيمة وينتظر منه الكثير.

– ولكنه يكسب عيشه جيدا. أليس كذلك؟

أغمضت تيريسا عينيها الحالمة وهى تستند برأسها إلى كتفه:

– ليس الأمر هكذا يا حبيبي؛ فالأمر لا يتعلق بأنه يعرف كيف يكسب قوته أم لا. فألبرتو إنسان على درجة كبيرة من الفكر والثقافة...

– هل تخونه...؟

– آه، لا أعلم يا حبيبي، لا تجعلنى أتحدث. – ثم ضحكت – أفضل أن أقبلك.

عندما توقفت فرقة الأوركسترا عن العزف، دخل بورى وزوجته إلى الحانة وكلاهما ينظر إلى الآخر. عند الخروج من الحانة حدث شيء غير مُتوقع، فقد ودعا الآخرِيْن. قال ألبرتو بوري: "سنذهب، فقد تأخر الوقت كثيرا". ومن جانبه كانت مارى كارمن تُعانقه من ظهره بكتفيها كما لو أنها تعانى من برودة الجو وفى الوقت نفسه كانت تنظر إلى فرقة الأوركسترا وإلى الشباب والفتيات الذين كانوا يرقصون، ولكنهم لم يكونوا كثيرين، لا يحركون ساكنا، فى حالة سُبات عميق. وتهتز الأكتاف وترتجف فى رعشة ناقلة شيئا مُثيرا للضحك والعبث والسأم الذى يتضح الآن – هذا الإصرار على الاستمرار فى العناق، تلك الموسيقى التى كان يَقلّ إيقاعها شيئا فشيئا، ويأسها الذى لم تعد تحتمله وقلما يهجرها: حركة يد مُتثاقلة وتحية باردة دون رغبة عند توجهها للسيارة، دون النظر إلى أحد، ودون إحلال ذراعيها، وكتفاها مضمومتان لتتفادى الشباب والفتيات وكأنها تقى صدرها من تهديد أو عدوى ما. وقفت تيريسا وتتبعتها. شد ألبرتو على يد مانولو الذى نظر فى عينيه مُحاولا أن يعطيه إحساسا صريحا بالأمان:

– حسنا، أخبرنى عما يجب... فالحق أننى بحاجة إلى تلك الوظيفة، لا تنسَ، فأنا أمُرُّ بظروف صعبة.

– كلا، كلا، يا رجل، سأتصل بك... أو أفضل أن أتصل بتيريسا

ولسبب ما لم يستطع ألبرتو أن يحتمل نظرة المُرسى الصريحة وقال:

- إلى اللقاء.

وعند خروجه عانق تيريسا وقال:

- الوداع يا تيريسا، استمتعا بوقتكما.

جلست تيريسا إلى جانب مانولو وقبلته فى خده.

- وفيما يتعلق بمارى كارمن، التمس لها العذر لأنها ذهبت على الطريقة الفرنسية... هل اتفقت على شيء مع ألبرتو؟

- سوف يتصل. ولكننى لا أثق كثيرا. أتريدين أن أُخبرك بشيء؟ أنا أثق فقط بالأشخاص الجادين... كوالدك مثلا.

- لا تعتقد خطأ فى مارى كارمن، فكثيرا ما ينتابها إحساس اليأس، فكل مرة نخرج فيها تنتهى بهذا الشكل ولكنها طيبة للغاية. وألبرتو أيضا، سترى...

- هو ملعون. لقد شعرت بذلك فى تعبيرات وجهه.

أسندت تيريسا خدها إلى صدره:

- لا تقل ذلك يا حبيبي. كنت أعتقد أنك قد تخلصت من انحراف مزاجك؟.

قال مُبتسما:

- من انحرف مزاجه هنا؟ - ثم قبّل أُذنيها -: هيا، فلنذهب إلى المنزل، أتُريدين؛ أشعر بتعب شديد.

- كلا، كلا، فنحن نستمتع هنا كثيرا، كما أننى اليوم مُستعدة للسهر طوال الليل، أخبرت بيثنتا أننى ربما أنام الليلة بمنزل بورى وزوجته.

نظرت إليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين الواثقتين، ثم سكنت بين ذراعيه. بدأت برودة الجو تتزايد. حرّكت بعض دفقات النسيم المُفاجئة أوراق الشجر والسقف المُزين

بالأوراق الملونة. وهمست هى "أشعر بالبرد يا حبيبى - وكأنها فى عالم من الأحلام - لا ترحل..." . أخفى مانولو وجهه فى قفا الفتاة وفجأة شعر بأن الجو سيُمطر، وحدثه قلبه بشيء من الظلمة أن الصيف (تلك الجزيرة المُزخرفة التى كانت تستضيفهم) قد أوشك على الانتهاء وربما معه تيريسا. بينما كانت تستمر حولهما احتفالات العيد التى تُقام فى الشارع. وبعد مُضى نصف الساعة، رافقته تيريسا إلى الكرمل. توقفت بالسيارة فى أعلى نقطة من الشارع. وودعها مانولو بقُبلة. ثم قالت "من فضلك لا تذهب الآن..." ولكنه كان عليه أن يقوم بشيء ما. حتى إنه انصرف دون أن ينتظر أن تقوم بتشغيل الموتور. عندما انعطف عند ناصية الشارع وبالقرب من منزله، وجد أحد معارفه: "رامون، أتذهب إلى حانة ديليثياس؟" "نعم" "هل توجد مباراة الليلة؟" "لا أعرف... ولكننى ذاهب الآن إلى هناك" "سألحق بكم فى الحال، حالما أغيّر ملابسي". لم يكن أخوه بالمنزل. وزوجة أخيه والأطفال نائمون معا، وأقدامهم عارية. استبدل ملابسه فى الظلام، دون أن يُحدث إزعاجا، ثم أخرج بنطلونه وأخذ يرتدى الحذاء. خرج مُتعجلا، مُطأطئ الرأس وعندما وصل إلى الشارع كاد يسقط فوق السيارة المتوقفة هناك.

- لكن، ماذا تفعلين هنا الآن؟

كانت تيريسا تنظر إليه فى إمعان وثبات واضعة يدها على عجلة القيادة.

- كنت أنتظرك. كنت تعتقد أنك خدعتني، أليس كذلك؟

- ساذجة...

- إلى أين تذهب؟

- كى أتجول قليلا. لا أستطيع النوم... وأنت تعطين لذلك الشيء أهمية، اذهبي، فقد تأخر الوقت كثيرا... ولو علم والداك بذلك...

ضحكت فى حزن عميق. وكانت عيناها تلتمعان فى الظلام. "هل تشعرين بالخوف؟" "لم أفكر فى ذلك من ناحيتك قط" "وكيف تريدين أن أصدقك؟" . صعد مانولو إلى السيارة وعانقها بحنان شديد "تيريسا..." وهو يُخفى وجهه بين خصلات شعرها العطرة، ويشعر بذوبانه وتفتته.

– حسنا، يا سيدتي، حسنا، سأظل معك. أنا هنا، لا تبكي... كنت ذاهبا إلى الحانة فقط، هل تريدين أن تعرفى ما السبب؟ حسن، كى ألعب قليلا، فلديّ حظ فى لعب الورق وأحتاج إلى المال... لقد عرفتِ الآن.

قالت تيريسا وهى تلف ذراعيها حول رقبته:

– هل ذلك حقيقي؟ ألا تخدعني؟

لمس كتفها العارى بفمه. وجلس ضعيفا ومُتعبا.

– لهذا السبب كنت ذاهبا، صدقيني. ماذا يمكننى أن أفعل غير ذلك بينما أنتظر؟ فليس بإمكانك تحمل مشاكلي...

– سيكون كل شيء على ما يُرام، يا مانولو، لا تفكر كثيرا فى هذا الأمر. ابقَ إلى جانبي، من فضلك. آه، نعم ، من فضلك!

استلقت بجسدها على المقعد. أثارته رائحة بشرتها وبريق عينيها المحموم. وأخذ يُقبلها كثيرا. واختلط مذاق دموعها اللاذع بنعومة شفتيها. ثم همست "هنا أشعر بالبرد". وكان الوقت آنذاك بعد الثانية صباحًا.

– نعم، هيا بنا.

فى خضوع واستسلام لما يُخبئه لهما الظلام، أطالا فى رغباتهما بقدر ما استطاعا، فى نفس الشارع، فى شارع الاحتفالات التى حضراها من قبل، عادا ليشغلا نفس الطاولة الرخامية، تحت الأشجار الكثيفة الأوراق عينها؛ يرقصان ببطء، ينظر كل منهما بعينى الأخر، لا يشعران بأى شيء من حولهما – حتى نغمات الموسيقى التى كانت تنشزُ أكثر وأكثر فى كل مرة. وفجأة سقطت نحو أربعة قطرات من الماء، وابل خفيف من المطر استمر دقائق، احتمى الناس فى مداخل البيوت وهم يضحكون ثم هدأ كل شيء وعاد لما كان عليه من قبل. اشتركا مع باقى الشباب والفتيات فى نهاية الاحتفالات، وأخذا يتراشقان بأوراق الزينة، تعانقا، ورقصا الفاروليو والفالس الخاص بالوداع فى نهاية الاحتفالات وكانا آخر من انصرف.

بدأ الناس يصطفون ودخل الجيران منازلهم، وأغمد الموسيقيون الآلات؛ والشباب والفتيات المحتفلون بعد أن قدموا بأكتافهم تحياتهم لرئيسهم، كما جرت العادة والتقاليد، قاموا بتجميع الكراسى المطوية بجانب المسرح، وغطوا البيانو وأطفئوا الأنوار. ثم أغلقوا الحانة الصغيرة، وابتعدا ببطء باتجاه أسفل الشارع يمسك كل منهما بخصر الآخر، وسط غابة من أوراق الزينة المُتعددة الألوان والمُعلقة فى السقف الورقى الذى يهتز بفعل نسمات الهواء، أثناء سيرهما على سجادة أوراق الزينة الناعمة. وقد عاد إلى الشارع ضوؤه الكئيب المعتاد، الأصفر، المُتسخ المُنبعث من مصابيح الجاز، ولكنه مازال يُشع حُلما بهيا براقا وصبيانيا، شيئا من تلك المادة الحنون البهيمية التى اعتادتها هذه الليلة سويعات، إيعازا بعدم الاستسلام للزوال أو الفناء بسبب فصل الخريف؛ مادة يحملها الآن معهما آخر المتبقين فى السير ليلا ينظرون إليهما بشغف فيما يبتعدان فى بطء وتؤدة ويلمسان بأقدامهما فى تثاقل الزبد الأبيض فى اتجاه السيارة الواقفة عند الناصية. ولكن قبل الوصول إلى عجلة القيادة، رياح الخريف الأولى جعلتهما يغمضان أعينهما وتجلت بين أقدامهما الأجنحة البيضاء لأوراق الاحتفالات وانتشرت من حولهما، وحجبتهما بالكامل، وجعلتهما يضلان الطريق.

كان فجر يوم الثانى عشر من سبتمبر، وكانت هى تتذكر اليوم الأخير للاحتفالات ومشهد الزهور المتناثرة فى كل مكان والقُبلات التى تركوها خلفهم حيث تركوا كل شيء حزينا وكئيبا. مازالت أوراق الزينة تترك أثرا بين خصلات شعرهم وأوراق الزينة الملونة اللامعة والمحفورة بعيونهما فور وصولهم حديقة منزل تيريسا أمام السور الحديدي. انطفأت النجوم المتلألئة فى السماء، وصفاء وردى اللون امتد فى نهاية ميدان فيا أوجوستا. تغطى بعض السحب المتكاثفة ذات اللون الرمادى سماء حى التيبيدابو.

قال مانولو "ستمطر غدا". نظر كلاهما بعين الآخر. خُيل له أن أصابع القدر كانت على وشك أن تلمس جبهته. اجتازا سور الحديقة وتوغلا بالداخل. فتحت تيريسا الباب، وقالت بصوت منخفض "بيثنتا نائمة". صعدا فى الظلام وكلاهما يمسك بيد الآخر حتى وصلا إلى الصالون. أضاءت تيريسا الحجرة. ثم دق جرس تليفون البهو. هرعت تيريسا لترد خوفا من أن تستيقظ بيثنتا. كان التليفون على طاولة صغيرة بين أصيص زرع أوراقه

مطلية بالمينا ودرابزين السلم. وأجابت "آلو...؟"، ورد صوت نسائى هامسا "أهذى أنت يا تيريسا؟ هل أيقظتك؟ مَعذرة" ثم أجابت تيريسا بعد أن تعرفت على صوت مارى كارمن "كلا، كلا. كنت أقرأ..."، وعم الصمت قليلا "أجل، لقد أيقظتك، معذرة" ولكن لم يبدُ فى الصوت أى من علامات الاعتذار مطلقا، بل على العكس، كان يشوبه شيء من الارتياح الهادئ. "ليس وقتا مناسبا للاتصال، ولكن كما تعرفين، فمن هواياتى مضايقة الصديقات ليلا". وساد الصمت من جديد، همسات، ضحكات بعيدة، هذيان. ثم سمعت تيريسا للحظة وجيزة صوت أنفاس مارى كارمن المتلهفة والمشتاقة. "أين أنت يا ماري؟" "أين ممكن أن أكون برأيك؟ فى المنزل، فى الفراش". "ولكن أحقا أننا لم نوقظك؟" "لا يا سيدتي، فلتهدئي..". "لم يُرد ألبرتو أن يتصل بك..." وفجأة أطلقت ضحكة غاضبة، كما لو كان أحد ما يُدغدغها، ثم ابتعد صوتها قليلا، واستطاعت تيريسا تمييز صوت خفيف لفراش السرير وبعض التحركات. نظرت لمانولو الذى كان ينتظرها على الباب، وأشارت له كى يقترب. قالت عندما وصل إليها "يا لهما من زوجين مخبولين!"، وبينما كانت تضع يدها على سماعة التليفون قالت له أن يقترب منها ليسمعا معا ما يحدث محاولة أن تكتم ضحكاتها. كان البهو غارقا فى ظلام دامس. كان صوت مارى كارمن يصل إليهما كما لو كان صادرا من بئر: "اسمعي...؟ معذرة يا فتاة؛ أولا: هل تذكرت أن تطلبى من مانولو أن يلتمس لى العذر عندما انصرفت بهذه الطريقة؟" "نعم. نعم" "حسنا، شيء آخر: هل مانولو لديه تليفون؟" "لا". "لا يهم..." وأضافت ضاحكة "أبإمكانك أن تهدأ أيها السخيف؟" ثم توجهت إلى تيريسا قائلة: "هذا ألبرتو الذى يقضى طوال وقته هراء وعبثا. فقد قلنا أربعة أشياء مسلية، أتعرفين؟، فلديّ أخبار جيدة، وأنا فرحة للغاية لأننى لم أقاوم الرغبة فى الاتصال بك. أخبرى مانولو أن يتصل بى بعد غد دون إحراج أو خجل. فلقد أيقظت أشخاصا كثيرين وأعتقد أنهم مازالوا يسبّوننى حتى الآن، ولكن يمكن أن يبدأ حبيبك العمل الشهر القادم. من المؤكد أنك تعرفين أننى أقوم بتنفيذ الأشياء على أكمل وجه". صاحت تيريسا وهى تنظـر لمانولو "أنـت رائـعة وفاتنـة كالسـماء يا ماري" "الذى كنت أريده: فى قسم المبيعات. رائع. أليس كذلك؟" "ولكن عليه أن يتـحرك، يـبدأ فـى بعـض الـدورات الخاصة بالمراسلات، يبدأ بأى شيء حيث لديه وقت قليل كـى يطّلع علـى كل شـيء" "نعم،

صحيح، سنقدم له جميعا يد العون..." "يعتقد ألبرتو أنه سيبدأ العمل براتب أساسى يتراوح ما بين الخمسة أو ستة آلاف..." كانت تيريسا تشعر بصوت أنفاسه بالقرب من رقبتها. صمت على الجانب الآخر من التليفون، وهمسات، وضحكات، وانزلاقات مميتة وغرامية؛ بينما كان مانولو يمسح بيده على بطنها ويضغط ضلوعها مُلزما إياها أن تتراجع إلى الخلف فى بطء. شعرت تيريسا براحة فاحشة وبذيئة، بينما تستثيرها على الجانب الآخر من التليفون رقة العلاقة الزوجية ولكن مع بعض القلق البعيد: ما هذا الحماس المفاجئ لمانولو من جانب ماري. وصوتها الذى يمرح على السرير. "أأنت هنا يا حبيبتي؟" "معذرة، فإنه ذلك البذيء لا يتركنى أتحدث..." وهى أيضا تضحك، رفعت تيريسا مرفقها فوق رأس مانولو، أبعدت السلك الذى كان يُسبب لهما ضيقا، والتفتت خاضعة ليده التى كانت تُداعبها ثم استلقت بظهرها إلى الحائط. كانت أوراق الزرع الكثيفة الخضراء اللون يفوح منها الشذا بقوة فى الظلام. لم تكن تستطيع التحرك وتركت فمه يلامس شفتيها، سمعت صوت تمزيق جونلة الفستان التى كانت ترتديه، وأخذ هو يتحرك ناحيتها حتى لامس جسدها بجسده – كى يستطيع سماع ما تقوله مارى كارمن، فيما يبدو: سمعاها الآن تقول بصوت مناقش – "وفى نهاية الأمر يا تيريسا...(كان يُسمع أيضا صوت ألبرتو وهو يُتمتم بالكلام) لا تنسى أن تخبريه أن يتصل بى هنا أو فى مكتب ألبرتو. إلى اللقاء يا عزيزتي، أتمنى لك السعادة. وإياك والتصرفات الجنونية. يقول لى ألبرتو أن أخبرك أن الحب يمنحك حالة من الروحانيات الإلهية... سأتصل بك فى يوم ما لنتحدث قليلا، أنا وأنت فقط. إلى اللقاء". ثم قالت تيريسا هامسة "الحقيقة أنكما زوجان من المجانين الفاتنين" "أشكرك. وإلى اللقاء" "طابت ليلتك يا عزيزتي". غيرت تيريسا سماعة التليفون بيدها من فوق رأسها دون أن تتحرك حيث كان السلك عالقا بين ظهرها والحائط، مستعينة بمنضدة الفراش. بينما كانت تقوم بتلك المهمة امتدت بجسدها واقتربت أكثر من مانولو. أمسكت بالسماعة ولكن تعقد السلك بذراع مانولو ثم حاولا فكه بينما كانا يضحكان. وهمست تيريسا فى محاولة منها لأن تُخفى سعادتها بصعوبة:

– أسمعت ما قالته؟ أسمعت جيدا؟ لقد حصلنا على الوظيفة! لم يلحظا لهاثهما منذ وقت قليل. أخذ مانولو يلامس خصلات شعرها بشفتيه. دون رغبة فى الحديث. ففى غير

شك انتهى الحظ من مخالفته: حيث إن ما كان يراه بعيدا عن تلك الخصلات الحريرية، بعيدا عن كتفى الفتاة العاريتين العطرتين، فى ظلمات البهو الحالكة، لم تعد مجرد صورة مصقولة ومحفورة فى الذاكرة منذ فترة الطفولة، بل صورة لرجل شاب وقادر يدخل فى مكتب حديث الإنشاء وبيده حافظة نقود وبثقة تمنحه القدرة على حمل حافظة نقود (فكان يتذكر شرطا فى الجريدة: شابٌ عملي، حسن المظهر، راتب على النظام الأوروبي، ترقيات سريعة لمناصب عليا وفى جزء ما من المنزل دق جرس التليفون، ولم يكن عليه أن يأتي، ولكنه كان أمرا... التفت ذراعا تيريسا حول رقبته، وحركاتها المستسلمة له فى الظلام، عيناها اللتان يغلبهما النوم، فكان مُخدرا من نوعا آخر. أخذت نظراته تترقب فى ثبات. وتحررت يده أخيرا من سلك التليفون، وضعها على كتفيها، وحل إحدى ربطات فستانها ثم فك الأخرى. أما هى فقد مدت له فمها مفتوحا، وغرقت تماما بين ذراعيه وهى على أتم استعداد كى تنزلق على الأرض. سندها مانولو فى بعض من الانحناء مُتقبلا فى رقة وحنان ما تعرضه عليه الفتاة: وبشكل غريب مفاجئ، أصبحت عذرية تيريسا ملكا له وحده، حتى الآن، الضمان الأكبر حتى يستطيع تحقيق الإيلاج المرغوب فى أعلى درجات الشرف والعرض والكرامة والعمل: والآن استحق ثقتها وثقة أصدقائها، وكانا يتحابان بشدة، بكل ما لديهما من روح، فلم يعد شيء يمنعه أن يكون ملكا لها. ولكن لم يدق جرس تليفون المكتب المُنتظر فى المستقبل، ما أجمله. فقط فى مخيلته ولكن هنا أيضا، إلى جانبهما. وكانت تيريسا تمد ذراعها فى الظلام وكأنها تحلُم، وأنزلته فى النهاية وهى تهمهم قائلة فى نفس الوقت: "من الذى يتصل فى هذا الوقت؟" "آلو". بينما كان هو متخوفا من تلك الحقيقة المرعبة، وفى الوقت الذى أُضيئت فيه مصابيح البهو كان يقترب منها كثيرا (لديهما نظرة يائسة، أحد نذر فصل الشتاء) وظهرت الخادمة العجوز بيثنتا بردائها البنفسجى اللون، وشعرها الرمادى وقد حُلت ضفيرته، تنظر إليهما فى دهشة ولوم.

انتبها أيضا إلى عينيها الصغيرتين اللتين يرهقهما النعاس. كان الاتصال من المستشفى: كانت ماروخا قد ماتت.

... وهم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر.

إنجيل متى - ٣١ : ٢٢

فى زرقة السماء الضاربة إلى السواد فى تمام الخامسة فجرا كان ينبعث من نوافذ المستشفى المضيئة صمت محير. كانت الأتربة الرمادية والصفراء تتكاثر وتنضج فى ممر بونانوفا كعادتها اليومية وكان هو شبه متأكد من أن الشمس لن تسطع بين السحب. وجهان حائران وعابسان كانا يتأرجحان وجبهتان متجهمتان تستندان إلى زجاج نافذة بالطابق الثالث. فى أحد الجوانب، مريض بالحمى والأرق يتأوه. كانا يشاهدان الحديقة حيث كانت أشجار النخيل تنبت أوراقها وكأنها خُطّاف تحت سماء رمادية اللون، ينظران بعد ذلك إلى المصابيح التى مازالت مشتعلة فى الطريق، الأرائك الخشبية، الأشجار، قطار مسحول على القضبان كدودة من الضوء. وفى الوقت نفسه كانا يشعران بحركة ذهاب وإياب الفريق الطبى بالمستشفى بزيه الأبيض الرسمي، همسات وشائعات وتضارب أصوات تنبعث من غرفة ماروخا؛ عبارات دينية سريعة (كان الكاهن يبدو أنه قد وصل متأخرا) ولاحظا افتقار حديثهما إلى الاضطراب الذى دائما ما كان يصاحب كلماتهما فى ذلك الصالون الصغير – منذ الأيام الأولى التى كانا يتصفحان فيها المجلات – شيء أثيرى كصوت الأسلاك التليفونية التى تُصدر تباعدات معروفة منذ فترة الطفولة فى قلق واضطراب، ولكن ذلك الاضطراب توقف اليوم ليفسح الطريق أمام صمت قاتل ثم إلى بؤرة الأصوات العالمة القطلونية التى كانت تنبعث من الغرفة الجنائزية:

– هل أخبرتم والديها؟

– نعم، يا دكتور.

– والسيد سرات؟

وطبقا لما أخبرتهما به ممرضة الوردية الليلية، وأكدته فيما بعد دينا فى ذعر وخوف وهى ترتدى معطفا شفاف اللون به بقع من أثر قطرات المطر (عرفا بهذه الطريقة أن السماء كانت قد بدأت تمطر، وسيطر عليهما نفس القلق المظلم الذى تسببت فيه رؤية الممرضة الميورقية التى لم تكن ترتدى نفس الزى وتنتابها حالة من التيه والحيرة) لم تُعان ماروخا المسكينة كثيرا، فلم تكن تدرك أى شيء يحدث حولها. ففى تمام الرابعة والنصف فجرا دخلت ماروخا فى غيبوبة وبعدها فى سُبات عميق فى رقة وعذوبة. فبالرغم من أن حالتها الصحية أثارت العديد من المخاوف لم ينذر أى شيء مؤخرا بتلك النهاية غير المتوقعة. وتحديدا فى ظهر نفس هذا اليوم، عندما اتصلت السيدة سرات من بلانس كعادتها كى تطمئن على حالة المريضة الصحية، أخبرتها دينا أن بحالتها تحسنا طفيفا وأن التسلخات التى تعانى منها فى ظهرها من جراء الرقاد الطويل كانت قد التأمت تقريبا... وعند بزوغ الفجر، عندما دخلت فى مرحلة السُبات العميق والمثير للقلق تم الاتصال هاتفيا بالدكتور سالاديتش ثم بالسيد سرات فى برشلونة بأمر من ذلك الطبيب. ولسوء الحظ كان تليفون السيد سرات مشغولا لفترة طويلة (وهنا كانت يد تيريسا تبحث عن يد الفتى الواقف إلى جانبها فى إحساس غريزي) ولما كان الخط غير متاح تأخروا كثيرا فى الرد. وأنهت دينا حديثها قائلة – بينما كانت تسند المظلة الصغيرة الزرقاء إلى الحائط – إن ماروخا قد توفيت فى وجود طبيب شاب من مساعدى الدكتور سالاديتش وممرضتين.

ولم يستغرقا وقتا طويلا فى الابتعاد عن النافذة، ومازال كلّ يمسك بيد الآخر. يقتربان أكثر فى كل مرة (مُهددين جزيرتهما الصيفية التى يمر بها الوقت دون إدراكه) تتكاثف سحب من الحذر والحيطة: وصل السيد سرات وزوجته قبيل العاشرة صباحا، وبعدهما والد ماروخا فى سيارة مُستأجرة من طراز ريوس ويصاحبه عاملان من المزرعة كانا يرتديان ملابس كئيبة خاصة بأيام الأحد. شقيق ماروخا (جندى حزين، ذو شفتين غليظتين وأنف أفطس، ورأس صغير الحجم وأصلع، يرتدى زى الجنود الرسمى الذى تنبعث منه تحت رذاذ المطر رائحة الدجاج) وصل ظهرا من بيرجا، قبل الدفن بقليل.

كانت عملية الدفن قد تمت سريعا ربما بسبب المطر الذى بدأ يهطل فى الصباح والذى بقى مستمرا وصاحب مجموعة من العربات السوداء حتى المدفن الجنوبى الغربي، اختلطت واضطربت السحب، وتلطخ الطريق بالوحل والشوارع والوجوه خلف الأبخرة الرمادية الساقطة من السماء. تضاعف ذعر السيدة سرات، كانت تبكى عندما كانوا يحملون النعش؛ ثم تجادلت مع ابنتها بصوت منخفض لأنها كانت تُصر على أن تستقل نفس السيارة التى كانت تحمل مانولو (من المؤكد أنه لم يره أحد وهو يصعد إلى تلك السيارة، حيث كان بداخلها عندما قام السيد سرات بتوزيع الناس) مع مزارعى السيارة ريوس. فكانت السيارة الأولى تقل السيد سرات ووالد ماروخا وأخاها. بالرغم من أن تيريسا ذهبت مع والدتها إلى المدفن، فإن ما أثار قلقها إشارة الإنذار التى لاحظتها منعكسة على وجه والدتها: هل عرفت شيئا؟ فمن المحتمل أن تكون قد تحدثت مع بيثنتا وعلمت بعض تفاصيل علاقتها مع المُرسي. فى أولى ساعات الظهيرة وخاصة أثناء تناول الغداء، أبدت السيدة سرات اهتماما كبيرا لمعرفة ما الذى كانت تفعله تيريسا طوال هذه الفترة، فى الوقت الذى وصل فيه مانولو اليوم إلى المستشفى، من الذى أخبرها بالكارثة؟...إلخ. وإذا لم تلح فى استجوابها فليس ذلك لقلة الاهتمام ولكن لحضور لوكاس: فيجب عدم إغفال أن مانولو كان عشيقا لماروخا. لم تُتح لها تيريسا التحدث معها على انفراد. أما والدها فكان يبدو نشيطا، غير مكترث، وشارد الذهن منذ لحظة وصوله (لم يستطع معرفة أين انتهت أحزانه وبدأ ضجره وسأمه) ولكن بلا شك كان يحتفظ ببعض الأسئلة حتى ينتهى كل شيء: هكذا ما كانت تنم عنه بعض نظراته الموجهة إليهما.

كانت تيريسا ترتدى معطفها الأبيض ذا غطاء الرأس. على أرض مونجوى السوداء الوعرة (كانوا قد بسطوا بعض الألواح الخشبية على الطين حتى يتمكنوا من حمل النعش إلى القبر)، ساكنَيْن، لاحظا ما يفعله العمال. وعلى بعد عدة أمتار إلى الأمام، وقف السيد سرات بظهره الطويل المزدرى ويده المشتبكة وراء ظهره يتحدث مع لوكاس وولده من تحت مظلة يحملها عنه أحد الفلاحين. وعندما لاحظ السيد سرات ذلك، أخذ هو المظلة حتى لا يضطر الرجل الآخر لإمساكها، ولكنه فكر جيدا فى ذلك فيما بعد، ثم أعادها وانتحى جانبا (كان يرتدى معطفا رمادى اللون) حتى يستظل لوكاس بظلها. والحق أن أحدًا لم

يرد أن ينتفع بالمظلة (فى الحقيقة لم يستلزم ما يهطل من السماء مظلة) حتى دخل لوكاس أخيرا وولده فى إشارة استسلام وخضوع تحت المظلة الحريرية السوداء. أخرج أحدهم تبغا وأخذ الجميع يُدخنون، وأخذ الدخان الكثيف الأزرق يطفو بين قطرات المطر. لم تستطع تيريسا أن ترفع عينيها عن الرجل الذى كان يحمل التابوت. وكان مانولو واقفا بجانبها، صامتا، ترتفع طيّة صدر قميصه البنى اللون وتتدلى خصلات شعره المبللة على جبهته. أعاد السيد سرات رأسه للخلف ونظر إليهما للحظة وجيزة. وشعرت هى بيد الفتى تلمس يدها بأعلى ردفيها وأخرجتها من جيبها كى تعطيها له دون النظر إليه أو أن تُحطم تلك الحدة المؤلمة للرقبة والكتفين التى كانت تعانى منها منذ ساعات. وعندئذ انخرطت فى البكاء.

لم يفعل ذلك من قبل، لم يستطع أن يواجه مشهد الجثة على السرير، وهو ينظر إلى ذلك الوجه الذى مازال يعكس كابوسا، رؤية داخلية وبعيدة، وجه تزدرده تلك النظرة حتى النهاية، هزيل بشكل مرعب (أنف وأسنان غير مألوفين، هيئة جديدة) رهيف مثل الشمع تؤطره خصلات شعرها القصير السوداء المصففة للخلف. وهناك كانت تيريسا ومانولو يمسك كل منهما بيد الآخر، وبالرغم من ذلك لم تستطع أن تبكى (كان يبدو لها أنه يبكى وأخذت تضغط على أصابعه فى حنان ورقة) ولا حتى عندما رأت والد ماروخا يقترب مرة وأخرى بخطوات خائفة ومُترددة وينظر إليهما فى رعب ودهشة، كما لو كان يريد أن يسألهما عن شيء ما؛ ولا حتى عندما لاحظت العينين السوداوين المحتقنتين والخائفتين المحملقتين فى ساقيها (نفس عينى ماروخا) عينى الجندى الذى يحمل فى يده طوال الوقت القبعة العسكرية ولم يتجرأ على أن يتحرك لأن حذاءه المُدبب بالمسامير كان يُحدث ضجيجا. ولكنها الآن تبكي، تبكى دموعا ملتهبة وغزيرة، وفى حزن شديد بكت من أجل صديقتها، ومن أجلها هى ومانولو، بسبب عودة التكتلات الطينية المفاجئة، والوقت الحزين والزمن المُعتم وماء المطر.

عند انتهاء كل شيء، فى سيرهم باتجاه السيارات وجدا السيد سرات بارزا بين المجموعات وكان يقترب منهما. توقفا لانتظاره، ولكن قبل أن يصل السيد سرات (مُتعثرا أمام كمية كثيفة من الوحل المتحرك) توقف وأشار لابنته حتى تقترب هي. لبت تيريسا

الأمر ثم لفّت فى دورة صغيرة لتتجنب الوحل، ثم وقفت إلى جانب والدها، وسمعت ما كان يقوله لها وظلت بجانبه، الرأس الأشقر المنحنى والمختفى تحت غطاء رأس معطفها. وعندما رأى مانولو أن الفتاة لن تعود مرة أخرى (كانا قد قررا أن يذهبا سيرا على الأقدام ليتجولا قليلا) عندئذ توجه مباشرة للوالد وابنته مُتعثرا فى الوحل ويده فى جيب معطفه البنى اللون (مُتظاهرا أن ذلك لا يمثل أدنى أهمية). وكان السيد سرات قد أخرج منديلا، وتمخط، نظر إلى الرجال الذين كانوا بانتظاره بجانب السيارات ثم إلى ابنته وأخيرا إلى مانولو الذى كان قد وصل ووقف أمامه. ثم قال السيد سرات:

– حسنا يا فتى، يبدو أن ذلك قد انتهى، فتخلصت ماروخا المسكينة من المعاناة، وسيدركنا الموت فى يوم ما. وفى حرص شديد، طوى المنديل ثم أعاد طيه ببطء – كأن الأمر متعلق بشيء شديد الرقة – وعيناه تنظران لأسفل، ثم أردف:

– أعرف أنك كنت تحبها كثيرا ولكن لا تترك الألم يسيطر عليك ويتمكن منك، فأنت مازلت شابًا فى مقتبل العمر، وعليك أن تتحلى بالصبر وسوف تنساها. (مد له يده فجأة بابتسامة حنون وحزينة.) إلى اللقاء، هل بإمكانى مساعدتك فى شيء... فمن المؤكد أن الفرصة لن تسنح كى نلتقى مرة أخرى.

كان مانولو قد توقف عن الاستماع إليه: كانت عيناه الغامضتان تسعيان للاحتفاظ بضوء بعيد. ولاحظه أيضا الآخرون، وهو يقف بجانب السيارات، وجوه طويلة وصارمة، أشباح غير واضحة المعالم وكأنها مشهد لمحاكمة تحت المطر: كان وداعا مكتمل الأركان. حدث كل شيء سريعا: وهو يبتعد بنظره عن السيد سرات، مد يده لتيريسا من فوق بركة الطين، لا لتوديعها ولكن ليطلب يدها، حتى تتبعه (فى تلك اللحظة توقفت إشارته بسبب الوحل الذى كان أمامه، وغرق فى جزء من الثانية فى نظرة الفتاة الحنون الزرقاء) وفى الوقت نفسه قال فى صوت هادئ:

– تيريسا، تعالي، أريد أن أتحدث معك.

سلمت يدها له دون تردد، مطأطئة رأسها، ووجهها مختف تحت غطاء رأس المعطف الذى كانت ترتديه، وقفزت من فوق بركة الوحل. ودع كل منهما الآخر سريعا ثم ابتعدا

فى الطريق المزدحم حتى خرجا. كان المُرسى يعلم أن والدها ينظر إليهما فلم يستطع مقاومة الالتفات برأسه. لكنه رأى ما أذهله: فى شفتى السيد سرات الصنوبريتين، بين رذاذ المطر الرمادى اللون، كانت تطفو ابتسامة غير واضحة مليئة بالتسامح والتقدير (إلى جانب أنه ودعهما بيده فى رقة قبل أن يصعد إلى السيارة) ابتسامة ظريفة ورقيقة تنم عن الحُلم والرفق.

ما حدث بعد ذلك أن تيريسا لم تحضر فى اليوم التالي. كانا قد اتفقا على أنها سوف تأخذه من ميدان ديليسبس بالسيارة فى تمام الرابعة والنصف. وعندما تعدت الخامسة اتصل مانولو بالتليفون فى منزل تيريسا، لكن لم يرد أحد. وعاود الاتصال عدة مرات ليلا من حانة ديليثياس ولكن لم يحصل على أى نتيجة. حينئذ تذكر بورى وزوجته. فكانا أيضا بالمنزل. وقال لنفسه ربما يتناولان العشاء خارج المنزل. عاود الاتصال من جديد بتيريسا صباح اليوم التالي. لم يكن هناك أحد بالمنزل. ثم اتصل ببورى وزوجته. مارى كارمن على الهاتف: كلا، لا تعرف شيئا عن تيريسا، فمن المؤكد أنها بالفيلا، نعم، إنه لشيء غريب أن تذهب هكذا دون أن تقول شيئا... بالمناسبة، وتأسف لذلك بشدة، مازالت لا تستطيع موافاته بأية معلومات عن وظيفته، فمن الأفضل انتظار مجيء تيريسا...

وفى ظهر ذلك اليوم كان قد اقترب من منزل عائلة سرات فى ميدان فيا أوجوستا. كانت جميع النوافذ مغلقة؛ وفى الحديقة، رجل عجوز ينحنى على سور حديدي، له رأس أصلع ولامع، نظر إليه برقبته الملتوية. حيّاه مانولو من خلف السور وسأله هل هناك أحد بالمنزل. أجابه العجوز بالنفى وسأله ماذا يريد. قال الفتى إن لديه رسالة إلى الآنسة تيريسا، وعندئذ أخبره الرجل بأن السيد سرات وعائلته قد سافروا إلى بلانس فى الصباح وسوف يعودون فى أواخر هذا الشهر.

فى المساء، لم يعرف ماذا يفعل، اتصل من جديد بمارى كارمن وقال لها إنه بحاجة إلى أن يتحدث معها فى أمر مهم ولكنها اعتذرت له، فقد كانا يتناولان العشاء خارج المنزل، وفى النهاية نجحت فى أن تقنع ألبرتو بأن يتناولا العشاء بالمنزل وذلك أوفر لهما... قاطعها مانولو مُقترحا أن يلتقوا فى أى حانة بعد العشاء. قالت مارى فى غير رغبة "دقيقة

واحدة" وسمعها تتحدث مع ألبرتو. عم الصمت. وقالت فى النهاية "موافقة" واختارت هى المكان والزمان: فى تمام الحادية عشرة فى إحدى الكافيتريات أمام الكاتدرائية. وفيما كان يتجه هو من ميدان فيالايتانا كان يُهَمْهم حول كيف يمكن لبورى وزوجه أن يساعداه (من المؤكد أننى سأحصل فقط على رقم تليفون الفيلا، وذلك دون رؤيتها أيضا) وبقيت عيناه تحملقان فى وميض ما بين اللونين الأصفر والأحمر (أطراف المنديل وخصلات شعر تيريسا)، فى السيارة التى انعطفت سريعا عند الناصية التالية، وفى نظرة سريعة إلى ظهر السيارة الفلورايد ذى الانعكاسات الضوئية الكثيرة. ربما استطاعت الفتاة أن تجعلهم يتركونها تعود إلى برشلونة وكانت تبحث عنه فى تلك اللحظة. اندفع جريا ولكن عند عبوره الناصية كانت السيارة قد اختفت. أقسم أنها تيريسا. نسى تماما موعد بورى وزوجه وانطلق فى بحث مضطرب وسريع فى جميع حانات الأحياء الفقيرة حيث كانا يلتقيان أحيانًا. اعتقد أن الشيء نفسه قد حدث لها. أخذ يبحث ويسير طيلة ساعة ونصف الساعة وسأل فى حانة سان جيرمان (الصوت الكهفى الحنون كان يريد أن يحتجزه وقدم له خادمة جديدة، فتاة ذات وجه حار وحماسي، أكدت أنها تعرفه منذ أعوام) فى حانة الباستيس وفى قادش وجامبوري. بحث عنها فى كل حانات الميدان الملكى وفى ميدان الرملة، دون أمل فى العثور عليها. وسريعا ما تذكر حانة التبت وأخذ سيارة أجرة. فمن المنطقى إذا كانت هنا فى برشلونة أين يمكن أن تنتظره سوى فى حانة التبت بالقرب من الكرمل؟ كان سائق سيارة الأجرة رجلا قصيرا، له شعر أحمر اللون، ولهجة مقاطعة بلنسية، كان يُطيل رقبته من فوق عجلة القيادة، ويتحدث معه عما فعله بهم فصل الشتاء؛ وأنه لن يعود ثانية. كان يقود السيارة ببطء شديد مثير للغضب؛ فبلا شك هو يفكر فى طفلتيه (فتاتان كالقمر، لهما ضفيرتان، وجهان مبتسمان، تلتصقان بوجنتيهما، تراقبانه من خلال صورة فوتوغرافية مرعبة ملتصقة على لوحة التحكم بالسيارة برسالة مكتوبة: "لا تتعجل أثناء القيادة يا أبي" ولكن عندما انتبه مانولو، صاح قائلا: "عليك أن تنسى ابنتيك وأسرع يا والدي، لقد تأخر الوقت كثيرا". همس السائق بصوت حاد وضعيف "ما الأمر يا فتى؟ لست فى عجلة من أمرى كى أذهب إلى المقبرة" انتفض مانولو سريعا وصاح فى أذنه: "ولا أنا لديّ تلك القردة فى انتظارى بالمنزل، أسرع بهذه السيارة الملعونة دون

أن تتحدث". نظر إليه السائق عبر المرآة وتبين أنه لم يكن يمزح وأخذ يسرع بالسيارة. لم تكن تيريسا فى حانة التبت أيضا. كانت قد تعدت الواحدة. وأخذ يلعن حظه وهو منهك القوى، ثم اتصل ببورى وزوجته. أجابه شخص ما بعد انتظار طويل، كان ألبرتو، كانا قد أويا إلى فراشهما. واعتذر هو عن عدم ذهابه فى الموعد المحدد، فقد خُيل له رؤية تيريسا بالقرب من... وقاطعه ألبرتو ليقول له فى فظاظة وحدّة أن يعاود الاتصال غدا. كلا، اللعنة، لم يريا تيريسا فى أى مكان و لم يعرفا شيئا عنها.

وفى محاولة أخيرة: ذهب إلى حانة فيا أوجوستا الصغيرة التى كانا يذهبان إليها كثيرا الأسبوع الماضي. لم يكن هناك أحد ولكن ليس أمامه أكثر من أن يدخل ويرى كيف كان ينظر إليه الخادم (فتى من مقاطعة ألمرية، تعاطفت معه تيريسا كثيرا) موجة زرقاء مألوفة غطت رأسه: كانت قد تركت له رسالة صباح الأمس قبل أن تشرع فى الرحلة: أضاف الفتى: "كان يبدو أنها متعجلة كثيرا". كانت عبارة عن بطاقة بداخل مظروف غير مغلق وكانت تقول فيها: "سأذهب إلى الفيلا مع والدتى بعد دقائق معدودة. إذا استطعت سأكتب لك موضحة ما يحدث. لا تفعل أى شيء قبل أن تتلقى أخبارا مني. أحبك. تيريسا"

فى اليوم التالى (شمس ورياح، سحب كبيرة تبحر ناحية الجنوب) قرر أن يذهب بدراجة بخارية إلى الفيلا ليجد وسيلة حتى يراها. وبالطبع لم يرد أن ينتظر حتى تأتيه أخبارها، لم يكن يجب عليه، ولكنه لم يستطع، فكان فى حاجة لرؤيتها. وأيضًا، ياللجنون! الساعات، كيف يمضى الوقت، الأيام، ما هذه الوحدة المخيمة فى هذه المدينة التى تعود لتمتلئ سريعا بالقطلونيين النشطاء وأصحاب البشرة البرونزية والخطرين كالسيارات بينما تخلو يوما بعد يوم من السائحين البهيين، الحالمين، المزدهرين. كلا، من المستحيل الانتظار. وانتبه لتحذير ابن وإلا ستنتهى تحت عجلة السيارة، أسرع يا مانولو، أسرع... ("ألم تر كيف تسير؟") وفى السادسة مساء كان عليه أن يأخذ دراجة بخارية لها مظهر فخم رآها أمام برج فى ممر ماراجاى وتوقف بها عند قسم شرطة أورتا حيث لم يكن لها قفل ونجح فى أن يديرها من أول ضربة بدال. (أو ربما لأن الآخر كان يرتدى ثوبًا؛ رآه يجرى على الرصيف ناحيته بثوب القسيس فوق الركبة وذراعاه متشابكتان، رجل منزو وهزيل وكأنه هيكل عظمى ويرتدى نظارة مزخرفة ويصيح: "ما هذا يا فتى، إنها دراجتي،

دراجتي؛ وكان يركض سريعا ولكن ثوبه الدينى عطله) ومن البديهى أن مانولو لم يكن يعرفه وإلا لكان انتظر فرصة أخرى. وعلى أية حال، فبعد مرور عشر دقائق كان عليه أن يترك الدراجة بسبب قطع فى سلك البنزين. كان قد وصل إلى بادالونا. منعه التوتر وعدم الصبر والحظ السيئ من أن يجد دراجة أخرى متاحة حتى الحادية عشرة ليلا (ولكنه هذه المرة كان أمام مصنع للمنتجات الكيميائية، فى أحد الأزقة المظلمة، ولا يمكنه أن يجد راهبًا آخر): كانت دراجة من طراز ريجو بها خدوش وكأنها ناقة مصابة بمرض الربو ويعلو الصدأ والشحوم الكثيفة أجزاءها الداخلية. بكارثة كهذه بين الساقين (ربما واحدة من تلك الدراجات النارية التى مازالت تتحرك) انطلق بكل سرعته باتجاه الساحل.

كان المرور قليلا جدا فى ذلك الوقت ولكن بالرغم من نواياه الحسنة استثمر أكثر من ساعة فى الطريق، أما دراجة الريجو فلم تستطع تقديم أكثر من استطاعتها، وقد مر ببلانس، عندما انزلق بطريق الفيلا وهو يسير بسرعة هائلة وسمع صخب مياه البحر، عندئذ استوعب أنه تأخر كثيرا. وكانت الفيلا هادئة، لا ينبعث أى ضوء من النوافذ أو "التراس". كانت الليلة أكثر ظلمة من ليال أخرى يحتفظ بها هو بحب فى ذاكرته، وكان المنزل الهائل الحجم له هيئة مهيبة، بناية أكثر اضطرابا وتقشفا من تلك التى كان يتذكرها، قريبة وبعيدة فى وسط الظلام فى الوقت نفسه. ثم انطلق بالريجو العتيقة بين أشجار الصنوبر، متأرجحا على صوت الطيور المغردة، وتمايل أمواج البحر، يلفه ذلك الجمال الخيالى الذى كان يطوى عمق الغابة، حيث كان يطفو ضباب أبيض منبعثا من مياه البحر. أخذ مانولو يدور حول الفيلا من جزئها الخلفي، يسير تحت أشجار الكافور العالية الموجودة فى الحديقة وتوقف عند الحائط حيث كان نبات اللبلاب يتسلق حتى "التراس". كان يظهر فى غير وضوح تحت الأوراق اللامعة، وأنابيب صرف مياه المطر تمتد لأعلى أيضا. ووفقا لما تذكره فى حديثه مع ماروخا فإن غرفة تيريسا تتصل بهذا "التراس" بجوار غرفة الأطفال أعلى غرفة ماروخا. ولكن لم يكن هناك أكثر من نافذة واحدة فى ذلك الجانب (التى كان قد قفز إليها عدة مرات). نظر إليها مانولو: كان شكلها قد تغير، لم تكن واضحة تماما بسبب نبات اللبلاب الذى يغطيها وكانت نوافذ الغرفة مغلقة وكأنها فى حالة دفاع عن النفس. ابتعد بنظره إليها فى دقة وعجلة ثم أخذ حجارة وقذفها

فى "التراس". وكرر ذلك عدة مرات بلا جدوى. ولكن، وإذا لم تكن غرفة تيريسا تطل على هذا التراس؟ شيء مؤسف أنه وصل متأخرا، كان لديه أمل أن يجد تيريسا واقفة فى الحديقة مثلا... ثم رجع للخلف خطوات وجلس على الأرض وهو يفكر واتكأ بظهره على جذع شجرة صنوبر. غرس أصابعه فى الأرض الرطبة، دون أن يعرف ماذا يفعل، مرتجفا وهو شارد الذهن بسبب صورة فم ماروخا المشتاق الذى كان يجذبه من وراء ظلال أشجار اللبلاب المبللة بالماء: نافذة ماروخا، وفيها أحضان مفتوحة وعارية، حدقتان محمومتان وملتهبتان تنهلان من قواه وإيقاعاته... ماروخا، المرأة التى لم يستطع أحد أن يتذكر شيئا سوى صدرها الفاتن: يتذكر إيماءة صدرها وحركته، صورة فمها المر والحاد بعض الشيء، ظهرها الداكن اللون وهى ترتد للخلف فى مناطق الظل بالحديقة فى خوف ورعب؛ يمكن أن يستحضر أحيانا مذاق شجر الكافور أو النعناع الذى يسيل من لعابها، وارتعاش حنجرتها عندما تُقبِّله، والشعور بالصقيع عند رؤيتها وهى تضم كتفيها بضعف أمام المرآة، أو خطواتها الضعيفة وهى تمر بالغرفة، عارية وخجولاً. استطاع أن يراها مرة أخرى وهى تصعد إلى الكرمل فى يوم شتوى شديد الرياح، بمعطفها الضيق، الذى لم يكن على الموضة، وشريط أحمر من القطيفة فى شعرها، ولكن بين تلك الصور كانت تستمر حركة رموشها الخائفة فى وسط الغبار الكثيف فى شارع جران فيستا، ويحيط بها بعض الأطفال المسلحين بالحجارة وآخرون ملثمون ولا يظهر من وجوههم سوى عيونهم الصغيرة؛ ومازال يشعر بنعومة يدها المرتجفة على صدرها وطية سترة معطفها وخضوع ركبتيها الملتصقتين وهيئتها الباسمة عندما تدير رأسها وهى تنتظره فى حانة ديليثياس، دون أن تحرك ساكنا ودون أى حرج من كونها خادمة...

وفجأة نهض مانولو ("هذا ما يحدث لى لأننى توقفت أمام هذه النافذة، كما لو كانت تلك المسكينة الصغيرة مازالت تنتظرنى بالداخل") وشعر فى حزن عميق بأن نفس الديدان الملعونة التى من المؤكد أنها قد عششت فى جسد ماروخا (لم يرد أن يفكر فى ذلك) وفى داخلها قد بدأت تعمل بداخله هو أيضا فى إضمار بعض التفاصيل الخاصة بأنوثة ماروخا المثيرة للقلق، وربما أن هذه الذكرى تنهل منه وتفترسه ببطء... ثم بدأ يتشكك فى أنه كان ساذجا ومتسرعا عندما أتى، حيث كان من الأفضل أن ينتظر أخبارا من تيريسا. وفى حزن

شديد توجه إلى الشاطئ الهادئ الخالى من الناس والمضيء بنور النجوم الأزرق الخافت وكأنه يحتضر فى سكرات الموت. كان الطقس باردا، والأمواج تتلاطم على حافة الضفة، تسكب الزبد الأبيض ثم تنزلق بعيدا، وتتباعد فى صدى صوت أكثر ضعفا فى كل مرة. كانت بشرته قد اعتادت هذا النسيم وتلك الشواطئ؛ ولكنه بدا له شيئا مُدهشا بسبب مرور شهرين فقط منذ بداية خروجه مع تيريسا، فكاد يقسم أنهما أعوام، كما لو كانت الفتاة الجامعية خصصت له وقتا أطول فى الحقيقة أكثر من الوقت الذى كرسته لماروخا مثلا. كان لديه الوقت القليل مع تيريسا، جيَشان من المشاعر لم يمتلكه فى وقته مع ماروخا، وأراد تذكُر أن دقائق هذا الوقت بلا شاطئ كانت مُكتملة وأكثر واقعية. واكتشف سريعا كم كان ساذجا وسريع التصديق، كم كان مخدوعا وكان يصدق كل شيء بسهولة. يفكر فى أن تيريسا ملك له منذ وقت طويل! آه كم كنت أعمى وأحمق! قال لنفسه عندما تذكر الفتاة بين أحضانه، فى الشاطئ، فى الشوارع المظلمة (يا إلهي! نظرتها الرقيقة المتوسلة فى تلك الليلة عندما خرجت من حانة إنكارنا، عندما كان يُقبّل كل منهما الآخر مستندين إلى الحائط) وفى أحد جوانب حديقة جيرناردو (صوتها وهى تناديه وكأنها طفلة مريضة من خلف الزرع) أو ذلك الصباح الذى لا يُنسى فى سطح بيت الأختين، وهو يغنى ويهدل مثل الحمام ويداعبها تحت أشعة الشمس الساحرة... ولكنه دائما ما كان يتعفف، ويفكر فى ذلك جيدا، فى أن تلك العفة (كان يخضع تحديدا لرغبة أكثر قوة من مجرد رغبة الامتلاك الجسدي) ربما لا تكون غير فعالة فى كل شيء: وليحكم على احتدام تيريسا وثورتها فى الأيام التى سبقت دفن ماروخا البائسة، فالفتاة الجامعية أصبحت الآن ملكا له أكثر من أى وقت مضى. ولكن كيف يستفيد من ذلك كله إذا لم يُتح لهما الوقت لترسيخ علاقتهما؟ فيمكن أن ينتهى بتضحية غير مجدية وساذجة كغيرها من التضحيات، مجرد سذاجة البطولة المنافقة لمعظم الشباب والفتيات، وبالطبع يستحق ألمًا مُساويًا. وفى ظل ثقل هذه الوحدة التى تسيطر عليه فالمُرسى يشعر بالانخداع، وبأنه موضع للسخرية والضلال أمام تغير ما بدأ ينتابه بالداخل، واكتشف الآن فى ذهول: أنه لم يكن يحترم تيريسا فى كل الأمور كى يحصل على منفعة ما، ولكن كان هناك أيضا شيء آخر، إرادة بعيدة قد بدأت تحتويه من الداخل، شعور عكر من الكرامة وسرعة التصديق قد نقلا إليه العدوى التى تضربه شيئا

فشيئا. فهو لم يكن قط هو ذلك الفتى الحسن الخلق كما يدّعون (وحتى لم تتح له الفرصة ليكون هكذا مطلقا، وكان يفكر، على الأقل، فى أن يتزوج تيريسا)؛ حينئذ لماذا كان يتعامل هكذا مع تلك الشياطين فى أحيان ليست بالقليلة؟، تحت أى اسم ولماذا؟، فلنرَ، لماذا ترك نفسه يدخل فى حالة من الاحترام والكرامة دون مخرج؟ ولماذا اندفع بسرعة هائلة إلى قوانين التزييف المقدسة؟ من أجل أية مبادئ أخلاقية، أو أى عرف أو سلوك، أو أية قواعد للرصانة أو الحيطة أو الوقار أو الأعراف الاجتماعية تَحوّل فى أقل من ثلاثة شهور إلى منافق أمام تيريسا؟ من أجل أية مصالح يمكنه أن يكون غير محترم مع فتاة عاشقة، كريمة، فى حاجة إلى الحنان والملاطفات...؟ بينما كان يتذكر قبلات تيريسا ويعيش معها مرة أخرى فى نفس الوقت الذى كان يلعن ويحتقر فيه نفسه، شعر بالحب والعشق ينمو بداخله تجاه الفتاة ورغبتها الفاحشة. تذكر بحنان رجل أرمل، فى الليلة التى توفيت فيها ماروخا، عندما كان هو وتيريسا إلى جانب التليفون وملتفين فى تلك السحابة الحارقة: هناك نعم، تحول إلى لهيب حارق وقرر هناك أن يكون ملكًا لتيريسا. ولكن هذه الليلة وصل متأخرا: عدة ساعات مفقودة، مُلاحقا غزالة الكرامة البيضاء... ومع كل ذلك فما زال لديه الوقت لأن يُصحح الوضع وأن يعود ليكون ذلك الفاسق ثابت العزم مثلما كان دائما ولم يكن يتوجب عليه أن يكون غير ذلك أبدا، يا لها من عدم حيطة واحتراس، فأنت تلين وهم يضايقونك، وهكذا الصبر وخلط أوراق اللعبة، فقرر الآن أن يطأ فى غضب وحنق شديد بقدميه بعض طحالب الشاطئ الفاسدة. بالرغم من أنه فى المدينة كان قد فقد الإحساس بالوقت منذ أربعة أيام فى الليل والنهار، هناك استطاع أن يحسبه (التجول والانتظار فى هذا الشاطئ كان يبدو مألوفا كثيرا) حيث كان يبدو أنها تتعدى الساعة الثالثة. لأنه كان قد جاء ولم يكن لديه شيء ليقوم به أفضل من أن ينتظر حتى الشروق. فإذا كان الطقس معتدلا، فمن المحتمل أن تأتى تيريسا كى تستحم. وتوغل فى الغابة، قفز من الحاجز دون أى قيد أو تحفظ وتظاهر بأنه نائم على حفرة من الرمال وأوراق شجر الصنوبر. حرمه الطقس البارد وصخب أمواج البحر النوم ثم عاد إلى حديقة الفيلا، برفقة دفقات النسيم واضطجع على أرجوحة تغطيها مظلة من القماش. أشرق يوم مشمس وتراجع الضباب إلى داخل الغابة سريعا وكأن رياحا قد امتصته بشراهة. كان نائما فى حالة من فقدان

الوعى ويعتقد أنه يحلم ولكن عندما أبعد ذراعه عن وجهه من بين أشعة الشمس اللامعة تراءى له (شاب طويل، أسمر، كان يقترب منه وبيده مضرب تنس تحت ذراعه ومنشفة معلقة فى كتفه) واكتسب حقيقة سعيدة ومتشككة. وفى هدوء النهار كانت أعشاب الحديقة تحدث صوتا تحت حذاء الفتى الأبيض. كان نحيفا، مرنا، عريض المنكبين، يرتدى قميصا أزرق بياقته المرتخية والمرتفعة لأعلى، وسرْوالًا قصيرا، ناصع البياض، تتراءى منه ساقاه العضليتان بلونهما البرونزي.

كان يسير باتجاهه ورأسه موجه ناحية الشمس، وعيناه الغامضتان تغطيهما يده كى يحتمى من أشعة الشمس. وتأكد المُرسى أن ذلك الغريب لم يره بعد، فسقط من على الأرجوحة فى حركة سريعة إلى الخلف وظل يتدحرج حتى اختفى وراء شجيرة غرنوق كثيفة الأوراق. وقبل أن يصل إليه ويقدم لمانولو صورة مطابقة مفاجئة منه (نفس شعره الداكن الأملس، هيئته القوية والمتغطرسة) انعطف فى طريق مُؤَدٍّ إلى ملعب التنس. وبعد قليل ظهر السيد سرات بنفس الملابس ومضرب التنس وسلك نفس طريق الفتى. ثم تراجع مانولو واختار مخبأ أكثر أمنا بين أشجار الصنوبر واستمر فى تجسسه ومراقبته. لم يكن هناك أية إشارة لتيريسا. وانتظر هو. كان يسمع صوت ضربات الكرة فى المضارب وصيحات الإعجاب أو خيبة الأمل مع التظاهر فى الكثير من الأحيان بيأس لذيذ (فلم يكن السيد سرات بلعبه البطيء والمذهل يستطيع أن ينافس خصمه الشاب) والذى انتهى بتبادل عبارات المدح والثناء بينهما. وفى تمام العاشرة ظهرت السيدة سرات بصحبة خادمة جديدة، فتاة فى مقتبل العمر، مكتنزة، وضعت صينية بها أكواب قهوة وخبز على طاولة صغيرة تعلوها مظلة. كان صوت السيدة يدوّى فى غبطة وشفافية فى وضح النهار، مقيما للحظة علاقة سعيدة واكتمالًا هادئًا من أوقات الفراغ والنغمات الرخيمة مع أصوات الفرح المنبعثة من ملعب التنس. ثم ظهر بعد ذلك رجل يرتدى ملابس فلاح وأطراف كميه مبللة من أعمال الرى التى كان يقوم بها، تحدثت معه السيدة لدقيقة واحدة ثم دخلت المنزل عبر النافذة الزجاجية الموجودة بالداخل ثم خرجت ودخلت مرة أخرى، كان ذلك شيئًا مزعجًا ومللا صيفيا حتى إن غياب تيريسا كان غير محتمل. ومع اقتراب منتصف اليوم شعر بنمو لحيته المتزايد وتشكك فى أن مظهره أصبح كئيبا عندما مرر يديه على وجهه.

ثم قال لنفسه: هكذا لن تذهب بعيدا. وقد قرر وهو ظمآن ومتعب وجسده منهك القوى أن يعود مرة أخرى إلى برشلونة وينتظر لحين تأتيه الأخبار. فلم يكن يهتم أن يُحدث ضجيجا بالدراجة البخارية عندما بدأ فى قيادتها (أن تعرف تيريسا أنه كان قريبا) وبعد ذلك بقليل خرج إلى الطريق. كانت بقية الدراجات النارية الصغيرة تسير فى عنف وصرامة على ميمنته. لم يتعدّ المائة. ووصلت به الدراجة حتى برشلونة وهى تحتضر من الصدمات والخدوش، بعد ميعاده متأخرا ساعتين ثم تركها جثة هامدة خلف مستشفى سانٍ بابلو ليكمل طريقه سيرا على قدميه وأخذ يبتعد فى شارع قرطاجنة. وفى نفس ذلك اليوم أُرسلت له رسالة فى حانة ديليثياس. وذهب صبى ليرسلها إلى بيته. كانت الرسالة من تيريسا وكان مكتوبا على المظروف من الخارج: مانولو رييس، حانة ديليثياس، شارع الكرمل.

بالداخل كانت توجد ثلاث ورقات مليئة بحرف صغير ومضغوط، حرف جميل ومتناسق. (وكانت تبدو وكأنها نسخة من كتابة مطموسة) كان أول حرف من كلمة "حبيبي" الذى يتصدر الرسالة مرتسما بيد ثابتة وواثقة، ويمكننا القول إنها غاضبة، ولكن كان الحرف يبدو مائلا على جانب الصفحة فى هيئة القوقع. ثم يأتى بعد ذلك: "معذرة عن التأخير، ليس لدى عنوانك وكنت أعتقد أننى سوف أعود إلى برشلونة سريعا أيضا. فقد أصر والدايَ أن أقضى ما تبقى من الشهر هنا فى الفيلا، لحين بدء الدراسة!". لعبة لذيذة أطلقتها الفتاة الجامعية بجرأة، بريشة محمومة ومحرقة، تحليل لذيذ للحالة التى تسيطر عليها الآن ولبعض الليالى السعيدة: تحدثت عن "شوق الانتظار" وعن "برودة الملاءات الفاحشة"، ثم انتهت فى حديثها بإظهار السبب "وهى مُتشككة بالطبع" سبب ارتفاع درجة حرارتها وهذيانها: "ألزم الفراش لمدة يومين لإصابتى بالحمى والهذيان" (وأخذت كلمة هذيان تتردد متراقصة على أسماع المُرسى لبضع ثوان ويرتسم أمام عينيه مشهد الفتاة وهى ترتدى قميص النوم ذا اللون الأحمر فى هيئة ملكية) "وحتى اليوم لم أستطع أن أكتب لك، لقد أصابنى سعال شديد بسبب المطر وموت ماروخا المفاجئ ثم عدم رؤيتك؛ كل ذلك أتعسنى كثيرا أكثر من أنه يجب عليّ أن أرقد فى الفراش، ذلك كل ما استطعت فعله فور وصولي. فى البداية كنت تائهة، وشديدة اليأس..." وأردفت تقول، إن الأمر، من ناحية أخرى، لم يكن يدعو للضيق والإحباط لأن شيئًا لم يحدث سوى هذا الانفصال

المؤقت. وربما يكون الشيء الأكثر ضجرا هو سلوك والديها ("والذى يجب ألاّ يدهشنا من ناحية أخرى") المتمثل لديها فى الأمر العائلي: التأكيد على شر ما مشترط بشخصيتها منذ طفولتها والذى ظهر بوضوح بعد أن تعرفت إلى مانولو أكثر من أى فترة أخرى: "... من النشأة الساذجة التى تلقيتها، فأنا هنا مثال جديد، مثال على رد فعلهم، كيف يفهمون الدفاع عن طفلة صغيرة تائهة غير مكترثة بالأخلاق، دون أن يلتفتوا إلى أن الوقت قد تأخر. سأموت من الغضب والضيق والخجل. كيف يمكنك أن تفكر فيّ وفينا جميعا؟ إذا علمت كم أشعر بالسأم والملل يا مانولو، كم أفتقدك!" وأضافت فى هذا الأمر أن الفيلا تبدو لها خالية بالرغم من وجود الكثير من الأشخاص بها، أشخاص غير مقربين كثيرا وغير مرغوب فى وجودهم. ("فلديها ابن عم سفيه من مدريد وينتظر أن تتحسن حالتها كى يهزمها فى لعبة التنس") كان كل ذلك يبدو كسفينة تغرق أطاحت بها هنا بين أشخاص وعادات غريبة. ثم عادت لتتحدث عن الوحدة، وفجأة، دفقة نسيم بَحرية ومشمسة، موجة تيريسا الزرقاء، حنين العودة إلى جزيرتها: "ولكن ليس هذا هو الذى يحزننى يا مانولو، ليس ذلك المحيط العدائى من حولي. ولكن غيابك عني. يا لها من وحدة مخيفة، وتعاسة وحزن مرعب، ومرض لم يكن فراش عرسي، وبؤس وألم، ولا يمكن مقارنة كل ذلك بألم عدم رؤيتك يا حبيبي، يا حبيبي، يا حبيبي، لهذا الحرمان غير المحتمل من شفتيك، ويديك خلال أيام وأيام تبدو لى وكأنها قرون خالدة...". بالرغم من تأخر مانولو وجيشان عواطفه (لذلك خلق التعليم، كى تتعلم تيريسا كيف تعبر عما يشعر به الإنسان) فقد صبره وأخذ يقفز بعض السطور باحثا عن أخبار أكثر دقة. بعد هذا الجزء الحماسى والذى كان يجب على عقلية أكثر ثقافة من فتى الجنوب أن تتعرف فى الحال على الأساس الأدبى البليغ لبعض الصور، أخذ الأسلوب ينحدر إلى مستوى أكثر إخبارية وعمليّة.

وأشارت تيريسا إلى حديث غاضب لها مع والديها ("مدعوم بتحفظات لا نهائية من جانب الطرفين") ولم تستطع فيه أن تثير سبب المشكلة الحقيقي. وكانت هذه الحادثة فى ليلة نفس اليوم الذى دفنوا فيه ماروخا المسكينة، و"على الرغم من عدم إشارة أحد لذلك، ارتبتُ فى أنها كانت دينا، عاهرة غرفة العمليات، تحدثت عنا، وكذلك بيثنتا. ومن الطبيعى أن تُكمل والدتى الباقي. لا أعتقد أننى أبالغ إذا قلت لك إن والدتى قبل أن تتعرف عليك

كانت تتخوف من أن تنال من عذرية ابنتها. سذاجة! آه، لو أن بوسعى أن أحكى لك! ففى البيت أيضا يتعاملون معى وكأننى نصف ماركسية، أعتذر عن أنى أحكى لك تلك التصرفات الجنونية والمبهجة فى الوقت نفسه والتى يظنون أنى قادرة على القيام بها". وأكدت تيريسا لمانولو فى الرسالة أن هذا السلوك لم يصل إلى حد إثارة مشاعرها: "ففى بساطة شديدة، قررت والدتى أن وفاة ماروخا قد أثرت عليها بشكل أو بآخر، حيث حان الوقت للاهتمام بها؛ فوالدى يرى أننى سريعة التأثر، وأننى مازلت طفلة صغيرة، إنها مشاعر وعواطف هذا الصيف، فأنا غاضبة طوال الوقت، وأعصابى لم تعد تتحمل أى شيء، وفى النهاية أنا بحاجة إلى الراحة والهدوء وبالطبع ليس هناك أى مكان أفضل من الفيلا، تغيير هواء، أو بمعنى أدق تغيير للأفكار. فى الحقيقة لم يتحدثوا عنك". وهنا اعتقد مانولو أن سلوك السيد سرات تصرف عارض: وذلك لأن تيريسا أكدت أنها لم تر والدها قط يهتم بها كثيرا هكذا، "هذا على حد تفكيري"، ولا حتى عندما كان يتم القبض عليها بسبب أمور الجامعة والاحتجاجات الطلابية. فيبدو أنهم تناقشوا حول الجامعة والتيارات السياسية التى تتبناها هى ويسير على نهجها طلاب اليوم. "لا أدرى إذا كنت ستهتم بذلك، ولكن ذلك الأمر غريب فى والدي". وأضافت أنها من قبل أن تتعرف إلى مانولو، لم يكن والدها يهتم بمثل هذه الأمور على الإطلاق، وتحديدا ما كان يستهويه هو أن يسخر ويستهزئ فى هراء ومزاح ("من أصدقائي، وخاصة من لويس ترياس دى چيرالت") ("فوالدى مزّاح ماهر، بالرغم من أنه لا يبدو كذلك"). أما فيما يتعلق بنا، أردفت، فلم يكن أحد يعيرنا أى اهتمام لمعرفة علاقتنا وما يحدث بيننا.

قالت الفتاة من خلفه:

– المستودع ملآن، أنا بنفسى قمت بملئه.

ولم يمر صوت الفتاة الفظ والمناقض على مانولو مرور الكرام. عاد ببطء إلى الخلف تاركا ظلا متثاقلا، يشوبه الضباب على الكتفين. كانت خيرنجا تحمل فى يدها سروالاً أحمر اللون، مطويا يجب أن يكون جاهزا فى مكان ما بالمنزل، كانت تنظر إليه ببريق من التضرع والتوسل يلمع فى عينيها. رجته:

– سأبدل ملابسى فى دقيقة واحدة...

تروّى هو للحظة ثم قال:

– غدا. أعدك بذلك. فأنا اليوم على عجلة من أمرى كما شرحت لك.

تركت أورتنسيا البنطلون يقع على الأرض، وأدارت ظهرها له وهمت بالانصراف قائلة:

– إذن، إذا كنت تريد أن تأخذ الدراجة فعليك أن تنتظر سيدى وتطلبها منه بنفسك. سترى أن هذا أفضل!

أوقفها مانولو ممسكا بذراعها:

– انتظري. انتظرى يا مفترسة، دقيقة واحدة أيتها الصغيرة.

قال ذلك ضاحكا. كانت فكرة أن تيريسا بانتظاره تغمره سعادة وفرحا. وفى حسبة عقلية سريعة فكر مانولو أنه لا يمكنه أن يحضر إلى منزل تيريسا ليلا، وذلك يتيح له بعض الوقت للقيام ببعض الجولات مع الفتاة الأخرى بالدراجة البخارية وبذلك يُنهى دفعة واحدة هذا الارتياب الصغير الذى ليس له أهمية باقتراب الموعد الذى ربما سيُدخلها إلى عالم الكبار، وأيضا إشباع رغبة طفولية وبريئة كرغبة خيرنجا سيكون لها وقعها المبهج. قال لها ضاحكا:

– حسنا يا أميرتي. سآخذك معي. ولكن استعدي، فسوف تعرفين ماذا تعنى السرعة الشيطانية.

أرادت الفتاة أن ترتدى السروال الأحمر وهى تكظم صيحة فرح وسرور، ولكنه أخبرها بأنه لا يمكنه أن ينتظرها وأن الحذاء الأبيض يجعلها تبدو أكثر جمالا وأنوثة. فبلا شك كى يستطيع أن يأخذ الدراجة، دعا أورتنسيا إلى جولة، وأيضا للضرورة التى كان يشعر بها اليوم لكى يُدخل عليها السرور أو ربما ليستعد هو بصورة غير مباشرة. فبينما كان يقود الدراجة بسرعة هائلة فى جميع الاتجاهات فى ممر وادى إيبرون كانت الفتاة

تحوط صدره بذراعيها بقوة وكان هو يشعر بخدها المستند إلى ظهره، صدرها الحاد الصغير، وقلبها الخافق المضطرب الذى كان ينقل له رقة دويبة خائفة من خلال نسيج قميصها الخفيف.

كان يصيح فيها: "أمسكى يا فتاة، أمسكى بقوة"، ولم تنطق الفتاة طوال الوقت ولكنها كانت تعانقه. وأخيرا، وفى حالة من عدم الوعي، وعيناها متعبتان من أثر الرياح، توسلت إليه أن يعودا إلى المنزل لأنها تشعر بدوار. لم يُرد مانولو أن يترك الدراجة بالخارج وأدخلها فى الحديقة من الباب الخلفي. وتوجهت فى شحوب ورعشة إلى الكوخ لتأخذ البنطلون الذى لم تلبسه. ثم تعثرت فى السير وأسندها مانولو فى رقة ونعومة من مرفقها؛ وأخذت حيوية خيرنجا وشبابها المنعزل والمرتعش يستسلمان ليديه، وكأنهما بين أمواج، على إيقاع خطواتهما الحائر الشهواني. ثم التزما صمتا مثيرا للقلق. وقد نشرت حالة الهجر الكئيبة التى كانت عليها الفيلا فى ذلك الوقت تحت ظلمة الليل، ارتباطا عائليا حزينا وبائسا، سينهى كل ذلك، إنه وداع لما هو أكثر كآبة "سأنصرف..."، كان يريد أن يكسر صمت أورتنسيا وأخذ يبحث فى يأس شديد عن بعض كلمات تافهة فى ذاكرته، ولكن كان رأسه فارغا: وباتت تفاهة الكلمات اللطيفة بلا معنى: ففى تلك الليلة إن لم ير إشارة فى الأشياء، إشارة للمصير، شيئا يشعل الغد المرتجف واللانهائي؛ لم يكن عقله مستعدا للعمل ولا شفتاه للتحدث. فبالرغم من ذلك، أيقظ الحقيقة عندما تذكر رسالة تيريسا فى جيب قميصه، فوق قلبه، وفى هذه اللحظة امتد كتف أورتنسيا المرتعش محدثا صوتا بجانب علبة التبغ، مبدلا لديه شعورا سارًا وطارئا بالمسئولية: حيث كان الليل يسدل ظلمته، وبعدما انحنى ودخل إلى الكوخ وأخذ سروال الفتاة، وعندما التفتت ليعطيها إياه، رأى عينيها المطفأتين وهما تمعنان فيه النظر فى الظلام. خيالها الساكن فى الضوء الرمادى المنبعث من الخارج، على الباب، كان فى الحقيقة خيال تيريسا، ولكن (لماذا لا ينبعث ضوء من خصلات شعرك يا صغيرتي، ولماذا تبدو عيناك باردتين؟) خيالها فقط. وإذا كان ذلك يكفي: حاول إنقاذ الموقف بنظرة متجهمة بين الرقة والانشغال؛ لامس خد الفتاة المحترق بتلك الخبرة البائسة التى راحت تنمو معه فى صباه وانتهى من التخلص منها ولكن وجد نفسه فجأة ملتفا فى رائحة العطر البارد لحبات اللوز اللاذعة المريرة

المذاق، انحنى عليها وأخذ يجذبها إليه وبدأ يقبلها. كما لو كان كل ذلك يحدث فى مشهد عظيم، وأضيئت أنوار المعرض فى نهاية الحديقة. سمعا صوت العجوز العذب ينادى أورتنسيا من داخل المنزل، ولكن قررا أن ينتظرا قليلا. وكانت الظلمة أكثر كثافة فى كل مرة. ثم خرجا. وهمست وهى تبتعد عن يديه "تعال، هيا بنا فلنطلب منه أن يعيرنا الدراجة البخارية" وأطلق مانولو لنفسه العنان، وهو طائش. وأعادته دفقات النسيم الليلية إلى الواقع من جديد، وعندما دخل المعرض ترك يد الفتاة.

وجدا الكاردينال فى حجرة الطعام.

فكر الكاردينال:

– كلا، لا أعتقد ذلك، لا يمكن قبول ذلك.

كذبه المُرسى قائلا:

– لديّ صديق فى مونكادا...

– لا لا

– انتبه فمن الضرورى أن تزوره، عجبا، فلا تكن ديوثًا

– لا.

وإلى جانب أنه رفض أن يعيره الدراجة البخارية، طالبه بأن يعيد الأموال التى كانت دَيْنًا عليه، الأموال التى أعطاها لأورتنسيا مؤخرا؛ وعودًا كاذبة ومزيفة بخطبتها.

احتج على ذلك قائلا:

– هذا لم يحدث.

كان العجوز يقرأ الجريدة جالسا على الأريكة، وكانت أورتنسيا تأتى وتذهب بوجنتيها المورّدتين وهى تحمل ملابس نظيفة (فكانت قد أعدت منضدة الكى المستندة إلى ظهر مقعدين، فى جانب من حجرة الطعام إلى جانب المصباح العمودي) وقد تركت كل شيء فى النهاية وجلست على الطاولة تستمع لهما. وخصلات شعرها مصففة فى غير إتقان.

وقف عمها وألقى الجريدة على الأرض وفجأة بدأ فى أداء بعض الشعائر الدينية المهيبة الورعة الخاصة بفرائض الحج بجميع جنبات الشاليه (وتبعه مانولو مقتربا منه وهو يزيح قطع القماش المتدلية من ثيابه المتطايرة وكأنه خادم فى الكنيسة يطالب بجلسة خاصة) فى الطابق الأسفل والأول، يصعد ويهبط درجات السُلم، ويُعّدل وضع لوحة ما هنا، شمعدان هناك، نافخا غبار تمثال، زورق، بعض المساند الكبيرة. رفض الرجل الطيب العجوز أى مناقشات مع الفتى وكان يبدو مُصغيا إلى صوت بداخله فقط. "أتقُول صديق مُقرب، مريض، فى مونكادا...؟ كاذب". كرر ذلك عدة مرات وكأنه يقول ذلك لنفسه. فالضرورة التى كان يراها تُطل من عينى المُرسى تنطوى بلا شك على اسم فتاة شابة (لا امرأة حتى). ولكن لم يكن ذلك هو أسوأ ما فى الأمر لدى رجل مثله، ذى أفكار عامة عن الحياة وتوصل بالفعل إلى اعترافه الحقيقى بأخطائه الشخصية المتعلقة بالكون والحياة (كان قد أخطأ فى الزمان، والبلد، والدين والجنس) إلى جانب بعض المفاهيم التى تعتبر ليست بالمريرة ولكنها على الأقل مؤكدة؛ فالسبب الحقيقى للشرور التى أصابت فتى شديد الذكاء مثل مانولو تنحصر فى تلك التى يكررها هو باستمرار: "فقليلا ما نهوى الذين يعشقهم الآخرون، وكم يعجبنا السير على غير هدى". أما فيما يخص بقية الأمور، فلم يكن لديه أى شيء يتعارض مع "تلك الفتاة" التى سلبت عقله، ولكن من المناسب العيش مع شخص ما، أعرف ذلك، بالرغم من أن لديه الرغبة فى العودة إليها؛ ولكن لإشباع رغبة العودة إليها لابد من هجرها أولا وهنا تكمن المشكلة. "يا بني، السيدات لا تفهم هذه الحركات من الذهاب والإياب الممتعة فى حياة الرجل" "يا سيدي، فلتسمح لى أن أستعير الدراجة البخارية. فلديك الكثير من الأشياء المملة" "لا، ولا، ولا" واستمر موضحا له أمور الحياة ومخاطرها. استمر لأعوام فى ذلك، وكأنه لم يكن شيئا. "سوف تقدم قربانا بلا جدوى، ولكن الأمر المؤكد أن أحدا لا يريد أن يتعافى من مرض الصبا والشباب".

وكان يبدو من صوته أنه لم يشرب كثيرا، ولكنه أظهر انسجاما حانقا وغير مُجد للأشخاص الفاقدين للوعى المعتادين على الدفاع عن أنفسهم ضد الوحدة.

ولم تَتبعهم خيرنجا فى طريقهما للمنزل، ربما لأن ذلك المشهد لم يكن جديدا بالنسبة لها. ثم عندما جاء عمها منهك القوى، جلس مستلقيا على المقعد المصنوع من

نبات الصقصاف، واستند برأسه إلى الوسادة (فى عمله المعقد الجنونى كان قد ترك الفراش بلا وسادة حتى يصل سريعا إلى الحديقة تحت الهيكل العظمى المضيء حيث كان يبدو أنه قد قام بتجميع أشعة الشمس عند انعطافه). واندهش مانولو عندما رأى الفتاة واقفة من خلفه، وهى تنظر بدقة إلى شيء ما على الأرض، وتركت يديها تغوصان فى جيبى ردائها الأبيض الذى يشبه رداء الأطباء، وتضغط لأسفل بداخل جيوبها، ثم حلت شعرها مرة أخرى واحتذت حذاءها ذا الكعب. ولم يتذكر هو هذه التفاصيل لوقت بعد ذلك. عندما أخرج علبة التبغ من جيب قميصه الصغير كى يعطى الكاردينال وما زالت خيرنجا تبتسم تلك الابتسامة المعتمة، لم يرها هو، بل لاحظ فقط أنها تقترب من خلفه وأخذت تنحنى لأسفل لتبتعد سريعا بينما استمر الكاردينال فى رفضه الحاد أن يأخذ الدراجة البخارية وهدد بطرده وعدم عودته مرة أخرى إلى هذا المنزل. عرض عليه مرة أخرى ولكنه رفض ("سيجارة؟ كلا، حتى وإن جثوت على ركبتيك، على ركبتيك، أيها الخبيث"). ومازال المُرسى يردد مقطوعة من أغنية توسل وتضرع ولكن الكاردينال لم يُرد أن يستمع لأى شيء غير صوت الموسيقى بداخله (وكأنها مقطوعة لبيتهوفن، صمّاء ومنفردة فى أوقات قمته وشهرته). لم تنجح أى حيلة من حيل المُرسى وقرر أن ينصرف. وكان يعتقد أن أورتنسيا تقوم بأعمال الكيّ ولكن عند مروره من أمام حجرة الطعام رآها من ظهرها تقف بجانب الطاولة مطأطئة رأسها.

وفجأة التفتت الفتاة فى دهشة واستغراب ويداها إلى الخلف وكأنها تخبئ شيئًا ولكنه لم يدقق النظر فى ذلك وتبعته أورتنسيا بعينيها اللامعتين بينما هو يمر أمام حجرة الطعام إلى أن أنزلتهما على وجنتيها اللتين سرعان ما لاحتا متورمتين. وقبل وصوله إلى الممر، التفت إليها قائلا: "ماذا بك يا أورتنسيا؟".

بالخارج وعلى الجانب الآخر من زجاج المعرض، هبّت رياح ليلية تحرك خصلات شعر الكاردينال الفضية مضطجعا على مقعد الصفصاف. سمعاه يقول: "لا تذهب أيها الملعون". أسرع مانولو إلى الممر. ولاحظ عينى خيرنجا الناشبتين فى قفاه ولكنه استمر فى طريقه إلى باب الشارع دون أن يلتفت. وبينما كان يفتح الباب بدأ يسمع نداءات العجوز من الحديقة: "مانولوووووو" وكأنها تنبعث من بئر أو من أعمق مكان فى وهدة، كان صدى

الصوت مضحكا، مدلّلا، ومحتضرا، يأتي من بعيد، وبالرغم من ذلك كان مسموعا بوضوح من جميع أجزاء منحدرات الكرمل وأيضا من أعلى الحي: "مانولوووووووو..." . وداعا يا سيدي، أيها الشيخ العزيز. كان كل شيء غير مُجْدٍ إلى جانب أنه يُهدر وقتا ثمينا. ولكنه ذهب إلى الفيلا، وبالرغم من أنه ذهب على ظهر حمارة، فإنه لم يسمح لأحد ولا لشيء أن يستوقفه هنا. يرى تيريسا تستأنف الخطبة المتوقفة من جديد، يحصل على وظيفة، وفيما بعد، معترفا بذنبه، وظائف السيد سرات الجيدة (ما هى الوسيلة: طفل مانوليّ أشقر يقفز على ركبتيه، جنون الشباب، مرسية بلد جميل، بالرغم من كل ذلك) ربما يمنحونه الدّفعة الحاسمة...

الإدراك الجريء لتلك الآفاق الرحبة قد منعته فى غير شك من ملاحظة الغسق الحتمى والمنضبط في مواعيده فى كل ليلة. وعندما لمح الاحتراق المشتعل قبل أوانه الداخلي والمتزايد كان الوقت قد تأخر كثيرا: للبدء، خرجت هى وراءه، وانزلقت كالخيال فى الشارع، تبعته من بعيد حتى ميدان سانيلهى وبالطبع فقد رأته يترقب هذه الدراجة وقد انتهى الآن من القفز على مقعدها، كانت تراه بدقة من إحدى البوابات على بعد ٢٠ مترا وهى تجلس القرفصاء وتقرض أظافرها، لقد أدرك مانولو فى الحال (اتجهت يداه كالشعاع إلى جيب قميصه) أنه قد فقد الرسالة: فمن المؤكد أنها قد سقطت فى الحديقة عندما أخرج علبة التبغ وعندئذ قرأتها هذه الفتاة الجريئة... لم يكن الوقت يسعفه حيث كان عليه أن يهرب فى أسرع وقت إذا كان يريد ألا يكتشفه صاحب الدراجة البخارية، وبالرغم من ذلك ظل ينظر إلى الفتاة بعينين مختنقتين، وبركبة مطويّة فى الهواء، والقدم متوقفة على بعد سنتيمترات من دواسة الانطلاق. ما الذى يمكن أن تفكر فيه خيرنجا؟ نفس القلق الناجم عن الإجابة التى حصل عليها أطلقت ضيقه وغضبه وأطلق ذلك ساقه؛ وفى غير وعى أفسح الطريّق أمامه وتأهبت الدراجة البخارية من تحته للانطلاق. ونظر إلى خيرنجا للمرة الأخيرة. ثم فكّر فيما بعد أنه كان يجب عليه أن يخبرها بأى شيء، أن تنتظره فى المنزل، أنه سيعود سريعا وسوف يأخذها فى جولة بالموتوسيكل مرة أخرى غدا، أو من الأفضل إلى السينما، إلى حيث تريد، ربما كان يكفى لذلك إشارة باليد، ابتسامة، من يدرى (ستفكر فى ذلك فيما بعد)، ولكنه لم يفعل ولم يقل أى شيء، سوى أن أدار الدراجة البخارية وفرّ متجها إلى الساحل، تاركا الفتاة قابعة وساكنة عند تلك البوابة وذلك التدفق الذى يشبه القطط فى وجنتيها العريضتين الرطبتين، وفى عينيها الماكرتين الرماديتين.

لو أننى أموت على جبهة الجيش

أبولينير

تحت شمس منتصف الليل تطفو دمية على شكل بجعة "من البلاستيك" فوق مياه البحر الساكنة بمعدتها المليئة بالهواء وتنزلق ببطء فى ضوء القمر الفضى فى عدة جولات حول نفسها، شاردة فى ظرف ولا مبالاة، تحركها تيارات المياه المضادة بارتعاش ملبية أوامر بعيدة وغريبة تأتى من أعالى البحار. تدفعها دفقات النسيم ثم تحملها مباشرة لتطوف حول جوانب السفينة ذات الطعم الأجاج والراسية فى المرفأ. ومن نهر ثلجى ينحدر رافد واحد موحش وجليدى بشكل غير مألوف ينهمر الآن حول الفيلا وما يحيط بها تاركا لونه الأبيض الناصع على نباتات الصنوبر الخضراء ورمال الشاطئ الصفراء. قبل ذلك بسويعات كان قد فر الغروب بطبقاته السماوية الحمراء من وراء مجموعة من الجبال المقتربة من الفيلا وذلك بعد أن انكسر ومضه الأخير من فوق الفيلا فى شكل مقوس كأن ضوءا يخرج من فتحة باب موارب. وأسدل الليل ظلمته إثر وصول دفقة النسيم. تنحنى شجيرات الشربين الصغيرة التى توجد بالحديقة فى خفة وإثارة وارتعاش يجذبها سطح المياه المترقرق وكأنها أناس مدعوون فى وضع التأهب لبدء مغامرة الصالونات.

انحنى مانولو بظهره وضغط بدالة البنزين من بين قدميه. وعندما كان يجرى بالدراجة النارية كانت هناك بالونة من الهواء تحت قميصه قاطعا مسافات طويلة وعدة ساعات من الليل دون أن ينتبه إلى الإشارات واللافتات الموجودة فى الطريق (لافتة واحدة فقط: تحت السهم كوستا برافا). فى هذه المرة كان يمتطى دراجة سريعة وبراقة من طراز دوكاتي. كان يعرف أنها باهظة الثمن، فكانت أعجوبة من الكروم البنفسجى

اللون، كانت هوى الأبطال والأطفال (هو نفسه فى بداياته كهاو للدراجات النارية كان يحلم بأن يمتلك واحدة مثلها من نفس الطراز) ولكن كان يعلم أيضا أنها مثل الفرس، هوائية ومتقلبة. ضغط بدالة البنزين وأسنانه مغلقة أمام هياج الرياح وكان ملتحما تماما بظهره إلى الفتاة حتى إنه كان يشعر بخفقات قلبها الهادئة والرقيقة. كان يسرع بالدراجة فى شارع عذراء دى مونتسرات. تقدم إلى مجموعة من راكبى الدراجات العائدين من العمل واقترب من دراجة من طراز داوفين رمادية اللون وأخرى من طراز سيات يقودها رجل ذو شعر أبيض إلى جانبه كلب ضخم وفتاة تضحك وتلقى برأسها إلى الخلف، كان يسير فى وسط الطريق (دقق جيدا فى تفاصيله لأنه ظل ملتصقا به لحظة) دون أية رغبة واضحة فى أن يفسح له الطريق ، ولكن مانولو لم يتخطه فقط بل واقترب منه فى خطورة وجعله يضغط الفرامل. ثم عبر ممر ماراجاى فى غير حذر وسلك شارع جارثيلاسو حتى وصل إلى كونثبسيون أرينال، مستهلكا البنزين وانعطف يسارا وغيّر السرعة باتجاه سان أندريس. وأسرع بالدراجة خلال دقائق مارا بأراضى بناء مهدمة حيث كان الأطفال يلعبون بشعلات النيران ثم عبر فى بطء شارع رملة سان أندريس تحت نظرة رجل المدينة المليئة بالظنون والارتياب. وعاد مرة أخرى ليتجاوز سرعة الثمانين ولكن عند وصوله نقطة التفتيش هدّأ السرعة وتأهب ليسلك اليمين تاركا على يساره شارع فيتش، وهناك وفى غير إدراك (كان يعتقد أنه قد نسى الرجل ذا الشعر الأبيض للأبد) ألفاه منطلقًا ومتجها بلا شك إلى الساحل وبسرعة مساوية له تماما، وعندما اقترب منه عند الدوران فجأة سمع نباح الكلب وكان على الرجل الإمساك بركبة بنت أخيه الجميلة لأنه كان مضطرا أن يصطدم بحائط نقطة المرور على الرصيف. وبالرغم من ذلك فقد عاد ليسبقه قبل أن يصل إلى جسر نهر البيسوس بقليل.

كان يرى أضواء سانتا كولوما دى جرامانيت من هناك. وكان أمامه الطريق واسعا ومستقيما على بعد ثلاثة كيلومترات وأمامه مجال واسع للمرور، وبالتواء خفيف فى الجسم سلك اتجاه اليسار وأخذ يتعرج بالدراجة بين جانب حافلة والنافذة الخلفية (بستائر مزينة وكأنها منزل حقيقي) لدراجة أخرى من طراز "روليت" وأخيرا اجتاز عربة كارو تحمل ذُرة وأتى فى اتجاه معاكس وسلك اليسار من جديد ليترك وراءه سيارتين منفصلتين

بعضهما عن بعض بأقل من مترين مستغلا السرعة كى يندفع بالدراجة دون أن يعود ناحية اليمين ليمر بحافلة ضخمة بها أضواء تبدو وكأنها تطفو فوق مياه زرقاء وكانت تخبئ خلفها العديد من راكبى الدراجات النارية تماما مثل الدجاجة التى تحمى صغارها.

وعندئذ انطلق بسرعة جنونية باتجاه الجسر فى تحد لجميع السيارات التى تأتى من ناحية اليسار. وأسرع بدراجته الدوكاتى حتى بلغ المائة وخمسين فى الساعة وهى تهتز كثيرا وكأنها فتاة مُرتجفة ولكن دون أدنى صخب. ولكن إذا سقط فى مطب سيذهب إلى الجحيم. كانت أعمدة الإنارة والأضواء تظهر فى المرآة العاكسة ثم تبتعد فى سرعة هائلة وكأن دوامة سوداء ومجوفة تبتلعها فلا تبقى لها على أثر. الطريق وعر ومليء بالمخاطر حتى إن راكبى السيارات أنفسهم لم يصدقوا أعينهم فى نهاية هذا الأسبوع. بينما ظلت أورتنسيا فى الخلف فاقدة الحس والإدراك وأيضا تفسد فى ذاكرة المرآة الباردة إلى جانب العجوز الذى لا عزاء له، الورشة والعائلة ومنزلها بل والحى بأكمله. فالسرعة الهائلة التى تطور بها كل شيء فى الفترة الأخيرة بدءا من اختفاء تيريسا المفاجئ والتيه فى المدينة والإرهاق فى البحث ومفاجأة الرسالة التى تتضمن دعوة للهذيان وقبلات أورتنسيا والفقر والجوع (مواعيد الوجبات المتغيرة والمقننة منذ أسابيع وربما منذ شهور) ونفس رائحة الكاوتشوك المحترق بسبب التوقف المفاجئ بعد قيامه بالتخطى المثير للضحك على بعد ستمائة متر تصبح مادة خصبة للتفكير والتأمل خلال أعوام. ولكن دوار الطريق التقليدى لم يستطع أن يفسر له كل شيء، فلم يكن ينطوى على سر الباعث المبدئى برمته (لكثير من الطواف ليلا فى فصل الصيف والمهرجانات الشعبية): بعض التفاصيل والتلامس الجسدى الذى يسيل العرق والأرداف والسيقان الملتهبة هى فى النهاية محصلة القوى الخفية التى تدور برأس المُرسى الشامخ.

تخيم غلالات رقيقة من ضوء القمر على أبراج الفيلا وتلاطم الأمواج والعزلة والحصانة الكاملتان بعد ٦٥ كيلومترًا من قيادة دراجته، وما غير سراب. ربما تسهر ليلا مؤرقة ولكن ليس فى انتظاره. المكان: (ربما الذى اختارته "مدام مورو"[١]): غرفة ملكية لمانولو بجنوب البحر المتوسط[٢]. الزمان: فى تمام الثانية عشرة تقريبًا.

---

(١) جان مورو (١٩٢٨ –) JEANNE MOREAU ممثلة ومخرجة سينمائية فرنسية.

(٢) العبارة بالفرنسية فى الأصل.

سيكون كل شيء كعادته إلا هدير مياه البحر (الذى ينمو، مهدئًا). سينطلق فى صمت تحت أشجار الكافور الموجودة بالحديقة ويسير على فراش من أوراقها إلى جانب سور ملعب التنس الحديدي، سيقترب من الحائط الذى تكسوه أشجار اللبلاب بجانب "التراس". وشعر برجفة شهوانية فى يده "اهدأ، يا فتى" عند ملامسته سطح النباتات الكثيفة الأوراق الغارقة فى ضوء القمر، أوراق اللبلاب الباردة والرطبة، بينما كان يبحث بداخله عن مصرف مياه المطر غير الظاهر وساق نبات سميكة يستعين بها فى التسلق. ثم توقف وأخذ يفكر فى حيلة ليتجنب فراشة ذات أجنحة جنائزية، فراشة احتضار وموت حتى لا يتذكر بعض ذكريات الماضى الأليمة فقد رأى وجه ماروخا المستلقى على الوسادة معلنا عن السقوط المفاجئ (وقد تعرف فى المرآة العاكسة على الراهبة المرتعبة منه وهى تبتعد للخلف وترفع ذراعيها لأعلى ومن المؤكد أنها تصرخ وتغوص فى الطريق كما لو كانت تغوص فى رمال متحركة) ولكنه أمسك فى النهاية بساق نبات اللبلاب الخشن الملمس وبدأ فى التسلق. كان يلمع على كل ورقة من أوراقه ضوء القمر الفضي. ثم قفز إلى "التراس".

كانت هناك مظلة تحتها طاولة صغيرة إلى جانب أرجوحتين (إحداهما حمراء والأخرى صفراء) وأخذ يتثاءب أمام وشيش مياه البحر. وانزلق معه القمر من جانبه مساعدا إياه على إفساح الطريق من خلال مجموعة من التهديدات والسباب غير المألوفة (وجوه غاضبة وذاهلة مازالت تطل من نوافذ السيارات فى صياح وصراخ) بينما كان يسير ناحية الباب الزجاجى ذى المربعات البيضاء التى توجد بغرفة تيريسا. وهناك أصيص كبير به نبات يثمر أزهارا بيضاء صغيرة تشبه قطع الثلج ثم ظل هناك وكأنه حارس على نفس الباب. بداخل الغرفة كان هناك ممر ضارب إلى الزرقة لانعكاس ضوء القمر عليه وفى آخره جانب من غطاء السرير الرقيق الموجود بجانب الحائط ويختفى تحته جسد نسائي. دفع الباب الزجاجى الذى انفتح على جزء من التراس عند دخوله (لماذا كان يعكس مصباح دراجة من بعيد؟) كانت هناك موجة عند الاقتراب من المرفأ، دفقة نسيم حركت خصلات شعره المسترسل على جبهته وأحدث الباب الزجاجى صوتا، ولكنه كانت تسيطر عليه إغفاءة هادئة. كان يشعر بالحزن والكآبة وخفة الوطواط. أربع خطوات على الباركيه،

اثنتان على السجاد، اثنتان أخريان على الباركيه ثم استلقى على غطاء السرير الأبيض. نهاية المشوار.

كان يتخيلها وهى ترتدى قميص النوم ذا اللون الخبازى "من فضلك" وشريطا أسود من القطيفة فى شعرها الأشقر. كانت نائمة فى فراش به رف للكتب، على أحد جانبيها وظهرها إليه، وكان فمها يبدو متجها لأسفل. كانت الملاءة تغطيها حتى الجزء العلوى من خصرها تقريبا، وهيئتها على السرير ذكرته بطريقتها فى السباحة، حركة الذراع المبهجة والواثقة فى مياه عميقة وساخنة إلى حد ما، تلتف إحدى الذراعين حول رقبتها والأخرى تطوق ردفيها، كان يبدو منظرها ظريفا وهى واقفة وتنهل من أشعة شمس خيالية، اقترب خيال الوطواط فى دهشة منها يشده بريق كتفيها البرونزى ولاحظ الحيوية الجريئة والعنيفة التى تنبعث من رقبتها الوردية وهى نائمة ثم أحاط به سريعا تدفق الحلم الوردي: فكان يوما يبعث على شذا الكريز، وكم كانت تبدو هى طفلة عزلاء. وكان يتخيل منظرها البتولى المطضجع على الوسادة البيضاء، فكان من السهل توقع مراقبة والديها الشديدة التى تخضع لها طوال اليوم (وأيضا عندما تظهر السيدة سرات فى مكان ما فى الغرفة) إلى جانب دائرة الشكوك والمخاوف العائلية التى توحى بجرأة هاتين الشفتين الشقراوين المتشققتين الحزينة والمستهترتين بسبب غضبها الطفولى والأسلوب المعادى للبرجوازية الذى استمدته منهم.

أين ينام والداها والضيوف؟ قريبا أم بعيدا عن الابنة التى بدت لهم فاشلة؟ كان يفكر فى ذلك وهو يتذكر الرسالة. هذه العناية المُفترضة التى كانت تحلم بها الفتاة، هذا الاقتراب الجسدى المحتمل من القريبين من قطلونيا كانت له أهميته الكبرى (بعيدا عن الفتى الوسيم الأسمر الذى رآه فى الحديقة صباح هذا اليوم، فضلا عن ابن عمها الآتى من مدريد ربما يكون مستيقظا للانتهاء من تفاصيل ضربة بداية جديدة كان يريد أن يُعلمها إياها). حيث كان من الممتع تخيل والديها نائمين فى فراشهما الضخم (إذا أمكن بناموسيتين صفراوين) بينما كان ينشغل هو بشعور كبير من المسئولية بتكليف من العائلة، مثل الاهتمام بالعائلة وتحويل الطفلة إلى سيدة لمصلحة الجميع. فى تلك اللحظة حركت تيريسا إحدى ركبتيها. والآن (كان قد ترك باب التراس مفتوحا) نفذت

بعض ومضات القمر على ردفيها من بين منفرجات المشربية الخشبية. تغيرت أنفاسها وحركت شعرها الأشقر الأشعث فى قلق واضطراب وطلبت من الحلم شاطئًا أقل عزلة وسأمًا وأكثر شعبية فكان لها ما ابتغت حبًا فى ابتسامتها. آه ياتيريسا كم أنت سعيدة، إذا كان حلمك رقيقا فإن استيقاظك أكثر رقة. كان يفكر خبير الأحلام والكوابيس، الوطواط اليتيم، وهو يتأملها فى عطف وحنان. ثم تأوهت تيريسا وهى تضع يدها على ردفيها، يد سابحة وأصابعها المغشى عليها التى مازالت تطلب الصداقة وحماية صديقها فى وسط هذا العالم من الساذجين، وعندئذ أخذ مانولو يدها برقة بين يديه وفى نفس الوقت كان يجثو على ركبتيه إلى جانب السرير ثم أغمض عينيه ضوء ما (نفس ما حدث بعد التوقف الثانى للسيارة ماركة سيات الملعونة، قبل أن يصل إلى الجسر كان هو خارج الطريق وكان الطريق مغلقا ودراجة الدوكاتى السالمة – حمدًا لله – ومن النافذة يطل وجه الكلب الذئب للسيد وابنة أخيه). كل هذا جعله يفكر أنه يجب ألاّ يتخاذل وإنما عليه أن يتحرر من ملابسه تماما ويضطجع فى السرير ويعانق تيريسا... وفيما يتعلق بالفتاة الجامعية فهو دون شك استيقاظ لذيذ دون قلق وفزع، يمتد طوال رحلة شهر عسل إلى الجنوب. أخذ مانولو يفكر: وإذا رفضتني؟، انظر أين كنت وكيف أصبحت... صرير هواء من جديد من بعيد جدا، وجملة مظلمة (تيريسا يا حبيبتي، يا وردة الربيع، يا ملكة المُرسيين، احمليني معك إلى أقاربك القطلونيين) بينما كان يقبل خصلات شعرها فى رقة وعذوبة. كانت يده تحترق. قبل أن يوقظها كان عليه أن يكبح جماح نفسه قليلا ويتأكد من عدم الملامسة بيده قبل الوقت المناسب. (أين كنت وكيف أصبحت...) حتى لا يفزعها. كانت تيريسا بمفردها فى الغرفة وكانت الفيلا كلها نائمة بداخل حصون كثيرة، واثقة ومنغمسة فى سحبها العالية: وبالتالى لم يكن هو متخوفا من شيء إلا من نفسه هو. من حوله كان كل شيء غير مُرتب فى لذة ورقة صبيانية: ملابس ومجلات وأسطوانات على الأرض ودب من القطيفة تلمع عيناه الزجاجيتان فى الظلام ودمية وحذاء رياضي.

أسند ركبته إلى الفم الشيطانى الأحمر اللون والذى يشبه فم مارلين مونرو (إعلان جديد وبراق فى مجلة "هي" التى قرأت فيها تيريسا برجها تلك الليلة، ولكنه فضل أن يُمعن النظر فى القارورة التى تحتوى على خمس أزهار على منضدة بجوار الفراش. منظر

فاتن، منظر الأزهار. هل كانت تؤثر على النوم؟ هل كانت تؤطره بأحد فصول الربيع؟ ولم يستطع مقاومة الرغبة فى استنشاق رحيقها قبل أن يكون ملكا لتيريسا، وعند استنشاقه شذا الأزهار امتلأت حواسه بمهابة دينية ومقدسة، مشاعر خاصة بفترة قبيل التكريس الكاثوليكى للزواج (تيريسا دى رييس ترتدى ملابس بيضاء وتغمرها السعادة، حامل عند المذبح) وعندئذ انطلقت رغبته وتخيل أنه يعانق الفتاة (مانولو أو إعلان الربيع[١]). ولكن لم يكن هو صعلوكا أو وغدا مُتحينا للفرص، والشيء الوحيد الذى فعله هو أنه ضغط قليلا يدى الفتاة ليوقظها. حل مُرعب ومخيف من جانبه وكان قد تأخر من ناحية أخرى لأن تيريسا كانت تُيسر الأمور مرة أخرى: تركت يده دون سابق إنذار ودون شك عندما رأت الدخيل الحذر والمرهف الحس والمحترم بشكل غير مفهوم (أين كنت وكيف أصبحت...) وعادت شكاءة ثم التفتت إليه: همست وطرفت بعينيها وفجأة نظرت إليه فى دهشة بعينيها الزرقاوين المفتوحتين.

فجأة جلست تيريسا على السرير دون أن تبدى أى اهتمام بقميصها الشفاف. كم يبدو كل شيء سهلا وبسيطا فى ظل تلك النظرة المزدوجة والعاشقة (فى عينيها بحيرات زرقاء، وحلمتا ثدييها تبدوان ناضجتين قبل أوانهما). وسرعان ما شكل العاشقان مشهدا بريئا ومبهجا لملاكين فى إعلان احتفالي، الجبهات ملتصقة ومنحنية فى عشق ودهشة، بريق دينى ينبعث من حجر الفتاة. وأصدرت تيريسا صوتا غير مفهوم تشسسسسسسست... وهى تضع أصابعها على شفتيها، ثم ابتسمت وتأوهت وهمست بكلمات من برقية خوف وفرح: "لقد أتيت... يا مجنون... مفاجأة... وإذا وجدونا معا؟...". إذا نحينا الهراء جانبا: أخذ هو يداعب خصلات شعرها وكتفيها المحترقين وضمها إلى صدره. "تسلمت رسالتك هل أنت سعيدة لرؤيتي؟" هذا كل ما قاله. كان هناك خوف ما (ولكنه مسيطر عليه كثيرا من ناحية أخرى) فى عينى الفتاة ليس بسبب الرغبة الملتهبة التى تشعر بها فى يدى وشفتى المُرسى (لهيب لم يطفأ بعد، وكانت مستعدة تماما لتغرق وتبلى فيه) ولكن بسبب الهدوء

---

(١) إحالة إلى رواية إسبانية معروفة حينذاك تحمل عنوان "إوخينيو أو إعلان الربيع" (١٩٣٨)، للإسبانى رفائيل غرسيه سيرانو (المراجع).

الغريب الذى باتت فيه الفيلا غارقة. وعندئذ كان سيحدث شيء متوقع، ولكن لم يعه هو فى الحال، ربما تكون نيته الحسنة فى ذلك الوقت: تحررت من حضنه وقفزت من السرير وفى دقيقة واحدة تحركت وهى شاردة وتائهة من هنا إلى هناك لتجرى فى النهاية نحو باب الغرفة وكأنها تهدف إلى النجاة، بادئة ما كان سينتهى إلى هروب يائس، هى عزلاء خائفة وشبه عارية وتهرب بالكاد مرة وأخرى من براثن ومخالب بعض الحيوانات (كان ذلك ما فكر فيه)، وبساقيها العاريتين وخصلات شعرها المتطايرة وقميصها الخفيف الذى كان يحاول ألا يسقط أثناء جريها (ولكن كان ذلك فى الحقيقة مستحيلا) أخذت تلدغه فى أعلى فخذه برقة ونعومة وعرضت سلسلة من الصور السريعة والغاضبة والتى بدت مُرتبة بشكل لائق فى ذاكرة المُرسي، فمنذ عام فقط كان يبدو له ذلك شيئا لذيذا ومحببا ومثيرا لضحكته الساخرة كحيوان قروى كان دائما يطأ الحدائق المثمرة والمزهرة فى الأحياء التى يعيش بها الناس عندما كان يجرى وراء مؤخرات الفتيات المرتعشة، كان ذلك أمرا غريبا فى الفيلا تلك الليلة أمام فرار الفتاة ومنطقيا كان يستحق الانتظار للاستمرار فى ذلك الأمر أو نهايته بمعنى أدق. (ولم يكن ذلك مشهدا لمتابعتها إلى السرير مثلا ولكن إذا لم يكن الوقت قد ألقى بمانولو فى هذه الغرفة فى الحقيقة وفى هذه الحالة من الجيشان المختلط بالأمل، متحولا إلى شخص سريع التصديق، خائف ومحافظ على العرض والكرامة، خطيبها إن جاز التعبير، بعكس حال تيريسا، من جانب آخر، فقد حولت تلك التجربة الغرامية هذا الصيف الفتاة إلى فتاة جامعية واقعية، على وعى ودراية بالوضع الاجتماعى والجنسى لكل منهما، شيء مماثل لما يمكن أن يستدعيه هذا الفعل الهمجى واستحضار الشهادة الجامعية، كان له مكان بلا شك فى هذه الغرفة، وبالتأكيد بفرحة وسرور غامر لانطلاق رغباته) ولكنه لم يحرك ساكنا ولا حتى إصبعه ليوقفها، ظل مُتجمدا عند مؤخرة السرير ولم يستطع مانولو أن يتعرف أو حتى يتشكك فى نية تيريسا الحقيقية، والتى لم تكن بالطبع الفرار من أحضانه، ولكن ببساطة شديدة التأكد من أن كل الناس نيام فى الفيلا ولا يوجد هناك أى خطر، ولذلك فتحت باب الغرفة وأطلت لتترقب الخيالات على السلم وفى الدهليز، ساق عارية فى الهواء تكشف عن نهاية طرف قميص النوم، وأغلقت الباب فى هدوء وإتقان (فى اطمئنان بالمفتاح، بالمفتاح) ثم التفتت إليه وابتسمت وهى

تستند بظهرها إلى الباب. وفجأة جرت مرة أخرى ولكن إلى المرحاض، حيث اختفت بالداخل بعد أن أضاءت النور (ومن خلال الباب الموارب رأى حركة ذراعها المتوحشة والمسرورة أمام المرآة، أصلحت شعرها سريعا وخديها المحترقين، وقميص النوم) وفى الحال ظهرت مرة أخرى وهى واقفة على عتبة الباب، وكأنها ظافرة ومنتصرة مثله فى نهاية طريقه بالدراجة البخارية. ساكنة، وتبتسم بخوف فى وسط الضوء المعاكس، نظرت إليه بتمعن لمدة دقيقة واحدة ثم جرت إليه وألقت بنفسها بين أحضانه. لم تكن ترتدى الشريطة السوداء القطيفة فى شعرها.

– تيريسا. هل أنت صادقة معي؟ أحيانا...

– ماذا؟

– لا أدري... كنت أفكر أنك ستتركينني. هل أنت خائفة؟

– لا.

– أحقا كنت مريضة؟

– لقد انتهى الأمر.

كل شيء انتهى. فالحاضر وضعت له الشرائط الخفيفة الرقيقة الحريرية قيودًا تذوب بين حرارة الأنامل ومطاط ملابسها الداخلية يترك أثرا خفيفا ورقيقا على جسدها. الضباب البنفسجى العطر الذى يُغطى جسدها ويغلف ردفيها فى غير وعي، ونهدها العاجى الصغير، ينزل لأسفل حتى الأرض ويطفو حول قدميها العاريتين، واقفة على أطراف أصابعها فوق هذا الثغر الشخصى الخالد بين ما هو خفى وما هو واضح: لأنها أغلب الظن أصغر وأكثر ضعفا وملتحمة بوازع غامض من الذى يفكر فيه (إيماءتها الطبيعية والتلقائية، مثلا، لتبعد عن وجهها خصلات شعرها الشقراء كى تعود إليه مرة وأخرى بشفتيها الرطبتين، بنفس الطريقة الهادئة عندما تنهل من ينبوع ماء عام) ولكنها أيضا بعيدة ولا تهدم، مُحرمة وحصينة كما لو كان وجهه يتراجع تحت موجات غسق الشمس والسحاب، ويغرق كل مرة بعمق أكثر فى حلم آخر، فى أجواء مازالت بعيدة ومحرمة فى

الفيلا، فى غرف لا يدخلها أحد وموروثة من عفتها وحمايتها عند الاستيقاظ (فإذا استيقظ هو هنا إلى جانبها) فستكون صعبة الإخماد أكثر من تلك الخاصة بهذه الغرفة.

ربما يكون هناك أيضا فراغ، فترة زمنية بلا ذاكرة من المستحيل ملؤها بأى شيء فى تلك اللحظة، دقائق حاسمة تجعلهما يطيران من هذه القمة الخريفية ذات اللون الخبازى حيث يقاومان معا، وهما واقفان متعانقان، الهجوم الحاسم المزدوج بين الشتاء والعقل، وصولا إلى الوسادة حيث تضطجع هى برأسها وشفتيه الجافتين بعد أن امتص رحيق شفتيها الشقراوين والذابلتين، وبعد أن أغمض عينيها المرهقتين، وغرقا فى رقبتها وكتفيها لدقيقة واحدة ليسافرا بعد ذلك ويهبطا ويفرا فى رحلة لا نهائية بين الرُبى الناعمة المزخرفة إلى الجنوب والاستلقاء على سرير من الرمال الذهبية على شاطئ يمر عليه هدير مياه البحر وأوقات الفراغ الذائبة فى حرارات غير خامدة طوال فترة فصل الصيف: وتتابع دفقات النسيم وتجر معها البجعة بشكل أسرع من غيره ثم تتخطى الطبقة العليا من زبد البحر والموجات الصغيرة الهادئة (التى تخضع لتيارات مائية أكثر تمهلاً) ويُقال إنه مثل كف يدى يا حياتى سأتعلم عن ظهر قلب خارطة بشرتك المضيئة لنسبح معا فى صيف آخر، سأنفذ إلى سر الحركة المتحررة لردفيك الرقيقين البرونزيين وسأكون مخلصا لك حتى الموت. وفيما يتعلق بالباقي، فوداعا يا فتيات الحي، المفتقرات إلى الشذا، نهود ميتة وذابلة، خصلات شعر فى مهب الريح على السفينة وعلى سلم الطائرة وفى التراس المطل على القمر، فإن الجباه الذهبية وعيون أطفالنا الزرقاء المولودين فى اليخوت والبواخر عابرة المحيطات والناقلات الليلية السريعة أو أجهزة البيانو العمودية بين شمعدانات أو على حافة حمامات السباحة الخاصة أو بالإفطار الجاهز على السرير على جلود النمور، وليس فى الظلمة الغامضة التى تشوه العيون والأرداف السئومة من تثاقلها. لا لم يعد لا، لم يعد نعم، معا بين العضلات البطيئة الطويلة والمهيبة التى تنعكس عليها أشعة الشمس والتى تنضج شتاء كعطاءات ذهبية، مثل بطاقات ملتصقة بأمتعتنا لفنادق بعيدة، كندبات محببة لمغامرات شبابية قديمة فى الجُزر، ونغمات الموسيقى هذه، هل تسمعينها؟ ، فنعرف من أين تأتى تلك النغمات والمساء المبهج الذى ينتظرنا فى منزل العائلة حيث تتحرك مضارب التنس والإيشاربات والهدايا الملفوفة بشرائط حمراء من

الحرير والتى لم نستطع فكها حتى الآن، ولكن تلك الأكواب الزجاجية ملك لى ولك، إيقاع نغمات الموسيقى الرخيم والتناغم والاشتياق والحمام والقبلات فوق ملاءات مصنعة من الخيوط الرقيقة فوق نباتات الحديقة والكرامة والاحترام وأكثر، وأكثر بكثير يا صغيرتي، فأنا الآن لديك مجنون وتائه، ملك لنا يا تيريسا: يا حبيبتي، هذا يكفي...

- بطاقتك الشخصية...

قبل أن يأتى الصوت الجاف والفظ منقضا عليه ويلزمه أن يخرج عن الطريق، أن يفرمل بشكل خاطئ ثم يسقط ، ولم تكن هذه المرة مصابيح سيارة ولكن دراجتين (غاضبتين وداكنتين) من طراز سانجلاس بقائديها قد لحقا به، رافقاه ثم سدا عليه الطريق فجأة، عندما منعته شاحنة وسيارة من الفرار حيث كانتا تسيران أمامه ببطء. جرى لبضع دقائق بجانب كومة من التراب مغطاة بالعشب إلى أن فقد توازنه وسقط ناحية اليمين. استوعب الأمر فيما بعد بكثير لأن هناك فى الفيلا كل شيء يسير وفقا لما هو متوقع ومنتظر ماعدا صخب أمواج البحر (تزداد وتزداد تهديدات جلبة دراجات السانجلاس) واكتشف أيضا أنهم إذا أتاحوا له الفرصة ليخرج من برشلونة سيكون ذلك بصعوبة بالغة: كان فى طريق سانتا كولوما، الجسر من أمامه، إلى جانبه على بعد بضعة أمتار أسفل مستوى الطريق ضفاف النهر التى تتناثر حوله النباتات والأعشاب، خطوط السكك الحديدية ومجموعة من أسطح المنازل التى تعلوها الغيوم. نهض مرتعشا بالدراجة التى مازالت بين ساقيه، نفض بيده البنطلون المتسخ بالطين والأعشاب تاركا مصباح الدوكاتى الذى مازال نظيفا وتائها بين أطلال البادية. وبيدٍ منهكة أخمد النبضات الأخيرة لرفيقته المخلصة التى كانت تحتضر بالعطاس تحت جسده. أما هو فلم يصبه الغضب أو الانزعاج عندما كان يجيب على أسئلة الضابط الذى طالبه برُخص ومستندات الدراجة وكان مستعدا ليسجل له غرامة. وعلى جانبه الأيسر كانت السيارات تُسرع بإيقاعات عذبة بأضواء وأصوات مازالت تنسجم مع دهشة الحُلم الأخيرة.

أخرج الضابط قلمًا تتفق نبضات سنه مع نبضات إبهام الضابط مرة أخرى ولكن فى غير جدوى. وكأنه قرأ فى هذا الوجه التفسير الخائب والحزين للغز ما، كان مانولو

يدقق النظر فى خديه النظيفين ولحيته المهذبة بإتقان، وشاربه الأسود المرتسم بدقة وجفنيه المترعين بالضجر. وبعد أن وضع الضابط الآخر الدراجة على حاجز الطريق كان يقترب من حافة الطريق مشيرا فى غضب إلى السيارات حتى تزيد من سرعتها، كما لو أنه يعطى ضربات بقبضة يده فى الهواء كى يستعيد سلطة مُنتقص من شأنها بشكل مؤقت من جانب سائق الدراجة الصعلوك فى ذلك الوقت. وظل هذا صامتا "فاقد النطق" وهو يعلم أن كل شيء قد انتهى. حيث كان عليه فقط أن يُوضح فى هدوء إلى أين يتوجه بهذه السرعة: "لأرى خطيبتي" مُثيرا بهذه الإجابة ضحكة الضابط الساخرة. بينما كان ينتظر انتهاء تلك الإجراءات الساذجة، ويعتقلوه داعب بيده مصباح الدوكاتى الكرومى اللون (وداعا يا صديقتي) وأحيا ليلة مع تيريسا مرة أخرى، ليلة حارة وهادئة، مليئة بالوعود ويُسمع فيها أيضا الضحكة الماجنة، سابقا ذلك المشهد من فقدان الوعى وعدم الحماية: قبل وفاة ماروخا بكثير، فى يوم كانت دراجة تيريسا الفلورايد فى منتصف الليل وهما جالسان على مصطبة فى ميدان جران فيا بانتظار أى تاكسي. وكان يحيط كتفيها بذراعيه ومن حين لآخر ينزلق بشفتيه على وجهه، متجهًا لأسفل ثم ينهل من شفتيها الورديتين المتشققتين. فوق رأسهما كانت النجوم تتلألأ فى وداعة وهدوء فى سماء أردوازية. كان الشارع خاليا وهادئا، ويُسمع فقط صوت قطع الحرير الممزقة تحت عجلات سيارة مارة فى الطريق، ولكن بين قبلة وقبلة كان يعى بخيال الشاهد الذى ليس له وجود، فالابتسامة الكرملية الساخرة التى لم يُصدقها أبدا فى احتمالات نجاحاته، حضور رقيق ومُكب من عدم وجود أحد ووجود كل الناس، الجيران النائمون خلف النوافذ، هؤلاء الفضوليون الذين يطلون من السيارات عندما يمرون، هؤلاء الموجودون قريبا وبعيدا، أصدقاء اليوم والغد، نفس الأشجار والمصابيح ومصاطب الطريق.

وسرعان ما تجسد ذلك الارتياب المُهين والشعور بقلة الاعتبار وعدم الأهمية فى شخص يرتدى زيًا رمادى اللون يحمل بندقية على كتفه: "بطاقتك الشخصية!" طلب وهو ينظر لمانولو. كان يبدو فتى سويسريا لطيفا، تنتشر بقع النمش الحمراء فى وجهه وعيناه صافيتان. "بطاقة هويتك، أسرع". وفيما يبدو (وشرحت له تيريسا ذلك فيما بعد فى التاكسى بنبرة مؤامرة فى صوتها) لأنه ليلة أمس قذف أحد مفرقعة على مبنى تحرير

إحدى الصحف: بالقرب من هنا ولذلك كان كل هذا القطاع تحت مراقبة شديدة. قدمت تيريسا بطاقتها (واعتذر هو عن نسيانها فى المنزل)، فحصه الضابط جيدا بسبب خفوت الضوء، عندما ظهر فجأة رفيقه وكان يرتدى نفس الزى وبندقية معلقة فى كتفه: ثم توقف أمامهما ونظر إليهما فى تمعن لبضع دقائق، ورأسه منحن وجاد فى تفكير عميق (كما لو كان يريد أن يتحقق منهما، وخاصة مانولو، دون الحاجة إلى مستندات رسمية) إلى أن نطقت شفتاه المُكتنزتان بشيء مثل: وكانت تتحرك عيناه فى دقة وتمعن وغير ثقة فى ملابس الصعلوك وبنطلونه الثلجى الأبيض اللون، صندل وبلوزة من الحرير - بريق هادئ ومتحرر من الارتياب لم يفهم مانولو معنى الكلمة التى كانت تبدو كثيرا وكأنها للتعزيم. وعندئذ التفت الشرطى للأمام وضحك بسخرية ثم صاح قائلا: "أنت من أقارب الفتاة؟" ("قطن مثل شارلوك هولمز"، قالت تيريسا فيما بعد وهى تضحك) بلكنة أندلسية ونباهة ملحوظة. أنزل مانولو عينيه للحظة وهو فى حالة من البلبلة والانهزام، وهناك فى تلك الليلة كهذه هنا، رد هو فى حماسة شديدة: "إنها خطيبتي" أمام شخص يضحك فى مجون وينظر له فى سخرية، وتقريبا فى ألم ونفس ما يحدث الآن، فقد تشكك حينئذ أن الشيء الأكثر إهانة وحزنا وألما لم يكن هو أن يذهب فى يوم ما كى يُوقف حكما بالسجن أو أنّ عليه أن يتخلى عن تيريسا، بل تلك القناعة الفظة بأن أحدا ولا حتى الذين رأوه وهو يُقبل تيريسا بحنان شديد يمكن أن يعتبره شخصا جادا والإيمان بقدرته فى أن يفوز بحبها. ربما لذلك السبب قد سلّم نفسه دون مقاومة ضاما يديه فى الحال وكأنه كفيف لا يُبصر وحتى إنه لم يندهش عندما عرف فى قسم أورتا للبوليس بعد ساعة من وصوله أنه كان هناك أمر بالقبض عليه. فكانت أورتنسيا، تلك الزهرة التى تفتقر إلى الشذا، قد أبلغت عنه.

قلب العطاء الذى يكره كل ما هو أسود

وضوء يمر جامعا كل أثر.

بودلير

والأكواب وتغريد عند مرور حافلة القطار التى تُقل مجموعات من الناس فى عرباتها متجهة إلى الشاطئ. وتتدفق صفوف من السيارات ببطء على جانبى المدينة باتجاه الشاطئ أيضا. وتزدحم أرصفة محطات الانتظار ومواقف الأوتوبيس بالناس الذين يتدافعون ويزاحمون ويصيحون. يُشكل الرجال والنساء صفوفًا طويلة ومرتعشة فى شارع "الطرف الأغر". يدخل الشباب والفتيات فى مجموعات فى تدافع وسرور وتلاحم إلى عربات المترو بينما تبث الشمس من أعلى أشعتها الحارقة على أسفلت غير مألوف ومهجور ومُهدم: فى توسعة برشلونة توجد شوارع خالية وغارقة فى سنة نسائم الصيف. الاحتراق خفيف يُغمض عين السائر بمفرده ويُسبب لها العمى ويحيط به فى صدى خطواته. من بعيد عبر الميادين والأزقة يصل إليه الأنين الهادئ لصافرة مركب وكأنها دفقة نسيم باردة تفسح طريقا وسط أشعة الشمس الحارقة.

ويرى ببصيرته الأعلام واللافتات وهى ترفرف مع الريح وتتلوى كأنها ألسنة ظمآنة فى أعلى الصوارى تلعق بشرة سماء أخرى زرقاء مصقولة ومضيئة وجوانب السحب المحلقة؛ بينما يدوى هنا صخب أجهزة الراديو فى الشرفات المفتوحة وصرير الحافلات الكهربائية التى تظهر من الفراغ وعربات التاكسى الشاردة.

فجأة، عندما انعطف فى الناصية وجد نفسه فى ميدان الرملة. وأول ما لفت انتباهه عدد السائحين الهائل: أخذ يبحث عن ظلال الأشجار أثناء سيره ويسيطر عليه حنين

الاقتراب من المقاهي. صمت عند العبور وكأنه أصم، ثم خرج عن صممه بغتة وجعل يسمع صوت الملاعق والأكواب وتغريد الطيور فوق الأشجار وأوراقها التى تحركها دفقات النسيم. وعندما توغل فى الشوارع الجانبية أخذ يسير ولأول مرة بخطى واسعة ومتعجلة كأنما هناك من ينتظره فى مكان ما؛ كأن يوم الأحد ما زال يخبئ له أمرا ما...

فى مثل هذا اليوم – ذلك ما استطاع لويس ترياس دى چيرالت أن يحفظه فى الذاكرة عندما كان يعيش منفيا فى حى سان جيرمان الفرنسى دون أية قدرة على التآمر، عندما كان هذا المخزون العقلى العظيم الذى سبب له شهرته قد تحول إلى حقيبة صغيرة كئيبة مليئة بالذكريات المريرة والأفكار الراسخة –، أكد أنه اليوم الأكثر حزنا وحرارة فى فصل الصيف؛ وفى ذلك الوقت، شعر بأن شبح ليلة يوم السبت الحزين والسفيه ما زال يدور حول رأسه. كان يتراءى له وهو يطفو وسط الضوء الفظ والشائن المنبعث من الزى الأحمر الذى كان يرتديه صديقه فيليبو عندما شعر من ورائه بخطوات شاردة تشبه خطوات القط؛ الصوت الهادئ للنعل المطاطي، ثم لاحظ عينين تحدقان النظر فى قفاه. لم يكن قد رآه عندما دخل ولكنه طالما استشعر وخزة فى ظهره يمكن أن يكون سببها الوحيد نزعته لفهم وتفسير لغة العيون الصامتة فقد خمن فى الحال أنه هو.

على الرغم من ذلك، عند عودته، رأى هيئة عاصفة لشخص ما على مسافة قليلة منه ولكن لم يستطع أن يتعرف عليها حينئذ: حيث كان يبدو غارقا فى تأمل صورة إنكارنا الملفوفة فى قطع من القماش المبللة؛ وظل المُرسى واقفا هناك يحمل سترة بالية من القطيفة معلقة على كتفيه ويضع يديه فى جيبيه. وكان فيليبو ينظر إليه أيضا. سمعا صوت الوصيفة تسأله عما يريد أن يتناول وأجاب "نبيذًا". لم يكن فى الحانة غير ثلاثتهم والفتاة. كان لويس ترياس يراقبه بحرص شديد وإمعان شبه محزن ومؤلم فى التفاصيل: ماذا فعلوا بشعره؟ فبريق أشعة الشمس المكون من جزيئات ضوئية والمنبعث من الباب المطل على الشارع كان مختلطا بقطعة ليلية غريبة ومظلمة تنبع من داخله هو فقط وكان يحملها معه بعد أن اقتلعها من مكان ما: ربما من أرصفة الطرق أو من خان بذيء أو من مكانٍ ما كانَ يقطنه سابقا.

كان يرتدى قميصا أبيض بلا ياقة وضيّقا كثيرا، تنتهى أطراف كُمّيْه فوق معصمه فى حزن وكآبة حذائه الرياضى بلا أربطة وبنطلونه الجينز عند فخذيه وكانت به بقعتان بيضاوان رقيقتان من كثرة الغسيل تنفحه لدى سيره رشاقة وإثارة. ولكن الشيء المثير للانتباه هو قصة شعره الوحشية والمعيبة التى كانت تضيء رأسه: قفا ولحية عارضين مهذبين فى حزن ويثيران نسقا من الظلمة التأديبية. كانت تعبيرات وجهه تشير وهو يتأمل صورة إنكارنا إلى هدوء مزدرٍ وناءٍ: شيء من نفاد الصبر البالى البائد كان يدور حول رأسه وكتفيه المتعبتين والخانعتين الآن.

وناداه لويس قائلا "ألم تعد تتذكر الأصدقاء؟" وهو يمد يده إليه للمصافحة منحيا من ذاكرته تلك الصفعة. واقترب من مانولو بابتسامة رقيقة. ولم يشعر لويس أن ذلك قد سبب له مفاجأة: فمن الواضح أن الفتى قد رآه بالفعل وتعرف عليه عند دخوله ولكن لم يرد أن يبدأ هو بالسلام؛ ربما لأن مجيئه بعد وقت طويل يمكن أن يكون لسبب ما وبالطبع سبب ساذج: ألا وهو السؤال عن تيريسا. قال لويس:

– عجبا لمانولو. كل هذه الفترة. لقد مر عامان. أليس كذلك؟

– عامان. نعم.

– وماذا يا رجل؛ احك لي. كيف صارت الأمور معك...؟

ثم ابتسم وغير نبرة صوته قائلا:

– حسنا؛ إنه مجرد قول؛ أعتقد أنها لم تكن على ما يرام.

– كلا. لقد كنت مسافرا.

ومن أعلى المقعد الذى كان يجلس عليه متأرجحا قليلا ضج لويس بالضحك. ووخز صديقه فيليبو بكوعه خفية بعد أن قرر أن كذبة المُرسى الجديدة والساذجة تستحق أن تكون هى كأس النبيذ الأولى لهذا اليوم. وعندئذ طلب كأسا ملأى بقطع الثلج وأخرى لصديقه فيليبو.

– هل تريد كأسا يا مانولو؟

– لا. شكرا.

عندئذ ربت لويس على ظهره ثم ضحك مرة أخرى وقال:

– لست بحاجة لتخفى عنى. أعلم انك كنت بالسجن.

ثم توقف عن الكلام ليرى وقع كلماته ولكن لم يبدُ أن مانولو قد تأثر: كان ينظر إليه بدقة وثبات شديد : وكان هذا هو كل شيء. وأضاف لويس يسأله:

– متى خرجت؟

أجاب فى فتور:

– منذ بضعة أيام.

وأحنى رأسه قليلا كى يرتدى الجاكيت المعلق على كتفيه والذى كان ينزلق. وأكد لويس:

– لم يكن أمرا مخزيا على الإطلاق يا رجل. (بينما كان فى نبرة صوته ونظرته شيء من سلطته ومكانته القديمة) ثم أردف فى فكاهة:

– يقولون إن تأسيس بنك يتساوى أخلاقيا مع السطو عليه...

– أنا لم أسطُ على أى بنك؛ دعنى من كلماتك هذه.

– ... وإن كان ذلك يقدم لك شيئا من العزاء والسلوى فسأخبرك أننى أيضا قضيت فترة فى السجن؛ منذ أربع سنوات على الرغم من أنه لم يكن لنفس أسبابك ولكن إذا أردت أن أقول لك الحقيقة فأنا لا أرى أى اختلاف. ففى النهاية كل منا أراد نفس الشيء: أن نواقع تيريسا سرات.

وضحك بمزيج من السعال والاختناق وتمايل برأسه فى مشقة. فكانت هى المرة الأولى التى يقول فيها اسمها أمامه. ولكن كان ينتظر فى غير جدوى أن يسأله الفتى عن

شيء؛ أن يصرح له بسبب مجيئه إلى هنا: ولكن، التزم مانولو الصمت وامتلأت عيناه بالحياة فأدى ذلك إلى التنبيه والتحفيز كحيوان فى مكمنه. فأراد لويس أن يعرف ماذا كان يفعل فى ذلك الوقت وماذا كان يعمل وأين كان يعيش. وهَمْهَم المُرسى دون أن يكف عن النظر إليه:

– قلت لك إننى خرجت منذ وقت قليل.

وبالرغم من إصرار لويس فإنه لم يحصل إلاّ على إجابات مبهمة وتلميح غير واضح عن طبيعة وظيفته المحتملة المؤقتة والغامضة. وسريعا ما سأله المُرسي:

– كيف علمت بذلك؟

أجابه لويس سريعا:

– من تيريسا!

ثم أضاف فى ابتهاج غير واضح فى صوته:

– هل تريد أن تعرف ماذا فعلت تيريسا عندما علمت بذلك؟ حسنا – ووضع يده على كتفه ثم قال –: لقد ضجت بالضحك يا مانولو. نعم مثلما أقول لك. وأعتقد أنها ما زالت تضحك حتى الآن. سكت منتظرا أن يسأله عن أشياء أخرى. ولكنه لم يتفوه بأى شيء؛ ولكنه كان يبدو عليه من نظراته أنه مازال مستعدا لمعرفة ماذا حدث بعد ذلك.

هكذا عرف مانولو ما كان يريد أن يعرفه وهو ما منعه عن هذا السؤال: كيف أن تيريسا ذهبت بنفسها إلى جبل الكرمل فى بدايات شهر أكتوبر بعدما حيرها صمته، وعندها علمت بسجنه؛ فبقيت لفترة من دون أية رغبة فى رؤية أحد سوى ابن عمها المدريدى الذى كانت تخرج معه كثيرا؛ وكيف أنها أخبرت لويس بعد عدة شهور بكل شيء عندما كانا معا فى كافيتريا الكلية وكانت تضحك دون وعى أو انتباه لما كانت تقوله كما لو كانت تحكى نكتة قديمة؛ وكيف عُرِفَ فى نفس ذلك الشتاء ومن خلال بعض وسائل الإعلام الجامعية بأنها قد تخلت عن عذريتها فى النهاية وفى العام التالى أنهت دراستها الجامعية بنجاح؛ وفى الحال

عقدت صداقة مع مارى كارمن بورى تعرفت من خلالها على بعض المفكرين الذين لم يعد لويس ترياس يطيقهم؛ وكيف بالطبع – لو أن مانولو مازال يعرف بورى وزوجته – كان سيشغله أن يعرف أنهما قد انفصلا وأن مارى كارمن تعيش الآن مع رسام، وأيضا كيف أن لويس نفسه فى النهاية – بعد أن ترك دراسته الجامعية وبدأ يعمل مع والده– كان يعيش فى النهاية فى هدوء وانسجام ربما ليس مع مجتمعه ولكن مع نفسه على الأقل حيث كان يعيش مع مشروباته الكحولية التى كان يتناولها بقلة وصدقاته المختارة دون الاشتياق لشيء أو ضغينة لأحد متخليا بذلك عن نشاطاته السياسية وبالتالى فلم يذكره أحد ولكن كان يتمنى فى إخلاص شديد ذكاءً أكثر وحظا أسعد للدفعات الجديدة بالجامعة...

وأنهى كلامه قائلا:

– على أية حال كان ذلك شيئا مسليا...

وفى لحظة خاطفة، ومتفقا مع روح صيف ما مرتبط فى لحظة وجيزة جدا بدوار الحرير والقمر، لم يبد وجه المُرسى أى تأثر بتلك الأخبار ولا حتى التى تتعلق بتيريسا، وفكر لويس ترياس أنه فى بساطة شديدة قد جاء ليبحث عن تأكيد لما عرفه وأن ذلك التأكد لم يؤثر عليه بأى شكل من الأشكال لأنه دائما وأبدًا منذ اللحظة الأولى ومنذ الليلة الأولى التى قضاها مع تيريسا هناك متحديا الجميع بقوة الأكاذيب والهراءات السخيفة، كان قد حملها مرتسمة فى عينيه الساخرتين بطريقة وحشية ومرسخة.

تأهب مانولو ليدفع ثمن كأس النبيذ الذى تناوله. قال لويس:

– دعك من ذلك، أنا أدعوك. هل ستذهب؟ فلتتناول كأسا أخرى ونكمل حديثنا...

– شكرا. فأنا فى عجلة من أمري.

وعاد لويس ليضع يده على كتفه مرة أخرى.

– ماذا ستفعل الآن؟

– سأرى؛ وداعا.

ثم دار نصف دورة، واضعا يديه فى جيبيه وخرج.

انتهى

المؤلف فى سطور:

خوان مارسيه أحد كبار رواد الرواية الإسبانية من عقد الستينيات من القرن الماضى حتى اليوم.

ولد خوان فانكا روكا فى برشلونة عام ١٩٣٣، وتوفيت والدته عند ولادته، واضطر والده الذى كان يعمل سائق سيارة أجرة إلى التنازل عنه بعد أسابيع من مولده ليتبناه زوجان لا ينجبان فيحمل لقب أسرته الجديدة ويصير اسمه خوان مارسيه.

لم تتح له الحياة فى أحياء برشلونة الفقيرة إلا مطالعة روايات المغامرات ومشاهدة عروض السينما فى دور العرض الصيفية بالحى والتى تحولت إلى مكون رئيس فى تشكيله الأدبي.

فى سن الثالثة عشرة وحتى السادسة والعشرين عمل صبيا ثم صانع حلى فى متجر للمشغولات الذهبية. وهى الفترة التى شهدت أيضا مرحلة تعلمه الذاتي.

بدءا من عام ١٩٦٥ توالت أعماله الروائية الشهيرة التى دشنها بـ"الأمسيات الأخيرة مع تيريسا" (١٩٦٥). ومنها: "حكاية ابنة العم مونتسى المريبة" (١٩٧٠)؛ "الفتاة ذات السروال الذهبي" (١٩٧٣)؛ "لو أخبروك أنى سقطت" (١٩٧٣)؛ "اعترافات لص" (١٩٧٩)؛ "يوما ما سأعود" (١٩٨٢)؛ "الملازم الشجاع" (١٩٨٥)؛ "جولة فى غيناردو" (١٩٨٥)؛ "العشيق الثنائى اللغة" (١٩٩٠).

مع أوائل تسعينيات القرن الماضي، بدأت مرحلة التكريس فى حياة الكاتب، وقد حصل على جائزة اتينيوم أشبلية عن رواية "العشيق الثنائى اللغة" (١٩٩١)، وجائزة

النقد (١٩٩٤) عن رواية "سحر شنغهاي". ومع مقدم القرن الجديد حصل على جائزة الدولة فى الرواية فى اعتراف رسمى متأخر بموهبته وبمسيرته الأدبية الطويلة الحافلة بالأعمال الروائية المتميزة. وفى عام ٨٠٠٢ حاز أرفع جائزة فى الآداب الإسبانية، جائزة ميجل دى ثربانتس.

ومازال مارسيه متجدد العطاء فقد نشر فى السنوات الأخيرة عددا من المجلدات من بينها أعماله القصصية الكاملة (٢٠٠٢)، وأخيرا روايته "كتابة الأحلام" (٢٠١١) وهى أهم رواياته التى تحمل صبغة ذاتية.

المترجمات فى سطور

سالى عبد الله حسن وهدان

ولدت فى محافظة القاهرة – جمهورية مصر العربية – عام ١٩٨٣

التحقت بكلية الألسن بجامعة عين شمس عام ٢٠٠٠ وتخرجت فيها عام ٢٠٠٤ فى موضوع "الفانتازيا فى قصص الأطفال" الكاتبة الإسبانية آنا ماريا مانوتى الحاصلة من بين العديد من جوائزها على أعلى جائزة للآداب الإسبانية وهى جائزة ميجيل دى ثربانتس للأدب لعام ٢٠١٠ ، وكذلك على جائزتى الدولة فى مجال أدب الطفل: جائزة الدولة لأدب عن قصة "مركب عوليس" عام ١٩٦٥ وعلى جائزة الدولة لأدب الطفل والشباب عن رواية "قدم حافية" عام ١٩٨٤ واللتان تعدان من بين القصص التى تناولتها رسالة الماجستير بالدراسة والتحليل والنقد.

عملت معيدة بقسم اللغة الإسبانية بالكلية للسنوات ٢٠٠٦ و ٢٠٠٩ وكمدرس مساعد منذ عام ٢٠١٠ حتى الآن.

شاركت فى تدريس مادة الترجمة لعامين أكاديميين ٢٠١١ و ٢٠١٢ بقسم اللغة الإسبانية.

وتقوم حاليًا بتحضير رسالة الدكتوراه فى إسبانيا.

بسمة محمود محمد يوسف :

مواليد القاهرة ١٩٨٨

حاصلة على ليسانس ألسن، جامعة عين شمس، قسم اللغة الإسبانية.

عملت كمترجمة فورية وفى مجال السياحة.

آمال عبد الحميد :

مترجمة مصرية، حاصلة على ليسانس ألسن، جامعة عين شمس، قسم اللغة الإسبانية.

المراجع فى سطور :

– د. محمد أبو العطا، أستاذ الأدب الإسبانى والترجمة بجامعة عين شمس، مصر.

– له نيف وعشرون مجلدًا مترجمًا إلى العربية والإسبانية.

– وراجع وقدم لعدد مماثل من الترجمات إلى العربية والإسبانية.

– من بين من ترجم لهم: فيديريكو غرسية لوركا وخورخى لويس بورخس وأدولفو بيوى كسارس وخوليو كورتاثر وكاميلو خوسيه ثيلا وغابرييل غرسية ماركث ورامون خوتا سندير وإدوارد مندوثا وخسوس باردو وليوبولدو لوجونس وفرانثيسكو برينيس وخوسيه ماريا ألبارث ودييجو باليردى وداريو بييانوييا وخوسيه بينيا ليستى وأنا ماريا غاروته...

– كما ترجم عددًا من الدراسات الأدبية إلى العربية أهمها مجلد " مسار الرواية الإسبانوأمريكية " و " الرواية الإسبانية المعاصرة ".

– له أربعة مجلدات فى ترجمة الشعر من الإسبانية وإليها

– ترجم لخورخى لويس بورخس مجلدات:

١) حديقة الطرق المتشعبة، ١٩٩١.

٢) الألف، ١٩٩٨.

٣) قصص، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨.

٤) مديح الظل، المركز القومى للترجمة، ٢٠١١.

التصحيح اللغوى : **رفيق الزهار**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**

أولى روائع خوان مارسيه، أحد كبار رواد المدرسة القطلونية العظيمة فى الرواية التى تجمع اتجاهات شتى: من مانويل باثكث مونتالبان وإدواردو مندوثا إلى تيرينثى موش.

وأما خوان مارسيه فمتفرد فى فنه الروائى الأميل إلى مجاوزة الطروح التقليدية للواقعية السابقة عليه بتصويرها كاريكاتوريًا ووجوديًا، وباللجوء إلى العديد من المونولوجات الداخلية والجمل الاعتراضية التى تقيم سياقًا موازيًا لخط السرد الأساسى.

تقدم هذه الرواية الفريدة تشريحًا دقيقًا للمجتمع الإسبانى فى فترة ما بعد الحربين الأهلية الإسبانية والعالمية الثانية، وبخاصة فى مدينة برشلونة وضواحيها. وتقوم الأحداث على مرتكزين أساسيين هما الطبقة البرجوازية القطلونية وطبقة الفقراء فى الأحياء المعدمة فى جبل الكرمل وجيناردو، بدءًا من عام 1956.